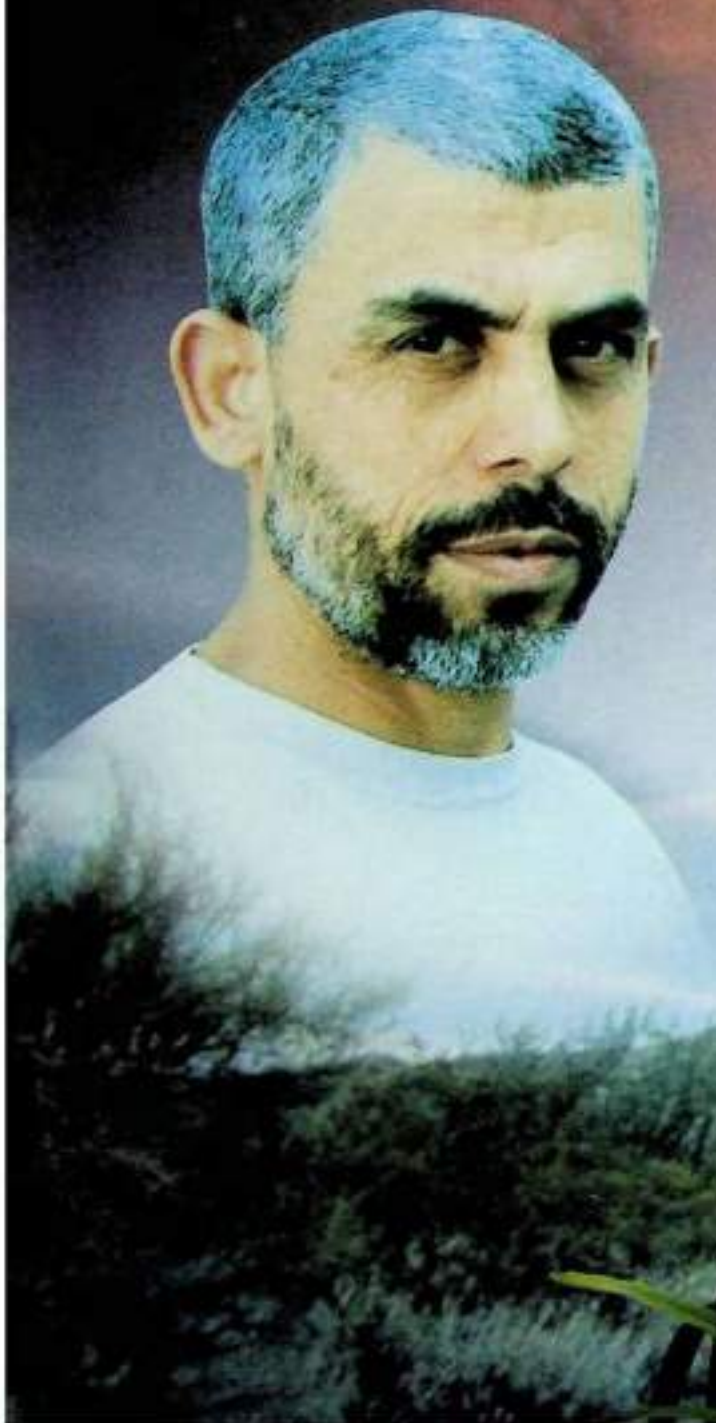


الشوك والقرنفل

تأليف الأسير

يحيى السنوار

(أبو إبراهيم)



بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب والكاتب

الكتاب : شوك القرنفل

الكاتب : يحيى إبراهيم السنوار

فلسطيني من عائلة هجرت من مدينة عسقلان عام ألف وثمانية و أربعين إلى قطاع غزة .

- ولد عام ١٩٦٢ في مخيم خان يونس .
- حاز على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الإسلامية في غزة ، وكان من أوائل من رفعوا لواء المقاومة الإسلامية في فلسطين .
- سجن مطلع عام ١٩٨٨ ، وحكم عليه بالسجن المؤبد ، ولا يزال من ذلك للتاريخ أسيراً في سجون الاحتلال .
- كتب هذه الرواية (أشوك القرنفل) صاهراً منها ذكرياته ، وقصة شعبه ، من الآلام والأمال وجعلها قصة كل فلسطيني ، وقصة كل الفلسطينيين ، في عمل درامي أحداثه حقيقية وشخصياته في غالبيتها خيالية ، ويمتصها حقيقي .
- تعرض فيها لمعظم المحطات الأساسية في تاريخ الشعب الفلسطيني منذ نكسة عام ١٩٦٧ وحتى بدايات تفجر انتفاضة الأقصى المباركة .
- هذه الرواية كتبت في ظلمة الأسر في سجون الاحتلال في فلسطين ، دأب العشرات لنسخها ومحاولة إخفائها عن عيون الجلادين ولأيديهم الملوثة ، وبذلوا جهداً جباراً في ذلك ، عمل كممل النمل لإخراجها على النور ، لتكون في متناول للقراء ولعلها تصور على الشاشات أمام المشاهد في صورة حقيقية للواقع في أرض الإسراء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكاتب

هذه ليست قصتي الشخصية وليست قصة شخص بعينه رغم أن كل أحداثها حقيقة ، كل حدث منها أو كل مجموعة أحداث تخص هذا الفلسطيني لو ذلك ، الخيال في هذا العمل فقط في تحويله إلى رواية تدور حول أشخاص محددين ليحقق لها شكل العمل الروائي وشروطه ، وكل ما سوى ذلك حقيقي ، عشته وكثير منه سمعته من أقواء من عاشوه هم وأهلوهم وجيرانهم على مدار عشرات السنوات على أرض فلسطين الحبيبة .

أهديه إلى من تعلقت أفئدتهم بأرض الإسراء والمعراج من المحيط إلى الخليج ، بل من المحيط إلى المحيط .

يحيى إبراهيم المنور

سجون بلر المسوق ٢٠٠٤

الفصل الأول

شتاء عام ١٩٦٧ كان ثقيلًا يرفض لرحيل ويزاحم الربيع الذي يحاول الإطلال بشمسه المشرقة الدافئة، فبدلعه الشتاء بغيوم تكبد بالسماء، وإذا بالمطر بنهر غزيراً من السماء فيغرق تلك البيوت البسيطة في مخيم الشاطئ للاجئين بمدينة غزة وتجري السيول في أزقة المخيم فتفتح البيوت وتراحم ساكنيها في شوارعهم للصغيرة ذات الأرضيات المنخفضة عن مستوى الشارع القريب.

مراراً وتكراراً تنفتحت مياه سيول الشتاء إلى ساحة دارنا الصغيرة ثم تنفتحت إلى داخل هذه الدار التي تمكنا عائلتنا منذ بدأ الحال يستقر بها بعد أن هاجرت من بلدة الفلوجة في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وفي كل مرة يدب الفزع بي وبإخواني الثلاثة وأختي وخمستهم كانوا يكبرونني سناً فيهب لي ولأمي إلينا ليرفعونا عن الأرض، ولترفع لأمي الفراش قبل أن يغلبه المياه التي لتحتمت علينا بهتان البسوط، ولأنني كنت الأصغر كنت ألتحق في رقة أمي إلى جوار أختي للرشيعة التي كانت في العادة على ذراعيها في مثل هذه الحالات.

مرات عديدة استيقظت ليلاً على أيدي أمي تزيحني جانباً وتضع على فراشها إلى جداري تملأ (طنجرة) الألمنيوم أو صحن الفخار الكبير لتسقط فيه قطرات الماء التي تنسرب من التسقق في سقف القرميد الذي يغطي تلك الغرفة الصغيرة، طنجرة هنا وصحن من الفخار هناك وإناء ثالث في مكان آخر. أحاول في كل مرة لنوم فاطح أحياناً ثم أستيقظ على صوت قطرات الماء وهي ترتطم بما تجمع من مياه في ذلك الإناء بصورة منتظمة، وعندما يمتلئ الوعاء أو يشارف على الامتلاء يصبح رذاذ الماء يتراشق عليه مع كل قطرة، فتهب أمي لتضع وعاءً جديداً مكان الذي امتلأ وتخرج لتسكبه خارج الغرفة.

كنت في الخامسة من عمري وفي صبيحة يوم من أيام لشتاء تحاول شمس الربيع أن تحمل مكانها الطبيعي لتزيل آثار مجوم لشتاء الليلي الكالح على المخيم، فيأخذ أخي محمد ابن الصابعة بيدي ونسير في طرقات المخيم إلى أطرافه حيث يرباط مسكر للجيش المصري.

كان الجنود المصريون في ذلك المعسكر يحجوننا كثيراً، أحدهم تعرف علينا وعرفنا بالأسماء، فإذا ما أطلقنا ننادي علينا... محمد أحمد... تعالاً هنا... فذهب إليه ونقف إلى جواره نذلل ونحني رؤوسنا في تنتظر ما سيحدثنا كالعادة فيمد يده إلى جيب بنطاله العسكري ويخرج لكل واحد منا قطعة من حلوى الفستقية ينقش كل واحد منا قطعة ويبدأ بقضمها بنهم شديد، يُرَبِّت ذلك الجندي على أكتافنا ويمسح على رؤوسنا وبأمرنا بالرجوع إلى البيت فنبدأ بجرجرة أرجلنا عاتكين في طرقات المخبم.

رحل الشتاء بعد طول مكث وشدة وبدأ الجو يصبح دافئاً ورائعاً ولم يعد المطر يداوسنا بوبلائه ظننت أن وقتاً طويلاً قد مرّ على انتظار الشتاء وأنه لن يعود قريباً ولكني أرى حالة من القلق والإرباك من حولي، فالأهل كلهم في وضع أسوأ بكثير من أوضاع تلك الليلة الماطرة، لم أكن قادراً على إدراك ما يجري حولي ولكن الأمر لم يكن طبيعياً ولا حتى في ليالي الشتاء والذئب نملأ كل ما لديها من أوعية بالماء، وتضع تلك الأوعية في ساحة الدار، ولبي استعار (الطورية) الفأس من الجيران وبدأ بإعداد حفرة كبيرة طويلة في الساحة التي كانت أمام البيت وأخي محمود يساعد بعض الشيء فقد كان عمره حينها (٢ سنة).

بعد أن جهزنا الحفرة بدأ أبي بوضع قطع من الخشب عليها ثم بدأ بتغطيتها بألواح الصاج (الزينكو) التي كانت تغطي جزءاً من ساحة الدار كمرش، أدركت أن والدي في مأزق حيث بدأ يلتفت باحثاً عن شيء ثم رأته قد بدأ بخلع باب المطبخ ودفنه فوق تلك الحفرة، ولكني رأيت أمي وأخي محمود ينزلان إلى تلك الحفرة من فتحة لا زالت لم تخلق، حينها أدركت أن العمل قد انتهى. تجرأت على الاقتراب من تلك الفتحة لأطل في تلك الحفرة فوجدت ما يشبه الغرفة المظلمة تحت الأرض، ولم أنهم شيئاً ولكن كان واضعاً أننا نتنظر شيئاً صعباً وغير عادي، ويبدو أنه ألقى بكثير من تلك الليالي الممطرة العاصفة.

لم يعد أحد يأخذ بيدي من جديد ليأخذني إلى معسكر الجيش المصري القريب لناخذ قسطاً من (الفستقية) بل رفض أخي مراراً فعل ذلك، وهو التخيير الكبير بالنسبة لي ولمحمد، ولم أكن قادراً على فهمه؛ كذلك حسن لم يكن يعرف سرنا هذا، ولعله كان يعرف ولكنه لم يكن شريكنا فيه، ولم أكن أعرف لماذا لم يشاركنا الأمر؟ ولكن ابن عمي إبراهيم الذي كان في سن قريبة من سني، والذي كان يسكن في البيت المجاور لنا كان على علم بالأمر.

لما رفض محمد الذهاب واصطحبني ذهبت إلى دار عمي لأكون برفقة إبراهيم، دفعت الباب ودخلت في الغرفة كان يجلس عمي الذي لم أستطع يوماً أن أتذكر ملامح وجهه، ويبدو بتدقيق وهو يقوم بإصلاحها وقالت في نفسي لعلي أصل شيئاً مشابهاً بهما، شددت البندقية انتباهي، حيث كان نظري يتركز عليها طيلة الوقت.

نادتني عمي وأجلسني إلى جواره، ووضع البندقية على يدي، وبدأ يتحدث معي عنها بحديث لم أكن قادراً على فهمه، ثم مسح على رأسي وأخرجني من الغرفة، واصطحبت إبراهيم وخرجنا من البيت متوجهين إلى أطراف المخيم، لنذهب إلى معسكر الجيش المصري القريب.

حين وصلنا كانت الأمور قد تغيرت تماماً، ذلك الجندي لم ينتظرنا كالعادة ولم يرحب بنا، الوضع لم يكن طبيعياً والجنود المصريون اعتادوا على استقبالنا بحفاوة وترحاب، صرخوا علينا أن نبتعد وأن نرجع إلى أمهاتنا فقلنا راجعين نجر أذيال الخيبة، إذ لم نحصل على نصيبنا من البندقية، ولم يكن قادراً على فهم ما حدث من تغيرات، في اليوم التالي أخذت أمي بعض الفراش من البيت وفرشته في تلك الحفرة، ونقلت لبريقين أو ثلاثة من الماء وبعض الطعام وأخذتنا جميعاً إلى تلك الحفرة وأجلسنا فيها، ثم انضمت إلينا زوجة عمي وأبنائها حسن وإبراهيم، كنت متضيقاً من ذلك المكان الضيق الذي حشرنا فيه دون سبب أعرفه، وقد تركنا الدار وغرفها ومباحثها وشوارع أو لزقة الحارة ووضعنا هنا رشحاً عنا، وكلما حاولت الخروج أو الانتفاخ نحو الفتحة سحبني أمي وأجلسني مكانها في الداخل، بين الحين والآخر كانت تعطيني أنا كسرة من الخبز وبضع زيتونات.

بدأت الشمس بالضباب وضوء النهار يتلاشى والظلام يزداد في الحفرة التي لوينا إليها وبدأ الخوف يتصرب إلى نفوسنا نحن المسفخر هذان نتصايح ونتدافع للخروج، وأمي وزوجة عمي تمنعاننا ثم نحاول الخروج فنصرخان يا أولاد للندبا حرب ألا تعرفون معنى للحرب، حينها لم أكن أعرف معنى الحرب ولكنني عرفت أنها شيء مخيف غير عادي، ومظلم وخائف.

تكرر تدافعنا وتكرر منعنا من الخروج هددت أصوات بكائنا تعلو تدريجياً، وهما تحاولان تهدئتنا دون جدوى، حينها قال محمود هل أحضر السراج يا أمي لنشعله (ياما أجييب الضو نولعه) فأجابني نعم يا محمود، لنضع محمود بخرج من الخندق فسبقت إليه يد أمي لتمسك به وتمنعه من الخروج وهي تقول لا تخرج يا محمود (تطلعش ياما).

لجلسته وخرجت هي لتعود وببهدا سراج الكيروسين، أشعلته فأضاء المكان، فصرى هدوء وطمأنينة غلبتني للنوم كما غلب إخوتي وأبناء عمي وظلت أمي وزوجة عمي تغالبان النوم ويغلبهما، في اليوم التالي لم يكن هناك شيء مميز فقد بقينا طيلة اليوم تقريبا في الخندق.

جارتنا المعلمة عائشة كانت لا تفارق جهاز الراديو وتحرم من على البقاء قريبا من فتحة الخندق كي يظل الراديو قادراً على التقاط أمواج الليث لتستمع إلى آخر الأخبار، وكلما استمعت إلى نشرة أخبار أخرى حدثت والدتي وزوجة عمي بالأخبار فيزداد الجو اكتئاباً وحزناً ويعم الوجوم الذي انعكس تلقائياً على استعدادية أمي وزوجة عمي لسماعات وثوبية رجليتنا حيث أصبح كف كل منها أثقل علينا وهما تطلبان منا الصمت، التصريحات الفارية التي كان يطلقها "أحمد سعيد" المعلق في صوت العرب من القاهرة عن إلقاء اليهود في البحر وعن التهديدات والتوعيدات لدولة الكيان بدأت تضعف وتتلاشى وبالمقابل فقد بدأت أحلام أهلنا بالعودة إلى ديارنا التي هجرنا منها تنهار كقصور الرمل التي اعتكنا كصغار على بنائها أثناء لعبنا في الحارة وغاية المعنى أن نرجع إلى المنطقة التي كنا فيها، أن يرجع عمي الذي كان مجنونا في الجيش، جيش تحرير فلسطين سالماً إلى عائلته، وأن يرجع أبي الذي خرج ضمن المقاومة الشعبية إلينا سالماً، ومع كل نشرة أخبار جديدة تبسّمع إليها (الست) عائشة تزداد للكآبة والتوتر والجزوء إلى الدعاء ورفع الأكف إلى السماء طلباً للسلامة وعودة والدتي وعمي وصوت الانفجارات يزداد ويقرب ويصبح أكثر شدة، كانت أمي تخرج بين الحين والآخر من الخندق وتغيب دقائق في داخل البيت ثم تعود وقد أحضرت لنا شيئاً نأكله أو ننظف به، لو تعود لتطمئن زوجة عمي على مصير جدي الذي أصر على البقاء في غرفته في البيت رافضاً النزول معنا إلى ذلك الخندق.

في البداية كان لمله في العودة إلى الدار والبيادر في الفلوجة قريباً وأنه لا أخطار تحقق بناءً فالخطر سيكون على اليهود الذين ستكونهم جيوش العرب، ولكن بعد أن اتضح له معادلة المعركة الجديدة بأنها تغير مصالحنا كعرب، فقد رفض النزول إذ لم يجد هناك طعاماً أو قبة للحياة، وقد تعامل إلى متى سنظل نخشى ونهرب من قدرنا (الوقتيش راج نشرد من قدرنا) فالموت والحياة أصبحتا شيئاً.

حل الظلام مرة أخرى وغرقنا في نوم، قطعه عدة مرات أصوات انفجارات مذهبة أكثر وأكثر، وفي صبيحة اليوم التالي ازدادت الانفجارات دويًا، وفي هذا اليوم لم يكن هناك شيء مميز، سوى حادثة واحدة فقد تدافع عدد كبير من الناس لتصليح جاسوس جاسوس.

وكان واضحاً أنهم يطاردون ذلك الجاسوس هو معه شيء مثل السيارة له عجلات
أو ما شابه، وأن الناس كانوا يطاردونها، وقد فهمت من حديث أُمي وزوجة عمي (والست
عائشة) أن لهذا الجاسوس علاقة ما باليهود.

ازدادت الانفجارات كثافة وقوة وتقربت كثيراً وبيات واضحاً أنها بدأت تطل
البيوت الغربية، ومع كل انفجار جديد تردّد دُعاءً وصراخاً وعويلاً رغم محاولات التهذئة
وبين الحين والآخر تقترب عائشة من فتحة الخندق تستمع الأخبار وتخبر أُمي وزوجة
عمي بالأخبار الجديدة، وبعد عدة أيام من تلك الحالة لم تعد أُمي قادرة على الخروج إلى
الدار كما فعلت في اليومين الأولين.

استمعت عائشة لنشرة الأخبار وأثناء سماعها للأخبار بدأت بالبكاء والعويل ولم تعد
قدماها قادرتين على حملها فانهارت وهي تنغمس لليهود احتلوا البلاد، عمت لحظات من
الصمت... قطعته صوت أختي الصغيرة مريم وهي تصرخ بألم لما يدور، ثم تنفجر
بالبكاء لبكاء أمهاتنا.

توقف صوت القصف والانفجارات ولم نعد نسمع سوى أصوات خفيفة لإطلاق
النار بين الحين والآخر، ومع اقتراب ساعات المساء لم نعد نسمع شيئاً من ذلك ومساء
الصمت. عند المساء بدأت أصوات الجيران ترتفع حيث بدأوا بالخروج من الخنادق التي
كانوا يختفون فيها أو من بيوتهم التي لزموها طيلة الوقت، خرجت عائشة لتتفحص الأمر
ثم عادت بعد قليل فائلة: انتهت الحرب... اخرجوا... خرجت أُمي وزوجة عمي أولاً ثم
نادنا علينا للخروج.

لأول مرة منذ أيام نستنشق الهواء الطبيعي ولكنه هواء معيق برائحة البارود وغبار
البيوت التي تهدمت من حولنا، تمكنت من النظر حولي قبل أن تجرني أُمي إلى البيت
لأرى آثار الخراب من حولنا في جميع الاتجاهات وقد طال القصف الكثير من بيوت
الجيران، بيتنا كان بخير لم يصبه أي أذى، دخلنا البيت فتلقنا جدي بين ذراعيه، يقبلنا
واحداً تلو الآخر وهو يتنمّ حمداً لله على سلامتنا، ويدعو بالسلامة لأبائنا ويعودتهما
قريباً.

نامت زوجة عمي وولداها معنا تلك الليلة. لم يعد أبي و عمي تلك الليلة ويبدو أنه
سيمر وقت طويل قبل أن يعودا، ومع الصباح بدأت الحركة تدب في أزقة المخيم، وكل
واحد من الجيران يبحث عن أبنائه ولقاربه وجيرانه، ليطمئن عليهم ويحمد الله على
سلامتهم، ولمعرفة مصير أصحاب تلك البيوت التي أصابتها القذائف ودمرتها أو دمرت
أجزاء منها.

كانت هناك حالات محدودة من الموت في الحارة، حيث إن غالبية أهالي الحارة تركوها هاربين إلى شاطئ البحر أو إلى البيارات والمساحات القريبة، أو لجأوا إلى الخنادق التي كانوا قد حفروها من قبل.

كانت قوات الاحتلال قد واجهت مقاومة عنيفة في إحدى المناطق فلانسحبت وبعد وقت قليل أطلقت مجموعة من الدبابات وسيارات الجيب العسكري ترفرف عليها الأعلام المصرية فلستبشر المقاومون خيراً بقوم العمون والصند فخرجوا من مكانهم وخنادقهم يطلقون النار في الهواء استغلاً بالمقاومين، وتجمعوا للاستقبال، وحين اقترب المركب فتحت منه نيران كثيفة على المقاومين أردتهم قتلى، ثم رفع العلم الإسرائيلي على تلك الدبابات والآليات بدل من الأعلام المصرية.

كان الناس قد انهالوا على المدارس القريبة التي كانت معسكراً للجيش المصري قبل الحرب حيث استولى كل واحد منهم على شيء مما تبقى منها، هذا يحمل كرسياً وذاك طاولة وثالث يحمل كيساً من الحبوب ورابع يحمل أدوات مطبخ، وهكذا بدلاً من أن يستولي عليها جنود الاحتلال وجد الناس أنفسهم أحق لورائتها من الجيش المصري الذي ذاب من المكان، ثم يكن البعض لتساق مع الموجة ووجد الأجواء ساخنة لخلع أبواب بعض المحلات التجارية القريبة والاستيلاء على بعض ما فيها من مواد وبضائع، البعض اغتموا بالأسلحة والذخائر مما ترك في المعسكرات، سادت حالة القوضى تلك عدة أيام كل فيها في همه واهتماماته.

وقبل ظهر أحد الأيام جاءت من بعيد أصوات مكبرات الصوت باللغة العربية المكسرة تتلاد بإعلان حظر التجول وأن على الجميع التزام البيوت وأن من يخرج من بيته يعرض نفسه لخطر الموت. فبدأ الناس يلتزمون بيوتهم وقد دارت سيارات الجيب العسكري التي تحمل مكبرات الصوت تعلن ذلك ثم دارت تطلب من كل الرجال فوق سن (١٨) سنة بالخروج والتجمع في المدرسة القريبة، وأن من يخالف الأمر ولا يخرج يعرض نفسه لخطر الموت.

أبي وعمي لم يعودا وأخي محمود الأكبر بيننا كان أصغر من ذلك، وجدي حين خرج مخرجاً للمدرسة صرخ عليه أحد الجنود طالباً منه الرجوع للبيت، لما رأى كبر سنه وعجزه فغادر يضرب الأخماس والأمداس، بعد وقت قصير بدأت أعداد كبيرة من جنود الاحتلال على شكل مجموعات شاهرين بذائقهم، يقتحمون البيوت بيتاً بيتاً بحثاً عن رجال لم يخرجوا للمدرسة وحين وجدوا بعضهم أطلقوا عليهم الرصاص دون تردد.

تجمع رجال الحي في المدرسة للقريبة حيث أجلسهم الجنود في فناء المدرسة على الأرض على شكل صفوف مترابطة، والجنود يحيطون بهم من كل جانب وقد شهبوا بنادقهم، وصوبوها إليهم.

بعد أن اكتملت مهمة جمع الرجال، جاءت إلى المدرسة سيارة جيب عسكرية مغطاة، تخرج منها رجل بلبس الزي المدني ولكنه من قوات الاحتلال حيث إن جميع الجنود كانوا يطعمونه بصورة ملفتة للنظر وهو يصدر لهم الأوامر وهم ينتظمون حسب ما يأمر، حيث بدأوا بتوجيه الرجال في السير على الأرض بالقيام واحداً واحداً، والمشي بحيث يمرون من أمام سيارة الجيب التي جاءت أخيراً، وبدأ الرجال يقومون ويمرون وفقاً لإشارة أحد الجنود بين الحين والآخر يدوي بوق الإنذار (الزلمور) حين يكون واحد من رجال الحي قد مر فيندفع الجنود نحوه ويتلقفونه بشكل عنيف، ويبدلون سحبه بقوة وإذلال إلى إحدى الساحات الخلفية حيث الحراسة هناك مشددة، بصورة مضاعفة كما هي عليه في ساحة المدرسة الرئيسية.

وقد بات واضحاً أن من يدوي البوق عند مروره فقد وقعت وقته، فقد تم تشخيصه أنه رجل خطر، وهكذا استمرت الأمور حتى قيام آخر الرجال، وبين الحين والآخر كان يدوي البوق فيلقون من من أمام السيارة ومن لا يدوي البوق عند مروره يجلس في طرف الساحة نفسها من الجانب الآخر.

حين انتهت المهمة ووقف ذلك الضابط (بالزي المدني) وبدأ يتحدث للجلوس باللغة العربية بلغة ثقيلة ولكنها مفهومة جيداً لهم، حيث عرف عن نفسه أنه "أبو الديب" ضابط المخابرات الإسرائيلية والمسؤول عن المنطقة، ثم ألقى محاضرة طويلة عن الواقع الجديد، بعد هزيمة العرب، وأنه يريد الهدوء والانضباط ولا يريد مشاكل في المنطقة وأن من يسول له نفسه القبح بالأمن فيعرض نفسه للإعدام والسجن وأن مكتبه مفتوح لمن يريد أي خدمات من أمن جيش الدفاع الإسرائيلي، وحين انتهى، طلب من الحاضرين الانصراف واحداً واحداً وبهدوء وبدون فوضى، وبدأ الرجال بالقيام والانسحاب من المدرسة إلى بيوتهم وكل من يخرج يشعر أنه نجا من الموت المحتوم. كانوا قد قرروا حوالي مائة رجل من رجال الحي.

انتقل ذلك الضابط بسيارة الجيب التي جاء بها من قبل إلى الساحة التي جمع فيها أولئك الرجال وطلب منهم للقيام واحداً واحداً، والمرور من أمام الحيب، وكلما دوى البوق اختطف لمار من جديد وتم إيقافه إلى جوار الحائط القريب، ووجهه متجه للحائط، أما الآخرون فجلسوا في طرف الساحة.

تم انتقاء خمسة عشر رجلاً من تلك المجموعة حيث أوقفوا إلى جوار الحائط، أصدر ذلك الضابط لأمره إلى عدد من الجنود قبالتهم وأشهروا بنادقهم وجلسوا على ركبهم، ثم صوبوا إليهم لطلقوا النار عليهم ليخروا صراعاً، أما الآخرون الذين كان يتصيب عرقهم فقد تم تقييد أيديهم خلف ظهورهم وعصب أعينهم، وحملوا في إحدى الحافلات التي انطلقت بهم على الحدود المصرية، وقد أمرهم الجنود الذين رافقوهم بعبور الحدود إلى مصر وإن من لا يتقدم أو يلتفت سيتم إطلاق النار عليه حتى الموت.



الفصل الثاني

مرت الأيام ولبي وعمي لم يعودا ولم نسمع عنهما أي خبر، جدي ولبي وزوجة عمي لم يتركوا واحداً أو واحدة يمكنهم أن يتوجهوا إليهم بالسؤال عنهما إلا وسألوهما دون جدوى، وهنا كان مثل هم الكثير من الجيران فالمفقودون من جنود جيش تحرير فلسطين أو من رجال المقاومة الشعبية كانوا كثيراً. والحي ككل المناطق في الضفة والقطاع كان في حالة من اليأس والإحباط والفوضى والناس لا يدرون ما يفعل بهم.

مع كل صباح كان جدي يتناول عصاه (عكازه) ويخرج باحثاً عن ولديه سائلاً من يعرف ومن لا يعرف عنهما حتى ينهكه الإرهاق والتعب، ولبي وزوجة عمي التي لم تغادر دارنا منذ انتهاء الحرب إلى بيتهم، تجلسان في جوار الباب في انتظار عودته بخير جديد، وهما حترقان من الخوف والقلق من المصير المجهول لزوجيهما، وأخوتي وأخواتي وأبناء عمي كانوا يدركون ما يحدث جيداً، لكنني كنت لا أزال أصغر من أن أعني حقيقة ما يجري حولي بالضبط. لبي وزوجة عمي شغلها همهما من الاهتمام بنا فقامت أختي الكبيرة (فاطمة) بشيء من ذلك بتوفير شيء من الطعام لنا بين الحين والآخر، وبشيء من النظافة الضرورية التي لا بد منها.

مع غروب شمس أحد تلك الأيام موعد عودة الجد من رحلات بحثه عن ولديه، فتحت لبي الباب ترقب قدميه من أول الشارع، وبعد قليل ظهر الجد يتكئ على عصاه ولا تكاد تمله وهو يجر قدميه جراً يوحى بأن الخبر الذي يحمله قد ناء به كاهله، صرخت والدتي على أخي الأكبر محمود بالجري لاستقبال جده ومساعدته فجري محمود وبدأ ينظر إلى وجه الجد الذي غمرته الدموع، ورغم محاولات محمود سحب أي كلمة من فم الجد لم يفلح حتى وصلنا باب البيت، فارتكز الجد على الجدار، ولم نعد قدماء قادرين أن نطعمه فبدأ بهوي بعد أن دخل الخطوة الأولى للبيت، فالتفتت لبي وزوجة عمي تنهضان وسألته ما الخبر؟ ماذا عرف؟ ماذا هناك؟ وقد بدأنا ترتجفان خوفاً وطمعاً عما يحمل من الأخبار، ولم يكن الجد قادراً على التعلق بمجرد التعلق، ولا حتى على الحركة، فشارك كل من قدر على محبه إلى داخل الغرفة وأجلسوه على فراشه، وجميع من في البيت يلتفون حوله ينتظرون كل حرف يخرج من بين شفاه.

أسي تناوله يريق الفخار فيسكه ولا يقوى على رفعه، فتساعده في رفعه فيرشف بضع قطرات من الماء.

نظرات الجد تنجبه أكثر نحو زوجة عمي، مما يوحى أن الخير الذي لديه يخص عمي أكثر مما يخص أبي، فتزداد لهفة زوجة عمي وتسال بتوسل ماذا حصل يا إبراهيم؟ ما هي الأخبار؟ خير إن شاء الله فتفجر دموع الجد وقد حاول لملمة نفسه وضبط عواطفه، فانفجرت زوجة العم بالبكاء وقد فهمت ما لم يستطع الجد قوله، وصرخت هل مات محمود؟ فهز الجد رأسه مؤكداً ذلك، فارتفع عويلها وصراخها، وبدات بشد شعرها، أسي بدات هي الأخرى بالبكاء ولكنها لربط جاشاً نحلول أن تخفف عن زوجة عمي التي ظلت تردد مات محمود مات محمود.

لم يمض يا لم حسن بل استشهد، أبناء عمي يكيان، وإخوتي وأخواتي، الكل سيكون وأنا متمسك في مكاني ولا أدري ما يحدث. صوت طرقات على الباب، أخي محمود بخرج ليدي من الطارق، فإذا مجموعة من الجارات سمعن الصراخ والعويل فجئن يعرفن الخبر ويشاركن الأسي. امتلأت الغرفة بالواقفات تهت بين الأقدام والزحام، وارتفع العويل والصراخ.

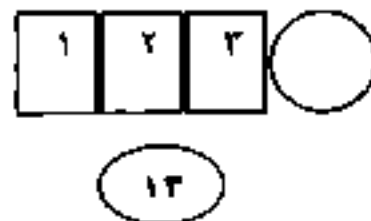
مرت الأيام وما من خبر عن مصير أبي، آخر من رأوه أكدوا أنه على قيد الحياة حين احتل اليهود للمدينة، هو ومجموعة من رجال المقاومة للشعبية وأنهم انسحبوا نحو الجنوب هذا كل ما هنالك، ولا شيء جديد، كان الجد بعد أيام العزاء بعمي -رحمه الله- قد بدأ رحلته من جديد في البحث عن أخبار مصير أبي وهذا كل ما حصل عليه. ومع مرور الأيام وصل إلى فناعة أنه عليه الانتظار، فقد بنس من الحصول على أي أخبار جديدة وفر الانتظار، قد تأنى الأخبار وحدها، وكان على الجميع الانتظار حتى مجيء خبر منه، فهو يعرف مكاننا ونحن لا نعرف مكانه، مع مرور الأيام كان على الحياة أن تأخذ مجراها الاعتيادي، وكان على الجميع أن يتكيفوا مع الواقع الجديد بمسلياته.

فتحت المدارس أبوابها من جديد، وبدأ إخوتي وأخواتي ولين عمي للتكبير بالذهاب إلى المدرسة، في الصباح تنهض والدتي وزوجة عمي لتجهيزهم إلى المدارس، فينطلقون معاً، وأبقى لنا وأختي للرضيعة ولين عمي إبراهيم، ومع تقدم ساعات النهار يخرج جدي من البيت ليغيب ويعود أحياناً ويده قليل من الخضراوات، شيء من الطماطم أو (ضمة) من الصبانخ أو قليل من البطاطس أو الفيلاندجان، لتقوم أسي لو زوجة عمي بطهيها، لتكون جاهزة مع عودة الطلاب من مدارسهم.

مع كل صباح يوم تحمل أمي أو زوجة عمي جرار الماء الفخارية و(سخان) الماء الحديدي وتخرجان بهما لتضعاهما في طابور الأكوات للمضاهة أمام (حنفية) صنوبر الماء الذي كانت وكالة القوث قد وضعت في ساحة العارة، حيث يأتي الماء ساعتين أو ثلاثاً في اليوم ومن يدركه الدور ملاً لوعيته، ومن لا يدركه يضطر للانتظار لليوم التالي، ويستلف بعض الماء من الجيران، ولطالما حاولت إحدى الجارات التي غفلت عن القيام بمكرة لتضع أنيتها في أول الطابور أن تسرق دور جارقتها، بأن تضع أنيتها قبل أوليهن، فوكشف ذلك فتبدأ (طوشة) مشاجرة تبدأ بالكلمات (دوري دورك) ثم تتطور إلى استدفع بالأيدي وشد الثعور والكلمات النابية، وأحياناً تصل إلى تكسير الجرار الفخارية.

هناك عند الحنفية كانت تغطي الأرض طبقة من الفخار، حين يعود إخوتي وأبناء الجيران من المدارس، وبعد أن يتناولوا غداءهم يخرجون للعب لعبة (السبع شقف) حيث يحضرون قطعاً من الفخار من منطقة الحنفية، ويعنون منه سبع قطع دائرية الشكل، كل واحدة أكبر من أختها يضعونها واحدة فوق الأخرى، الكبرى تحت فالأصغر فالأصغر، ثم يحضرون طابة من القماش، أعدوها من أحد الجوارب البالية التي كنا نحصل عليها من (صرر) الملابس التي تخرج لنا مرتين في السنة، من التسوين من وكالة القوث، ويحشونها بالقماش، ثم يربطونها ويخيطونها على شكل طابة تملأ ليد، ينقسمون لفريقين يقف لاعب من أحد الفريقين على بعد أمتار من كومة قطع الفخار ويرمي الطابة عليها محاولاً إيقاعها فإن لم ينجح خلفه لاعب من الفريق الآخر، وإن نجح هرب هو وأعضاء الفريق خلف عضو من الفريق الذي أسقط القطع، ويبدأ اللاعب الواقف عند القطع بتوجيه الطابة نحو أعضاء الفريق الآخر محاولاً إصابته، فإذا أصابه أخذ لفريقه الدور للعب لإسقاط القطع، وإن لم يصب ينتظر حتى يجد أعضاء فريقه له الطابة وهنا يهجم أعضاء الفريق الأول محاولين إعادة ترتيب القطع فإن نجحوا أعادوا اللعب، وإن لم ينجحوا، وعندما يرون الطابة في طريق عودتها لمركز اللعب حاولوا الفرار من جنيد ثلاثياً أن تصيبهم الطابة وهكذا.

أما الفتيات فكان يلعبن لعبة الحجلة حيث يحضرن قطعة من البلاط أو الحجر التي يجب أن تكون ناعمة من إحدى جهتيها ويرسمان على الأرض ثلاثة مربعات متتالية، كل واحد جوالي متر طول ومتر عرض ثم يرسمن دائرة على رأس المربع الثالث.



تلقى اللاعب قطعة الحجر في المربع الأول وتقفز فيه، بحيث تظل واقفة على إحدى رجليها وتضرب الحجر بطرف رجلها إلى المربع الثاني، وتقفز إليه وهي لا تزال على إحدى رجليها تضرب الحجر إلى المربع الثالث، تجعل إليه وتضربه إلى الدائرة، وتقفز إليها حيث يمكنها الوقوف على رجليها الاثنين، ثم تضرب الحجر إلى المربع الثالث، وتضع إليه على رجل واحدة، وهكذا فإن وقعت أو جاءت رجلها على أحد الخطوط، فقد رسبت وجاء دور زميلتها ومنافستها، وأحياناً تعلب الفتيات نط الحبل.

أحياناً يلعب الأولاد (عرب ويهود)، حيث ينقسمون إلى فريقين: فريق العرب وفريق اليهود وكل فريق يحمل قطعاً من الخشب أو الحطب على شكل بذائق يطلقون منها النار على بعضهم البعض وهم يصرخون (طاخ أنا طخيتك)، فيصرخ الآخر لا أنا طخيتك قيل، وفي كثير من الأحيان تتحول إلى مشاجرة خلافاً على الذي (طخ) الثاني قيل صاحبه، ولكن الأكلب أن فريق العرب كان يجب أن ينتصر على فريق اليهود، حيث أن الكبار أو الأقوياء من الأولاد هم للذين يحددون أعضاء كل فريق ويكونون في فريق العرب.

كان جدي يخرج مرة في الشهر إلى مركز النسيون حيث يأخذ معه (كروت) بطاقتي للتأمين، بملقتنا وبطاقة عائلة عمي، يغيب حتى بعد الظهر ثم يعود هو وآخرون من رجال أو نساء الحي وأعلمهم عربة كارة بجرها حمار، وقد ضمت بأكياس الدقيق (الطحين) وجالونات السمن أو الزيت زيت القلي وبضع سلال (سلات) فيها أكياس صغيرة فيها أصناف بقوليات من حمص وعدس. حين تصل العربة تقف أمام بيتنا فينقلز الأولاد ليركبوا عليها، يصرخ العربي عليهم زاجراً ملوحاً بعصاه فيبعدون، يحمل أغراضنا بعد أن يشير جدي إليها وينزلها إلى داخل البيت، فيناوله جدي بضعة قروش من كيس من القماش يخرجها من داخل جيبته، فيقبلها العربي ويضعها في كيسه وهو يقول: الله بخلف عليكم، ويمسح حماره ذاهباً، والأولاد يجرون خلف العربة والكبار يحاولون طردهم وينهونهم.

كانت لسي تأخذ أختي الرضبعة (مريم) بين الحين والآخر إلى عيادة لوكالة (الصحية..المسيدي) في طرف المخيم، هناك يتم فحصها ووزنها في قسم رعاية الطفولة والأمومة في العيادة، حيث تجتمع أعداد كبيرة من النساء، ومعهن أطفالهن لإجراء الفحص تجلس النساء في القاعة على تلك الكرسي الخشبية الطويلة (بنوك) المطلية باللون الأبيض وبعضهن يجلسن على الأرض ويبدأن بالحديث.

كل واحدة تحدث الأخريات عن مشاكلها وهمومها وتبث شكواها لأخريات عن مشاكلها وهمومها، وتبث شكواها للأخريات، فتعبري الواحدة عن الأخرى وتجد أن هموم الأخريات ليست أقل منها، وقد أخذتني أمي مراراً معها في زيارتها تلك للسويدي، هناك على باب السويدي يقف بعض الباعة المتجولون يبيعون أنواعاً من الحلويات التي صنعوها ليكسبوا رزق عيالهم فأبداً لمحب ثوب أمي نحو البائع طلباً منها أن تشتري لي قطعة من (النمورة) وأمام إصراري تضطر أن تشتري لي ما أريد رغم غياب أبي الذي طال، وعدم قدرة جدي على العمل لكسب الرزق لصعوبة فرص العمل في تلك الفترة للشباب والأقرباء، إلا أن وضعنا المالي كان لا بأس به مقارنة بباقي الجيران، فقد كنت أرى مع جدي أو مع أمي بعض النقود لا أدرى من أين جاءت بالضبط، ولكني كنت من قبل الحرب أرى بعض الأساور الذهبية على يدي أمي أحياناً لكني لم أرها منذ الحرب، ولم أرها أبداً من بعد، ثم إن خالي صالح كان يزورنا بين الحين والآخر، وكان يعطي أمي بعض النقود، ويعطي من يتواجد منا أو من لجأ عني بعض القروش فنخرج جرباً لشراء بعض الحلوى من دكان "أبو جابر" القريب.

خالي صالح كان ذا حظ وافر فقد كان له مصنع للنسيج فيه بضع آلات نسيج كهربائية كان قد أحضرها من مصر قبل احتلال القطاع، وظل هذا المصنع مستمراً في العمل بعد الاحتلال، كان ينتج كميات جيدة من القماش حيث يبيعها لتجار القماش في القطاع، وبعد حرب (١٩٦٧) بوقت بدأت الحركة تدب تدريجياً بين الضفة الغربية والقطاع فبدأ بيع بعض إنتاجه في جنوب الضفة الغربية من منطقة الخليل، ولأن وضعه المادي كان جيداً كان يعرض على أن يعطي والدتي نصيباً من المال كل فترة. كانت أمي تحاول للرفض عليها ويدي للزعل منها ويقول: إذا لم أساعدك أنا فمن سيفعل ذلك وكيف سيعيش أولادك فتأخذ ذلك منه وقد طأطأت رأسها وجرت دموعها على خديها فاعتب عليها قائلاً: كل مرة تبكين!!

زوجة عمي وأبنائها عاشوا معاً تقريباً بصورة كاملة وقلمونا كسرة الخبز وشرية الماء وقد طلب جدي من أخي محمود ومن ابن عمي حسن أن يهدما جزءاً من الحائط الذي كان يفصل بين دارنا ودار عمي، فأصبحت الداران داراً واحدة مع بعض الخصوصية. أهل زوجة عمي كانوا في حالة صعبة ولم يكونوا قادرين على إعانتها بشيء رغم استئجار زوجها وفقدانها لمعيلها، ومع الوقت بدأوا يضغطون عليها للزواج فما دام زوجها قد توفي فما المبرر من بقائها عزباء، وهي ترفض خفية ضياع أولادها، وهم يحاولون إقناعهم بأن جدهم وعائلة عمهم سيقومون بذلك، وهم سيحاولون المساعدة على ذلك، ولكنها يجب أن تتزوج فهي لا تزال صبية والمستقبل أمامها ويجب عليها عدم ترك

الوقت والسنوات لتأكل شبابها فيفوت عليها القطار. هكذا جرت بنا الأيام والشهور والسنوات.

في إحدى المرات زارنا خالي وحين أخرج بده من جيبه لينالوني أمي ما اعتاد أن يعطينا من النقود رفضت رفضاً قاطعاً أخذه منه، ورغم كل المحاولات لم يندفع في إقناعها بأخذه، فلم يجد إلا الحيلة حيث أقنعها أنه لا يريد أن يشغل عاملاً جديداً معه في المصنع ليقوم بمهمة النظافة والترتيب في المصنع، وأن محموداً وحسنأ قد كبوا وأصبوا شابين لذلك فهو يريد أن يشغلها عنده في المصنع يوماً بعد عودتهما من المدرسة ليقوما بالعمل، وهما لوني بالأجرة من عامل غريب، وأن هذه الدفعة سلفة على حساب أجرتهما الشهرية.

حينها ولفتت فقط على أخذ المبلغ مشرطة أن يبدأ بمزولة عملها في اليوم التالي وبالفعل فقد بدأ محمود وحسن تولى مسؤولية إعالة الأسرة، يعودان من المدرسة عند الظهر يضعان حقيبتيهما المصنوعتين من القماش، تضع لهما أمي الغذاء مع باقي إخوتي وأخواتي وأبني عمي ثم تبدأ المحاضرة طويلة وهي توجههما كيف يسيران في الطريق، وكيف يشغلان بإخلاص، وكيف ينظفان المكان وكيف وكيف... ثم تربت علي كتفهما وتودعهما بخطوات إضافية خارج الباب، وقيل غروب الشمس تستقبلهما مستقبل الفرسان الفاتحين، وهكذا جرت الأمور بدفع خالي لوالدتي ما كان يدفع لها من قبل، وكأنه أجرة عمل محمود وحسن اللذين لم يكونا يفعلان شيئاً بذكر، عند ذهابهما يوماً إلى مصنع خالهما.

كثيراً ما استيقظت مع بزوغ الفجر على صوت جدي وهو يدعو بدعواته المعتادة أثناء وضوئه كنت أستمع بذلك للصوت وبذلك الدعوات العذبة ثم أضع بصوته وهو يقرأ الفاتحة ثم شيئاً من القرآن الكريم في ركعتي فرض الفجر بصوت مسموع، ثم بدعاء للفقير، وبدلت مع تكرار الأيام أكاد أحفظ ما يردده الجد ﷻ اللهم اهمني فمن هدبت... ولم يكن بإمكان الجد أن يؤدي صلاة الفجر في المسجد، ففي هذا الوقت يكسون منع التجول لا يزال سارياً ومن يخرج يعرض نفسه للموت من دوريات الاحتلال التي تجوب شوارع المصمير أو تكون كامنة هنا أو هناك، منع التجول كان يوماً الساعة السابعة مساءً ويستمر حتى الخامسة صباحاً. أما باقي الصلوات الأخرى فقد كان جدي يؤديها عادة في المسجد إلا إذا منعه من ذلك أمر طارئ مثل ذهابه لإحضار التموين أو يوم منع التجول.

مسجد المخيم كان أشبه بغرفة كبيرة مسقوفة بألواح الصاج له بضعة شبابيك، وله منئذنة صغيرة يصعد إليها المؤذن بدرجات حجرية، فيعلن الأذان بصوته المرتفع، وعند باب المسجد يوجد مرخاض واحد وبضعة أبواب فخارية للوضوء والشرب، أرضية المسجد مغطاة ببعض الحصى أو البسط القديمة وشبه البالية، في مقدمة المسجد يوجد منبر صغير من عدة درجات خشبية.

كثيراً ما كان جدي يصطحبني معه للمسجد قبل موعد أذان الظهر بمسك بيدي التي تفرق في يده الكبيرة، ورغم جرسه الشديد على القمعي البطيء، ورغم كبر سنه وقد تجاوز (٧٠) عاماً، إلا أنني أضطر للجري خلفه، فهو يكاد يعرني معه جراً. كنا نصلي في المسجد قبل الأذان أقف إلى جوار جدي أفعل مثماً بفعل ما استطعت، أجلس إلى جواره متربعا أضع رأسي بين يديه مثل الأولاد المؤدبين، يأتي الشيخ حامد يخرج ساعته من جيب في جيبه عند صدره ينظر إليها وحين يقترب الأذان يصعد إلى المنئذنة ويصيح صوته بالأذان فبدأ أتلفت فرجة لسماع ذلك الصوت العذب.

ينهي الشيخ حامد أذنه وينزل عن المنئذنة ويصلون السنة، وأنا أقف بجوار جدي نلأقه ما استطعت فيأتي عند قليل من شيوخ المخيم ليؤدي الجميع صلاة الظهر جماعة، عددهم لا يتجاوز العشرة بكثير، وكلهم شيوخ اللهم إلا أنا وطفلاً أو طفلين آخرين أحضرهما جداهما.

يبدو أن جدي ولمي سلما بالأمر الواقع فيما يخص مصير أبي المجهول فإن حديثهما عنه قد بدأ يقل وأصبح نادراً أو ندركا لأن عليهما الانتظار حيث ليس لديهما سواء (ما باليد حيلة).

للجديد الوحيد الذي طرأ على بيتنا هو أن أهلك زوجة عمي قد أجبروها على الزواج من جديد الأمر الذي لم يكن سهلاً وكان يبيت عندها في الليل، وأمي كانت تقوم بالواجب تجاهها مثل كل واحد من إخوتي تماماً، لكن ما من شك في أن ذلك لا يعوض فقدان الأب والأم ولكنه يخفف بعض الشيء. وهكذا توالى الأيام، أصبح على صوت جدي وهو يتوضأ ويصلي الفجر ثم تستيقظ أمي لتوقظ إخوتي وأخواتي وأبني عمي، وتجهزهم للمدرسة فيتطلقون إليها.

جدي يذهب للمسوق، أمي تبدأ بترتيب البيت، وأنا أجلس إلى جوار أختي مريم الرضيمة خشية أن تستيقظ وتبدأ باليكاء وأمي مشغولة عنها بترتيب البيت، يعود جدي وحده ويعود إخوتي وأنا عمي من المدرسة فتضع لنا أمي طعام الغداء أو نتناوله سوياً.

ثم تبدأ أمي بوصولها المعتادة لإخوتي محمود وحسن وتودعهما حتى يلبس الدار، في طريقهما للعمل في مصنع خالي نخرج لنلعب (عرب ويهود) أو (المسبح شقق)، والبنات يلعبن (العجلة)، حتى يقترب المساء فيعود محمود وحسن من المصنع، وهكذا تجري الحياة الروتينية دون أي جديد.

مساء أحد الأيام لم يعد محمود وحسن من المصنع تأخرا ولم يجينا وحدهما بل جاء معهما خالي صالح، كالمادة الثمينة جوله وكالمادة ملم على كل واحد منا وقبله بحرارة، وأعطى كل واحد منا نصيبه من القروش، ثم بدأ الحديث مع أمي عن خالي فتعجبنا، فقد جاءها خطاب يريدون يدها، وهم جماعة يعرفهم خالي جيداً من الضفة الغربية بلدة صغيرة في قضاء الخليل ممن يتاجرون بالأكمشة ويأتون ليشتروا القماش الذي يصنعه خالي، وقد عرفهم خالي جيداً وهو يريد رأي أمي في ذلك. أمي لوضحت أن للرأي رايه وما دامت فتية موافقة وراضية وأنت موافق وراضٍ وتعرف الجماعة فعلى بركة الله، أثناء ذلك قامت أمي وتركنا مع خالي بمسأل عن أخبارنا، أخبار كل واحد وكل واحدة في المدرسة وغير ذلك.

وعادت بعد قليل وقد جهزت إيقاً من الشاي، شرب خالي معنا الشاي ثم قام ليخادر حاولت أمي أن تقلعه بالمبيت عندنا فاعتذر قائلاً: أنت تعرفين أنني لا أستطيع المبيت خارج المنزل فليس عندي سوى بنات، فدعت له والدتي: الله يعوض عليك يا صالح عوض الخير، خرج خالي وهو يقول سأخبر الجماعة بالموافقة وعندما يخبرونني عن موعد قدومهم للخطبة سوف أخبرك لتحضري أنت والحج أبو إبراهيم والأولاد.

وفي اليوم التالي منذ ساعات الصباح الباكر وبعد أن أنهى جدي صلاته بقليل أخذ يستمع إلى مكبرات الصوت التي تحملها سيارات الحبيب العسكري وهي تعلن باللغة العربية المكسرة عن فرض منع التجول إلى إشعار آخر (أو قو...ممنوع التجول حتى إشعاراً آخر والتي يغلف بعرض نفسه لخطر الموت) وهكذا ظل الصوت يتكرر مرات عديدة. أمي قالت للجميع اليوم ليس هناك مدارس با لولاد، وممنوع أي ولحد منكم يخرج من البيت، وخرجت إلى الغرفة الأخرى لتتأكد من علم جدي ولبنى عمي حسن وإبراهيم بالأمر، بقينا في البيت لم نخرج منه وظل الباب علينا مغلقة طيلة النهار، وكلما اقترب واحد منا من باب الدار صرخت عليه أمي بعدم فتح الباب وإلا أوسعته ضرباً.

سمعنا مرة بعد مرة ممنوع للتجول.. اضطر إخوتي وأخواتي إلى اللعب داخل
الدار وقد جهزت لنا أمي في هذا اليوم (الببصلرة) للفداء وهي طبخت من الفول المجروش
مع الملوخية الجافة، وجلس إخوتي وأخواتي وأبنا عمي يدرسون في كتبهم المدرسية، وأنا
أجلس وأنظر إليهم أفرج في كتبهم. عند المساء سمعنا صوت مكبرات الصوت مرة
أخرى تؤكد منع التجول وأن من يخالف معرض نفسه للخطر.
عند الصباح وبعد صوت جدي في صلواته ودعواته بوقت ليس طويلاً جاء
صوت مكبرات الصوت يعلن عن انتهاء منع التجول من الساعة الخامسة، أمي أيقظت
الجميع وجهزتهم للمدارس وحررت الأمور كالعادة.
لشيء الجديد الذي كان في هذا اليوم هو أننا عرفنا سبب منع التجول الذي كان
بالأمس، فقد ألقى شخص قبلة بدوية على تورية من دوريات الاحتلال والفتيات
وأصابت الجنود الذين كانوا في سيارة الجيب والذين بدلوا بإطلاق النار العشوائي على
الناس فأصابوا العديدين.

❦ ❦

الفصل الثالث

يوم الجمعة ألبستنا أمي لفضل ما عندنا من الملابس التي أعلنت خياطتها مما حصلنا عليه من (حصة) التموين استعداداً لزيارة دار خالي لرؤية خالتي والمباركة لها على الخطوبة التي ستتم قريباً. ثم أخذتنا معها نحن السبعة وسارت بنا ساعات طويلة، حيث تجاوزنا حدود المغرب وشرنا على إحدى للطرق الرئيسية حيث كانت تتحرك عليه بين الحين والآخر سيارات الجيب العسكرية والمدنية وهي تحمل جنوداً يشهرون بنادقهم ويوجهونها إلى المرأة، وسياراتهم تسير ببطء شديد، شرنا طويلاً حتى وصلنا إلى بيت خالي صالح، بيت خالي كان لفضل بكثير من بيتنا فهو ليس مسقوفاً بالقرميد مثل بيتنا بل بالباطون وأرضه مرصوفة بالبلاط وفيه كهرباء.

جاء أخي محمود ودق الباب فتحت لنا ابنة خالي "وردة" التي صرخت على الفور هذه عمتي ولولادها وسلمت علينا ودخلنا البيت حيث خالي وخالتي وزوجة خالي ولبنته الثانية "سماء" قد خرجوا إلى الممر ليصلوا علينا ويرحبوا بنا.

خالتي سلمت علينا وقبلتنا واحداً واحداً، أمي وإخوتي وأخواتي باركوا لها بالخطوبة التي ستكون قريبة وجلسوا يتحدثون ونحن انشغلنا باللعب والتجري أحناء وراء الآخر، وقبل حلول المساء عدنا إلى البيت، بعد عدة أيام حين عاد محمود وحسن من العمل في مصنع خالي أخبرا أمي أن خالي قال لهما أن يخيرواها أن الجماعة سيأتون لعقد قران خالتي فتحية يوم الجمعة القادم، مرة أخرى جهزتنا أمي كما كان في الجمعة الماضية ذهبنا إلى بيت خالي بعد الظهر جاءت ثلاث سيارات تحمل بعض الرجال والنساء، نزلوا ودخلوا بيت خالي، الجميع من الصغار كانوا يتهايمسون ويشيرون على شاب بالغ فمحي البشرة بشارب خفيف هذا هو العربي، جلس الرجال في صالة البيت والشيخ يتوسطهم بطربوشه الأحمر.

وجلست النساء في إحدى الغرف ونحن لم نعرف للراحة طمعاً، تجري هنا وهناك بين الغرف وخارج البيت وتعلق بالسيارات، نحن في شغلنا باللعب والرجال في شغلهم مع الشيخ الذي يعقد القران والنسوة في شغلهم مع العروس خالتي فتحية، ومما لا ينسى أننا أكلنا يوماً الكثير من البقلاوة وبدون حساب حتى خافت أمي علينا أن نصيبنا للمرضى، وقد اتفقوا على أخذ العروس.

بعد حوالي شهر في ظلمة الليل العالكة والمسكوت والمسكون بضميم على بيوت المقيم الهائسة الفقيرة، فلا تسمع الأصوات إلا من نباح كلب يأتي من بعيد أو مواء قطرة تبحث عن ولدها الذي انقطعت أحد الصبية ليربيه في بيتهم، عصاه حين يكبر يأكل الفئران التي تقض مضجع العائلة، في أزقة المقيم الصغيرة المتشابكة ورغم نظام حظر التجول المسند والخطر الذي قد يحدث، كان "أبو حاتم" يسال تسال القطعة متعباً في تلك الأزقة بخفة ورشاقة وهذوء، وكلما لزمه تجلوز زلوبة جديدة توقف مترقباً باحثاً عن عدو متحرك لو كان، وحين يتأكد من خلو المنطقة يواصل مسيره ونسبائه.

و"أبو حاتم" رجل طويل القامة، رشيق، قوي البنية، يغطي رأسه بئسك الكوفية ويلفها حول وجهه فلا تبدو منه سوى عيونه، كان شاربشاً في قوات جيش تحرير فلسطين أيام الحكم المصري في قطاع غزة، قاتل في حرب ٦٧ ببسالة فائقة، ولكن ما عصاه بفعل هو وقتل من الهولاء في معركة خاسرة بإجمالها. انساب أبو حاتم في شوارع وأزقة المقيم، فقد كان يعرف طريقه، توقف قليلاً يتفحص المكان من حوله ثم انطلق نحو شباك أحد البيوت وطرق على أطراف الشباك بخفية ثلاث طرقات ثم طريقة ثم طرقتين. نعم هذا حقيقي وقف "أبو يوسف" بجوار الشباك وقرب رأسه منه وهمس بصوت لا يكاد يسمعه: من الطارق؟ فجاوب صوت "أبي حاتم" هامساً أبو حاتم.. فتمتم "أبو يوسف" ليس معقولا (مش معقول) جاء الصوت: معقول يا أبو يوسف معقول. فتمتم سأفتح لك الباب. انسل "أبو حاتم" إلى الداخل فأغلق "أبو يوسف" الباب ولقى كل واحد منهما نفسه بين ذراعين صاحبه، و"أبو يوسف" يتمتم (مش معقول الحمد لله أنك بخير يا أبو حاتم).

أم يوسف كانت قد استيقظت وغطت رأسها وخرجت من الغرفة، اقتربت هي الأخرى وهي تهمس: الحمد لله على سلامتك يا "أبو حاتم"، تفضل يا أخويه تفضل ادخل، دخل أبو يوسف وأبو حاتم لغرفة وتوجهت أم يوسف ذاهبة إلى المطبخ قال أبو حاتم لأم يوسف لا تجهزي طعاماً ولا شاي ولا تشطي الموافد، التفتت أم يوسف باستغراب قاتلة: (خير يا أبو حاتم أنت جاي عند مقاطيع!!) فتمتم أبو حاتم وهمس ألف سلامة عليكم وعلى خيركم ولكني لست جائعاً ولا أريد أن أسمع إشغال الموفا^١ (ألف سلامة عليكم وعلى خيركم).

^١ الموفا: الموافد

استدارت أم يوسف هابسة حسداً سائلكم ببعض الخبر والزيتون. تبسم أبو حاتم هامساً (ماشى لنا عارف لك من راح تخليني لطلع من غير ما أكل عندكم ماشى يا أم يوسف) -أبو يوسف يتبسم طيلة الوقت- بدأ أبو حاتم وأبو يوسف يتهاملان، أبو يوسف يسأله: أين كنت؟ والله ظننت لك استشهدت أو رحلت إلى مصر؟ أبو حاتم يخبره أنه قد أصيب في الاشتباكات في منطقة المعسكرات الوسطى وزحف إلى إحدى السيارات حيث عثرت عليه عائلة بدوية هناك وأخذوه ودلوا جراحه وأطعموه وأخفوه حتى تحلّى. دخلت أم يوسف وهي تلقى عليهم السلام همساً فردوا عليها، ووضعت طبق للفش وعليه بضعة لرغفة وصحن فيه زيتون وإلى جواره إبريق ماء فخاري، ثم غارت الخرفة لتجلس في غرفة الأولاد على ضوء سراج الكيروسين، يتأرجح طرباً ويُنسي تلك الغرفة الصغيرة المسقوفة بالقرميد السكني، وأبو حاتم وأبو يوسف يضع كل منهما فمه إلى جوار الآخر، ثم يتبادلان هذه التوضيحية، أبو يوسف يسأله: هل هناك أحد من الشباب لا يزال حياً؟ يجيب أبو حاتم نعم كثيرون أنا وأبو ماهر في خانيونس، وأبو صقر في رفح، وأبو جهاد في المعسكرات الوسطى، هؤلاء رايتهم شخصياً والتقت معهم على استئناف المقاومة من جديد.

يقرب أبو يوسف فمه من أنف أبي حاتم سائلاً (إيش مع المختار) أبو حاتم يقرب ويهمس: سمعت أنه لا يزال حياً وأنه يتحرك في السيارات الشرقية شرق الشجاعة والزيتون وأحاول البحث عنه، وقد أعثر عليه خلال أيام، المهم أننا يجب أن نبدأ في تنظيم العمل لتبدأ المقاومة في كل مناطق القطاع مرة واحدة، البلد بخير يا أبا يوسف. البلد بخير والشباب جاهزون ومستعدون، فقط هم يريدون من يرتب الأمور ويطلق الشرارة، ونحن يجب أن نلتقي جميعاً ونرتب الأمور يوم الجمعة القادم صباحاً.

‘صالح المحمود’ سوف يزوج أخته وسوف يأخذها عريسها إلى الخليل ودارهم في الليل تكون خالية، التقت معه أن يترك لنا المفتاح تحت عتبة الباب، سوف تأتي مجموعة الشباب لتجتمع هناك وترتب الأمور ونبدأ العمل في أقرب وقت إن شاء الله، أنت تعرف دار صالح، يوم الجمعة بعد العشاء نلتقي هناك، من يضطر للتأخير حين يصل بطرق على الشباب نض الطرفات (كان أبو حاتم أثناء ذلك قد تناول بعض لقعات ومع كل لقعة حبة من الزيتون) ويصر على استئصال نواة الزيتون بشكل مميز، يبين مدى حبه لصاحب هذا البيت، واشتياقه لطعام أم يوسف زوجة صديقه.

يوم الجمعة تجهزنا منذ الصباح حيث لبسنا أفضل ما لدينا وانطلقنا إلى بيت خالي صالح ورغم وصولنا المبكر إلا أننا وجدنا دLR خالي مليئة بالناس والحركة والتجهيزات للزفاف. انشغلنا نحن باللعب وانشغلت أخواتي في الطبل والغناء والرقص هن وبناات خالي وفتيات أخريات. محمود وحسن انشغلا ببعض الأمور مثل ترتيب الكراسي وارش الماء على أرض المساحة أمام بيت خالي كي لا يعلو الغبار، أمي وزوجة خالي ونسوة أخريات انشغلن بتجهيز العريس، وترتيب حقيبة ملابسها، وخالي كان يجري من مكان لآخر مشغولاً بألف شيء وشيء في نفس الوقت مع في ذلك اليوم كثر الناس وبدأ صوت الطبلية يصبح لكثرت انتظاماً ونقاً، حيث تولت المهمة فتاة كبيرة من جارات خالتي وصديقاتها.

وبعد قليل جاءت عدة سيارات وحافلة تحمل عدداً من أهل العريس، توقفت السيارات ونزل من فيها وعلى رأسهم عريس خالتي "عبد الفتاح" وبدأ الطبل والغناء المشهور ولكن بلهجة ضفاوية وتقدموا نحو البيت حيث خرج خالي ومجموعة من الرجال لاستقبالهم، وبلمل الرجال على الرجال وعانقوهم، وسلمت النسوة على النسوة وهن يقبلن بعضهن بعضاً، دخلت النسوة إلى داخل الصالة وجلس الرجال في ساحة البيت، وزعت البقلاوة في صحنون وكان أخي محمود الأنشط من بين الموزعين، ووزع الشراب الأحمر على الحاضرين وصوت الطبلية وغناء النسوة يصدرح طيلة الوقت، استمر الحال هكذا حوالي ساعة وكان خالي طيلة الوقت يتحدث مع العريس ووالده، ومعه بعض الرجال ممن لا أعرف. ثم دخل خالي البيت واستعد الجميع حيث وقف العريس ووالده عند الباب، ومع الطبل والغناء خرج خالي وهو يمسك بذراع خالتي فتحية التي كانت تلبس البدلة البيضاء وعلى رأسها طرحة بيضاء زانتها جمالاً على جمالها فمادت كالبدر في تمامه تسير الهوينى حتى الباب إلى أن تسلمها العريس من ذراعها وعلت زغاريد النسوة.

وسار العروسان نحو إحدى السيارات، والجميع يتحرك خلفها، أمي كانت طيلة الوقت قريبة جداً من خالي وزوجة خالي إلى جوارها، ركب العروسان السيارة التي كانت مزينة، وبدأ للرجال والنسوة يركبون السيارات والحافلة، التفتت أمي تبحث عن محمود صارخة عليه أرجع إخوتك وأرجع أنت وهم مع جدك إلى الدار، سأخذ مصي إخوتك وسأعود غداً إليهم إن شاء الله كل شيء جاهز في الدار، يا حبيبي لن يلزمكم شيء حتى عودتي، انتبه لجدك ولأبناء عمك أغلق الباب قبل منع الضجول ولا تفتحوا الباب مهما حدث حتى طلوع الشمس، محمود يهز رأسه مؤكداً فهمه لدوره كالعادة، فقد كان يفهم التعليمات الصادرة من أمي يوماً وينفذها بسرعة متناهية، فاطمة كانت تعمل مريم على ذراعيها، ركبت أمي وزوجة خالي وأخواتي وبناات خالي إحدى السيارات وقام محمود بدوره بجمعنا إلى جوار جدي الذي كان يقف متكئاً على عصاه.

بعد أن ركب الجميع السيارات وحالي وولاد العريس ينظمان الأمور، استأذن خالي بالعودة لإغلاق البيت طالباً منهم الانتظار قليلاً، عاد مسرعاً إلى البيت وقد تناول كيساً من المطبخ ورضعه في غرفة الضيوف ثم أغلق الباب الخارجي، وأمسك من يده شيئاً وانحنى ليبتلوه مخفياً مفتاح الدار تحت العتبة، ثم انطلق حيث ركب السيارة وانطلق المركب ولا يزال صوت الطبلنة وضياء النسوة يصدح حتى غابوا، فانطلقنا مع جدي عائدين إلى البيت. وصلنا قبيل الغروب وقد أنهكنا التعب من هذا اليوم الحافل باللعب والأكل والمرور، أغلق محمود الباب بإحكام وغرقنا في نوم عميق.

الليل يسدل على غزاة أستاره السوداء ويفرقها في بحر مظلم لا يكاد المرء يرى منه لصيعة، ودوريات جيش الاحتلال تجوب الشوارع الرئيسية في المدينة ومكبرات الصوت تعلن دخول وقت منع للتجول، ثم يصود صوت عميق لا يقطعه إلا صوت سيارات الدوريات بين الحين والآخر بصورة تؤكد وجودها وحفاظها على الأمن. ويهتف ررباطة جاش تصل سبعة من الرجال إلى دار خالي بعد أن تناولوا المفتاح من تحت العتبة، لم يشعلوا الضوء حتى دخلوا جميعاً وأسدلوا الستائر ووضعوا البطانيات على الشبايك فوق الستائر للتأكد من عدم تسرب أي شعاع من الضوء. بعدها أشعلوا الضوء فوجدوا الكيس الذي وضعه خالي، فتحه أبو حاتم فوجده مليئاً بأصناف الطعام والحلويات فتمتم: أصبل يا صالح أصبل حتى وهو خارج البيت كريم.

جلس الرجال في حلقة صغيرة متراسة وبدلوا بنهارهم ساعات طويلة حتى جوف الليل ثم غرقوا في النوم يتبادلون السهر والحراسة، حتى القرب الفجر، حيث بدلوا يتسللون من الدار واحداً تلو الآخر، آخرهم كان أبو حاتم الذي أغلق الباب بعد خروجه ووضع المفتاح مكانه تحت عتبة الدار، وانطلقوا على بركة الله وهم يرددون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^١.

صحت على صوت جدي وهو يصلي الفجر، وصباحا محمود مبكراً ليقوم بدور الأم وليقظ أخوي حسناً ومحمداً ولبنى عسى حسناً وإبراهيم وقدم لهم الإقطار وانطلقوا خمستهم إلى مدارسهم، وبقينا أنا وجدي في البيت وحنا.

^١ سورة يس آية (٩)

في ذلك اليوم لم يذهب جدي إلى السوق، وأخذني عندما علت الشمس لنجلس تحت شعاعها الدافئ وبعد برهة أخذ يحدثني عن أيام الشباب والبلد التي ضاعت ثم أخرج كيسه الصغير وتناول منه قرشاً وقال لي اذهب اشتر لك حاجة وعد سريعاً، انطلقت إلى دكان "أبو خليل" واشتريت بضع حبات من الحامض حلواً، ورجعت إلى جدي وقد وضعت إحداهما في فمي، سألتني جدي وهو يجلسني إلى جواره: ماذا اشتريت؟ فأريت ما بيدي ومددت إحداهما نحو فمه فضحك طويلاً وقال: لا هذه لك يا حبيبي.

جلست إلى جواره أتمتع بأشعة الشمس ومصر تلك الحبات من الطوى، كان وقت الظهر قد اقترب، نهض جدي وهو يتكى على عصاه قائلاً: هيا يا أحمد نذهب للجامع لصلاة الظهر (يلا يا أحمد نروج للجامع نصلي الظهر) أمسك بيدي وانطلقنا، وهناك جلس جدي يتوضأ وأنا أقفده وهو ينظر إلي مبتسماً، جاء الشيخ حامد ونظر مبتسماً قائلاً لجدي: إن شاء الله سيكون هذا الولد متديناً، فتمتم جدي (إن شاء الله... إن شاء الله).

مرت الأيام متشابهة ولكنني أصبحت أكثر قدرة على إدراك ما يدور حولي، الشيء الجديد الذي بدا واضحاً هو انطلاقة المقاومة، ففي كل يوم هناك عمليات إطلاق نار على دوريات الاحتلال أو إلقاء قنابل يدوية، أو تفجير عربات، وفي كل مرة يرد جنود الاحتلال بمتهمي للقوة والمهنة ضد الأهالي المدنيين العزل، حيث يطلقون النار على الناس بشكل عشوائي فيقتلون ويصيبون، ثم تأتي التعزيزات وتفرض منع التجول على المنطقة وتتأدي الرجال للخروج إلى المدرسة، وهناك يقوم الجنود بضرب الرجال وإذلالهم ويعقلون البعض منهم، نفس الصور والأصوات والحركات تتكرر عدة أيام...

للمقاومة تزيد ويشتد عودها ونصبح أكثر جرأة وإقداماً، حتى أننا أصبحنا نرى بعض الرجال الملتزمين بالكوفيات يحملون أسلحتهم من البنادق الإنجليزية أو بنادق الكارلوسوف، أو يحملون القنابل اليدوية ويتجهلون بها في أزقة المخيم خاصة قريباً من فترة المساء. أصبح مالوفاً علينا حتى أننا بدأنا ندرك أن حظر التجول الليلي هو مجرد أكلوبة لا تتطلي علينا نحن الصغار وعلى أمهاتنا وعلى الجزء البسيط من الناس المساكين. أما رجال المقاومة فكانوا يحلون المخيم أولاً ودوريات الاحتلال لا تتمكن من دخول أزقته وتظل على الشوارع العامة الرئيسية ومع طلوع النهار يختفي رجال المقاومة.

جاءت العطلة الصيفية وسجلتني أمي في المدرسة وبدأت أجهز للذهاب إليها بعد أيام قليلة، فانتشرت لي أمي حذاءً جديداً بالنمسة لي، ولكنه مستخدم، حيث يباع على البسملات للأخذية المستخدمة في سوق المخيم ولكنه بشيء من الدهان بدا وكأنه خارج من المصنع للتو. لونه الأحمر كان يحببني كثيراً وقد أعجب جدي كثيراً كذلك، وقد أعدت لي أمي حقيبة صغيرة من قماش ثياب لم تعد صالحة للبس، وكل شيء أصبح عندي للمدرسة، خلاصة ما كان إخوتي وإخواتي ولبناء عمي يحضنونني به عن المدرسة، عن طابور الصباح، عن الصفوف، وعن المدرس، وعن الفسحة (الفرصة) بين الدروس.

قبل انتهاء العطلة الصيفية كمن أحد رجال المقاومة لدورية جيش الاحتلال في أحد الأزقة التي تطل على الشارع الرئيسي الذي يسير عليه الدوريات في العادة، وحين اقتربت لقي القنبلة عليها فانفجرت وأصابني عدداً من الجنود الذين كانوا في سيارة الجيب، توقف الجيب بعد أن ارتطم بجدار قريب، وعلا عويل الجنود وصراخهم، وبعد أن أفاق من كان فيه حياة، بدلوا بإطلاق النار على كل شيء في الشارع، وعلى الفور جاءت تعزيزات كبيرة وبدأت مكبرات الصوت تعلن منع التجول والمخالف يعاقب، وبدأ الناس يدخلون بيوتهم، ثم بدأ الجنود يتقدمون بالعشرات إلى البيوت في أطراف المخيم، ويعتدون على النساء والرجال والأطفال بالضرب المبرح بالهرلوات.

كانت مكبرات الصوت على الرجال من سن ١٨ سنة حتى ٦٠ بالخروج إلى المدرسة كالعادة، وما إن هدأت المكبرات فإذا بأصوات لبعض تلو صارخة تدعو الجميع بعدم الخروج موضحة أنهم لا يستطيعون دخول المخيم فرجال المقاومة يملأونه وهم مستعدون، وبالفعل ظم بفرج للمدرسة إلا الرجال من البيوت في أطراف الحي الذي لا يتطلب من قوات الاحتلال الكثير من المخاطرة للوصول إليها، وحين يقوم الجنود بمحاولة الدخول إلى المخيم كانت في كل محاولة تتفتح عليهم نيران البنادق والرشاشات من زوايا الأزقة الصغيرة والمتعرجة فيضطرون للتراجع وهم يتراكمون ويمرغون.

لذين خرجوا للمدرسة أخذوا قسطاً مضاعفاً من الضرب والإهانات، ثم سمح لهم بالعودة إلى المخيم واستمر فرض حظر التجول أسبوعاً كاملاً عشنا فيه على (البيصارة والحصص والقلول والزيئون) ورغم أنها كانت مزوجة بالخوف، إلا أنها كانت من أذ ما كنا من طلع منذ بدء الاحتلال، فقد شعر الجميع بالعمزة تحت حملة بنادق المقاومة.

وبعد مرور اليومين الأولين من منع التجول بدأ الناس يخرجون على الخروج من بيوتهم والجلوس عند أبواب منازلهم في الأزقة الضيقة في أعماق المخيم حيث إن تستطيع قوات الاحتلال الوصول إليه بسهولة قبل أن يصدّها رجال المقاومة الذين يتربصون لها في زوايا المخيم، رأيت الكثير من رجال المقاومة ولم أستطع معرفة أحد منهم فقد كانوا يتكلمون بالكوفيات ويحملون أسلحتهم ويرابطون في مواقع وراء هذا الجدار أو ركن تلك الزاوية.

ورأيت عدداً من جيران الحي من جيراننا يجلسون عند إحدى زوايا ويشربون الشاي وبعضهم يلف السجائر ويخنها، ويتحدثون من مشاعرهم وتخوفاتهم، يشعرون بالعزة والكرامة التي أهلها الاحتلال من الجلثم على صدورنا، ويتخوفون من الأتي المجهول فهل يبقى الوضع على حاله هكذا؟ وإن يقتحموا المخيم بقوات كبيرة؟ أو لن يقصفوه بالمدافع أو يحرقوه على رؤوس من فيه!! الآراء كانت متباينة ولكن الرأي القائل بضرورة الصمود كان هو الغالب والقاعدة التي ترددت ماذا لدينا لنخسر!! فليس لدينا إلا القيد ودوار الوكالة، فعلم الخوف؟ هكذا كانت تنتهي كل الأحاديث (يا رجل أي والله حياة دقيقة بعزة وكرامة ولا ألف سنة زي الزفت تحت بساطير جنود الاحتلال).

هذا لم يكن فقط في مخيمنا بل كان في كافة المخيمات في قطاع غزة، وفي كل شوارع المدن والقرى أو في الكثير منها، في الضفة الغربية وغزة بدأت المقاومة تتأجج في أنحاء الوطن بعضها منتظم والكثير منها فردي، ومبادرات محلية من أحرار الوطن ورجاله وقد بدأنا نسمع أخباراً خاصة عن عمل المقاومة المتميز في مخيم جباليا القريب من مخيمنا، فهناك كان أبو حاتم بقود المقاومة التي التحق بها العشرات من شباب ورجال للمخيم والمناطق القريبة وأصبح الجميع يسمونه مخيم جباليا (مخيم الثورة).

الأخبار كانت تسري في المخيم سريان النار في الهشيم، فتزيد الناس سعادة وترفع المحبوبات، ونحن كأطفال انعكس ذلك حتى على لعبنا (عرب ويهود)، فقد صرنا نلعبها يوماً وأصبحت القاعدة السائدة أن العرب سيفلون ويقتلون أعداءهم.

الفصل الرابع

طيلة الليل وأنا إما أُنَجهز للمدرسة لو تحدثت عنها وأسأل إخوتي عن بعض أمورهم، أو أحلم، ففدأ يومي الأول فيها، قبل النوم كنت قد ذهبت إلى (المنظية) خزنة الملابس الصغيرة التي في غرفتنا، وأخرجت ملابس وبدلت ألبسها وألبس خذائي الجديد. لما ركتني أمي صرخت عليّ (أيش بشوي يا أحمد) أجبته بصوت منخفض أُنَجهز للمدرسة (ياحضر للمدرسة) فضحكت وقالت: (لقد بقي وقت طويل للمدرسة حتى الصباح ياما).

في الصباح الباكر استيقظت على دعوات جدي وصلواته ولم أتم بعدها، وما أن أفاقت أمي من نومها حتى ففرت من فراشي لأُنَجهز للمدرسة. بعد وقت أيقظت أمي إخوتي وأرسلت أخي محموداً ليوقظ أبني عمي في الغرفة الأخرى حيث ينامان مع جدي، ليس أبناء عمي وأبعتني أمي ملابسني وجهازتي لأصن تجهيز، وكانني ذاهب إلى حفل زفافي، وأوصتني بالكثير من الوصايا وهي تمدحني بأنني (شاطر) وكبير وراجل ثم أعطت كل واحد منا (شلتاً) وهو عبارة عن خمس أغصان من الليرة الإسرائيلية ووضعت لكل واحد منا قطعة من الخبز في حقيبته التي كانت فارغة تماماً من أي شيء. لوصلت أمي أخي محموداً كثيراً عليّ، فقد كان معمد مترفعاً للصف الثالث وهو الثالث الابتدائي وهو معي في نفس المدرسة (تكرر اللاجئين الابتدائية أ.) أختي مها كانت في الصف الخامس في مدرسة (ثلاث اللاجئين الابتدائية ب) وأخي حسن كان في الصف الأول الإعدادي في مدرسة (تكرر اللاجئين الإعدادية أ.) أختي فاطمة كانت في الصف الثالث الإعدادي في مدرسة (ثلاث اللاجئين الإعدادية أ.) أخي محمود كان في الصف الثاني الثانوي في مدرسة الكرمل.. أما إبراهيم ابن عمي فقد كان في الصف الثاني الابتدائي في مدرستي، وابن عمي حسن كان في الصف الأول الثانوي في مدرسة الكرمل.

خرجنا جميعاً دفعة واحدة من البيت. وأخي محمد يمسك بإحدى يدي وابن عمي إبراهيم يمسك بيدي الأخرى، بينما علق حقيبتي للقماشية في عتقي وانطلقنا للمدرسة. بعد مشوار طويلاً بدأنا نتفصل كل مجموعة في اتجاه مختلف وبقي ثلاثتنا معاً.

كانت لشوارع مزدحمة بالأولاد والبنات مثلنا كل الأجيال في طريقهم إلى المدارس الأولاد يلبسون ملابس مخططة اللون والشكل، أما البنات فكان يلبسن زياً موحداً اسمه (المريول) وهو قميص مخطط باللونين الأبيض والأزرق كل لون له نصف مستقيم، وقد ربطن شعورهن بالشبكات البيضاء وما كان يميزنا نحن الأولاد هو شعورنا المعلقة على درجة صفر أو قريباً منها، وصلنا للمدرسة حيث كان هناك الباعة المتجولون من الرجال والنساء بعضهم يحمل بضاعته على عربات صغيرة وبعضهم يضعها على بسطات صغيرة.

دخلنا للمدرسة فإذا فيها ساحة كبيرة جداً فيها لشجار عالية، وحول الساحة عدد كبير من الغرف، وفي المدخل حديقة صغيرة من الورود والنباتات وفيها بركة (حوض ماء) بدأ أخي محمد يعرفني على المدرسة هذا صف أول (أ) وهذا صف أول (ب)، وهذا صف أول (ج)، هذه صفوف الثاني هذه صفوف الثالث. وهذه غرفة المدرسين، وهذه غرفة الناظر (مدير المدرسة) وهذا المقصف (الكافتين)، هذه دورات المياه، وهذه حنفيات الشرب. قرع الجرس الصباحي وجاء المدرسون ليترتبوا صفوف التلاميذ. تقدمي ترتبوا بسرعة، لما نحن التلاميذ للجدد في الصف الأول فقد جمعنا المدرسون وبدلوا ينادون أسماءنا وكل من ينادونه يقف على جهة حتى قسمونا إلى ثلاث مجموعات، وكل واحد من المدرسين أخذ مجموعته، أستاذنا كان شيخاً يلبس الحبة وعلى رأسه (طربوش) أي أنه كان شيخاً أزهارياً.

دخلنا إلى الصف الأول الابتدائي (أ) هناك بدأ يرتبنا حسب الطول، الأقصر أولاً حيث قسمنا إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة ثلاثة أشخاص وكل ثلاثة كانوا يجلسون على مقعد (بنك) خشبي يجلس على لوح خشبي طوله يزيد عن المتر وعرضه حوالي خمسة وعشرين سنتيمتراً، وأمامنا لوح نفس الطول وعرضه حوالي ٤٠ سم تضع عليه الدفاتر والكتب التي نقرأ فيها، وتحتنا لوح آخر نضع عليه حفاتنا، وكل هذه مثبتة معاً بعرضات خشبية تجعلها كلها وحدة واحدة اسمها (البنك).

وفي الفصل الواحد ثلاثة صفوف من هذه البنوك، كل صف حوالي سبعة بنوك، وفي كل بنك ثلاثة صفوف من هذه البنوك، كل صف حوالي سبعة بنوك وفي كل بنك ثلاثة طلاب وبين كل صف والصف الثاني مساحة حوالي متر ونصف، وفي وسط الغرفة أمام هذه البنوك توجد طاولة للمدرس وكرسي، وعلى الجدار سجرة سوداء نسميها اللوح.

جلس كل واحد منا في وسط المقعد (البنيان) الذي حددته له المدرسة الذي عرفنا على نفسه: أنه "الشيخ حسن"، وبدأ يتعرف علينا واحداً واحداً، وكل واحد يقول اسمه. كان "الشيخ حسن" يسأله عن أبيه وأسمائه وجده، حتى تأكدنا أنه يعرف جميع أهلنا، حتى أنني حين عرفت على نفسي أنني (أحمد إبراهيم الصالح) دعا الشيخ بصوت مرتفع، وقد رفع يديه إلى السماء (الله يرفعكم ليوك بالسلامة) فعرفت أنه يعرف أن لي غائب ولا يعرف مكانه.

وبعد وقت ليس طويلاً حضرنا إلى فصلنا كميات من الكتب والدفاتر والأقلام والمحار، وبدأ الشيخ يوزع علينا تلك الأغراض، كل واحد منا أخذ كتاب قراءة مليئاً بالصور الملونة الجميلة، وتحتها كتابة لا نعرف قراءتها بعد، وكتاب حساب، وجزء عم من القرآن وأعطى كل واحد منا خمسة دفاتر و (٥) قلام ومحابة، غلاف الدفاتر كان ذا لون أحمر مرسوم عليه إشارة وكالة الأمم المتحدة - قسم التنظيم - لليونسكو، وبدأ الشيخ يعرفنا على الأغراض التي أعطانا إياها، هذا كتاب للقراءة، وهذا كتاب الحساب، هذه الدفاتر خبئوا ثلاثة منها عند أمهاتكم ومنفصل دفاتر للقراءة ودفاتر للحساب، كل يوم أحضروا الكتابين وجزء عم ودفترين، وقلماً، والمسحاة، ثم بدأ يكتب لكل واحد منا اسمه على أغراضه بخط جميل، وبقلم حبر أسود في غاية للروعة والجمال.

انتهى اليوم الدراسي وأخذني محمد ولين عمي إبراهيم من يدي وطلقنا عائدين إلى البيت، وقد حمل كل واحد منا حقيبته القماشية وقد ملئت بالقرطاسية. مرت الأيام تترى وقد بدأت أعظم القراءة والكتابة والحساب وبدأت أحفظ بعض قصائد السور مثل باقي التلاميذ في الفصل. نذهب سوية للمدرسة ونخرج للفصحة حيث نلعب ونأكل المسدوشات التي أعدها لنا أمي المحشوة بالدقة أو بالفلفل المخروط، ونأخذ ما تكون محشوة بالمربي، أحياناً كنا نشترى بنصف قطعة الخبز التي معنا من إحدى النسوة اللاتي يجلسن عند باب المدرسة شيئاً من اللبن فننطلق ونحن نقضمها وليس هناك شيء لذ من طعمها للحامض.

نرجع للبيت نفغدي ثم يخرج محمود وحسن إلى مصنع خالي صالح، نقضي الوقت بين اللعب في الحارة وبين القراءة في كتب المدرسة والقيام بالتواجبات التي طلب منا الأستاذ "الشيخ حسن" أدائها، أحياناً في الليل نجتمع حول طشت (طست) الغسيل بعد أن نغسله ونضع السراج وسطه، ويضع كل منا كتابه أو دفتره عليه وينحن وهو يجلس على الأرض ليكمل درسته وأمي والباقيون ممن لا يدرسون يجلسون إلى جوارنا يتحدثون.

ولا يمر أسبوع إلا ونسمع صوت مكبرات الصوت تعلن منع التجول فنفهم أن أحد الفدائيين قد نفذ عملية ضد قوات الاحتلال بإلقاء قنبلة يدوية أو إطلاق النار على إحدى الدوريات. مرة أخرى تحاول قوات الاحتلال اقتحام المخيم فيتصدى لها الفدائيون فترجع خائبة الشيء الجديد الذي حدث هذا العام هو استشهاد "لبي يوسف" (جارنا) فقد خرج أبو يوسف برفقة شابين آخرين لينفذوا إحدى عملياتهم الفدائية ضد دوريات الاحتلال. كانت الخطة أن يلقى أحد الشبان قنبلة على الدورية التي تمر يومياً من الشارع العام في نفس الساعة، وينسحب بحيث يجعلهم يرونه وهو ينسحب. وفي طريق انسحابه يكمن أبو يوسف والفدائي الآخر بينادي الكارلوس توف والقنايل اليدوية، في انتظار التعزيزات التي تأتي لملاحقته، وبالفعل فقد تقدم ذلك الشاب ليقيم بمهمته، وبينما هو في انتظار الدورية هاجمه الجنود من الخلف، وهاجموا أبا يوسف وزميله إبراهيم فجأة، وأطلقوا عليهم النار فاستشهدوا على الفور.

هذه المرة لم تفرض قوات الاحتلال حظر التجول على المخيم، خرج المخيم عن ككرة لبيه، رجاله ونسائه، كبارهم وصغارهم، من بيوتهم وغالبيتهم كانوا يكون على استشهاد لبي يوسف، وجرت للشهداء جنازة مهيبه شارك فيها كل سكان المخيم وهم يهتفون: بالروح بالدم تغديك يا شهيد... بالروح بالدم تغديك يا فلسطين، وطلقت الجماهير بالنشور أنحاء المخيم عدة مرات، ثم أخذوهم لينفذوهم في المقبرة القريبة. عصر ذلك اليوم أخذني جدي معه إلى زوينة الدار حيث يجتمع عدد من رجال وشيوخ الحارة يتحدثون ويسألون ويناقشون أحداث الساعة وآخر التطورات، طبعاً كان حديث اليوم استشهاد لبي يوسف ورفيقه، والجميع كانوا مندهشين مما حدث، أحد الرجال قال: الجماعة أخذوا على حسين غفلة (الجماعة لتخدعوا) ونسأل آخر كيف كان ذلك؟ فأجابه صاحبه: إطلاق النار كان من خلف ظهورهم يعني من عكس الجهة التي كانوا ينتظرون العدو منها، فتسائل ثالث: ماذا تقول يا رجل! فأجابه (زي ما سمعت) فتسائل جدي هل يعني هذا أنه غدر وخيانة؟ فقال للرجل (أنا عارف! ليش عرفني هذا اللي صار) فردد أحدهم (والله أشي بطير العقل) الله يرحمك يا أبا يوسف ويعوضنا فبك عوض الخير.

بعد عدة أيام وقد قاربت الشمس على الغروب واقترب موعد فرض نظام منع التجول كالعادة، وبينما كنا نلعب في الحارة، وإذ بعدد من الفدائيين الملتزمين للمساحين يملأون المكان وكل واحد منهم يأخذ موقعه على رأس الأزقة، ثم جاء "أبو حاتم" وهو يجر أحد رجال المخيم من أخته وهو في أكل شكل وأخرى صورة، كانت بيد أبي حاتم عصا خيزران وبندقية معلقة في كتفه، توقفنا جميعاً عن اللعب، وبدأ أهل الحي يتجمعون ويطلون من بيوتهم، وقف أبو حاتم والعصا بيده وذلك للرجل يحاول إخفاء وجهه بين يديه وبثني جسده ليلصقه قدر المستطاع.

مما سمعت مطبق قطعته صوت أبي حاتم الجمهوري قاتلاً: (يا ناس كلکم بتعرفوا أبو يوسف قائد قوات التحرير الشعبية في المقيم ويتعرفوا وسمعوا عن بطولاته وخصايته التي رفعت رومنا كلنا، والتي أنبت المحتلين، وكلکم بتعرفوا هذا الخسيس الذي لکنفنا أنه جاسوس مع اليهود وأنه هو الذي كان يراقب أبو يوسف وبلغ عنه جيش اليهود).

بدأ جميع أهل المقيم بهمهمون بكلام غير واضح وغير مسموع، وغير مفهوم، رفع أبو حاتم عصاه في الهواء صارخاً سائلاً ذلك الرجل: (وله يا نذل إحدی قدم الناس إيش التي صار) ثمغم للرجل بكلمات غير واضحة فهوت عليه عصا أبي حاتم بعدة ضربات متتالية، فجلس القرفصاء وبدأ حول رأسه فصرخ عليه أبو حاتم أمراً - فنهض على عجل وصرخ عليه أبو حاتم: (اسمع الناس إيش التي صار) فبدأ الرجل يعترف أنه هو الذي أبلغ (وز) عن أبي يوسف وزميليه مقابل مبلغ بسيط من المال، وأنه لم يكن يعرف أنهم سيقولون... فتألمت عليه عصا أبي حاتم بالضرب وارتفع صوت الناس (الله يخریک يا حقیق الله يخریک يا خاين يا جاسوس).

رفع أبو حاتم عصاه مشيراً للناس بالصمت، فساد السكون، فقال أبو حاتم (يا ناس هنول اليهود احتلوا أرضنا وطرّدونا من بلادنا، وقتلوا رجالنا، وهتكوا أعراضنا، وفنّوا ناس مستعدين يتعاونوا معهم ضدّ الفدائيين التي حملوا نراهم على أيديهم، إيش جزاء الخاين التي يشتغل مع اليهود يا ناس؟) فارتفع صوت الناس الموت... الموت... .

فتناول أبو حاتم بندقيته من كتفه، ووجهها نحو رأس ذلك الجاسوس، وضعت يدها على عيني فعلولت لإزاحتها لأرى ما يحدث، ولكن سمعت صوت طلقات وهتف الناس الموت للخائنين، الموت للمسل.

في اليوم التالي كس الفدائيون لإحدى دوريات الاحتلال بعد أن لقسوا بنم الشهداء أن ينقموا لهم أبو يوسف وحين وصلت سيارة الحبيب ألقوا عليها عدة قنابل يدوية، وأمطروها بعدة زحاحات من الرصاص فقتلوا عدداً من أفرادها، وأصابوا آخرين، لم يتمكن الجنود من رفع أسلحتهم للردّ لو لإطلاق النار على المارة من الناس على الفور. جاءت تعزيزات كبيرة من قوات الاحتلال حاصرت المنطقة، وبدأت بإخراج الناس من البيوت القريبة تحت الضرب والركل والإذلال، وإطلاق النار في الهواء، جعلوا الرجال يضطفون على الجدار وجوههم إليه والبنات موجهة إلى رؤوسهم، والضرب والركل مستمران.

جاء ضابط للمخابرات المسئول عن المنطقة وبدأ يستعرض للرجال واحداً واحداً، ثم يناديهم واحداً واحداً وهو يجلس في سيارته وبابها مفتوح، ليقف الواحد منهم عنده وللبندق مصوبة إليه فيبدأ بالأسئلة عشرات بل مئات الأسئلة، عله يحصل على لى معلومة تفيد في تخطيط القذيين.

بعد أيام رفع منع التجول وذهبنا للمدرسة كالعادة، أثناء الفصحة بعد ثلاث للخميس الأولى خرجت إلى دورات المياه، هناك وجدت الأولاد يمشقون جدران ليس عالياً وينظرون من فوقه ويتحدثون مع أولاد آخرين، فتمت نحو الجدران وتمسقت مثل الآخرين ونظرت فوجدت أننا نطل على المدرسة الإعدادية التي يدرس فيها أخى حسن، الأولاد الذين يدرسون في المدرسة يبدون كباراً، فهم أكبر منى وأطول منى بكثير.

في هذا اليوم ونحن في طريق عودتنا من المدرسة للبيت لنا وأخى محمود وابن عمى إبراهيم ومن بين مئات الطلبة الذين كانوا يملأون الشارع شاهدت ابن عمى حسناً على بعد عشرات الأمتار منى، وبينى وبينه عدد كبير من الطلاب والطالبات، كاني رأيت حسناً يرفع يده نحو قمره ويضع شيئاً في فمه، هل هو سيجارة؟ ثم رأيت يده وينفث من فمه الدخان، شددت يدي محمد وإبراهيم للذين كانا يمشكان بيدي كالعادة، وهما ينظران إلى بدشة أثرت لهما بعيني نحو حسن، لم يفهماني وتساءلا بتعجب واستغراب ماذا حصل (إيش مالك) فقلت حسن!! نساء لا: ما باله؟ (مالك) كان حسن قد لنبه أننا خلفه فألقى عقب للسيجارة التي كان يذخها ولم ير محمد وإبراهيم شيئاً، وكنا قد وصلنا فأثرت الصمت خشية أن تنالني إحدى ركلاته.

حين عدنا للبيت وجدت أمى وحدها بعد أن سحبت القرصة فتقدمت منها هامساً في أذنها (إما شفت حسن ابن عمى بدخن!) للتفت إليّ أمى بنظرة حادة وقالت (أكيد أنت غلطان ومتوهم، ما تقولش ها الحكي لحد، ماشي) هزرت رأسي موثقاً وتطلقت ولكن لم يفتني في ذلك اليوم أن لى قد اخفكت بحسن ابن عمى وكانت تتحدث معه وتساله وهو مطلقاً للرأس نون أن لى سمع حديثهما، بعد أيام بعد أن عدنا من المدرسة سمعت أمى محموداً يتحدث مع أمى أن ابن عمى حسن لم يذهب في هذا اليوم للمدرسة، قد شرب منها رأيت الحيرة في وجه أمى فما عساها أن تفعل لعلاج هذه المشكلة.

رأيتها تتحدث مع جدي وقد ناديا حسناً وتحدثا معه حديثاً عذيفاً، وقد حاول أن يدفع عن نفسه دون جدوى، وقد اسمعاه تهديداً بأنهما سيجعلان محموداً وحسناً بمسكته ويربطانه بالحبل في صعود عريشة الدار ويوجعانه ضرباً إذا عاد وتسرب من المدرسة. بعد أيام مضطت والدتي في جيب بتطاله عدة مسافر وربع ليلة، أخذتها وخرجت بها لجدي الذي كان يجلس في ساحة الدار قاتلة: انظر ماذا وجدت في جيب حفيدك، نظر الجد بدعشة إلى ما في يد أمي وتساءل: من أين لتي هذا الولد بالفلوس؟ وحينها صرخت أمي على محمود وحسن أن يهضرا حسناً أين عمي فوراً، خرجا وغابا قليلاً ثم عادا وحسن يرفقتهما.

جدي كان قد هذه العمى والهم، فلم يكن قادراً على فعل شيء، وهنا تولت أمي مسؤولية التحقيق مع ابن عمي حسن سائلة: (من أين حصلت على الفلوس) تسأل حسن أي مصاري؟ أجابت وقد أبرزت له ربع الليرة والسجائر، صمت حسن فقد أسقطه في يده، وكأنه يقول هذه مصيبة، حاول أن يراوغ صرخت أمي على محمود وحسن: أمسكاه، وصرخت على فاطمة لحضري الحبل يا فاطمة، أسرع الجميع لتنفيذ مهماتهم، لحا وأخي محمد وابن عمي إبراهيم كنا ننظر من وراء ظهر جدي إلى ما يجري، ونحن في غلابة الخوف والدعشة مما يحدث.

أمسك محمود وحسن ابن عمي حسناً وشدها إلى العمود وأحضرت فاطمة الحبل وبدأت أمي تحاول ربطه إلى العمود وهي تحقق معه. فحين وجد أن الأمور جدية، صرخ قائلاً: لقد سقطت من جدي نصف ليرة وأخذتها. دهش جدي من ذلك فكيف يمكن أن تسقط منه نصف ليرة، وكم نصف ليرة معه أصلاً؟! وأصلحت أمي التحقيق مع حسن أين وقعت؟ وحينها بدأ حسن يتلثمهم بصورة تؤكد كذبه، فصرخت أمي على محمود وحسن: شدوه للعمود ولوحت بالحبل فقال لقد أخذتها من كيس جدي من حين علقه على العلاقة وكان ثامناً.

صرخت أمي أخذتها ونسبي هذا لأخذاً، قل سرقت من كيس جدي، وانفتحت نحو جدي قائلة: ما رأيك يا 'أبو إبراهيم'؟ ماذا تفعل به؟ جدي كان يضرب كفاً بكف بعد أن أخرج كيس نقوده وتخلص ما فيه فوجد فيه نصف ليرة فقط، وقد أخذ حسن النصف الآخر، بمعنى أنه أخذ نصف مصروف العائلة، قال جدي بصوت ضعيف لربطيه على العمود... لربطيه، نظرت أمي للجد وكأنها تسأله هل هو جلد في ذلك؟ فأشار لها رأسه بالإيجاب وهو يحرك عينيه نحوها، وكأنه يقول لها يجب أن يرى الأولاد أنه يحلق على ذلك، وإلا فكيف سيؤثر ذلك عليهم؟

ربطت أُمي حُصناً إلى العُلُود وهي تقوِّح وتُتدب عَظَها، وحَظَّ حُسن، يا حُسرَتي
عليك يا بُن الشَهِيد، أبوك شَهِيد يا حُسن.. عَرفَ مَعنى شَهِيد، أبوك شَهِيد وأنت تَسْرِق
نُصف ما في كَيس جَدِّك!! نُصف مَصروف العائِلَة يا حُسن!! عَيبَ عليك يا حُسن، نَعم
صَرَخت عَليَّنا جَمِيعاً لَنُخلوا جَمِيعاً إلى الغُرفة، فَمَعنا جَمِيعاً نون نَرَدَد.
في هَذِهِ اللَّيلة فَرَضَ عَليَّنا حَظَر النَحوَل لَيس فِقط في الدار من قَوات الاِحتِلال بَل
في الغُرفة من أُمي حَيت مَنَعَتنا من الخُروج من الغُرفة طَيلة اللَّيل، إلا في الحَالات
الطارئة جَداً، ولَرُشمتنا عَلى النُوم مَكرَين.



الفصل الخامس

جاءت خالتي فتحية وزوجها لزيارتنا، استقبلت أمي خالتي بالقبلات والاشتياق، وخالتي بدلت ثقلنا واحداً ثلث الآخر، أمي دخلت لتعد الفراش للضيوف، وهي تتادي على جدي (يا عمي أبو إبراهيم قوم أجونا ضيوف) خرج جدي من غرفته وأقبل بمسلم على زوج خالتي التي كانت تحمل معها سلة من الفس فيها عدة أكياس وركبة ناولتها لأمي.

فاطمة أعدت الشاي، شربوا الشاي ثم استأذن زوج خالتي للمغادرة إلى بيت خالي، ولأن خالتي ستظل عندنا هذا اليوم والليلة وسيلاتي غداً لمرافقتها للعودة، جدي حاول أن يثنيه وأن يجعله هو الآخر يبيت عندنا، فاعتذر بشدة لأنه يريد أن ينهي بعض الأمور، ودعه جدي وأمي وخالتي حتى الباب، ثم عاد جدي لغرفته، وعادت أمي وخالتي لغرفتنا وتحلقنا حولها.

لحضرت أمي السلة وبدلت بإخراج ما فيها، كان في أحد الأكياس تفاح أحمر كبير، لم نر مثله من قبل، وبالطبع لم نذق مثله فقد كنا نأكلنا التفاح مرتين أو ثلاثاً فقط طيلة أيام عمري وليس من هذا النوع، في كيس آخر يوجد فاكهة أخرى لم نعرف حينها اسمها، عرفت اسمها حين كبرت وهي (الخوخ) وفي الثالث كانت قطع من اللبن المجفف، نظرت أمي لخالتي وقالت: (غلبتي حالك يا فتحية)، دمت عيون خالتي فتحية وهي تقول: (يا ليتني لقد أن أساعدك كما يجب يا أختي الحبيبة) ثم قالت إن وضع زوجها المالي جيد والحمد لله. أخذت أمي الفواكه وخرجت بها ثم عادت بعد قليل وقد غسلتها، ثم ناولت محموداً ما يقارب نصف التفاح والخوخ طالبة منه أن يأخذها لغرفة جدي ولبنّي عمي، وظلت أمي وخالتي تتحدثان حتى وقت متأخر من الليل، ونحن حولهما في فرح كبير بتقوم خالتنا الحبيبة.

زوج خالتي عبد الفتاح ذهب إلى بيت خالي، حيث سهر الليل برفقته، بحدته عن الأوضاع في منطقة الخليل، في المدينة وفي البلدات ولقرى حولها. عبد الفتاح كان قد أنهى دراسته الثانوية قبيل سنوات وبدأ يساعد والده في أعماله في الزراعة وفي تربية الأغنام، ويفكر في الخروج للدراسة في إحدى الجامعات العربية في الأردن أو في السعودية، خالي كان يسأله عن أوضاع المقلومة والفدائيين، ومستوى حياة الناس واستعداداتهم وروحهم المعنوية خلال السنوات الثلاثة منذ الاحتلال الإسرائيلي.

منذ احتلال مدينة الخليل، وبعد أيام محدودة بدأت أفواج كبيرة من السباح تأتي إلى الخليل بزيارة الحرم الإبراهيمي، حيث إن اليهود يعتقدون أن لهم حقاً تاريخياً في المكان، الأمر الذي فتح مجالاً للانتعاش الاقتصادي في المدينة، حيث استغل الكثيرون من تجار المدينة ذلك ففتحوا متاجرهم وبدأوا يعرضون بضاعتهم للسائحين، وبييعون لهم كل ما يمكن بيعه بأعلى الأسعار حتى أنهم باعوا لهم (البلوطة) وقد كان الأجانب يعتقدون أن البلوطة مقدس من بلد ألبينا إبراهيم عليه السلام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن اليهود كانوا يلتصقون بالخليل لشراء مستلزماتهم من شتى الأمور من المحال والمطاعم ومن الأسواق الأمر الذي أدى إلى حدوث انتعاش حقيقي في المدينة ومستوى الحياة الاقتصادية فيها.

وقد لوحظ أن جنود الاحتلال يراعون عدم الاختلاط الزائد بالناس ويبدو أن ذلك قد جاء بناءً على طلب رئيس البلدية "الشيخ الجعبري" من كبار القادة الإسرائيليين الذين اجتمعوا معه بعد احتلال المدينة حيث طلب منهم أن يحرصوا على ألا يعتدي جنودهم على أعراض الناس وأموالهم، وكان أولئك القادة وعلى رأسهم "موشيه ديلان" قد أدرکوا أهمية ذلك فحرصوا على تنفيذ النصيحة، فكان احتكاك الجنود بالناس قليلاً.

لم يكن الناس قد أفلتوا من صدمة النكسة والهزيمة، وحالة من الرعب تسيطر على غالبية الناس من الاحتلال واليهود بحيث يتجول اليهودي في المدينة وحده، ولا يجد من يعترض طريقه، أو يفكر في الاعتداء عليه ولو علم الناس أن هناك من يفكر في ذلك سيمنعونه خوفاً وحرصاً.

لكن هناك بعض المقلومة بين الحين والآخر، وفي فترات متباعدة تنفذ عملية إطلاق نار وقصص أو إلقاء قنبلة يدوية على دوريات الاحتلال في أطراف المدينة أو في إحدى القرى والبلدات المحيطة بها، رغم أن هناك العديد من القرى والمناطق التي لم تدخلها قوات الاحتلال طيلة الوقت، هناك بعض المجاهدين ممن يعيشون في الجبال في المغارات التي تقوم تحت الجبال لمسافات طويلة جداً يخرجون بين الحين والآخر بهاجمون دوريات الاحتلال فيوقعون بينها الإصابات، وأحياناً نادرة قتل، ثم يلجأون إلى الجبال مرة أخرى حيث لا تستطيع قوات الاحتلال ولا تخرج على التوصل في تلك المناطق الوعرة التي لا يعرفونها، وأشهر هؤلاء المقاومين رجل يسمى "أبو شرار" وهو مجاهد أطار النوم من جنود المحتلين في تلك المنطقة.

حركة فتح تحاول أن تنظم بدء المقاومة في المدينة وحولها، ولكن النجاحات في المنطقة محدودة للغاية حيث يقوم المحتلون باصتقال مجموعات تحاول البدء بالمقاومة، أو تكون قد بدأت فعلاً بدفقاتها الأولى، ولما تنجح في الوقوف على قدميها بعد، ولعل لشغال الناس بأمور حياتهم والإنتاج الاقتصادي وأقلق النجاح تحول دون نجاح المقاومة في المنطقة وتحولها إلى مظاهر بارزة وسائدة فيها.

ولكن بدأت في المدينة حركة احتجاجات سياسية ينظمها أعضاء مؤيدون لحركة فتح خاصة في الأوساط الطلابية، كما أن هناك محاولات لبدء العمل من قبل الجبهة الشعبية، ونظراً لعدم النجاح الواضح في مجال المقاومة فإن النشاط تركز على العمل السياسي والشعبي، وبعض الأنشطة الاجتماعية. كان خللي يستمع باهتمام لزوج خلتي "عبد الفتاح" وهو يصف الوضع في المنطقة بصورة تفصيلية، وي طرح عليه بعض الأسئلة الاستيضاحية بين الحين والآخر، ليعرف كل صغيرة وكبيرة محاولاً فهم الفوارق بين الوضع في الضفة الغربية وبين قطاع غزة.

في قطاع غزة كانت قوات التحرير الشعبية التي جاءت لتجمع ضباطاً ومقاتلين من جيش تحرير فلسطين الذي تشكل في حرب ١٩٦٧، وكانت قوات التحرير هي التجمع المقوم الأكبر، وفي نفس الوقت بدأت المقاومة بمجموعات لفتح وللجبهة الشعبية، ومستوى المقاومة في قطاع غزة بصورة عامة جيد، رغم النجاحات التي يحققها الاحتلال في اغتيال بعض القيادات وفي مزيد من التطفل في المنطقة ومعرفة المزيد من أسرارها. بعد أيام من مغادرة خلتي مري في الحارة خبر أن هناك عملية مقتولة وجنتها ملقاة غربي منطقة المشي، بدأنا نندفع للذهاب لرؤية الجثة هناك كالمادة حينما يسري خبر كذلك وقد كانت الجثة ملقاة هناك، لم يعرف أحد بالضبط من الذي قتل تلك المسبية، فقد سرت إشاعة أنها عميلة وقتلت على تلك الخفية. لم يجرؤ أحد على رفع صوته معترضاً على ذلك أو متسائلاً عن التفاصيل، ولكن الهمهمة والهمس في الحارة سادت، حيث تردد أنها ليست عميلة، وأن بعض من تقصوا صورة الفدائيين استغلوا حصانهم وخذعوها، ثم هتكوا عرضها، وخشية أن ينقضوا قلوبها وأنهموها بأنها عميلة، لمخبرات الاحتلال كثفت عملها للتغلغل في أوساط الشعب مستغلة نقاط الضعف والحاجة والفقر، وعملت على تجهيد الصلاه الذين ينقلون لها المعلومات عن المقاومين وتحركاتهم ومن يؤمنهم ويساعدونهم في كل مناسبة وفي غير مناسبات.

تقوم قوات الاحتلال باعتقالات كبيرة من الرجال والشبان حيث ينقلون إلى مبنى للمرابا حيث مقر المخابرات، هناك تستقبلهم أعداد كبيرة من الجنود بالضرب والصفع والركل يحصبون عيونهم ثم يوقفونهم ووجوههم نحو الحائط، وأيديهم مقبدة نحو الخلف، ساعات طويلة تحت المطر وفي البرد الشديد يرتجفون برذاً وتحسباً أو خوفاً، والجنود يقفون خلفهم يتبادلون الدوريات، يركلون ويضربون كل من يرتكز على الجدار أو يتحرك بمئة أو مئتين، وفي غرفة قريبة يجلس عدد من ضباط المخابرات الثنين بيوت (اسمها حين ذلك) في الغرفة المضيفة المكيفة يستدعون الرجال واحداً واحداً، يجلسونه على الكرسي أمامهم ويرغمون العصاة عن عينيهم، ويبدعون بمطرونة بآلاف الأمثلة عن نفس عمله، بلدته، أهله، إخوانه وكل واحد منهم جيرانه، وعن رجال المقاومة، ويوجهون له مئات الشتائم واللعنات، ومن أبدأ وأقتر ما قد يلفظه الأدميون بلغتهم الخاصة التي تكسر اللغة العربية التي ينطقونها، ويضربون أحياناً، يمازحون أحياناً أخرى، ويهاندون بين التهريب والترغيب بحثاً عن أي معلومات لدى الرجال أو عن استعداد عند أحدهم للتعاون معهم أو عن نقطة ضعف لدى آخر، للضغط عليه لإجباره على التعاون معهم ضد أهله وريعه.

للبعض من الرجال يتحرقون غيظاً وقهراً أمام هذا الإذلال، ولكن ماذا بإمكانهم أن يفعلوا، وإن فعلوا شيئاً فليس أمامهم إلا مزيد من الإذلال والقهر، بعضهم يتفجر مزجراً يريد أن يهاجم تلك الحفالة فيجد يديه مربوطين وراء الظهر ولا يجد إلا المزيد من الحقارة، وللبعض يحاول اجتياز هذه الأزمة بالتي هي أحسن فهو يريد أن يعيش بهدوء لا معهم ولا ضدهم، ولا مع المقاومة ولا ضدها، يريد أن يعيش ويطعم أولاده وأهله وكفى، وقتل من يبيعون نفوسهم ودمهم رخيصة للمحتلين فيبدأون يقدمون لهم كل ما يعرفونه من معلومات عن المقاومة ورجالها ويوافقون على التعامل معهم.

وضع المقاومة في قطاع غزة كان أقوى بشكل ملحوظ عنه في الضفة الغربية، ويبدو أن السبب الرئيسي لذلك هو وجود تلك الكتيبة من المقاتلين التي سموها جيش تحرير فلسطين والتي أنشئت كقوة عسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي دعمت الأنظمة العربية حينها لإنشائها لتخفف عن كاهلها عبء المسؤولية تجاه فلسطين، ومع حرب ١٩٦٧ تفكك هذا الجيش بعضه استشهد وآخرون وهم الغالبية غادروا القطاع إلى مصر أو رُحلوا إليها، والبعض بقوا في غزة وأنشأوا قوات التحرير الشعبية التي بدأت المقاومة، ثم بدأت بعض المجموعات والخلايا لحركة فتح والجيبة الشعبية بالعمل في القطاع وبدأت تزداد تواجداً خاصة في مناطق المخيمات.

في أحد الأيام وبينما نحن في طابور الصباح في المدرسة، حدثت جلبة كبيرة ثم سمعنا هتافات عالية بالروح بالدم نفديك يا فلسطين. بطروح بالدم نفديك يا فلسطين، وخرجت المدارس والتقت مع المدارس الأخرى في حشد يردد الهتافات والصرخات، وكان الجميع في فرح كبير وسعادة غامرة وقد جاء ذلك اليوم بيوم الكرامة حيث نجح الفدائيون الفلسطينيون في الأردن في صد الهجوم الإسرائيلي على الجبهة الأردنية. طافت المظاهرات شوارع المخيم وهي تردد الهتافات وترفع الأعلام ثم انفصلت حيث عدنا إلى بيوتنا. شعور الجميع كان في قمة العزة والشموخ، فبعد نكسة ١٩٦٧، كما اعتاد الناس تسميتها وفقاً لتسمية النظام العربي الرسمي لها كان هذا أول نصر على جيش الاحتلال الإسرائيلي. ومن مجموعات الفدائيين التي كانت تسكر على الضفة للشرقية نهر الأردن في منطقة الكرامة وكانت قد بدأت في تشهد بعض العمليات الفدائية عبر الحدود.

بعد عصر ذلك اليوم جلست كالمادة مع جدي في الساحة القريبة من زاوية البيت، حيث يجتمع رجال الحي يتحدثون، كانوا جميعاً في غاية النشوة وبدأت تتردد كلمة الثورة الفلسطينية واسم حركة التحرير الوطني (فتح) وقد بدأ واضحاً أن (فتح) قد بدأت تتقدم لتتبوأ موقع الصدارة في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية للاحتلال، يومها سمعت بعض الرجال يقولون (يا صبي هاي الكلام المزبوط ما بيعرث الأرض غير عجلها، كنا نعتمد على الجيوش العربية كنا نهزم، وفي أول مرة بنحارب إحنا بنتنصر، رغم قلة حيلنا وضعف سلاحنا) والرجال جميعاً يهزون رؤوسهم موافقين مؤيدين.

خلال الأيام التالية تزايدت وتيرة العمليات الفدائية في داخل الأرض المحتلة في الضفة الغربية وغزة، وكما كانت أمي دوماً تقول (نفس الرجال بحبي رجال) فكانما أنها نصر معركة الكرامة نفوس الكثيرين بالأمل والاستعداد، ويبدو أن مخابرات الاحتلال قد جمعت معلومات مفادها أن كثيراً من العمليات التي تحدث في غزة منبعها من مخيم قشاطي، فقد فرضت على مخيمنا منع التجول. في هذه المرة طال منع التجول كثيراً، تجاوز ثلاثة الأسابيع حتى أنه تجاوز الشهر ولوضاعتنا في المخيم ازدادت سوءاً وقسوة، المخيم كان تحت نظام حظر التجول منذ شهر.

الحياة تجري على طبيعتها على بعد عشرات الأمتار في المدينة، لو رفع لذان الظهر من مآذن المساجد في غزة مسجد العباس يقع على الشارع الرئيسي في المدينة شارع عمر المختار وعدد من الرجال والشبان يتوافدون على المسجد ليؤدوا الصلاة.

بعد أن أنهوا الصلاة وقف أمامهم شاب في مقتبل العشرين من عمره واتقاً مما يريد حمد الله ولتلى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم بدأ يخاطب القوم ويستثير فيهم القوة والشهامة نحو إخوانهم في مخيم الشاطئ الذي يفرض عليه منع التجول منذ شهر، فيتساءل الشيخ وماذا بإمكاننا أن نفعل يا بني؟ فنجيب الشاب ليس كل من أن نخرج في مظاهرة تضامن، تدافع المتواجدين في المسجد خارجاً يهلون ويكبرون وقد حمل بعضهم ذلك الشاب على أكتافهم، وهو يهتف بالروح بالدم نفديك يا فلسطين.. كننا فلسطيني مهاجرين ومولدين.

وبدأ الناس يتجمعون للمظاهرة الحاشدة وكانت شوارع المدينة قريبة من المخيم وسيارات جنود الاحتلال تراقب الوضع من بعيد تحسباً للطوارئ دون التدخل، انقضت المظاهرة وقد شعر الجميع أنهم أدوا شيئاً مما تطلبه عليه ضمائرهم، ومع صباح اليوم التالي ارتفع صوت مكبرات الصوت يعلن انتهاء نظام منع التجول عن المخيم لتعود الحياة فيه إلى طبيعتها.

في الصباح كنا نصطف في الطابور المدرسي، وبعد بعض التمرينات الرياضية المحدودة وكلمة الصباح التي يلقيها أحد التلاميذ من فوق ذلك الدرج الحجري أمام الطابور، يبدأ بالتوجه صفاً نحو الآخر إلى كشك الطبيب وهو عبارة عن ساحة مظلة من ثلاث جهات بالحجارة المبنية مسقوفة بالآواج (الزيفكو) وفي سطحها مصطبة من الإسمنت يكون عليها عدد من المناضد الكبيرة خلفها يقف أربعة رجال يلبسون (الابرهسولات) الزرقاء ويضعون على رؤوسهم الطاقيات البيضاء، ندخل لكشك على شكل طابور، ومدرسوناً يشرفون على ذلك، فيبدأ أولئك الرجال بمناولتنا واحداً تلو الآخر لكوئياً حديدية يملأونها بالحليب بعد أن يعطوا كل واحد منا حبة زيت السمك، ويطلبون منا لتناولها ثم شرب الحليب الساخن عليها.

نشرب الحليب، ونلقى الكؤوس في قدر كبير فيه ماء مغلي، ونخرج من طابورنا إلى صفوفنا (عُرف دراستنا) كل المدرسة أي كل الطلاب في كل مدارس الوكالة على مدار أيام يشربون الحليب وزيت السمك، كنا نكره زيت السمك كراهة عباء، المدرسون كانوا يراقبوننا كي لا نلقى تلك الحبات الصغيرة، ويجبروننا على تناولها وهم يستعجلوننا لشرب الحليب والذهاب إلى الصفوف.

زيت السمك مفيد جداً، ولكن الحليب الساخن محمول واحسن ما فيه هو دواء
الكأس فحين تمسكه بيدك الصغيرتين والثنتين تكادان تتجمدان في ذلك للبرد القارس،
تشر عادة بأن يدبك لصحتنا جزءاً من جسك بعد ان كانا سقطنا منه.

في أحد تلك الأيام كلن الجو شديد البرودة وعاصفاً وقد نهل شالبيتنا من مجاء
المطر في طريق ذهابنا للمدرسة. بعد ان تناولنا الحليب دخلنا فصلنا وجلسنا على مقاعدنا
نرتجف. دخل الأستاذ الشيخ علينا وكأنه أدرك أننا لسنا بحالة تسمح لنا بالدراسة أو
القراءة أو الفهم فأراد أن يضحكنا، فقال: يا أولاد ثقيلوا لأن السماء تمطر الآن رزاً
ولحماً!! حدثت ضوضاء في الصف وقد سمينا البرد والبلل ونحن نسمع ذكر الرز واللحم،
وبدأنا نتحدث بون نظام، أنا لن أكل سوى اللحم.. أنا أحب الرز... أنا... أنا.

تركنا الشيخ نلهو نلعب ونعيش أحلام الرز واللحم بضع دقائق ثم صرخ علينا:
(استكثوا أنت وإياه الله يجعلها تمطر جرأاً نعضكم جميعاً مرة واحدة) فقال أخرجوا كتب
القراءة، انصعوا على الدرس العشرين، اقرأ يا أحمد، فتحت كتابي الذي كان مبتلاً بالماء،
وبدأت القراءة وأنا لرتجف من شدة البرد، وشفاء الشيخ تقسم: لا حول ولا قوة إلا
بالله.. إتأ لله وإتأ إليه راجعون يجب أن نتعلموا حتى تصبحوا (بنانيين).



الفصل السادس

تمسكن خالتي فتحة في قرية سوريف قضاء الخليل، وهي قرية فلسطينية مثل كل قرى الوطن وقعت تحت الاحتلال عام ١٩٦٧، ونالها نصيبها من التغريب والتدمير عقاباً على دورها في المقاومة قبل الاحتلال، وفي المعارك التي سبقت عام ١٩٤٨، كونها قرية حدودية تقع على الخط الأخضر الفاصل بين الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨ وبين الأراضي التي ظلت تحت الحكم الأردني، حتى احتلت عام ١٩٦٧.

وبد الاحتلال بقتل فقريت دوريات الاحتلال من القرية ودخلتها لتجوبها مثلها مثل معظم القرى الفلسطينية في ربوع الضفة الغربية. يعيش الناس فيها في بيوت حجرية صغيرة متواضعة وجميلة، بين أشجار الزيتون والتين والتعب والوزيات، ويربون المواشي والدواجن ويكتسبون رزقهم، ويحمدون الله على خيراته ونعمه التي لا تحصى. رجال قرية معروفون بالشهامة والرجولة ويلبسون الزي القروي الفلسطيني التقليدي، تزي للواحد منهم يتخذ بعصاه وهو يراقب أغنامه ترعى على سطح الجبل، ونسلوها المتحشمت يظهرون بخلقهم وثيابهم وأعطية رؤوسهم.

خالتي لم تشعر باختلاف كثير إثر انتقالها من غزة إلى سوريف، فقط الاختلاف في الأجواء القروية والزراعية، أما أطباع الناس وعاداتهم وأصالة نفوسهم فهي واحدة، ربما اللهجة المحلية مختلفة قليلاً لكنه ليس خلافاً شامعاً، وسرعان ما اعتادت على الحياة هناك، زوجها عبد الفتاح أنهى دراسته الثانوية، في مدرسة طارق بن زياد في مدينة الخليل، ففي سوريف لا توجد مدرسة ثانوية، مثلها مثل كل القرى المحيطة بالمدينة، ومن أراد إكمال دراسته الثانوية فإنه يضطر للدراسة في الخليل، ودراسة زوج خالتي في الخليل جعلته عارفاً بالمدينة وما يجري فيها، وله أصدقاء كثير من المدينة ولبناء القرى الأخرى الذين درس معهم في تلك المدرسة.

وقد رزقت خالتي بولد أسمته "عبد الرحيم". أمي لا تستطيع السفر إلى الخليل لتبارك لخالتي بمولودها الجديد ولكتفت بالذهاب إلى بيت خالي لتبارك له، وتطلب منه أن يبارك لفتحة عندما يذهب إليها باسمها، ويحضر عنها فهي تعرف لوضاعا للمابة وتعرف لوضاع العائلة.

زوج خالتي عبد الفتاح كان يستعد للسفر للدراسة في الجامعة الأردنية/ كلية الشريعة ولكن مرض والده الشديد دفعه لتأجيل ذلك، ثم إن وفاة الوالد جعلته يتخلى عن فكرة الدراسة في الجامعة. قرر أن يتولى عمل والده في متابعة تجارته في الأقمشة، بالإضافة إلى متابعة الأرض التي يمتلكونها وعزى نفسه عن إكمال الدراسة بأن يُيسر ذلك الأمر لأخيه عبد الرحمن الذي كان في السنة الثانوية الثانية، في مدرسة طارق بن زياد في الخليل، كثيراً ما وقف عبد الفتاح على سقف منزلهم وهو يشير لخالتي عروب البلدة إلى خربة (علين) حيث كان يعسكر رجال الجهاد المقدس قبل احتلال عام ١٩٦٧، وأن السكان كانوا يقدمون لهم كل ما يلزمهم من احتياجات، وأن أحد سكان صوريف واسمه محمد عبد الوهاب القاضي كان يرعى غنمه في أحد الأيام في منطقة قريبة تدعى (صناحين) فتشاهد قافلة من اليهود قادمة من جهة (بيت شيمش) إلى عتصيون فأبلغ المجاهدين الذين سارعوا فنصبوا لهم كميناً في منطقة تسمى (ظهر الحجة) وحين وصلوها هاجمهم وقتلوه جميعاً وكان عددهم (٢٥) من الضباط والجنود والأطباء فلم تلبث قلوب اليهود حقداً على بلدة صوريف، وحين حدث الاحتلال عام ٦٧ قام اليهود بقصف بلدة صوريف بالمنفعية ودمروا العديد من المنازل، فقط بدافع الانتقام لما كان في ذلك الحادث.

من خلال عمل زوج خالتي وعلاقاته بمدينة الخليل تطورت له شبكة علاقات كبيرة مع تجارها ومشغليها، وفي جلساته ولقاءاته معهم كانت تكثر بينهم أحاديث طويلة وحوارات مفصلة حول كل شيء، يجلسون في أحد تلك المتاجر، يلتفون حول المدفأة والبرق فيها متوهج ويرتشفون الشاي ويتداولون الحديث عن المقاومة وعن الاحتلال، كل تلك الحوادث كانت تعكس دوماً عدم إيمان تلك الشرائح من السكان بجدوى المقاومة وإمكانية تحقيق أية فائدة عملية من ورائها، وأنها قد تضر أكثر مما تنفع، وأن الاهتمام الأكبر لديهم هو رفع مستوى الحياة والارتقاء بها والكسب الاقتصادي وتنمية الثروات، والعلة كانت دوماً أن الجيوش العربية كلها بقضها وقضيضها لم تفلح في الوقوف في وجه الجيش الإسرائيلي، فكيف يمكن أن يقف في وجهها مجموعات من الفلسطينيين بأسلحتهم البسيطة وإمكاناتهم المحدودة.

زوج خالتي لم يكن يجرؤ على مخالفتهم صراحة في آرائهم هذه، ولكنه كان يستمع لهم ويحاول أن يناقشهم بصورة موضوعية منطقية محضة، وفي النهاية ينفذ القوم بعد أن يكونوا قد جلسوا ساعة أو بسعة ساعة يرتشفون الشاي، وقد ينهي أحدهم الجلسة قائلاً: (ما لنا ولهذا الأمر دع الخلق للخلق والله يجيب اللي فيه الخير) بتلك اللهجة الخاصة التي يتميز بها أهل الخليل عن غيرهم حيث يمدون هروفاً أكثر من غيرها أثناء نطقها.

في هذه الجلسات والحلقات والعلاقات تعرف زوج خالتي علي "أبو علي" الذي بدا فيه أكثر إيماناً بضرورة عمل شيء تجاه القضية، وأن المقاومة لن لم تكن مجدية على مستوى تحرير الوطن وحرر الاحتلال، فهي دونما شك قيام بالواجب للوطني على أقل تعديل.

كثيراً ما مشى زوج خالتي هو وأبو علي في شوارع الخليل أثناء زيارات زوج خالتي للخليل أو صوريه حين يأتي أبو علي لزيارة زوج خالتي فيتجاذبان أطراف الحديث حول الاحتلال، ووجوب مقاومته، وضرورة عدم التمسك بالامر الواقع، أو الانشغال فقط بكسب المال وتنمية الثروات وبناء المنازل؛ ولأن أفكارهم متشابهة، فقد توصلت صداقتهما كثيراً، في أحد الأيام صارع أبو علي زوج خالتي قائلاً: إنني لن أظل مكتوف اليدين هكذا دون القيام بالحد الأدنى من واجبي، فسأله زوج خالتي: وماذا عساك أن تفعل؟ هل ستبحث لك عن قطعة سلاح وتهاجم بها دورية للاحتلال، ثم تهرب لتعيش مع أولئك المطلوبين مثل "أبو شرار" وغيره من فدائيي المجاهدين، أجاب أبو علي: لا فليس هذا ما أطمح إليه، ولكنني أرغب في أن ننظم المقاومة لنحولها إلى ظاهرة إلى تثير إلى تنظيم، فسأله زوج خالتي: وكيف؟ أجاب: سأسافر إلى الأردن وأعرض فكرتي على فتح هناك ولنت تعرف أن فتحاً بعد الكرامة قد أخذت وضعها ولا بد أنهم سيسمعون بفكرتي ويقدمون لي كل العون في ذلك. ١

تلى زوج خالتي علي الفكرة وأكد علي "أبو علي" أن يأخذ قمة احتياطاته وأكد له أنه يمكنه اعتباره شريكاً كاملاً له في كل خطوته، واتفا على أن يسافر أبو علي وحده، وأن يدبر لسفره غطاءً تجارياً كيلا يلفت إليه الأنظار.

الأردن كانت في هذه الفترة بعد انتصار الكرامة كلها طوع بندان المقاومة، ومخيمات اللاجئين فيها امتلأت باحتفالات النصر، الجميع بدأ يهتف بحياة الفدائيين، ويلهج بالغناء والدعاء لحركة التحرير الوطني الفلسطيني الاسم الذي كان وراء ذلك النصر. ولم يكن صعباً على شخص مثل "أبو علي" أن يستغل على الفور على قيادة للعمل للفدائي هناك وأن يتفق معهم على البدء بتنظيم خلايا عسكرية لفتح في كل مناطق الضفة الغربية، وأنه سيتم تزويده بالمال والسلاح لإتمام ذلك وإنشاء تلك الخلايا والبدء بتدريبها وتسليحها لبدء المقاومة المسلحة.

بعد زيارته لبعض الأقارب تجول في الأردن لإجراء بعض المعاملات التجارية ليمتدني له التغطية على مهمته الرسمية، يعود أبو علي إلى الضفة الغربية حيث يبدأ اتصالاته بالعديد من معارفه خاصة من الشلب في مختلف مدن الضفة الغربية.

ينظمهم لصفوف حركة فتح ويطلب من كل واحد منهم أن ينظم معه شخصين أو ثلاثة من أصدقائه الموثوقين المستعدين للعمل المسلح ضد الاحتلال في كل مدينة من أقصى شمال الضفة الغربية وحتى الخليل وحتى بعض القرى أو البلدات وكلما وجد له شخصاً يعرفه ويثق به عرض عليه الأمر، فلاقى القبول والموافقة. طُلب منه تشكيل خلية والتقى معه على الاتصال في وقت قريب.

مهمة جمع السلاح لوكلت لزوج خالتي عبد الفتاح الذي كانت حركته وتجارته خير غطاء للتوحيه على ذلك، وهكذا خلال فترة قصيرة، بدأت تتشكل الخلايا والمجموعات بتنفيذ بعض العمليات القتالية البسيطة مثل عمليات إلقاء القنابل اليدوية على سيارات الدوريات العسكرية، وإطلاق النار عليها أو محاولات قنص عن بعد لبعض هذه الأهداف. وكما هي العادة في مثل عمل المقاومة كل مقاومة، تقع إحدى الخلايا في خلل عملي ما، فتم اعتقال أفرادها وبخضعون للتحقيقات المريرة فبدأ البعض بالاعتراف وبعقل آخرون وهكذا حتى تصل الأمور إلى "أبو علي" فيعتقل ويخضع لتحقيق عنيف جداً، في أقبية التحقيق في سجن الخليل ويثبت أبو علي على درجة عالية من الرجولة والثبات فيرفض الاعتراف حتى على أبسط الأمور مما اعترف عليها بعض الشباب الذين خدعوا في عملية التحقيق.

نعتقل المخابرات الإسرائيلية زوج خالتي بعد أن أجرت بحثاً حول علاقات "أبو علي" وصداقاته وتجري في بيته تفتيشاً دقيقاً بمرافقة لكثير من التعريب والدمار لكل ما يقف في وجههم من أثاث وألوات الضرب والتعذيب يتالان من خالتي وابنها الصغير عبد الرحيم اللذين ينالهما قسراً منه، وبأخذون زوج خالتي إلى سجن الخليل وبخضعونه لتحقيق وتعذيب جهنمي وهم يسألونه عن "أبو علي" وعلاقته به ويوهمونه أن أبا علي قد اعترف عليه وألغى بكل شيء وأنه لا داعي للإنكار والتعذيب، فيواصل أبو عبد الرحيم زوج خالتي الإنكار، وأمام ذلك يحكمون عليه بالسجن ستة أشهر سجنًا إدارياً بدون أي تهمة، ويحكمون على أبي علي بالسجن لمدة خمس سنوات نظراً للاعترافات التي تراكمت عليه من بعض الشباب الذين لم يكن عودهم صلباً بصورة كافية كي يجتازوا محنة التحقيق.

ومن هنا بدأت رحلة خالتي إلى عالم جديد، عالم السجون حيث بدأت تزور زوجها مرة كل شهر تستيقظ خالتي مبكرة يوم موعد الزيارة وتجهز طفلها وتتطلق وهي تحمله بين ذراعيها حتى تصل مركز القرية.

من هنا تستقل سيارة من السيارات القليلة التي تمر بلقوية إلى مدينة الخليل، وهنا تعبر مسافة طويلة لتصل إلى العمارة (مقر سجن الخليل ومقر المحكمة العسكرية في المدينة) فتجد للمئات من الأهالي الذين حضروا لزيارة أبنائهم ونوابهم من السجناء، تقف بين النسوة في الطابور وهي تحمل بطاقة هويتها الشخصية، قد يصلها الدور في هذا الفوج من الزوار وقد يعلن السجن أن الفوج قد اكتمل فتنتظر حتى بدء الفوج الثاني.

حين تصل إلى تلك الفضة في جدار نمد بها بعلقتها الشخصية لتتولها للسجان القابع وراء الجدر ليجري عملية الفحص والتأكد والتسجيل ثم يفتح الباب المجاور فتدخل إلى قسم النساء حيث تقوم إحدى النساء بالتفتيش بصورة استقرائية، وخالتي تكظم غيظها فهي لا تريد أن تفقد الزيارة فأبو عبد الرحيم في انتظارها الآن ولا شك أنه في شوق إليها وإلى ولدها عبد الرحيم، وليس هناك مبرر لإضاعة الزيارة بالانفعال من هذه المجنونة الصغيرة، وبعد التفتيش يتم تجميع الزوار في غرفة ثم يتم اصطحابهم عبر ممرات طويلة ودهاليز ضعيفة الإضاءة إلى قسم الزيارة حيث يوجد جدار فيه فتحات مثل الشبائيك عليها شبك حديدي من وراء كل شبك يقف أسير، فيبدأ الأهالي كل يبحث عن يخصصه من السجناء، وحين يجده يلقي بنفسه إلى الشباك بكل الدموع في عيون الأب وهو يرى حظه من وراء الشباك ولا يستطيع أن يحتضنه ويلامسه تجري الدموع في عيون الزوجة أو الأم وهي ترى زوجها أو أبنائها وراء القضبان، ولا تدري ما يصنع به داخل هذه الأسوار الجلمدة التي لا تعرف الرحمة.

وقبل أن يرتاح الناس من عناء السفر والانتظار والتفتيش المذل، والسير في تلك الدهاليز، وقبل أن يطمئنوا على أزواجهم وأبنائهم ونوابهم، يصفق السجانون الذين يقفون وراء السجناء ووراء الأهالي صارخين: انتهت الزيارة، ويبدلون بسحب الأسرى وراء ذلك الباب الحديدي الأصم. ويدفع الأهالي لخارج قسم الزيارات فتستعمل المولطف والمشاعر لدى الموقوفين، يحبس زوج خالتي نعمته لكي لا يراها السجان فيزداد شماتة وفرحة، ويلم مشاعره وعواطفه وهو بهتف مشجعاً زوجته بأن الفرج قريب وكلها خمسة شهور ويوصيها بعبد الرحيم خيراً وبالبيت ولن تهدي السلام للأهل والأقارب والجيران، وهي تسمح بموعها بطرف غطاء رأسها الأبيض المطرز من أطرافه، صالحة: (ولا يهلك بس إنت شد حيلك ولا يكون لك فكر .مع السلامة).

هناك في أزقة الحارات والقرى والمخيمات تنتظم مجموعات وخلايا جديدة على امتداد مدن وقرى وخرب الضفة الغربية ويتجه الشبان إلى بطون الأودية أو وراء الجبال الشامخة ليتركبوا على استخدام السلاح الذي استلموه قريباً أو حصلوا عليه مما كان عند آبائهم أو أجدادهم يخفونه منذ سنوات، مستعدين لبدا المواجهة القادمة مع أول فرصة وهم يتعرفون شوقاً للقاء العدو والسلاح بأيديهم على قلته وبساطته وعدم الخبرة الكافية على استخدامه، ولكنها صدور الشباب نظمي كالمرجل.

في ذلك المتجر كان يلتقي زوج خالتي وأبو علي مع عدد من التجار في تلك الأيام شديدة البرد يرتشفون الشاي، يجتمع عدد من أولئك التجار، وهم يتحدثون من جديد عن أخبار القتال وسجن زوج خالتي وأبو علي، وجنوى عملهما وإضاعتهما فترة ليست بسيطة من عمرهما، وأنه لا جنوى من المقاومة، واعتقالهما أكبر دليل على صدق نظريتهم وتوقعات بعضهم، فيبدأ أحدهم بحساب أيام الشهور التي سيقضيها زوج خالتي في السجن وأنه كان يربح في تجارته في كل يوم ثلاث ليرات إسرائيلية، أي أنه أنشاع على نفسه ما لا يقل عن خمسمائة ليرة، ناهيك عن البهظة ولفة القيمة له ولأهله.

الوضع الاقتصادي السيئ لثلايئة الناس وما قد يسببه ذلك من دفع للعديد من المقاومة (والعمل التخريبي) حسب رؤية قادة إسرائيل، بالإضافة إلى حاجتهم للكثير من الأيدي العاملة لبناء الدولة الوليدة جعلهم يدرسون أن يفتحوا باب العمل أمام السكان بصورة تدريجية وبعد التنقيق الشديد في الجوانب الأمنية، وبالفعل لقد أعلنوا ذلك وبدأت دولر الجولانت والتصاريح باستقبال من يقدم من الرجال طلباً لتصريح عمل داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وقد ثار الأمر جدلاً عنيفاً في العديد من أوساط الشعب الفلسطيني.

في زاوية ساحة جارتنا حيث يجلس الرجال ورغم مرض جدي وتقدمه في السن إلا أنه لا زال يولط على حضور ذلك المؤتمر اليومي حيث تم تداول هذا الأمر، وانقسم الناس في آرائهم بين معارض أشد للمعارضة، فكيف نسمح لأنفسنا ببناء دولة الأعداء وتقوية أسسها، بينما جنود العدو يتكربون ويتجهزون لحربنا وحرب شعبنا وأمتنا. ويرى بعض الناس أن ذلك صورة من صور الخيانة وبينما بعض الواقعيين يرون أن الواقع قد فرض نفسه وأن إسرائيل قامت وإن يهددها لو يكسرها عدم عمل مئات أو آلاف العمال فيها.

وكل ما في الأمر أنه يجب مناقشة الأمر من زاوية أن هناك بيوتاً تحتاج للقمة الخبز ورضعة الحليب لأطفالنا ولا نجدها وأن للعمل داخل (إسرائيل) رغم صعوبته ومرارته هو من وجهة نظر الآخر مهمة وطنية لدعم صعود شعبنا في مخيماته وقصراته بدلاً من أن تضطره الحاجة للرحيل.

لما في ذلك المتجر في خليل الزحمن فقد كان استيعاب أو قبول للعمل في إسرائيل أكثر قبولاً حيث يفهم القوم هناك الأمور الحسابية بصورة أفضل بكثير (العبة الأرقام هي التي هنا تجاد) وفتح مجالات للعمل أمام الناس تفتح المجال أمام ازدهار البلد اقتصادياً، الأمر الذي سيرفع مستواها في جميع وثنى المجالات ويعزز صعود أهلنا وتمسكهم بأرضهم حتى يأذن الله تعالى بالتنجير. على المستوى العملي رجال المقاومة خاصة في مخيمات اللاجئين ومثل ذلك في مخيمات (الشاطئ) اعتبروا ذلك جريمة، فبدلوا بجمعون المعلومات عن حصلوا على التصاريح ويقومون بجمع تلك التصاريح من العمال وإتلافها بعد توضيح خطورة ذلك ومخالفاته للاختفاء الوطني، وأحياناً قد يضرب صاحب هذا التصريح عدة ضربات، ضربات بالخيزرانة على جبينه أو يصفع على وجهه أو يسمع كلمات قاسية.

وتجد أن أحد هؤلاء العمال يحاول الإقناع وهو يمتنع عن تسليمه للتصريح مشيراً إلى أولاده وبناته الثمانية من خلفه لا يجدون ما يسد رمقهم وما تصرفه وكالة الغوث لا يكفي شيئاً وهم كثيراً ما يبقون جوعاً، ويرجون من القذابين الذين يريدون أخذ التصريح منه أن يراعوا وضعه وحالته ويتركوا له تصريحه ويسمحوا له بالعمل، فيرفض هؤلاء ويصرون على أخذ التصريح وعيونهم تترقق فيها للدموع وهم يرون حجم التناقض الشاسع بين الواقع المرير ومستلزماته ومتطلباته وضروراته، وبين سقف الطموحات الوطنية وربما تناقضوا في ذلك بعد انصرافهم، وقد مزقوا تصريح الرجل وهم يمشون بالهرج.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل السابع

قبل موعد امتحانات أخى محمود للتوجيهي بأسابيع أعلنت حالة الطوارئ في البيت، كلما رفع أحدنا صوته صرخت عليه أمي: لا تصرخ ووفر هدوءاً لأخيك محمود بعد أيام عنده توجيهي إذا جرى أحدنا خلف الآخر صرخت عليه أمي، إذا وقع شيء من أحدنا، إذا دفع أحدنا الآخر لو وخزه كما هي عادتنا حين نلتف حول (طشت) الغسيل المقلوب لئلا نندرس، أخذ نصيبه صفعه على قفاه أو قرصة في خصرته أو شداً لأنثى، فإن عليه أن يوفر هدوءاً لدراسة محمود.

وإذا أراد أحدنا أن يورط الآخر لينال علفة من أمي يبدأ بصورة خفية يغازمه فيها مرة ويحرك له وجهه حركات مضحكة، وكثيراً ما كانت أختي تتورط في هذا الأمر حيث إنها لا تستطيع أن تضبط نفسها بالامتناع عن الضحك، فتحبس ضحكاتها ما استطاعت، فإذا ما واصلنا تلك الحركات المضحكة انفجرت ضحكاتها فالت عدة صفعات من أمي التي قلما تصمت في بحث أسباب الضحك، لتعاقب المتسبب الحقيقي.

أنهينا امتحانات العلم الدراسي، وظل محمود يدرس حيث إن امتحانات التوجيهي تتأخر عن امتحاناتنا حوالي شهر، ورغم انتهاء امتحاناتنا ظلت حالة الطوارئ معلنة، وانتظرنا أن تنتهي امتحانات محمود أكثر من انتظارنا لنهاية زوال الاحتلال. آخر يوم في امتحانات التوجيهي وحين عاد محمود من المدرسة، استقبلناه بأصخب حفلة يمكن أن يستقبل بها أخ حين عودته، وأخرجنا ما كنا قد كتمناه في نفوسنا طيلة حوالي شهرين.

استألت الدار ضجة وصراخاً وهجمنا جميعاً على محمود الأولاد والبنات ضرباً وركلاً وفحصاً ولمي تراقبنا تحاول أن تكون جادة وهي تصرخ دعوكم من أخيك، ولكنها فشلت في إخفاء تلك البسمة العريضة عن وجهها، وبعد أن انتهينا من محمود هجمنا جميعاً ومنا محمود عليها نقبل رأسها ويديها ورجليها وهي تحاول للتخلص منا غير جادة في ذلك وهي تحاول حبس ضحكاتها دون نجاح.

ظهرت نتائجنا وكنا قد نجحنا جميعاً ما عدا ابن عمي حسن الذي رسب في الصف الثاني الثانوي، وظل علينا أن ننتظر نجاح محمود. يوم إعلان نتائج التوجيهي أعلنت حالة

طوارئ أخرى أكثر جدية في ذلك اليوم وحتى عاد محمود ووجهه متهلل يكاد ينفجر من الفرح، فتح الباب وأول كلمة قالها: (يلما ٩٢%) فاندحرت بمعة جلادة على وجنة أمي ثم انطلقت زغرودتها وأعدنا الكرة في حفلة صاخبة، حيث أن نجاح وتفوق محمود كان نجاحاً وتفوقاً لنا جميعاً، دفع كل واحد منا قسطاً فيه.

وانطلقت أمي إلى المطبخ تغلي الحلبة وتعجن مع مائها اللدقيق والسكر وتحضر لنا مسيئة حلوى الحلبة ليحملها محمود إلى فرن الحارة ليخبزها، وحين عاد بها لم ننتظر أن نضمها أمي في الصحن التي جلبتها من المطبخ (وتناوشناها) من كل صوب وهي تلوح بيدها كأنها تريد أن تضرب من يمد يده ولا تضربه، ولكنها نجحت في رفع عدة أطباق منها كانت تقدم طبقاً لمن يأتي يبارك لها من الجارات والأقارب.

جدي مريض مريضاً شديداً وبدا واضحاً أنه على وشك أن يفارقنا، وقمنا كان بخير غرفته، ولم يعد قادراً على الذهاب للمسجد غير يوم الجمعة، ولم يعد يشارك في المؤتمر اليومي الذي يقده رجال الحارة في الساحة المعروفة، ولعل رسوب حسن قد زاد همه ومريضه ولم تعد له الرغبة في مشاركتنا في مناسباتنا، ورغم ذلك تجمعنا جميعاً عنده وسهرنا لول ليلة ونحن نحاول أن نضحكه ونخفف عنه، كان على محمود أن ينتظر العطلة الصيفية وطيلة عام كامل بعد إنهاء دراسته الثانوية حتى يتمكن من الالتحاق بالجامعات المصرية، وقد كانت هذه فرصة نموذجية له ليجمع بعض المال مما سيلزمه عند سفره إلى مصر.

فكرة العمل في داخل الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ كانت مرفوضة تماماً، لذا كان عليه أن يواصل العمل في مصنع خالي وأن يبحث له عن أي عمل إضافي آخر ليجمع قروشاً بيضاء من هنا وهناك للدراسة، فكر محمود وفكرت أمي معه طويلاً، وأخيراً اجتمع رابهما على أن يتوقف محمود عن العمل في مصنع خالي، ويحل محله هناك لقي محمد فريصبع أخوأي حسن ومحمد بعلان في مصنع خالي، ويتفرغ محمود لعمل أكثر جدية وفرص الكسب فيه أكثر وأفضل.

كانت الفكرة البدء بعمل لا يلزمه رأس مال كبير، فقرر أن ينشئ محمود بسيطة خضراوات في طرف سوق الخضراوات في الحي، فهذا لا يلزمه سوى بضعة ليرات ويمكن أن يكسب كسباً بسيطاً ولكن لخارجه طيلة الوقت يمكن أن يجمع مبلغاً معقولاً على مدار ما يزيد على السنة.

وبالفعل فقد كانت أمي توقف محموداً مبكراً منذ بزوغ الفجر وغور إعلان إنهاء منع التجول يخرج إلى السوق، سوق الجملة في المدينة ومعه ثلاث أو أربع ليرات فيشتري ما

ينقسم من أنواع الخضراوات ويعود بها إلى بسطته برزب الخضراوات عليها ويبدأ ببيعها، وعند الظهر يجمع ما تبقى من الخضراوات ليحضرها لتتصرف بها الولاية للبيت وفي كل يوم يرفعون من كسب اليوم عشرين قرشاً أو ربيع ليرة ليدخروه.

فرض منع التجول أثناء النهار كان يتكرر بين الحين والآخر؛ ولأن الجيران كانت تلزمهم الخضراوات التي يشتريها محمود فرض منع التجول لم تكن تقسد عنده أي خضراوات حيث تتحول بسطته إلى المنزل وفي ألفة الحارة يستطيع أن ينقل ما يريد الجيران دون خوف من جنود جيش الاحتلال، فقد كانوا يخشون دخول المخيم خشية الكمائن التي يهددها لهم رجال المقلومة والنفذاتيون، ومع استمرار المقاومة والعمل القذافي ونصاعده وإبرائه القادة العسكريين أن لكتنظاظ للمخيمات وضيق أوقاتهم والأمان التي يتكفونها في عمليات التتحم المخيم معهم يفكرون في شق شوارع واسعة تقسم المخيم الواحد إلى عدة أرباع يسهل حصرها وعزلها وتمشيطها.

وبالفعل في أحد الأيام فرض نظام منع التجول على المخيم، وجاءت قوات كبيرة من الجنود وكأنها عملية احتلال جديدة، مع بعض الجنود كانت دلاء دهان أحمر اللون وفرائس الدهان، على بعض جدران المنازل كانوا يضعون إكمات كبيرة باللون الأحمر، على جدران منازل أخرى كانوا يضعون خطاً رأسياً بعد أن يجروا بعض القياسات، ثم يضعون على أحدها إكمات صغيرة وهكذا، ثم سلموا كل صاحب بيت من البيوت التي وضعت العلامات عليها إخطارات بأنه سيتم هدم البيوت التي وضعت على جدرانها الإكمات الكبيرة، سيتم هدم الأجزاء التي من ناحية الإكمات الصغيرة في البيوت التي وضعت على جدرانها خطوط رأسية وإكمات صغيرة، مع كل إخطار يتم تسليمه لأحد أصحاب البيوت تبدأ التصرفات والشتائم والعيول فإلى أين يذهب هؤلاء الناس بأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم؟! سيصبحون في الشوارع من جديد!!

من حسن حظنا لم يصل أي من الشوارع التي سيتم شقها بيتنا حيث لم نوضع عليه أي علامات، ويات واضعاً أن بيتنا سيصبح مطلاً على شارع عريض وليس على ذلك للزقاق الضيق، فبيت جيراننا سيهدم كاملاً.

ويبدو أن ذلك كان من حسن حظ أخي محمود بالتحديد؛ لأنه لو هدم بيتنا لو جزء منه فكل ما لآخره محمود للدراسة في مصر لم يكن ليكني لترقيع الوضع ولما كان باستطاعته

الخروج من القطاع وتركنا في الشارع، ولكن الله يحبه ويحب (الغلبانة) لمي حسب ما سمعتهما يتحذنان، بعد ألهم جاءت الجرافة ومعها قوات كبيرة من الجيش وأطلقوا وجوب إخلاء البيوت التي سيتم هدمها وبدأت الجرافة تطحن البيوت كما يطحن الغول عظام فريسته، وتمزق بذلك قلوب مئات الرجال والنساء والأولاد الذين وجدوا أنفسهم في الشارع من جديد.

ظلت الجرافة تروح وتجيء في المخيم ومع كل روحة نو رجعة بنهار أحد الرجال، أو تسقط إحدى النساء بعد أن شددت شعرها ولطمت خنودها، أو ضرب أحد الرجال من قبل الجنود ضرباً مبرحاً لما حاول وضع جسده أمام الجرافة لمنعها من التقدم لهدم المسقف الذي يلوي أولاده وبناته.

مع حلول المساء كانت مئات الأمسي قد فتحت من جديد، وكان على الناس لمعة جراح بعضهم، بيت عمي كان فارغاً منذ زواج زوجة عمي حيث تنتقل أبناء عمي حسن وإبراهيم مع جدي في غرفته، فلذنت أسي لعائلتين من جيرلنا السكن في البيت مؤقتاً حتى يتكبروا أمورهم، ولا تصل عن كلمات الشكر والثناء التي انهالت علينا. في اليوم التالي جاء مندوبو الصليب الأحمر لمعاينة ما كان، وتسجيل الحقائق من البيانات، وفي اليوم الذي يليه جاء موظفو قسم الإسكان في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين جمعوا البيانات، وأخبروا الناس أنهم سيتم إسكانهم في بيوت جديدة تبنيها للوكالة في مناطق أخرى، فكان الأخير فرحاً نزل على الناس من السماء....

وبدأوا يوجهون مئات الأسئلة: ومتى نسكن؟ وأين؟ وكيف؟ إلخ.. ولم يكن لدى الموظفين إجابات واضحة ولكن لم يمر الشهر الأول إلا وقد بدأت العائلات تنتقل إلى مساكنها الجديدة في أحياء تم بناؤها جديداً في القطاع نفسه أو في مدينة العريش، حيث كانت إسرائيل قد احتلت سيناء كاملة عام ١٩٦٧، وقد غادرت العائلتان اللتان سكنا بيت عمي في هذه الفترة، كذلك واستلمت كل عائلة بيتاً جديداً، ففتح باب العمل داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ خلق بلبلة كبيرة في أوساط الشعب، ولكن الحاجة الماسة للناس لسد رمق أبنائهم وستر أعراضهم في بيوت معقولة، لها أبواب تغلق، ولها أسوار ترتفع لمنع رؤية ما في البيوت وكأنه في الشارع، دفعتهم للعمل في الأراضي المحتلة.

الاحتياجات من التعليم والدواء والغذاء وغير ذلك كان أقوى من كل طرح عارض ذلك العمل، فبدأ نيار للحياة يحيي الرغبة في الاستمرار في الحياة وتطوير مستواها وحرص

الآباء على محاولة ضمان حياة ومستقبل أبنائهم وجعل هذا التبار يتدفق تدريجياً حتى صار أمراً طبيعياً، ولم يكن بإمكان الفدائيين منعه أو وقفه.

بعد شق الشوارع من ناحية وفتح باب العمل في الداخل من ناحية أخرى والحرب الضروس التي تشنها محاورات الاحتلال وجيشه على المقاومة بدأ واصحاً أنهم بدأوا يشعرون بشيء من الارتياح، فأصبح رفع حظر التجول صباحاً أكثر من قبل حتى يتمكن العمال من الخروج مبكرين إلى عملهم والوصول إليه في الموعد المحدد بعد سفر ساعات من الضفة الغربية والقطاع إلى حيفا وباقة وغيرها، ولقد بدأ واضحاً أن مستوى حياة العائلات التي يصل لأربابها في الداخل قد بدأ يتحسن تدريجياً، وخلال فترة ليست طويلة بدأ هذا الرجل يرفع سقف بيته من القرميد ويضع بدله ألواح (الزبنيكو) الصاج، وهذا الرجل يعطي سور بيته، وهذا يضع ليبيته باباً قوياً، وهذا يحضر كيساً من الأسمنت وقليلاً من رمال شاطئ البحر الخشنة المخلوطة بالصدف ويستدعي أحد عمال البناء ليرصف له أرضية بيته. وهكذا بدأت البيوت من حولنا ترتقي من جديد تدريجياً ويرتفع مستواها، وبيتنا على حاله، ورغم أنه كان أفضل البيوت في الحي منذ الأيام التي سبقت الحرب، بدأ وضعه يتراجع مقارنة بتقدم بيوت الجيران.

بعض الجيران الذين لم تسمح لهم الحال بتغيرات كبيرة في بناء البيت، لجأ إلى جلب قطع كبيرة من النايلون حيث يتم فرشها على سقف القرميد لتغطي كل السقف، ثم يقوم بطي حوافها ويتم تثبيتها بشرائح خشبية، يتم تثبيتها بالمسامير الصغيرة المربوطة بالحبال، كل كيس معاً بحيث يكون كل كيس على جانبي سقف القرميد، فلا ينزلق للكيس عن النايلون، ومثل هذه الأكياس تشكل ثقلاً على النايلون يمنع من تحركه وسقوطه.

مثل هذا المشروع لا يكلف كثيراً وفيه حل معقول لمشكلة تسرب مياه المطر إلى الغرفة وسيلها على الفرائض واضطرابنا لوضع الأتية لاستقبال فطرتها بين فراشنا ونحن ننام، وحين تدارست لشي الأمر مع أخي محمود وعرفا كلفته قرر أن يضيف النايلون على سقف غرف بيتنا، فاشترى محمود النايلون وشرائح الخشب والمسامير، واستعار مطرقة (شاكوشاً) من أحد الجيران وسلاً ووقف أخواي حسن ومحمد يساعدانه، كان وضع النايلون على سقف الغرفة تطوراً مذهلاً في حياتنا في الشتاء وبدلاً من أنام مرتاهين من تسرب المياه وصوت الفطرات وهي تسقط في تلك الأتية ومن رذاذها يتراشق على وجوهنا وفراشنا.

كنت قد أصبحت في الصف الثالث الابتدائي، وكانت المادة لن طبيب عيادة الوكالة يأتي لزيارة المدرسة بين الحين والآخر، ويقوم بجولة على الفصول ويعاين الأوضاع الصحية

للطلاب ومن يجد أن عنده قفراً واضحاً في التغذية وأن بنيته الجسمية ضعيفة بصورة مميزة، فإنه يسجل اسمه لديه، وبعد أيام يتم إعطاء هؤلاء التلاميذ (كروتاً) بطاقات تسمح لهم بتناول مرة واحدة في مركز التغذية (الصحة) التابعة لوكالة الغوث في المخيم، جاء الطبيب هذه المرة وقام بجولته في المدرسة وحين دخل فصلنا سألتني عن اسمي وسجله عنده فمرفت أنهم سيعطونني (كروتاً للطعمة) بعد أيام استلمت تلك البطاقة وكانت فرحتي به أن رأسي كاد يصل إلى السقف.

عدت بالكروت إلى البيت وبشرت إخوتي، فاطمة غضبت غضباً شديداً وهجمت علي تحول انتزاع الكروت مني وهي تصرخ (إحنا مش فقراء) وصرخت مستجداً بأمي التي دانت عليها وطلبت منها وهي تؤكد لها أنه ليس في استلام كروت للطعمة أي عيب فمنه لاجئون طبيعي جداً أن يأخذ أحد الأولاد كروت الطعمة (واحدنا أصلاً عايشين على حساب الوكالة، الدار دار وكالة، المدارس مدارس وكالة، الصحية للوكالة، ولما انتهت دور الناس مين بنالهم سكنهم غير الوكالة !!!) فاضطرت فاطمة لتركي رغباً عنها وعلى غير قناعة ورضى.

كل يوم بين الحصر أو بعد انتهاء تلك الحصر ينطلق مئات الأولاد والبنات إلى الطعمة، نقف في طابور طويل ندخل واحداً تلو الآخر، بعد المزاينة والمدفوعات والمناجرات إلى داخل الطعمة ونضطر هناك للسكوت؛ لأن مدير الطعمة يجلس وراء الطاولة يتناول من أحدها بطاقته، يشطب رقم وتاريخ اليوم، ثم ينوله البطاقة مرة أخرى وينوله رغباً صغيراً من الخبز، وينقعه للأمام حيث ينوله عامل آخر من عمال الطعمة طبقاً جديداً فيه عدة تجويفات في كل تجويف نوع من الطعام، ثلاثة أو أربعة أنواع بما فيها الفاكهة أو المهلبية، نأخذ ذلك ونترجعه للقاعة حيث فيها طاولات وحولها كراسي نجلس عليها لولتهم كل واحد ذلك الطعام اللذيذ، ثم نأخذ طبق ونلقيه من شبك المطبخ ليصلوه ونخرج من باب الخروج، على هذا الباب يقف أو نقف أحد أو إحدى العاملين أو العاملات في الصحة في الطعمة ليفتش الخارجين خشية أن يكونوا قد أخذوا الطعام معهم لغيرهم ولم يأكلوه هم، فهو مخصص لهم لاعتبارات صحية، ومن يتم ضبطه قد هرب الطعام يؤخذ منه ويلقى في سلة القمامة كي يتعلم أن يأكل طعامه في الداخل.

ابن عمي إبراهيم كان أعز أصدقائي وكنا دوماً معاً. في أحد الأيام يوم الثلاثاء، ذهب معي للطعمة على اتفاق أن (أهشو) له نصف الرغيف بالكفتة فقد كان يوم الثلاثاء مخصصاً للكفتة، وقد أخذت معي كيساً صغيراً من النابلون.

جلست على الطاولة وإبراهيم ينتظرني عند باب الخروج، وبخفة وحذر شديدين
حشوت له نصف الرغيف بنصف حصتي من الكفتة ووضعت في كيس النايلون ثم أخفيت
داخل بنطالي، أكلت باقي الطعام ووقفت أرى منظر البنتال كيلا يفضحني عند التفتيش.
لقيت الطريق من شباك المطبخ وتقدمت مثل الولد المؤدب من الست عيشة التي
تقف عند الباب للتفتيش رفماً يدي فوق رأسي، أجرت تفتيشاً سريعاً علي وانطلقت
خارجاً، تلفت بمنة وبسرة بحثاً عن إبراهيم وأنا أمد يدي داخل البنتال لأخرج نصف
الرغيف.

وما أن صارت بيدي حتى رأيت مجموعة من الأولاد حوالي الثلاثين ولداً من
عائلة تسكن قريباً من الصحة، كنا نسميهم للهكسوس لكثرة مشاكلهم بهجومون علي لسرقه
السندويشة من يدي، أطلقت سلفي للريح وهم ورائي.

لكنني جريت بكل ما أوتيت من قوة مسافة طويلة وشعرت أنني قد ابتعدت عنهم
فالتفت ورائي كي أتأكد أنهم قد توقفوا أو رجعوا وما إن أدركت رأسي للوراء فإذا بحجر
كبير قد قذف من أحدهم نحوي وصيبي في عيني مباشرة، أظلمت الدنيا أمام عيني وسقط
نصف الرغيف من يدي وغطاه التراب، ولم أتمكن لو لم أركب بالانحناء لألتقطه،
تصعكت بالكرت ووصلت طيراني صارخاً: (يا ما) حتى البيت. جريت مسافة طويلة ويدي
على عيني حتى وصلت البيت قفزت أسي بهلع بالغ ورفعت يدي عن عيني تنظر ما حدث
وصرخت: (يا ويلي راحت عين الولد).

تقلوت غطاء رأسها وطاررت تجري بي مرة تحملني ومرة تجرني جراً وهي
تمسك بيدي جرياً إلى عيادة الوكالة، بعد جهد وعناء وصلنا إلى العيادة توجّهنا إلى غرفة
علاج العيون والتي يتواجد فيها ممرض متخصص وحين وصلنا سألوا أمي عن كرت
(العيادة) التموين الذي لا يصح أن يتم معالجة أي شخص إلا بعد أن يظهره ويجزوا
إجراءات روتينية من التسجيل ولكن لهفتها وخشيتها على عيني كانت قد نسيت أن تأخذ
معها الكرت، وبدلت ثرجو وتتوسل ونحاول دون جدوى، قالوا لها أحضري كرت التموين
وبدونه لن يعالج الولد، أطمستني على (البك) الكرسي الخشبي أمام عيادة العيون وخرجت
تجري لتحضر كرت التموين قبل موعد إغلاق العيادة.

بعد أن تأكد الممرض أنها ذهبت حقاً لإحضار الكرت ناداني وأجلسني على الكرسي وبدأ بفحص عيني وضع عليها قطعة من الشاش (قماش) مميكة، وألصقها، وجلست أنتظر عودة أمي، عادت أمي وهي تلهث وقد أنهكت رائحة عادية لمسافة طويلة، قموا بإجراءات التسجيل ولطمأنت من الممرض على عيني أنها بخير ثم أمسكت بيدي بكل حنان الأم وعدنا للبيت نمشي الهويني، مشكلتي وأم مشكلتي حينها كانت لويسيت إصابة عيني بل أن أختي فاطمة قد استغلت الظرف ومزقت كرت الطعمة، وبذلك فكأنها فقات عيني الأخرى حيث حرمتني من الأكل في الطعمة.

وضعنا الاقتصادي كان متوسطاً في هذه الفترة، فهناك من تقدموا علينا من خلال عمل أرباب أسرههم في داخل الأرض المحتلة، وهناك من كانوا دوننا بكثير مثل عائلة جارنتا أم العبد فهي أم لأربعة أولاد وثلاث بنات ولا معول لهم، فقد استشهد رب الأسرة عام ١٩٦٧، وترك أولاده وبناته وأمههم، كما كانت تقول أمي (تركهم قطاطيم لحم).

الوكالة كانت تغطي غالبية حوائج الحياة ولكن تظل زوايا في الحياة تحتاج إلى تغطية مالية لا يمكن للوكالة تغطيتها، وكانت أم العبد في حاجة لأن تخفف عن عائلتها وتوفر لهؤلاء وبناتها بعض الاحتياجات الأخرى من أجل ذلك. لم تسفر أم العبد باباً للكسب المباح إلا طريقته، فكان أولادها يخرجون يوم الجمعة ومعهم أكياس الخبز ينطلقون بعيداً إلى منطقة قريبة من حدود عام ١٩٤٨ هناك كانت مزبلة للمستوطنات اليهودية القريبة، الأحمية للقديمة، بعض المطبات التي فات موعد استخدامها، زجاجات البيرة الفارغة يجمعون منها كل ما يمكن بيعه أو استخدامه ويضعون في أكياسهم كل ما يجمعون ويحملونها عائدتين.

تفلس لهم أمهم للزجاجات جيداً وتبيعها لامرأة أخرى تجلس تبيعها أمام العيادة يشتريها الناس هناك ليضعوا فيها الدواء الذي تصرفه لهم العيادة، تتخطف الأحمية وتجمع كل زوج منها وتبيعها لأحد قباعة في السوق يبيعها هو لأهل المخيم، كما كانت تذهب إلى الطعمة كل يوم صباحاً تشتري من النسوة ما يخرج لهن من مخصصات من الحليب لا يريدون استخدامه، تصنع منه الحميد (وهو عبارة عن لبننة شبه جامدة)، وتجلس على باب المدرسة تبيعه للأولاد ولما لم يكن مع الأولاد نقود تبيعهم به الجيب كانت تبيعهم لياها مقابل قطعة الخبز، تأخذ من هذا الخبز حاجة عائلتها ثم تبيع الآخر لتجمع قرشاً من هنا وآخر من هناك وثالثاً ورابعاً كي توفر لأولادها حاجتهم وهي سعيدة راضية بقدرها، وقد جلست تربي أولاد الشهيد من دم عيونها...

تم قبول أخي محمود في كلية الهندسة في جامعة القاهرة، يوم علمنا بذلك احتفلنا به كعادتنا بالصراخ والهجوم على محمود وضريه وقرصه وأعدت لنا أمي صينية الحلبة وجاعتها المباركات والمهنئات، وبدأ محمود يستعد للسفر. بمسطة الخضراوات كانت يجب أن تستمر؛ لأنها ستغطي نفقات التعليم للمنول القادمة، لذلك كان على حسن إدارتها بما يتناسب مع دراسته ودولته في المدرسة، هذا طبعاً حتى اليوم قبل الأخير من سفر محمود لمصر، فقد ظل مواظباً على عمله حتى يوم سفره، وكان عليّ أن أخذ دوره في العمل في النظافة والترتيب في مصنع خالي مع أخي محمد.

قبل سفر محمود لمصر أعدت له أمي الكثير من الأغراض التي سيأخذها معه، أعدت له بعض زيت الزيتون وشاياً وملوخية مجففة وبامية مجففة وأشياء أخرى شبيهة، اشتروا بالمال الذي ادخروه جنبيات مصرية من سوق العملات، وأخذها محمود إلى أحد الخياطين الذي وضعها له في هزلم لينطال داخل القماش وحالك للقماش عليها، كي يتمكن محمود من أخذها لمصروفه في مصر، حيث أن موظفي الجمارك من اليهود يصادرون الأموال ويمنعون نقلها مع المسافرين لمصر.

تردد محمود على مقر الصليب الأحمر الذي كان ينظم عملية سفر الطلاب من القطاع إلى مصر وعودتهم بين سلطات الاحتلال والسلطات المصرية حتى عرف موعد سفره، كان عليه مثله مثل باقي الطلاب أن يذهبوا إلى قسم المخابرات في السرايا حيث يتم التحقيق معهم وتحذيرهم من العمل مع المنظمة، ويحاولون تجنبه من يستطيعون.

في الليلة الأخيرة قبل سفر محمود سهرنا جميعاً معه لكثير مما اعتدنا فهو سيغادرننا، وسيفيق عنا حوالي سنة كاملة، كانت الليلة ممزوجة بالضحك والبكاء والفرح والحزن، خليط غريب من المشاعر، ومليئة بصورة خاصة بتوجيهات أمي ولوامرها لمحمود.

في الصباح استيقظنا مبكرين كانت أمي قد جهزت حقبتين كبيرتين مستخدمتين كان محمود قد اشتراهما، حيث وضعت فيهما كل الأغراض والمتاع، حمل أخي حسن ولحده وابن عمي حسن الثانية وخرجت أمي معهما لوداع محمود، ونحن ودعناهم حتى لطراف الحارة، وعدنا لبرلجنا والحزن ياد في النفوس، فقد بد لنا ندرك أكثر معنى فراق الأحبة.

أوصلوه حتى مقر الصليب الأحمر حيث كان هناك الكثير من الناس خرجوا لوداع أبنائهم كلن الطلاب ينتظرون دُخل الحافلات والأهل ينتظرون قِيالتهم عن بعد، يلوحون لهم، ثم انطلقت الحافلات وظل الأهل يلوحون لهم حتى غابت الحافلات.

بعد أيام من سفر محمود جاءت إحدى جاراتنا تشتكي أن ابن عمي حسن بضايق ويعاكس إحدى بناتها، احمرّ وجه أمي فجلاً من الجارة ووعدت بوضع حد للأمر، جدي كان في فراش عجزه ومرضه، ومحمود كان قد سافر إلى مصر وكل من تبقى في البيت كلن أصغر من حسن الذي كبر وأصبح من الصعب التغلب عليه، لذا فكرت أمي في استخدام الحيلة والافتناع.

حين جاء آخر النهار نادته وجلست تحذره، يا حبيبي يا عمتي الجار وحق الجار، وأهوك الشهيد وسيرة أبك، وسيرة العائلة، وسمعتنا وشرفنا، وماذا يقول للناس، في نهاية الأمر وعدها حسن ألا يقترب من ابنة الجيران، سألته: وعد شرف يا حسن؟ قال: وعد شرف يا مرة عمي.

بعد أيام عانت الجارة وهي ترتجف ودخلت البيت صارخة: (يا أم محمود هذا الولد مش مصلي على النبي، حشر البنت في الشارع ومد يده عليها)، انقضت أمي غضباً، وحاولت تطليب خاطرهما وقد أدخلتها للبيت قليلة: (يا أم العبد أنت عارفة إنه لا عندك ولا عندي في رجال تؤدبه، والله يعلم أنه بناتك زي بناتي، تعالى نفكر كيف نحط لهولد حد) وجلستا. والدتي طرحت فكرة أنها متربطة وهو نائم وتضربه هي والأولاد، وإذا كرر الأمر فسوف تمتعين بأحد الفدائيين وليكن بعده ما يكون وليكسروا له يده ورجله.

أعدت أمي الحبل وعصا، وحين عاد حسن وبعد أن تعشى وذهب للنوم دخلت عليه أمي وأخي حسن وأخي محمد وبعد أن تأكدوا من نومه شدت أمي الحبل على رجليه ويديه بخفة وحذر ثم ليقتلت جدي وأخبرته بما كان من ابن عمي حسن، فأخذ الجدة يرتجف ويقول (الله يسود وجهك يا حسن..الله يسود وجهك يا حسن) لضربوه، كسروا يديه ورجليه.استيقظ حسن فوجد نفسه مقيداً بهذا يهدد ويتوعد، فبدأت العصا تنزل على جنبه، وهو يمسب ويستم ويتوعد، ضربوه ضرباً مبرحاً، وألفهمته أمي أنهم جعلوا الأمر داخل البيت خشية الفضيحة، وأنه إذا عاد لمضايقة سعد فسوف تخبر الفدائيين وتطلب منهم أن يكسروا يديه ورجليه، ثم تركوه مربوطاً بالحبل حتى الصباح، حيث طلبت من إبراهيم ابن عمي أن يفكه.

إبراهيم كان طيباً ومطيعاً ونكياً ومجتهداً في دراسته، ذهب وفك قيود أخيه
فضربه حسن وهو يهدد ويتوعد ثم تدفع إلى غرفتنا ليهدد أمي ويتوعدنا محاولاً إخافتها،
فصرخت عليه: (وله، اسحقى تعسب إنك بتخوفني، انت واحد هامل، واللهامل بخوفش
حد، وعمرلك ما تصير زلمة، ولا راجل).

زمر حسن وتقدم نحو أمي ودفعها فوقعت على الأرض، لما كان منا جميعاً
أولاداً وبناتٍ إلا وقد هجمنا عليه فأوقعناه أرضاً وضربناه، وعضضناه، ونفقنا شعره، فقام
وهو يركل ويضرب ويسب ويشتم وخرج من المنزل. خرج حسن ولم يعد، وبدلنا نسأل
عنه فقتل لنا إنه ذهب إلى الأرض المحتلة من عام ١٩٤٨ (داخل إسرائيل) وأنه يشتغل
هناك وقرر عدم العودة للدراسة.

سحرة جدي تدهورت، وأسلم روحه لربه، فودعناه بالبكاء والدموع -رحمه الله
رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته- مات جدي دون أن يعرف شيئاً عن مصير والدي الذي
غاب منذ ما يزيد على خمس سنوات، ودون أن يرى حفيده الذي هرب من غزة ليحل في
إسرائيل ودون أن يكون محمود إلى جولته ولكننا بالولجب، والجيران وقفوا إلى
جانبنا، فالمضيم كالمائلة الواحدة في الأفراح والأفراح.



الفصل الثامن

صباح كل يوم يخرج المئات من أبناء وبنات المخيم في حدود الساعة السابعة صباحاً إلى مدارسهم من كل الأحيال من أبناء وبنات السابعة، الذين يذهبون للمدرسة في الصف الأول الابتدائي وحتى أبناء وبنات الثامنة عشرة الذين يدرسون الثانوية العامة. مجموعات من الأولاد تتبع مجموعات من البنات وراءها مجموعات من الأولاد وهكذا كل صباح غالبية أولاد وبنات المخيم لا يهتمون بإنشاء علاقات حب وغرام حيث أن قواعد الحي في المخيم توجب التعامل مع بنات الجيران مثل التعامل مع الأخوات، لمي كانت يوماً تحذر إخوتي وأخواتي من أي علاقات مع الجنس الآخر. وكثيراً ما كانت تحذر إخوتي من النظر إلى بنات الجيران أو معاملتهن، وتحذرننا من أن نتطاول على أعراض الناس، فلا بد أن للناس ستطاول على أعراضنا، ولو ظن البعض أنه أنكسي الأتكياء، هذا كلن رادعاً لنا عن أن نفكر مجرد تفكير في أن نفعل ما يفعله بعض الأولاد والشبان من الوقوف على زاوية الطريق في طريق الفتيات للذهابات والمائدات من مدارسهن مثل للبدور.

بعض هؤلاء الشبان كانوا يقفون على طريق الفتيات فقط لمجرد النظر إليهن أو إلقاء بعض الكلمات العابرة (وين يا جميل)، (ما تطلعوا علينا يا لس... الكبرة شه) آخرون يقفون هناك ليروا الفتيات العائدات للواتي ألبوهن ولقتعوا بحبهن، عسى أن تتطور العلاقة معهن وتنظر إحداهن على من ألبها نظرة تملأ عليه يومه بالسعادة وعسى أن تقبل أن تستلم منه رسالة، كتبها لها من أعماق فؤاده، نعم فأهل المخيم مثل كل الناس، رغم بؤسهم وشغلهم بحبون ويمشون ويمشون الحياة كما يحيشها كل الناس.

ولكن مما لا شك فيه أن مستوى المحافظة على العادات والتقاليد واعتبار الاقتراب من فتيات الجيران ماساً بكل تلك التقاليد وخارجاً عليها جعل تلك التعبيرات عن معاني الحب والعشق أكثر انضباطاً وعفالية، وظل غالبيتها حبيس المشاعر داخل النفوس، اللهم إلا من نظرة إعجاب أو إكبار وشوق عن بُعد، أو من مساعدة واضحة ومميزة للأهل تدعو للاستفسار عن السبب وراء هذا التقلني في المساعدة والحرص على المصلحة.

لكن للبعض من شباب المخيم كان أجراً على اجتياز تلك القواعد فأجازوا لأنفسهم كتابة وتبادل رسائل العشق والغرام، واللقاء أثناء الذهاب والعودة للمدرسة، ولو بلن يسير الواحد وراء الآخر وكأنه أمر عفوي، وأحياناً يتم تبادل بعض الكلمات كأن كل واحد منهما يتحدث مع زملائه أو زميلاتها، وبعضهن كن يسمعن لأنفسهن يفتح شباك الغرفة في ساعة محدودة حيث يكون حبيب القلب قد مر في نفس اللحظة من جواره فيلقي رسالته إليها من خلاله، كثيراً ما ضربت العديلات من الفتيات من آبائهن أو إخوانهن أو أمهاتهن حيث يضبطن أثناء تبادل الرسائل مع الشبان، ولكن كل هذه القصص كانت قليلة ونادرة جداً في المخيم، في تلك الفترة المبكرة من بعد الحرب.

بالمقابل فقد بدأت أعداد العمال الذين يتوجهون صباحاً للعمل داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ تزداد تدريجياً، وبلغت الظاهرة تتنامى وتتنامى معها ظواهر أخرى مرافقة، ففي ساعات الصباح الباكر يخرج الرجال كل واحد منهم يحمل بيده كيساً صغيراً أو حقيبة يضع فيها طعام يومه ويسير مسافة طويلة حتى موقف العمال، هناك يتواجد عدد كبير من السيارات والشاحنات والحافلات، هذه إلى باقا وهذه إلى أسود وهذه إلى نل أبيب وغيرها، وكل سائق ينادي على المسافرين إلى هدفه والعمال ينقاطرون، يستقلون السيارات التي تنطلق بهم.

لكثير من أصحاب البسطات لبيع الفلافل والفول أو السميط أو غير ذلك وجدوا في هذا الجمع الكثير من العمال هدفاً مناسباً وسوقاً مربحة لتجولتهم، وتجد العمال وهم في طريقهم للسيارة التي تقلهم يخرج الواحد من جيبه بضعة قروش يشتري بها حبات من الفلافل يتناولها سريعاً ليضعها في كيس طعامه، ويتنطلق إلى السيارة التي تقله، ينقي بنفسه فيها ليكمل نومه الذي قطعه ساعة أو ساعتين حتى وصوله إلى مكان عمله، هناك في داخل الوطن السليب.

يعمل هؤلاء العمال في البناء أو في الزراعة أو في النظافة، في أي عمل من مجالات العمل الصعبة والمهنية التي يتكبر عليها اليهود. يكون صاحب العمل (المعلم) لليهودي يقف على رؤوسهم يصدر لهم الأوامر ويراقب عملهم، عند الساعة العاشرة صباحاً يأخذون فاصلاً نصف ساعة يتناولون فيه طعام إفطارهم أو غداقتهم ويشربون الشاي إن تمكنوا من إعداده، ثم يقومون ليكملوا يوم عملهم وعند الساعة للثلاثة أو الرابعة عصراً ينهون عملهم يبحثون عن سيارة تعيدهم إلى غزة أو الضفة، ينامون في طريق العودة ويعودون لبيوتهم وقد أنهكهم العمل.

يوم الجمعة يعملون حتى الساعة الثانية ظهراً فقط، حيث إن أصحاب العمل لليهود يتهيئون لدخول السبت الذي يكون يوم عطلة أسبوعياً، بعض هؤلاء العمال يعملون بصورة يومية ويقضون أجرتهم في نهاية يوم العمل وفي اليوم التالي يخرجون من جديد حيث يقفون على مواقف العمال فيأتي المفاوضون وأصحاب العمل اليهود بسياراتهم ويناطلهم القصيرة يبحثون عن عمل فيتناقص العمال عليهم، فينتقي الواحد منهم من يناسبه من العمال لغرضه ويتفق معه على الأجرة، آخرون يعملون بصورة أكثر ثباتاً أسبوعياً لو شهرياً لو بصورة دائمة.

مع تطور العلاقات بين العمال العرب وأصحاب العمل لليهود وأمام الإرهاق والتعب من السفر اليومي بدأ أصحاب العمل يبحثون لصالحهم عن أماكن للمبيت فيها طيلة الأسبوع، يخرج العامل من بيته صباح يوم الأحد مبكراً، ويظل في عمله حتى ظهر الجمعة حيث يعود إلى أهله وقد ملأ جيبه بالنقد وسلته أو كيسه بالأغراض التي جلبها معه من إسرائيل.

بعض العمال كانوا يستأجرون بيوتاً في ققلاية أو طولكرم تقربهما من الداخل، يشترك عدد من العمال في استئجار غرفة أو بيت يسكنون فيه طيلة الأسبوع، وحتى أحياناً طيلة الشهر ليوفروا أجرة المواصلات ويدخروا الجهد والتعب من السفر اليومي ذهاباً وإياباً، هناك في داخل الأرض المحتلة يلتقي العمال الفلسطينيون بعالم جديد له عاداته وأعرافه وقيمه المختلفة تماماً عن عادات وأعراف وقيم شعبنا.

الغالبية العظمى من هؤلاء العمال لا تتأثر بذلك بل تنظر إليه بازدراء واحتقار، ولكن بعض الشبان المتفكرين يتأثرون بذلك فتجد أن أحدهم قد بدأ بشرب الخمر وتردد على لوكار الزانيات والملاهي والمراقص. وفي حالات نادرة تجد أن أحدهم قد صانف فتاة يهودية وتطورت علاقته بها وأصبح يحبها ويعيش معها وفقاً لقيم وعادات مجتمعتها.

مع تنفق حركة العمال زادت الحاجة إلى سيارات أخرى تحمل هؤلاء العمال، وفتح بذلك المجال لعدد جديد من السائقين، بعض هؤلاء العمال تمكن من شراء سيارة يسافر بها للعمل ويأخذ معه عدداً محدداً من العمال من جيرفته يدفعون له الأجرة المعتادة، وهو يوفر عليهم السير على الأقدام صباحاً إلى موقف العمل ومساءً العودة إلى البيت، فبدأت تدخل سيارات البيجو المناطق وازدادت حركة وتواجد السيارات في المناطق، وتجد أحد هؤلاء العمال قد أحضر على ظهر سيارته بعض الكراسي أو المقاعد أو أصناف الأثاث الأخرى التي اشترى (معلمه) لليهودي جديداً بنائها وأراد التخلص منها، فأخذها هو ليحسن بها مستوى الحياة في بيته أو يهديها لأحد أصدقائه، أو يقربه أو يبيعها في السوق (سوق الخضروات).

بدأ التجار اليهود يتوالدون على مدينة الخليل والمدن الأخرى القريبة من مناطقهم خاصة طولكرم وقلقيلية يشتررون منها مستلزماتهم، وبعضهم يتعاقد مع ورشة الحدادة أو المنجرة أو غيرها، لتوفر له مائة باب أو ألف شباك أو ما شابه، هو يجد مطلبه بسعر أرخص بكثير مما يجده في المصانع الإسرائيلية. وأصحاب العمل للفلسطينيون يرفعون السعر فيكسبون المزيد ويشغلون ويشغلوا غيرهم من العمال من أبناء البلد.

ورغم تحصن الوضع المادي العام للناس بصورة عامة إلا أن المقاومة استمرت وظلت على شكل موجات تملو وتهبط، فهي لم تكن يوماً مرتبطة بالوضع المادي فقط وإنما بالانتماء الوطني والشعور بالواجب، مع أن ضيق الحال يزكي تلك المشاعر، وبذلك ظلت العمليات القذائية مستمرة، إلقاء قنبلة هنا، إطلاق نار هناك، وحرص حظر للتجول هنا أو هناك واعتقالات وتحقيقات واحتجاز المارة بالساعات واكتشاف عيب أو قتله أو قتلها.

تدفق المئات والآلاف من العمال إلى داخل الدولة اليهودية فتح المجال للمقاومين للتفكير في تنفيذ عمليات واسعة داخل الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ في قلب التجمعات السكانية في المدن والبلدات والقرى والمستوطنات، وبذلك فتح باباً جديداً من أبواب المقاومة، عهد الحفيظ ابن جبارتاً لم العهد أقنع والدته أنه من أجل مستقبل إخوانه جميعاً يجب أن يتوقف عن إكمال الدراسة ويتوجه للعمل ليتمكن إخوته وأخواته من العيش وإكمال دراستهم، ولكي تراث هي من الأعمال المتعبة التي تنهكها، بعد محاولات متكررة لإقناعها ولقت على الفكرة.

وتوجه عهد الحفيظ للعمل في الداخل مثله مثل الآلاف، يتوجه للعمل كل صباح ويعود عند المساء، بعد أشهر تمكنوا من وضع باب مقبول لبيتهم، ووضعوا ألواح الصاج (الزينكو) بدلاً من القرميد، ورسفوا أرضية المنزل بالإسمنت، ولكن بعد فترة اكتشف الجميع أن عهد الحفيظ هدفاً آخر من العمل في (إسرائيل) غير مستوى الحياة، وتطعيم إخوته، لكنهم منذ ذلك بعد حوالي سنتين، فقد كان عهد الحفيظ قد انضم إلى صفوف الجبهة الشعبية، وكان الهدف من عمله هو البدء بالإعداد والتخطيط لعمليات فدائية داخل الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وبالفعل فبعد أشهر من بدء عمله وتعوده على الواقع الجديد بين الحين والآخر، يأخذ قنبلة يخفيها في كيس طعامه ويحملها إلى باقاع هناك يكون قد اختار حافلة أو مقهى أو ملهى، يضعها ويخفيها هناك ويعود إلى البيت بعد انتهاء العمل، فتفجر هناك محدثة إصابات أو أضراراً وأحياناً قتل.

ظل عبد الحفيظ على هذه الحالة سنتين، وهو يعمل بمنتهى الحيلة والحذر، وقد نجح في تنفيذ العديد من تلك العمليات، التحقيقات التي أجراها جهاز المخابرات (الذين بيت) حينها أدت إلى الشك الكبير في عبد الحفيظ، وفي إحدى الليالي داهمت الحارة قوات كبيرة من جيش الاحتلال حاصرت البيت وقامت باعتقاله حيث أخذ للتحقيق، وهناك لا نمل عما تعرض له من الشبح والضرب والتعذيب، وهو ينكر أي علاقة له بأي شيء مما يتهمونه به، في نهاية الأمر كانوا قد اعتقلوا زميلاً له، اعترف عليه أنه منظم في الجبهة الشعبية، واجهوه به فاعترف بذلك فقط، وقد حوكم على ذلك بالسجن لمدة سنة ونصف.

عند انتهاء العام الدراسي واقترب عودة أخي محمود من مصر للإجازة الصيفية، كنا نبدأ بالتردد على مقر الصليب الأحمر لسأله عن موعد عودة طلاب الجامعات من مصر، أو لنراقب لوحة الإعلانات هناك حيث كانت تنزل على اللوحة أفواج العائدين أسماؤهم ومواعيد عودتهم. في اليوم الذي سيعود فيه محمود، نخرج جميعاً لانتظاره عند مبنى الجوازات هناك تلقي الحافلات تحمل الطلاب ثرائها سيارات جيب عسكرية، يدخلون للجوازات، ينزلون وينتظرون في قاعة الانتظار فيقتز إليه أهله بقبلونه ويسلمون عليه ويمسحونه، ويذهبون إلى البيت.

كنا نجلس هناك ننتظر محمود عند عودته كل سنة، بخرج إلينا فتسابق إليه فيلتصق علينا بقلنا ويسأل عن أحوالنا، ويقبل رأس أمي ويدها وهي تنظر إليه بفخر واعتزاز والدموع تتفرق في عينيها وهي في قمة فرحتها بلانها (الباش مهندس محمود) ورغم قلة حيلنا نجتهد أمي في إعداد أنواع الطعام المختلفة إكراماً لمحمود وحفاوة بقومه ونعريضاً عن سنة من الحرمان.

محمود كان يحضر لنا بعض الملابس القطنية من المصنوعات المصرية، ليأمرها بدلاً نعرف ملمس ورائحة الملابس الجديدة، وقد كنا من قبل لا نلبس إلا ما نأخذه من الوكالة أو نشتره من مولد وألوات مستخدمة، ومنذ انتهاء السنة الأولى لدراسته أصبحت أمي تتلوه (الباش مهندس).

على زاوية أحد الشوارع، يفرش عدد من الشبان بطانية سوداء مما نستلمه من الوكالة ويجلسون عليها يلعبون (ورق الشدة)، كل يوم بعيد العصر يجلسون هناك يقضون بعضاً من وقتهم حيث لا توجد وسائل ترفيهية أخرى، ويستمتعون في لعبتهم حتى بعد المغرب حيث يحل الظلام، يجتمعون لورائهم وينفضون بطانياتهم ويطوونها وينصرفون إلى بيوتهم، بعد قليل يحل لوان منع التجول.

في أحد الأيام يمر بهم الشيخ أحمد هكذا كانوا يسمونه، رغم أنه كان لا زال شاباً، وهو عائد من صلاة المغرب في المسجد، يقرأ عليهم السلام كلما مر بهم كالعادة، ولكنه هذه المرة اتجه نحوهم وجلس معهم وقد أبدوا استغرابهم من ذلك بصورة واضحة من خلال توقفهم عن اللعب، وجمعهم الأوراق وانتباههم الواضح لقدوم اللوفد الغريب.

جلس الشيخ أحمد عندهم وقال: اسمحوا لي أن أتكلم معكم في أمر هام بخصم، بدت الدهشة واضحة على وجوههم وقالوا: تفضل. بدأ الشيخ يتحدث حديث بابائنا وانطلاقاً مستشهداً بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف محذراً من إضاعة الوقت في اللهو غير المفيد، والحث على الطاعة، وعبادة الله، وأداء الفرائض مذكراً بنعم الله علينا محذراً من الخسارة في الآخرة ومن عذاب جهنم، رابطاً ذلك كله بصورة لطيفة بمستقبل الإسلام الذي يجب أن تملأ رايته في أرض فلسطين، أرض الإسرائيل والمعراج حتى تحرر الأرض وينعتق الخلق، وتتجح للمساخي المبذولة.

ظل الشباب الأربعة صامتين مندهشين من الحديث الذي يسمعون لأول مرة، وطاب لهم ذلك الربط العجيب بين الدين والوطنية، فهذا مزج غريب لم يسمع من قبل، فالمساحة الفلسطينية اعتادت أن ترى في الأوتة الأخيرة إما الشيخ أو المتنبي الذي لا علاقة له بالواقع ولهم قوطني وإما الوطني أو القداني الذي لا علاقة له بالدين ولا بالمتدين، وقد بدت تظهر على وجوههم ملامح الإعجاب والرصا والإقناع بالكلام الذي يقوله الشيخ الشاب.

وتسأل أحدهم: وما هو المطلوب منا يا شيخ؟ ارتسمت على شفهي للشيخ بسمه خفيفة قللاً: غداً إن شاء الله نغتسلون وننتهرون ونقوضأون ثم تذهبون للمسجد للصلاة، كلما ارتفع الأذان. هز الشباب رؤوسهم معنيين للموافقة، سلم عليهم الشيخ أحمد واحداً واحداً وهو يضغط بيده على كل واحد منهم وانطلق. ظلمسوا لورائهم وتفضصوا بطانياتهم ويطوها وانطلقوا وقد حل للظلام وأن موعد منع التجول.

بعد حملة شق للشوارع بات واضحاً أن قدرة جيش الاحتلال على السيطرة على المخيم أصبحت أكثر سهولة وبسراً، وكان من السهل على دورياته المنقولة بالآليات التحرك بسهولة وأن تراقب ما يجري في المخيم بسهولة ومن ثم يتم حصار أي ربع فيه لشتباه بتحركات معادية وتفتيشه واعتقال أو قتل من يشكون فيه. سرعة تحركات دوريات الدوريات وقدرتها على الوصول المفاجئ لكل أطراف المخيم بدأ يتقلص على المقلومة والفدائيين، فكان لا بد من تطوير طريقة جديدة للإنذار السريع للفدائيين بوجود قوات للاحتلال قريبة، حتى يتمكنوا من أخذ حيلتهم واستعدادهم، وقد كان، ففي كل مكان يظهر فيه جنود الاحتلال، وكلما رأى أحد الصبية أو الفتيات وحتى الكبار من الرجال والنساء قوات الاحتلال هتف بصوت عال (بيعوا) وكل من يسمع هذه الكلمة يرددها فوراً بصوت عال (بيعوا. بيعوا. بيعوا وفريح منو) وقد كان القصد حينها مطالبة جنود الاحتلال بوسع سلحتهم.

هذه الظاهرة ظاهرة المنداة ورفع الصوت بهذا النداء تحول بعد وقت قصير إلى صورة من التشديد الشعبي، فحينما يرى الطلاب والطالبات في طريقهم إلى المدرسة ويلبهم منها دورية لاحتلال فتفتحت حناجرهم في أنشودة شعبية عارمة (بيعوا. بيعوا. بيعوا وفريح منو والصندل أحسن منه) ويظلون يرددون ذلك كلما ظلت عيونهم واقعة على تلك الدورية، والجنود لا يعرفون كيف ينصرفون إزاء ذلك فيقعون في ربكة وحيرة.

ويسمع الفدائيون تلك الأصوات ويعرفون مكانها فيأخذون حذرهم واستعدادهم، العادة كانت أن الصغار هم من يرددون هذا النداء، ولكن حين لا يتواجد الصغار ولا يكون مناصاً للكبار من ترديده، إنذار الفدائيين فإنهم لا يتورعون عن رفع أصواتهم به. مرت الأيام سريعة، وبدلنا نعد الأيام على عودة محمود من مصر، وقد تخرج من كلية الهندسة، وبدلنا نتردد يوماً على مقر الصليب الأحمر بحثاً عن اسمه في أحد لفواج العائدين من مصر، وموعد عودته، بعد أيام من التردد على المقر والسؤال، نزلت فوقهم العائدين على لوحة الاعلانات ووجدنا اسم محمود في الفوج الثالث، طرنا إلى البيت نبشر لبي بموعد وصول الباش مهندس محمود.

وبدأت حالة الإعداد والاستعداد لاستقباله على قدم وساق، لشيء الأكبر هو أنها طلبت من أخي حسن أن يشتري كمية من الجير (الضيد) حضرنها له حفرة وسط الدار ووضعناه فيها ووضعنا عليه كمية من الماء لكي يبرد، ثم بدأنا بتصفيته وطرشنا الدار كلها باللون الأبيض مع شيء من الزرقة، ثم بدأت أُمي بتجهيز الطعام والشراب خاصة الحلبة والبسوسة، الحلوان لنا وللأحباب الذين سيأتون للمباركة والفرحة معنا.

يوم موعد قدوم محمود تجهزنا وخرجنا لاستقباله مقابل الإدارة العامة للجوازات، جاءت الحافلات نرافها سيارات الجيش ودخلت المقر، انتظرنا على أحر من الجمر نحن ومئات العائلات، وبدأ للعائدون بالخروج واحداً تلو الآخر، حتى خرج محمود، فطرنا إليه جرياً مستقبليين وسبقنا أمنا، وقد استقبلنا بذراعيه بكل الحب، ودموع عينية تنهمر بغزارة حتى وصلنا لأُمي التي فرحت عيناها الدموع من شدة الفرح، ومحمود ينكب يقبل رأسها ويديها، وهي تبارك له تخرجه، وهو بهمهم قد عدت يا أُمي وانتهى عصر التعب والشقاء إن شاء الله إلى غير رجعة، فتردد الحمد لله للحمد لله، إن شاء الله إن شاء الله.

ما إن وصلنا البيت حتى اجتمعت تقريباً كل الحارة لاستقبال محمود في حفل أشبه بال حفل الجماهيري العام، وجميع الرجال يحتضنونه ويقبلونه والنساء يباركن لأُمي وبعضهن يطلقن الزغاريد. بصعوبة دخلنا الدار من شدة الزحام في الشارع رغم مسعته، وتدافع الجيران الدار يباركون ويهنئون، وأُمي وإخوتي وأخواتي مشغولون بتقديم الطويات والمشروبات لهم وصيحات: (يا ياش مهندس تتردد) والجيران ينادون محموداً ويسألونه عن مصر وعن الجامعة وعن صحته وعن كل شيء.

اقتربت الشمس من الغروب، وبدأ الظلام يسدل أستاره واقترب بذلك موعد منيع التجول فبدأ الجيران ينصرفون ليبيتهم وهم يرددون كلمات التهنة والمباركة، وجلسنا نحن في البيت حول محمود، عائلتنا وحدها، بما فيها دُر عسي إبراهيم الذي انضم في العائلة مثل أي واحد فبنا تماماً دون أي فوارق وبدأت الأحاديث عن الآمال والطموحات، فحسن سوف يصفي البسطة ويتفرغ للدراسة فقط، وأنا ومحمد سوف نتوقف عن العمل البسيط في مصنع خالي، سنبنى غرفة جديدة في البيت، سنرفع سقف القرميد عن الغرفتين، ونرفع جدرانها ونسقفها بالإسبست، سنرفع أرضيتها، سنرصف أرضية الدار بالإسمنت... الخ، من تلك المشاريع فقط بعد أن يتوظف محمود ويبدأ باستلام راتبه.

وقد كان واضحاً أن محموداً لن يترك المخيم، ولن يترك القطاع ويسافر للعمل في الخارج، فقد سرّ في العودة بعد أن أنهى فترة الدراسة بعيداً عن البيت والعائلة. فخبينا يومين آخرين في الاحتفال بعودة وخرج محمود وفي استقبال المهنيين.

وفي الليلة الثالثة بعدما دخل موعد منع التجول بساعات وبينما رقدنا للنوم سمعنا أصوات سيارات الدوريات قد دارت من جديد لتتصرف، ولكننا فرجنا بأصوات الجنود في ساحة دارنا وبأصواتهم يفتحون الباب بشدة ويداهن علينا للخروج إلى الساحة ساحة الدار، وضعت أمي وأخواتي أعطية رؤوسهن بسرعة وخرجنا يتقدمنا أخي محمود إلى الساحة ليجد عشرات الجنود يحتلون الدار وعشرات البنادق موجهة إلينا من كل صوب.

صرخت أمي وقد خرجت من الغرفة: ماذا تريدون؟ إيش عاززين؟ شو بدكو؟ تحدث الضابط موجهاً حديثه إلى محمود متسائلاً: أنت محمود؟ أحابه محمود: نعم أنا محمود، قال الضابط: عازيزك شوية في السرايا، صرخت أمي: خير إيش عاززين فيه لمتنه مبارح رجع من مصر، قال الضابط: يريدونه في عدة أسئلة فقط وغداً صباهاً يرجع لكم، وطلب من محمود مرافقتهم، محمود طلب أن يغير ملابسه، فرفضوا ذلك وطلبوا منه الخروج معهم كما هو فخرج حاولت أمي الخروج فمنعوها وسحبوا الباب وراءهم، ودوت مونتورات السيارات وتطلقت مبتعدة عن البيت والحارة.

في تلك الليلة لم نعرف للنوم طعماً، وأمي تصرخ وتبكي وتكذب حظها (أبست للمسكينة تفرج مالاقت إليها مطرَح) فاطمة وحسن يحاولان تهدئتها وتطمئنتها، بأن محمود سيعود مع الصباح، وقد قال الضابط أنهم يريدونه لعدة أسئلة فقط، وهي تردد: (أه أكم سؤال، لو بدهم منه أكم سؤال لاستنوا للنهار وطلبوه بورقة تبليغ زي ما بدهم من حد أكم سؤال) ثم تعود لتكذب حظها (يا حصرتي يا حصرتي إيش عملت يلما يا محمود إيش صلت).

ومع إبطالة أول النهار وانتهاء منع التجول كانت قد لبست ملابسها وتطلعت برفقتها أخي حسن إلى السرايا، هناك أوقفها الجنود الذين يجرسون الليونة ومنعوها من الدخول وهي تحاول أن تشرح لهم ما حدث وأنها تريد أن ترى ما حدث مع محمود، وهم لا يفهمون ما نقول ولا يرددون سوى: (روح من هون).

لصام الموقف المعرج ألقمها حصن بأنهم لن يسمحوا لها بالدخول وأن عليهما الانتظار مقابل لباي على الجهة المقابلة حتى خروج محمود، وبدأ يسحبها سحباً وأجلسها على الجهة المقابلة ومرت الساعات ساعة تلو الأخرى ومحمود لا يخرج وهي تريد الذهاب.

مرة، ومرة محاولة الدخول وحسن بمعها محاولاً إقناعها بأنهم لن يدخلوها وسيبطلونها، نحن في البيت بقينا في حالة استنفار، وأعلنا حالة الحذر العام، وانتظرنا عودة أمي وحسن ومعهما محمود وطلال الانتظار.

مع اقتراب الغروب عادت أمي وحسن يجريان لرجلها جراً والحزن يعطو وجهيهما ولمي في حالة لم أرها في أسوأ منها قط، الحال كان يقني عن السؤال ولم نجرؤ على فتح أفواهنا حتى بكلمة واحدة ولرتمى كل واحد في فراشه دون أن يسمع صوت أنفاسه، أما حسن فجلس إلى جوارها وهو يحاول أن يخفف عنها قائلاً: غدا سأذهب إلى حمام لتوكله لتسأل عنه ومتابعة موضوعه وتبلغ الصليب الأحمر باعتقاله، ولمي تجيب رجلي على رجلك، غرافها.

ومن الصباح الباكر انطلقا من جديد ليقوما بالمهمة، لوكلا محامياً ولبغا الصليب الأحمر، وفيها جيداً أنه ليس أمامهما وأملنا سوى الانتظار، فقد لا تتضح أي معلومات قبل مرور شهر، ليس هناك سوى الانتظار، والانتظار فقط ولا غير.

مرت الأيام الأولى سوداء ثقيلة وكثيرة، ولكن يبدو أنه أصبحت لنا قدرة على التكيف مع كل مصيبة مهما عظمت، فقط علينا اجتياز ساعاتها وأيامها الأولى ثم يصبح الأمر عادياً مثل كل المصائب السابقة، المهم الآن أن كل مشاريعنا السابقة انضمت، أو أُلجئت على أفضل تقدير فعلى حسن أن يستمر في العمل على البسطة، وعلى لنا ومحمد أن ندوم على الذهاب إلى مصنع خالي للتنظافة والترتيب، كلما مرت عدة أيام كانت أمي تصطحب حسنا لمراجعة المحامي والصليب الأحمر، بصورة دورية مرة أو مرتين أسبوعياً وبعدما يزيد على الشهر، أخبرنا المحامي أنه سيتم توجيه (لائحة اتهام لمحمود) وسيقدم للمحكمة ولكن يبدو أن الأمر بسيط، وسيوضح خلال أسبوعين أو ثلاثة، وبعد حوالي أسبوعين علمنا أنهم أخرجوا محموداً للمحاكمة، وأن القاضي مدد توقيفه شهرين جديدين، وبعد حوالي أسبوعين آخرين علمنا من الصليب أنه ستكون لمحمود زيارت في سجن غزة المركزي، وأن بإمكاننا أن نزوره مرة كل شهر، يوم الجمعة الأول من كل شهر ابتداءً من الشهر القادم.

حسن كان قد أنهى الثانوية العامة وأمام وضع العائلة الاقتصادي الذي لا يحتمل سفره لمصر لو لغيرها للدراسة رضي بأن يلتحق بالمدرسة الصناعية التابعة لوكالة الفوت وقد قبل فيها في قسم الخرطة والبرادة، وكان عليه الالتحاق بالدراسة في مطلع العام حيث يدرس فيها مدة سنتين يخرج بعدها بدبلوم صناعي.

الفصل التاسع

في الأردن خرج الملك حسين بعد انتصار الكرامة قائلاً: كلنا فدائيون، وتنطق الشهب الفلسطينية بالآلاف في كل تجمعات اللاجئين في الدول الغربية إلى مكاتب حركة فتح للالتحاق بها بعد مشاعر العزة التي واكبت النصر في الكرامة، وبدأت الثورة الفلسطينية ترمخ قدمها على الأرض في الأردن وغيرها من الدول العربية، وبدأ قادتها وزعمائها خاصة بالمر عرافات يستقبلون في المواسم العربية لاستقبال كلة حفلة خاصة في القاهرة لدى جمال عبد الناصر الذي اعتبر زعيم الأمة العربية.

كثير من العائلات الفلسطينية مقسمة بين الضفة الغربية ومسكرات اللاجئين في الأردن أو لبنان أو سوريا ليس فقط للعوائل التي هاجرت عام ١٩٤٨ وإنما للكثير من العائلات التي نشأت أثناء الحرب ١٩٦٧، والتي قوت أمام الاحتلال الإسرائيلي وخشية من مجازر وحشية.

إحدى هذه العائلات هي عائلة التاجر أحمد من الخليل، الذي كثيراً ما يجلس عنده زوج خالتي عبد الفتاح يتدولون الأحاديث، والذي تربطه به علاقة تجارية طيبة فأبو أحمد له أربعة أولاد واحد منهم ظل في الخليل معه، والثلاثة الآخرون هاجروا عام ١٩٦٧ أمام الاحتلال الإسرائيلي إلى الأردن واستقروا فيها، فثان منهم التحق بالثورة في الأردن، والثالث يحمل سائقاً على شاحنة هناك. اللذان التحق بالثورة لم يكن بإمكانهما العودة لل خليل مطلقاً حيث هناك خشية حقيقية من اعتقالهما من قبل السلطات المحتلة، أما الثالث أحمد فكان يعود أحياناً لزيارة أهله ويأتي ليجلس عنده والده أحياناً في متجره، فقلتني زوج خالتي به ويتحدثون هناك عن لوضاع الفلسطينيين في الأردن.

الوضع الفلسطيني في الأردن كان يدعو كل الفلسطينيين للفخر والاعتزاز دون شك ولكن أحمد متخوف من المستقبل فلا شك لديه أن تقامي القوة الفلسطينية في الأردن بدأ بقلق الملك حسين والأخطر من ذلك أن بعض الفدائيين هناك يتصرفون بدون مراعاة لمشاعر الناس وقد يبالغون في تحدي تلك المشاعر، الأمر الذي قد يشكل مبرراً لتفجير صراعات بين الثورة والملك، وقد تحدث أحمد أكثر من مرة معبراً عن تخوفاته هذه، ولكن بعض الحاضرين كانوا يحاولون طمأنة أنفسهم بأن الأمور لا يمكن أن تصل إلى الصدام والتناحر بل إن ذلك مستحيل.

وهجأة جاءت الأخبار عن بدء تلك الصدامات التي عرفت بأحداث ليلول الأسود من عام ١٩٧٠ وقتي تطورت إلى معارك حقيقية ملأت أصدالوها المنطقة، وأدت إلى تحركات سياسية على مستوى الزعامات العربية.

أم أحمد كان لها ثلاثة أولاد في الأردن في تلك الاشتباكات الطاحنة ولكل واحد من أولادها الثلاثة زوجة وعدد من الأولاد، وهم هناك في خطر حقيقي فلم تعد أم أحمد قلادة على النوم لو على وضع الطعام في لها وهي ترتجف هلعاً عليهم. أبو أحمد يحاول تهدئتها وطمأنئتها وأن تتوكل على الله فن يحدث إلا ما قدره الله، ولكنها أم وقلب الأم لا يعرف للطمأنينة في مثل هذه الحالة.

إزاء ذلك اضطر أبو أحمد أن يقرر السفر للأردن ليطمئن على الأولاد وعائلاتهم. فصرخت أم أحمد : وهل ستسافر وحدك؟ فأجابها: نعم، قالت: وما فائدة ذلك؟ فخوفي وحمي يزيد، سأل: وما الحل؟ ما رأي؟ أجابت: نسافر سوياً. حاول أن يثبثها عن عزمها فلم يستطع. جهز التصاريح له ولها وانطلقا مسافرين إلى الأردن وهناك كانت أتيه بحرب حقيقية.

وصولهم إلى منزل سعيد ابنهما السائق اكتنفته مخاطر جسيمة، وبعد وصولهما البيت لم نقر لهما عين فالوضع في غاية الخطر وإطلاق النار لا يتوقف حتى اضطرروا إلى إغلاق النوافذ ووضع الخزائن وأثاث البيت عليها، كيلا تدخل الطلقات فتصيب من في البيت، فكفوا يضطرون للسير وهم منحنون طيلة الوقت، فإذا رفع أحدهم رأسه وسار معتدلاً صرخ عليه الجميع: لا ترفع رأسك لتصيبك إحدى الرصاصات الطائشة، وأبو أحمد يتمتم بين الحين والآخر هذا من تحت رأسك لقد كنا هناك في أسان، فتردد أم أحمد هنا بين أولادي وعيالهم رغم للخطر أهون علي من الانتظار هناك بألف مرة، هيتمتم: طيب طيب والله يتم على خير... يا ساتر يا ساتر.

انتهت أحداث ليلول وجرش وعجلون ورحلت الثورة إلى لبنان، وما إن بدلت الأمور بالهدوء حتى عاد أبو أحمد وزوجته إلى الخليل، وعاد أبو أحمد إلى متجره يحدث بما شاهد بأمر عينه من ويلات ورعب حقيقي ويحمد الله على سلامته، فيهنئه الحضور بالسلامة فيحمد الله مرة أخرى على سلامته وسلامة أم أحمد والأولاد وعيالهم.

لم تمر فترة طويلة حتى أعلنت الإذاعات عن موت جمال عبد الناصر الذي نزل نزول الصاعقة على رؤوس الجماهير الفلسطينية التي رلت فيه بغالبيتها زعيم الأمة العربية وأملها، فانتطلقت المظاهرات عارمة في كل أنحاء الوطن في مخيماته ومدنه وغراه.

في مخيم للشاطئ تمطلت للدراسة عدة أيام أعلنت الإضراب عن الطعام فلم تفتح المحلات التجارية وطافت المظاهرات وعلى رأسها عدد من المدرسين والمنتخبين في المخيم وهم يهتفون للوحدة العربية ويريدون منقلب ومثّر للرئيس الراحل ويرفعون صورهم واللافتات التي تحمل شعارات القومية العربية ولترحم على عبد الناصر.

تنضم إلى هذه المظاهرات كل من في المخيم أو غائبيتهم العظمى، وكان الرجال يكون والنساء ينتخبين وعربلهن يعطون، والمظاهرة في قمة لفعالها، انطلقت خارج للمخيم إلى الطرق الرئيسية في المدينة متجهة نحو مركز المدينة، وشارع عمر المختار. وقد التحقنا بها كطلاب المدرس صغاراً وكباراً أولاداً وبناات والجميع يهتفون: تعيش الوحدة العربية... فلسطين عربية بالروح بالدم نفديك يا جمال، في أول اتصال للمظاهرة بشارع عمر المختار الشارع الرئيسي في مدينة غزة كان في انتظارها قوات كبيرة من جيش الاحتلال، حيث بدلوا بإطلاق النار على رؤوس المتظاهرين لإلقاء الرعب في نفوسهم، وإجبارهم على التفرق، وعدم مواصلة طريقهم فبدأ المتظاهرون برشقهم بالحجارة فبدأ إطلاق النار على الأرجل فتساقط الجرحى الذين نقلوا إلى مستشفى دار الشفاء وإلى عيادة الوكالة التي كانت تقدم العلاج في هذه الفترة من الزمن منذ احتلال ١٩٦٧.

كانت قوات الاحتلال وأجهزتها قد اتخذت جملة من الإجراءات التي من شأنها ضبط المناطق ووقف حركة المقاومة و العمل على خنقها، حيث بدأت بعملية إحصاء للمواطنين وإعطاء بطاقات هوية شخصية للبالغين والبالغات، وسجلت فيها الأبناء وفرضت تسجيل المواليد وفتحت لذلك دائرة الجوزات والقنصاريح التي تشرف على هذه المجالات وغيرها من متابعة الشؤون المدنية للمواطنين والسكان.

وبدأت تفتح خطوط اتصال وتقام مع المخاتير ووجهاء المناطق حيث يستدعيهم الحاكم العسكري للمنطقة بين الحين والآخر ليناقل معهم أمور الحياة للناس وليوصل من خلالها ما يريد للناس، فترى عدداً من هؤلاء المخاتير أو الوجهاء يتوجهون إلى مقر الحاكم العسكري في المدينة، يلبسون للعباءات ويرمون الشوارب، يدخلونهم لغرفة الحاكم العسكري الذي يتعامل معهم في العادة باحترام إلا إذا كانت هناك مظاهرات أو عمليات أو ما شابه فإنه يكون غاضباً ويبدأ بالصراخ عليهم وهم خائفون، وإذا نطق أحدهم بدأ بيا سيادة الحاكم وبأ حضرة الحاكم وما شابه.

هؤلاء المخاتير ظلوا يحملون أختام المخترة والتي كانت للمواطنين والمساكن عند إقدامهم على إجراء أي من المعاملات ظو أراد أحدهم السفر للخارج أو أراد نصريحاً لفتح مشروع أو للبناء أو لأي معاملة رسمية فلا بد من التوجه إلى مختار بلدته، الذي يضع ختمه على تلك الورقة وفي العادة يأخذ بعض القروش مقابل ذلك.

دوريات الاحتلال كانت تجوب المناطق تحمل الخرائط العسكرية وتسير وفقاً لها لتتعرف على خفايا المناطق وتفاصيلها الدقيقة على مدار الساعة ليلاً نهاراً، راجلين وراكبين في السهول والوديان والجبال، في المدن والقرى والمخيمات، فتجد العشرات من الجنود يسرون في سفين أو ثلاثة صفوف أو أربعة، بين كل واحد منهم والآخر عدة أمتار يشهرون بنادقهم ويطلقون يمناً وبسرة، ومن في آخر الصفوف يستكبرون بين الحين والآخر في حركة دوران كاملة، كي يكتشفوا إذا كان خلفهم من سيهاجمهم.

يسرون ثم يتوقفون من حين لآخر ينظر الضابط في الخريطة التي بيده ثم يسير في الاتجاه المحدد، وكثيراً ما يوقفون أحد المارة من الشباب أو الرجال يطلبون بطاقة هويته للشخصية للتعرف عليه، وقد ينظر الضابط في ورقة يخرجها من جيبه تحمل عدداً من الأسماء وأرقام الهويات لعدد من المطلوبين للاعتقال والتحقيق، وفي كل يوم أو عدة أيام تجد عدداً كبيراً من سيارات الجيب العسكرية كبيرة أو صغيرة تتقدمها سيارة مدنية عارية (تحمل شارة ترخيص صفراء) تتقدم تلك للسيارات عشرات الجيبات تسير في أحد الاتجاهات فيكون معروفاً للجميع أنها في طريقها لمهاجمة أحد البيوت أو إحدى البيارات أو الأماكن لاعتقال أحد المطلوبين من الفدائيين أو ممن يساعدونهم، وأحياناً تجدها في طريق العودة حيث اعتقل ذلك الشخص وربطت يده حول ماسورة مقعد الجيب، ووضع على رأسه كيس القماش السميك ذي اللون الجيشي، أحياناً نعرف ذلك الشخص من ملابسه وأحياناً لا نعرفه ويكون حينها في طريقه للتحقيق.

رغم تلك الممارسات فقد استمرت عمليات المقاومة، فكلما مرت عدة أيام نسمع أن قنبلة قد ألقيت على إحدى الدوريات فأصابها وجرح عدد من الجنود، أو أن أحد الفدائيين قد أطلق النار من بندقيته الكارلوسناف على سيارة دورية عسكرية أو على جنود دورية راجلة فأصاب أو قتل منهم ولكن الكثير من تلك المظاهر الواضحة أو شبه الواضحة للفدائيين للمسلحين علانية أو من يظهر سلاحهم من تحت ملابسهم أو يحملونه في أكياس الخيش ويمرون به أمام المساكن فيكون معروفاً بصورة أكيدة أنه سلاح.

كل هذه المظاهر بدلت في الاختفاء تدريجياً وبدأت حركة الفدائيين تصبح أكثر سرية شيئاً فشيئاً، في هذه السنين من مطلع السبعينات ظهرت الوحدة (١٠١) التي شكلها الجنرال "أريل شارون" والتي وقف على رأسها الرائد "مناور داجن" والتي اشتهرت بلبس القبعات الحمراء وعرفت شعبياً باسم (الطواقي الحمراء) والتي اعتبرت وحدة خالصة تربت تدريبات خاصة جداً، هذه الوحدة كانت تقتحم الأزقة داخل المخيمات وفي البساتين بين أشجار الحمضيات وتطلق النار على كل من يتحرك للاشتباه فيه، وتهاجم الناس وتضرب وتعدي وتقتل دون أي ضوابط أو قوانين وقد كان لها دور بارز في محاربة المقاومة وتصفية الكثير من قياداتها وعناصرها.

كانت القوة من هذه الوحدة تتكون من حوالي عشرة جنود حتى عشرين يلعبون لذي العسكري الرسمي، كلهم شبان في مقتبل العمر يحملون أسلحة جديدة مدربين أحسن تدريب يضعون على رؤوسهم القبعات القماشية الحمراء، معهم عصي خشبية قصيرة يحمل أكثر من واحد منهم جهاز لاسلكي كبير على ظهره، يرتفع منه الهوائي عالياً يسمع صوت الاتصال من موقع القيادة والتوجيه بصورة دائمة.

ذات يوم طارت واحدة من هذه الوحدات أحد الفدائيين بعد أن شخص بصورة ما لظهور القنبلة التي كانت في يده وأطلق سافيه للريح جرياً في أزقة المخيم للاختفاء، فاطلقوا وراءه يطلقون النار ويجرون في المخيم والعندي الذي يحمل جهاز اللاسلكي بدأ يتصل بمقر القيادة وقد تمكنوا من تشخيص المنطقة التي اختفى فيها ذلك الشاب، فحاصروه وخلال وقت قصير حضرت قوات تعزيز كبيرة جداً حيث أحاطوا بالمنطقة إحاطة السور للمحصن، ونودي على الناس لمطالبتهم بالخروج من البيوت جميعاً رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً، وأجلسوا على جانب الطريق، وبدأت عملية تحقيق معهم واحداً واحداً من رجال المخابرات، ودخل الجنود إلى بيوت المنطقة يقبلون كل ما فيها بحثاً عن ذلك الشاب أو عن ملجأ أو مخبأ لاختفى فيه ويبدو أنهم بطريقة ما استدلوا على البيت الذي اختفى فيه ذلك الشاب.

هكذا الضابط ورجال المخابرات يدخلون ويخرجون ويتشاورون وقلعوا كل ما في البيت رأساً على عقب في نهاية الأمر استدلوا على مدخل الملجأ الذي اختفى فيه ذلك الشاب فبدلوا عبر مكبرات الصوت بنادون عليه للخروج، فلم يخرج أحد.

اقتربوا من مدخل الملجأ فأطلقت عليهم النار فانسحبوا، ثم تسلك عدد من جنود تلك الوحدة حيث لغموا المكان بالمقذورات وانسحبوا ثم فجروه. هز صوت الانفجار المخيم كله ثم احضروا إحدى الجرافات التي هدمت البيت وبدأ الحفر لكشف الملجأ وما فيه، وبعد حين أخرجت جثث أربعة من القذائيين، كلوا قد اختفوا في ذلك الملجأ.

مع مرور الوقت تقلص وجود قوات التحرير الشعبية وأصبحت الغالبية من رجال المقلومة تابعين لحركة فتح، وفي بعض المناطق كانت الغالبية من الجبهة الشعبية والاعتقالات في أوساط الرجال والشباب كانت لا تقف في كل يوم اعتقالات للعشرات خاصة بعد تنفيذ إحدى العمليات الفدائية، ودوماً هناك من يتم الإفراج عنهم ففي نفس الوقت ترى هذه المرأة تتفزع عيونها من البكاء خوفاً على زوجها أو ابنها الذي اعتقلوه الليلة، ولا تدري ما تفعل، وتجد تلك تطلق الزغاريد بعودة زوجها أو ابنها من معتقله بعد أيام أو أشهر أو سنوات من الغياب في ظلمة ليلية للتحقيق وزنازبه.

بدأ الاعتقال في مدينة الخليل منذ الأيام الأولى للاحتلال، حيث جاء كبار القادة الإسرائيليين إلى بيت رئيس بلديتها وكبير وجهائها الشيخ محمد علي الجعبري وأعربوا لهم عن احترامهم وتقديرهم الخاص له وسألوه عن طلباته منهم، فطلب منهم أن يتجنب جنودهم الاعتداء على أعراس النكاح وأموالهم فأكدوا له أن ذلك سيكون، وقد لوحظ درجة مقبولة من التزام جنودهم بذلك.

لكن في الأيام التالية تمت مصادرة مساحات واسعة من الأراضي، غالبيتها من أراضي عائلة الجعبري بالإضافة لأراضي عائلات أخرى، وبدأت عليها عملية إنشاء مستوطنة كريات أربع وتوقف بناءً على ذلك إكمال البناء في مسجد خالد بن الوليد المحاذي لتلك الأراضي للمصادرة، كما تم الاستيلاء على مدرسة أسامة بن منقذ، وكراج السيارات القديم في وسط المدينة، وعلى مبنى الدبوية، حيث أنشئت فيها نقاط تجمع وتمركز والتي تحولت مع الوقت إلى نقاط تجمع ومركز عسكري، والتي تحولت مع الوقت إلى نقاط ومراكز استيطان وانطلاق لحركة للمستوطنين إلى الحرم الإبراهيمي الشريف الذي كان لليهود لا يزالون يعتبرونه مكاناً مقدساً وتابعاً لهم وبطمعون في السيطرة عليه وطرد المسلمين منه.

هذا العدو بدأ بشهر تحركات عسكرية مكثفة تدرجاً مع مرور الوقت ولكن طيلة الوقت حرص على عدم الصدام مع الأهالي وعلى تطور علاقاتهم بهم وتوطيدها وعلى الحفاظ على علاقات جيدة ما أمكن، أو كحد أدنى على علاقات غير عدائية ولأن بعضهم قد ساءت بعض الاحتكاكات بين العصبية العرب واليهود فكان كبار المستوطنين مثل

الحاخام "ليفنجر" وغيره يتأتون لوجهاء المنطقة للصلح بالضبط وفقاً للعادات العربية مؤكدين حرصهم على حسن الجوار واستمرار علاقات الأخوة والجيرة الحسنة، فيأخذون (المطوة) ويقدررون للتعويض ويدفعون الدية إن لزم، المهم أن يظل العرب على حال من المهادنة والمسالمة.

بعض مناطق الاحتكاك التي ظلت تحافظ على شيء من سخونة المقاومة في المنطقة كانت في المخيمات القريبة حيث يقع مخيما الدهيشة والمروب على الطريق الرئيسي بين القدس وبيت لحم ولثناء تحرك الجنود أو الحكام والموظفين العسكريين أو المستوطنين والسياح على هذه الطريق، كانوا يتعرضون لبعض العمليات التخريبية من هذه المخيمات، فتقلب الدنيا على رؤوس ساكنيها حيث يفرض منع التجول ويحتجز الرجال، ويضربون، ويستقلون لفترات.

ظلت تلك النظرة الفوقية التي امتاز بها أهل المدن خاصة أهل مدينة الخليل على سكان المخيمات حيث إن النظرة إلى المهاجر أو اللاجئين ظلت كما هي طيلة هذه السنوات رغم أمور الاحتلال الذي طرد هؤلاء من قراهم ومدنهم هو نفس الاحتلال الذي يجثم الآن على صدور الجميع من المهاجرين اللاجئين في مخيماتهم أو المولدين في مدنهم كما أن النظرة الفوقية قد استمرت تجاه أهل القرى المحيطة كما هو الحال في شتى مناطق الوطن، حيث ينظر ابن المدينة لابن القرية نظرة استعلاء. ويتعامل معه بالكثير من الفوقية إلا في بعض الحالات النادرة.

أبناء القرى ونسائهم يزرعون ويجنون ويحصنون ويربون المواشي ويصنعون الجبن واللبن، ويستخرجون السمن وينزلون للمدينة ويبيعون ما يحملون من سائل اللبن والعنب وشتى الفولكه، أو (طبخات) اللبن الرائب أو السمن في لسوق المدينة بأقل ولزهد الأكلان ثم يشتررون احتياجاتهم من الملابس أو الأحذية أو الصابون وغيرها من المدينة بأعلى الأسعار، ويعودون لقراهم ببعض القروش سعءاء راضين والدنيا كلها لا تسعهم.

تجد الصبي والمرأة يحمل أو تحمل سلة اللبن أو سلة اللبن، ينتظر قدوم الباص في قلب القرية منذ ساعات الصباح الباكر يستعدون، هذا يحتضن سلفه وتلك تحتضن حرة الفخار التي تمتلئ باللبن أو السمن فينطلق بهم (الباص) في تلك الطرق لترايبية غير المرسوفة مسافة طويلة، حتى يجد طريقه المرسوفة فينزلون في سوق المدينة، يتلف منهم للتجار ما جلبوا معهم وتراهم ينطلقون في السوق يتعرضون بضائع المدينة ويشتررون ما يطلب لهم ثم يعودون لانتظار (الباص) لنقلهم للعودة لقراهم، وقد يضطر أحدهم بعد عودته إلى موقف لباص في القرية على قطع مسافات طويلة إلى داره وإن

كان حمله ثقيلاً، فإنه ينتظر الساعات الطويلة حتى مرور أحد أقاربه أو معارفه ليساعده أو يساعدها في تحميله ذلك الكيس على ظهره أو على رأسها أو على ظهر حماله وهم راضون سعداء.

مع فتح باب العمل للعمال الفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، بدأ هؤلاء العمال يعرفون الكثير الكثير عن تفاصيل المجتمع اليهودي وعاداته وتقاليده ودينه. يوم الجمعة بعد الظهر يدخل السبت عند اليهود إلى ما بعد غروب الشمس بعض الوقت، لكن الكثيرين منهم لا يلتزمون بذلك في شؤونهم الخاصة ودخل بيوتهم، ولكن المؤسسات الرسمية تتعطل ولا يتم إنعزال أو إطفاء النار والأكواب أو أي شيء كهربائي، ذلك يكون جاداً وقاطعاً يوم عيدهم المسمى بعيد يوم الغفران. قبيل عيد يوم الغفران من عام ١٩٧٣ والذي كان يوافق السادس من أكتوبر عاد العمال من الداخل ليعطلوا هم الآخرون حيث تكون المصالح والمصالح والمؤسسات مغلقة.

وببدأ هؤلاء العمال يتحلقون أمام بيوتهم ويتحدثون ويتمارحون ويشربون الشاي ويتحدثون عن أعمالهم ومشاكلهم وشؤون حياتهم، وهذا هو حال عدد من العمال في حازرتنا فهنا كانوا يجلسون على تلك الحال في يوم السادس من أكتوبر/تشرين الأول ويتحدثون ويتمارحون وإذا بأحد الجيران يخرج مسرعاً من بيته وهو يحمل المذياع صارخاً: ولعت الحرب بين العرب وإسرائيل، انتفض الجميع قائلين: لا ماذا نقول؟ الحرب؟ بين العرب وإسرائيل؟ أي عرب؟ تصرخ عليهم مشيراً إلى المذياع: أتعصوا واستمعوا للمذياع.

كان صوت المذيع المصري يدوي كالرعد قارئاً البيان العسكري الأول للصادر عن قيادة القوات المسلحة لجمهورية مصر العربية معلنًا بدء الهجوم المصري على سيناء وشواطئ قناة السويس وبدء السيطرة على خط بارليف، فرك العديد عيونهم ونظروا حولهم هل صحيح ما يسمعون!! ثم بدأ الصراخ وتعبيرات السعادة والفرح مع تنقلي البيانات العسكرية التي أكدت دخول سوريا الحرب وإعلانات التقدم في المعارك لصالح العرب، وإسقاط أعداد كبيرة من الطائرات الإسرائيلية من المضادات المصرية والسورية، وتدمير أعداد خيالية من الدبابات.

وبدأت الأحلام بالنصر والعودة تداعب خيال كل واحد من أهالي المخيم لا يقطعها إلا صوت مكبرات صوت الاحتلال تعلن منع التجول والترحال البيوت حتى إشعار آخر فالتزم الناس بيوتهم، وهم يحلمون أن هذه المرة يمنع عليهم التجول، فكلها أيام وتصل جيوش العرب المحررة، وانفتحت كل عائلة حول المذياع، وقد قلقلنا نحن كذلك حول المذياع.



الفصل العاشر

في اليوم التالي لقدوم أخي محمود إلى غزة من دراسته في مصر، كان طالب آخر من العائدين من مصر للإجازة الصيفية في القطاع قد ضبطت معه أثناء التفتيش رسالة وفيها قائمة أسماء لمجموعة من الشبان الفلسطينيين الذين تم تنظيمهم في مصر لحركة فتح، ليبدلوا في تنظيم العمل الفدائي في قطاع غزة وفي هذه القائمة كان اسم محمود، وبناء عليه تم اعتقاله والتحقيق معه.

قسم التحقيق في سجن غزة كان يسمى (المسلخ) لما يمارس فيه من تعذيب وقهر وسلخ لمن يدخلونه، وهو عبارة عن مبنى فيه ممر يتوسط المكان، عرضه حوالي أربعة أمتار وطوله عشرون متراً... على جانبيه تفتح أبواب غرف مختلفة الحجم يتم فيها التحقيق، في هذا الممر الطويل يتم إجلاس المعتقلين على الأرض أو إيقافهم ووجوههم إلى الجدار وقد ضطبت رؤوسهم بأكياس من القماش السميك حتى الأكتاف، وربطت أيديهم خلف ظهورهم.

الجنود يدورون بينهم يضربون ويركلون ويصفعون دون انقطاع، وإذا شعر الجنود بأنه قد منها أو غفا للمظة سكبوا عليه الماء لبارد... يتم بين الحين والآخر جر (سحب) أحد المعتقلين إلى واحدة من الغرف الجانبية حيث يرفع الكيس عن رأسه ليجد أمامه مجموعة من المحققين الذين يتحدثون اللغة العربية بصورة تشوبها اللمسة العبرية يوجهون له آلاف الأسئلة وخلالها الركل والضرب والصفع دون انقطاع.

أحد المحققين يلعب دور الصديق الحريص على المعتقل، فيخلصه من بين أيدي التعنيف المعتدين الذين أوسعوه ضرباً وشفعاً وهو يقول: لتركوه لنا سأحدث معه. أنا أعرف أن الضرب لا يفيد، وأعرف أنه يريد الاعتراف، وهم يتظاهرون بمحاولة الهجوم عليه وهو يدفعهم لخارج الغرفة فيخرجون. فيبدأ بالحديث معه بالكلام المصنوع محاولاً إقناعه بالاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار وكل شيء معروف وأنهم سوف يتقصون عليه ويهكونه ضرباً وتعذيباً حتى يعترف، فما لزوم ذلك وهكذا من الكلام الرقيق الناعم وقد يقدم له سيجارة يشعلها أو يحضر له كأساً من الشاي، فإن نجح في انتزاع اعترافه طلب منه كتابته، وإن فشل عادوا ليكملوا مهمتهم بالفوة....

يُلقى المعتقل على ظهره ويداه مكبلتان بالقيود الحديدية وراء ظهره، وعلى وجهه ورأسه كيس قماش، ويجلس واحد منهم على صدره ليخنقه ويصب الماء على الكيس، وآخر يقف على بطنه وثالث يضع الكرسي بين رجليه ليبعدهما عن بعضهما البعض ويجلس على الكرسي، بينما رابع يضغط على خصبتيه، وآخران يمسك كل واحد منهما أحد قدميه.

وهكذا على شكل جولات كلما انتهت جولة يفصلها عن الجولة التالية ثولن معدودة ويتلقى على طاولة طويلة بنفس الصورة، وتمارس معه نفس الأساليب، وقد يتم ربط يديه بالقيود الحديدية وراء ظهره. ثم تربط يده في حلقه أو ماسورة مثبتة في الجدران عالية حيث يصبح شبه معلق تكاد أطراف أصابعه تلامس الأرض، ورأسه مغطى بكيس أو بأكثر من كيس، أثناء ذلك يتعرض للكدمات في بطنه والركلات في كل أنحاء جسمه، ويسكب الماء البارد عليه، وأحياناً تشغل عليه المروحة الكهربائية، فيبدأ المعتقل يرتجف برداً وقد شعر بجسمه يتجمد.

لكل تلك الأساليب وغيرها تعرض محمود أثناء التحقيق معه في (مسلخ) سجن غزة حتى نحل عوده وهزل قوامه ولم يعد يعرف أنه هو. هكذا على مدار أربعين يوماً قلما رأى فيها النوم أو ذلق فيها الطعام أو لامس فيها الماء جسده. وفي اللحظات التي يربدون فيها أن يريحوه قليلاً خشية الموت أنزلوه على إحدى القناريين وهي غرفة صغيرة لا يزيد عرضها عن متر ونصف وطولها عن مترين ونصف ليجد نفسه فيها مع خمسة أو ستة معتقلين قد أنهكهم التحقيق وقلة النوم فيرتمون للوحد منهم على الآخر ويخرقون في نوم مخيف لا يستطيعون منه إلا على أيدي السجائين. يسحبونهم من جديد إلى المحققين.

بعد أسابيع من إنكار محمود لأي علاقة له بالتنظيمات وفتح أو غيرها واجهوه بأنهم ضبطوا قائمة بأسماء آخرين مع طاقب جاء بعده من مصر وأنهم نظموا هناك، ومطلوب منهم تنظيم العمل في القطاع. أصر محمود على إنكاره وأكد أن هذا مجرد توريط من أناس غير صادقين فعادوا إلى أساليبهم القديمة من الضرب والتعذيب والشبح، وقد أدرك محمود أنهم لن يتركوه.

اعترف أن شخصاً نظمه لفتح في مصر، وقال إنهم سوف يتصلون به عند عودته إلى غزة وهذا كل ما كان، ظن محمود أن الأمر سيتوقف عند ذلك. وإذا بالتحقيق يبدأ من جديد.

هل تكريت على أي سلاح؟ ما هي المهمات التي طلب منك تنفيذها؟ من تنظم معك؟ هل نظمت آخرين؟ ومن هم؟ آلاف الأسئلة الأخرى، وأمام إنكاره لأي شيء من ذلك بدأ التحقيق معه من جديد وبصورة أشد وأقوى. أدرك محمود حينها أنه أخطأ حين اعترف باعتزاله الأول وأنه كان سيستمر بنفس العذاب على كل الأحوال، فطلبه أن يصر عليه، دون أن يورط نفسه في فترات أطول في السجن، وهكذا استمروا في تعذيبه وتذيب الآخرين من المعتقلين في قسم التحقيق حيث لا تسمع إلا صراخ المعتقلين وسباب وشتم المحققين على مدار اليوم والليلة.

بعد حوالي أربعين يوماً أدركوا أنهم لن يأخذوا منه شيئاً إضافياً، فأنزلوه إلى الزنازين وبعد أسابيع تم نقله إلى داخل السجن العمادي، دخل إحدى الغرف في أحد أقسام السجن، بعد أن سلموه بعض الملابس والبطانيات وصحنين من البلاستيك وملعقة، هناك وجد في الغرفة ما يقارب العشرين من الأسرى. عرف بعضهم من أبناء المخيم، هناك استقبله إخوانه بالترحاب والمواساة جلسوا كل واحد يعرف على نفسه، اسمه ومنطقته وتهمته وغير ذلك.

القضية التي كانت تزرق محموداً ونقلته هو رؤية أمي ورؤيتنا وطمأنتنا عليه أنه لا زال حياً، وأنه بخير، إنه لن يحكم لفترة طويلة جداً، كما يحدث مع الكثيرين ممن يعتقلون، لم يدخلون السجن ولا يخرجون منه، فتساعل منذ اللحظات الأولى عن زيارات الأهل، فأخبره الشيب أنها لمنطقة مدينة غزة تكون يوم الجمعة الأول من كل شهر، تساعل عن تاريخ اليوم فعلم أن عليه الانتظار أسبوعين آخرين.

سألت أمي بعض الجيران ممن لهم أبناء معتقلون خاصة جارتنا أم العبد، هل يمكننا أخذ الأغراض، مأكولات وملابس للسجن وهل يسمحون لنا بإدخالها؟ فأجبت بالنفي، سمعت عن عدد الأشخاص المسموح لهم بالزيارة وعرفت أنه مسموح لثلاثة كبار أو لكبيرين وصغير، وذلك الليلة التي سبقت الزيارة تناقشنا كثيراً حول من الذين سيذهبون مع أمي لزيارة محمود وكل واحد منا يريد أن يكون هو.

لكن في نهاية الأمر قسمت ذلك باختيار أختي فاطمة وأنا ومريم. حسن غضب وقام مبدئياً بالاستياء وعدم القرضا، ولكن أمي أوضحت له أنها تخشى عليه من الاحتكاك بالجنود والسجناء ولأنها أول زيارة نذهب نحن ننقصر الوضع ثم نقرر، فوافق على مضمون.

يوم الجمعة صباحاً ومع بزوغ الشمس كنا نقف عند باب الزيارات الجانبية لمبنى المرايا الذي يقع فيه سجن غزة المركزي، ومع وصولنا المبكر وجدنا مذات العائلات بالانتظار. إلى جوار الجدار كان هناك حاجز من المواسير الحديدية لتنظيم الطابور، جلسنا جميعاً في مساحة مخصصة للانتظار. فتحت طاقة في الباب وطلع منها أحد المسجونين ثم فتح الباب وخرج بيده سجل، وبدأ بمداة الأسماء.

وكما نادى اسم أحد السجناء، وقف أهله فثلاثين: نعم ونوجهوا نحو بديلة الحاجز الحديدي ليصطفوا في انتظار دخولهم للمبنى، وكما نادى ثلاثين اسماً واصطف أصحابها انسحب داخلاً وبدأوا بإخلاء الناس للتفتيش بعد فصل الرجال عن النساء ثم يجتمعون بعد التفتيش ويدخلونهم للزيارة.

انتظرنا وانتظرنا على أحد من الجمر حتى نودي اسم أخي محمود في الفوج الخامس قلنا نعم ووقفنا في الطابور حتى اكتمل الفوج، ثم بدلوا بإدخالنا، لم يكن معنا رجال بالفون فذهبنا جميعاً إلى جهاز تفتيش النساء، حيث قامت مجندات بتفتيش أمي وأخواتي وتفتيشي، ثم أدخلنا إلى ساحة انتظرنا فيها حتى اكتمل عملية تفتيش الآخرين. رأينا الفوج الذي دخل قبلنا يخرج من الزيارة، ثم أدخلنا عبر ممرات طويلة، قليلة الإضاءة حتى وصلنا إلى قسم الزيارة، جدار إسمنتي فيه فتحات مغطاة بالشبك الحديدي من جلبي الجدار تفصلنا عن المعتقلين. دخل الصغار أولاً جرياً والكبار يمشون رويداً فجريت مع الصغار ويدلنا كل يبحث عن والده أو أخيه، وجدت أخي محموداً يجلس وراء أحد الشبلييك فصرخت: (يلما هي محمود يلما هي محمود!) كان الصراخ قد ارتفع ولم نسمعني أمي ولكنها رفعتي لقف أمام الشباك فتقدمت هي وأختاي فاطمة ومريم وكانت أمي قد وصلت مع أختي الاثنين.

انهالت أمي بالآف الأسئلة على محمود، عن حالته صحته وهل ضربوه؟ وهل لمحمود؟ كيف جسمه؟ هل شلوا قدميه أو يديه؟ أسئلة لا نهائية متلاحقة دون أن تنتظر الإجابات!! ونموها تنكفئ ومحمود يحاول تهدئتها مشيراً بيديه قائلاً: خيراً يا أمي خيراً فانا بخير وها أنا ذا أمامك بدني بخير ورجلي بخير وكلي بخير، كيف حالك أنت وكيف إخواني؟ كيف حالك يا فاطمة (كيفك يا مريومة) تمت فاطمة وهي تسمح نموها: بخير يا أخي بخير، ومريم ربت الحمد لله.

بدأت أُمِّي تسأله عن قضيته وعن المحكمة؟ وقد أجابها إنها بسيطة ولن يزيد الحكم إن شاء الله عن سنة أو سنة ونصف، فشبهت أُمِّي حتى كادت روحها تتخلع من بين جنبها قائلة: سنة أو سنة ونصف يا ويلي، فبدأ محمود يُهدئ من روحها ويحاول طمأننتها وقد أخبرته أنها عيّنت له محامياً. بدأ السجانون الذين يقفون خلفنا وخلفهم من الجانب الآخر يصفقون ويصرخون: (الزيارة خلص الزيارة خلص) تمكنا من تبادل التحيات مرة أخرى، والتقف السجانون محموداً وغيره من الأسرى وسحبوهم خلف الباب وبدعوا بدفعنا نحن الأهالي للخارج.

وما نالتني من هذه الزيارة لثني رابت محمود، سألتني عن حالتي، وسألتته عن حاله وحين قال أُمِّي مع السلامة تذكرفني وقال: مع السلامة يا لعمد، وكل الوقت كانت أَسْئَلُهُ من أُمِّي وطمأننة من محمود وحديث عن القضية وعن الحكم والمهم أننا منذ هذه الزيارة قد شعرنا أن أوضاع أُمِّي النفسية قد استقرت وبدأت تعود إلى شيء من طبيعتها.

كان محمود قد نزل في قسم (ب) في سجن غزة، والقسم عبارة عن ثماني غرف أبوابها تفتح على ممر طويل بعرض ثلاثة أمتار، وتتراوح مساحة الغرفة بين خمسة عشر متراً مربعاً وخمسة وعشرين، لها عدة شبابيك صغيرة وبابها من القضبان الحديدية، فسي إحدى زواياها مرحاض، يدخل في كل غرفة ما لا يقل عن عشرين سجيناً يفرشون على الأرض البطانيات وينامون عليها مترنسين على جنوبهم، حيث لا نسمع لأن بنام الواحد منهم على ظهره، وهو لا يتمكن من التقلب، إلا إذا نهض ولقفاً من نومه وأدار نفسه لينام على الجانب الآخر، وإن ترك أحدهم مكانه لضرورة الذهاب إلى دورة (المياه) يضطر لتخطي للنام، وحين يعود يجد أن مكانه قد ضاع حيث ترحل إليه النائمون.

عند الساعة السادسة صباحاً يتم الإعلان في مكبرات الصوت أن العد سيدخل بعد قليل ليتم إضاءة الأنوار ويبدأ السجانون بالنق على الأبواب لإيقاظ الأسرى، حيث يجب أن يستيقظ كل واحد منهم ويطوي أغراضه ويرتبها ويجلس في انتظار العد، وإذا تأخر أحدهم ولم ينتبه له زملاؤه لإيقاظه، فتح السجانون الباب، ودخلوا يركلونه بقلوبهم بكل قسوة وفظاظة.

يأتي عدد كبير من السجانيين على رأسهم أحد الضباط يعدون الأسرى حيث يجب أن يقف الأسرى في طابورين، السجانون يحملون للهراوات ويلبسون الخوذ، وأحدهم يحمل مدفعاً للغاز المدمع ويعدون الأسرى غرفة تلو غرفة، ثم يخرجون لعد الأقسام الأخرى.

وفي النهاية تعلن مكبرات الصوت عن انتهاء العذ حيث يحضرون طعام الإفطار وهو في العادة شريحتان أو ثلاث من الخبز، وقليل من الزبدة وقليل من المربي، وأحياناً يكون معها نصف بيضة معلوقة، وكأس من شيء يشبه الشاي في الطعم والرائحة، يتناول الأسرى طعامهم بعد أن يكونوا قد دخلوا لدورة المياه واحداً تلو الآخر، وربما كان أحدهم مضطراً للدورة وبدا الأكم يعتصر أمعاه وهو يتلوى ويمسك بطنه ويلج على صاحبه بالخروج، لأن حالته تتدهور.

يأتي السجناء إلى الغرف واحدة تلو الأخرى ليخرجوا من فيها غرفتين عرفتني إلى ساحة (الفورة) وهي مساحة محاطة بجدران عالية سقفها مغطى بالأسلاك الشائكة ومساحتها حوالي مائة وعشرون متراً مربعاً، يخرج الأسرى كل واحد منهم يضع يديه خلف ظهره ويطأ على رأسه واحداً تلو الآخر إلى الساحة، هناك يقف السجناء بالعصى وسط الساحة ويبدأ الأسرى يدورون في الساحة على شكل حلقة، ومن فتح فيه وتحدث مع زميله أو تأخر أو تقدم نال نصيبه من الضرب بالهرلوات والركل والصفع. يدورون في هذه الصورة ساعة أو أقل ثم إلى غرفهم، يجب أن يجلس كل واحد منهم على بطانيته المطوية، ويمنع عليهم الجلوس في حلقات أو على شكل تجمعات تتحدث أو تتدلس، فإذا جلسوا كذلك اقتحم السجناء عليهم الغرفة ولوسعهم ضرباً وربما أخذوا بعضهم لزنابزين العقوبات التي تسمى (السنوكات).

يعلن عن عذ الظهر وبعد العذ يأتي طعام الغداء بضع شرائح من الخبز ومرفعة خضرلوات، يكون فيه أحياناً شيء من الخضراوات مثل الجزر وأحياناً يكون مجرد ماء ساخن فيه طعم للملح، أحياناً تكتي البطاطس المهروسة أو الرز أو شرائح الباذنجان، تصيب الواحد من أي منها لا يكاد يلمس، فيتناول الأسرى غداءهم، يقوم بعضهم بصل الأكلية ويجلس الآخرون يرتكز بعضهم على الجدران يداعب للنعاس من شدة الفراغ والسأم جفنيه، فإن رآه أحد السجناء الذين يروجون ويجينون في الممر أمام أبواب الغرف صرخ عليه كيلا ينام، فللنوم مسموح فقط بالليل.

تمر الساعات ثقيلة حتى يأتي طعام العشاء، الذي لا يكاد يرى في الطبق. قبيل الساعة الخامسة يتناول الأسرى الطعام ثم يجلسون في انتظار الغروب، بعيد الغروب بمساعة أو ساعة ونصف وبعد أن يكونوا قد أجروا عذ للمساء بنفس الصورة، يطفئ السجناء الأكوار وقد تمديد الأسرى متراسين استعداداً للنوم، يظل للسجان دائماً يراقب الغرف وصوت حذائه بدق الأرض نقاً، وكأنه يرفض أن يسمح لهم بالنوم حتى في الليل...

يوم الخميس يتم إخراج الأسرى أربعة أربعة إلى الحمامات في طرف القسم حيث أمام الواحد خمس دقائق للاستحمام في الأسبوع فالمياه نادراً ما تكون ساخنة، وقطعة الصابون الرديء يجب أن تكفي كل من يدخلون الحمام، أي ربع من في القسم من السجناء، بعد الحمامات يعطي السجناء لكل غرفة شفرة حلاقة واحدة على الجميع أن يحلق نفسه بها. . .

يوم الجمعة يكون يوماً لزيارات الأهل، كل منطقة من مناطق القطاع، في إحدى الجمع وفي الصباح يستعد من لهم زيارة، وينتظرون صوت مكبرات الصوت المؤنثة على جدران القسم تنادي أسماء الزائرين فوجاً بعد الآخر، من تتلأ لأسماؤهم يخرجون من الغرف بعد أن يفتح لهم السجناء، يتم تجميعهم من كل الأقسام في غرفة انتظار ويتم تفقيشهم واحداً تلو الآخر، ثم يدخلون إلى قسم للزيارة يصحبهم السجناء بقوة حيث يتم التفقيش من جديد، ويفصل سجناء كل قسم على حدة، ويعودون إلى غرفهم هناك يستقبلهم زملائهم بالتهنئة ومباركة للزيارة، فيجيبون الله ببارك فيك، عقاب عندك.

إلى هذا الواقع المرير والفاسي وصل أخي محمود وعاش في سجن غزة الذي كان يكاد ينفجر بمئات السجناء فيه من شتى مناطق القطاع، إدارة السجن تمنع أي مظهر للحياة الجماعية المنظمة، وتحرم الأسرى من أبسط حقوقهم التي تكفلها حقوق الإنسان وميثاق جنيف، ومن يحاول أن يعترض بناله من الضرب والشدة ما لم يتقبله عقل أنمي. يوم المحكمة يأتي السجناء ليخبروا محموداً وغيره من السجناء أن عليهم أن يستعدوا للخروج إلى المحكمة، وخلال دقائق يخرجونهم من الغرف، يجرون عليهم تفتيشاً دقيقاً ثم يقيدون أيديهم بقيود الحديد (الكتيشات) وراء ظهورهم، ويقيدون أرجلهم كذلك، ويبدلون بإيخالهم بجرجرتهم إلى المحكمة العسكرية القريبة من مبنى السجن (في طرفه الآخر) وهناك يضمنونهم في غرفة الانتظار، ويبدلون بإيخالهم واحداً تلو الآخر لقاعة المحكمة، حيث يحبسونهم في قفص الاتهام يحرسهم الجنود، وفي وسط القاعة طاولة كبيرة، وراءها ثلاثة كرسي خلفها علم إسرائيل، يدخل القضاة ضباط عسكريون فيصرخ أحد الجنود قيام، حيث يجب أن يقف كل من في القاعة حتى الأهالي الذين يجلسون في الطرف الآخر وينادى الجنود موجهة إليهم، وتبدأ المدلولات في المحكمة حيث إن دور المحامي يكون أقرب إلى الصفر.

محمود يسرق النظير من بين عشرات الجنود تجاه أبي وخالي وأخي ضمن الذين يجلسون بين الأهالي، محاولاً أن يرسم البسمة على وجهه مطمئناً، فتحاول أن ترد بانتعاش باهتة مكفهر لا تستطيع أن تخفي قلقها وتحسبها مما سيأتي، وتمر جلسات المحكمة الواحدة تلو الأخرى دون نتائج، وفي كل مرة يرجع السجناء بنفس الإجراءات إلى السجن حيث يستقبلهم زملائهم متسائلين عما حدث، محاولين الاطمئنان وإذا كان أحدهم قد حكم بدلوأ يعاولون مواساته والتخفيف عنه بأن الفرج قريب ولن السجن لا يؤثر على الرجال ولن هذه ضريبة الانتماء الوطني.

شروط الحياة كانت قاسية بشكل لا يطاق، ورنود فعل السجناء على أي محاولة للاعتراض كانت أقسى من كل خيال، فكثيراً ما خُسم رأس أحد الأسرى حيث تساقط: هل هذا الطعام بقيت الأسمين؟ وهل يكفي لعشرين؟ وكثيراً ما كسرت يداء؛ لأنه التفت إلى أحد أبواب الغرف الأخرى أثناء مروره في الطابور خارجاً إلى العساحة وكثيراً ما لزقت صيونه؛ لأن ثلاثة أو أربعة جلسوا في زلوبة غرفتهم على شكل حلقة، وكان لا بد أن يفعل الأمر شيئاً لكسر هذه القاعدة في التعامل.

بدأ ثلاثة أو أربعة من الأسرى بينهم محمود يتحاورون في الأمر وكل واحد منهم يجلس مكانه كيلا يثيروا السجناء، بحثاً عن طريقة لإنهاء هذا الواقع. وقد كان واضحا لهم جميعاً أن استخدام العنف والقرعة لغير صالحهم، فهم لا يملكون سوى أيديهم بينما يمتلك السجناءون الهراوات والدروع والخوذات والغاز المسيل للدموع، وكل للبشاعة والقسوة وعدم الشعور بالحد الأدنى بالإتسانية فما يعمل؟ في النهاية خلصوا إلى أن الوسيلة الوحيدة لتغيير هذا الواقع هو الإضراب المفتوح عن الطعام، فبالإضراب المفتوح عن الطعام تدخل معركة الإرادة والقدرة على احتمال آلام الجوع، وانتظار الموت فيقهر بذلك صلف الجلاذ ونجبره على تغيير معاملة تعامله معنا.

اتخذ القرار وبدأت عملية التنسيق، طلب من العامل الأمير الذي يخرج لتوزيع الطعام أن يسرق قلماً من السجناء وأن يدبر بعض الورق، وبعد محاولات فُعلح في ذلك، حيث أخفى ثلثم والأوراق عدة أيام وفي إحدى زوايا الغرفة التي لا يراها السجناءون بسهولة حين مرورهم في الممرات بدأت عملية كتابة رسائل سيتم توجيهها للأقسام الأخرى لتنسيق الإضراب بصورة جماعية، في كل الأقسام ليبدأ في نفس اللحظة.

يوم الزيارة حمل بعض الأسرى الرسائل ولجئوا بها للتفتيش وقد غلقت بالنابون وسهل إخراجها في القم في غرفة الانتظار تم توزيع الرسائل على شباب من الأقسام الأخرى وضع كل واحد منهم الرسالة في فمه وهم يتبادلونها بحذر شديد. إذا تلبه أحدهم لحركة سجان في الممر والتقرب تتحجج أو ضرب رجله في الأرض، فأخضعت الرسالة وحين تنتهي الغرفة منها تطوى من جديد، وينتظر قدوم وجبة الطعام التالية بينما يتناولهم الرسالة فيبدأون بتناولها وقراءتها، وهكذا خلال أسبوعين كان جميع الأسرى قد علموا واستعنوا للاضراب.

صبيحة يوم الأحد بعد الغذاء وقدم الطعام أخرج السجانون الأسير المعتاد لتوزيع الطعام أخذه وقف عند باب الغرفة الأولى قائلاً: (أكل يا شباب) فردوا عليه: لا نريد نحن مضربون، تفاعلاً السجان ونادى على صاحبه ليبلغ المسؤولين، وأمر الشاب بالمرور للغرفة التالية (أكل يا شباب) لا نريد نحن مضربون والثالثة والرابعة وهكذا باقي الغرف، وهكذا باقي الأقسام.

حين جنون السجانين، وجاء مدير السجن وضابطه يهرولون إلى الأقسام ومعهم قوة كبيرة من السجانين يحملون العصي والفروع والغاز، صرخ للمدير على السجان: افتح الباب ففتح باب الغرفة الأولى، صرخ المدير: هات الطعام، احضر السجن الطعام، وبدأ المدير يسأل الأسرى واحداً واحداً: هل تريد الطعام؟ فجاب: لا، يسأل الثاني فجاب: لا، والثالث والرابع جال على عدة غرف في غالبية الأقسام، دون أن يجد من هو مستعد لتناول الطعام أو استلامه، فقط يهربون الماء ويضع ذرات من الملح.

جاء الغداء فلم يستلم والعضاء لم يستلم، ومر اليوم الثاني والثالث، انقضى أسبوع وأسبوعان، وبدأ الأسرى يضعفون وقطل أجسادهم وتقرور أعينهم في مآقيها، وفي كل يوم أو كل عدة أيام يأتي المدير أو أحد ضباطه ليحاول أن يجد من انكمز أو تهازل واستعد أن يتناول طعامه دون جنوى وبات واضحاً أن الأسرى مصرون على المواجهة والمواصلة ولا شك أن الأمر رفع لجهات عليا، جاء المدير ليسأل هذا الأسير أو ذاك عن مطالبه، فيجد جولياً واحداً لدى الجميع لست مخولاً للحديث عن هذا، تحدث مع اللجنة "محمود الصالح" و "حسن ثبات" و "عبد العزيز شاهو" فصرخ المدير ليس هناك لجان نحن لا نعترف بلجان ولا بكم، أنتم مخربون ومجرمون...

مر اسبوع ثالث وبات واضحاً أن الأمور بدأت تتفاعل فقد بدا واضحاً أن هناك خطراً حقيقياً على حياة الأسرى ولا شك بأن ذلك سيخلق ضغطاً عديداً على إسرائيل في المحافل الدولية في الإعلام العالمي ولا يصح أن يموت هؤلاء جوعاً، فلا يصح أن تبرز صورة فلسطيني بهذه البطولة والقسموع، فبدأت المفاوضات مع اللجنة، تم استدعاؤها إلى مكتب مدير السجن، على الطاولة وضعت أطباق ما لذ وطاب من الطعام وجلس طاقم إدارة السجن وعلى رأسه المدير وجلس الأسرى الثلاثة قبالتهم، لا يكاد الواحد منهم يثبت على كرسيه ولكنه يتجادل ويحاول أن يجمع آخر ذرات القوة في جسده للمنهك.

عرض المدير عليهم تناول الطعام فاعتذروا بأدب ولطف، فهم مضربون مثل إخوانهم وهم سيكونون آخر من يتناول الطعام إذا تحققت المطالب، ما هي مطالبكم؟ وقف سياسة الضرب والاعتداء الجسدي، السماح بالجلوس في الغرف كيف نشاء، السماح بقلوب في النهار الحرة في الفورة الجلوس السير أو التجمع، طلبنا تزويدنا بفرشات لل نوم، تحسين الطعام، وزيادة كميته، مضاعفة مواد التنظيف، وزيادة وقت الحمام وجعله مرتين في الأسبوع، السماح بالدفاتر والأقلام والكتب ومطالب أخرى، سجلوا المطالب ووعدوا بالرد عليها في موعد آخر، حمل الثلاثة أنفسهم بصعوبة برفقتهم المسجونون الذين بدأ تدهول بكسو وجوههم يوماً بعد يوم، مما رآوه من عزم هؤلاء الرجال وإصرارهم ومواجهتهم للموت مختارين طائعين.

بعد يومين استدعيت اللجنة مرة ثانية وبدأ المدير يعلن للموقف من تلك المطالب، حيث تمت الموافقة على بعضها ورفضت الأخرى، وقف أعضاء اللجنة معلنين نيتهم للمنادرة قائلين: هذا لا يكفي والإضراب مستمر، حاولوا إقناعهم بالجلوس حيث يمكن التحوار على مطالب أخرى فكان الرفض والجواب: نريد استجابة كاملة لمطالبنا.

في اليوم التالي استدعيت اللجنة وقدمت الردود التي كانت موافقة على معظم تلك الطلبات فأعلنت اللجنة الموافقة للمبدئية على وقف الإضراب، ولكنها طلبت السماح لها بالتجوال في الأقسام لاطلاع الأسرى على النتائج وسماح رؤسهم، رفض الطلب فأعلنت اللجنة استمرار الإضراب وخرجت، وبعد ساعات استدعيت مرة أخرى وأخبرت بالموافقة لها على التجول في الأقسام برفقة أحد الضباط، وبدلوا يتجولون على الأقسام يستدخلون الغرف واحدة تلو الأخرى يسلمون على الأسرى فيها، ويطلعونهم على ما حدث ويأخون موافقتهم على إنهاء الإضراب حتى أتموا جولاتهم على كل السجن.

حينها تأكد الضباط من إنهاء الإضراب واستعد الأسرى لقبول الطعام ولكن يجب أن يقتصر ذلك على الموائل فقط خلال ثلاثة الأيام الأولى، ثم يتم التطوير في استلام الطعام الجامد والقياسي حيث إن المعدة والأمعاء التي لم تعمل منذ أسابيع ليست جاهزة للطعام الاعتيادي، ولا بد من التدرج في تشغيلها كما نصح أحد الأطباء من المعتقلين.

بعد تناول الوجبة الأولى جلس الأسرى في كل غرفة جلسة جماعية واحدة على شكل حلقة في غرفة (٧) قسم (ب) تحدث محمود في الجلسة عن النصر الذي تحقق وأنه إذا تحقق عزم الرجال واستعدادهم للموت فلن شيئاً لا يمكن أن يقف في وجههم، ولا بد أن النصر سيكون حليفهم، وبدأ يتحدث عن الثورة الفلسطينية التي تطلعت من عزيمة الرجال واستعدادهم فقط وأعلن أن أحد شعارات حركة فتح (ما يحرر الأرض غير رجالها تماماً كما قال أجدنا ما يحرث الأرض غير عجولها) في اليوم التالي خرج الأسرى لساحة الفورة دون أن يتولد السجناء فيها بهرلواتهم وفعل كل واحد منهم ما شاء، سار أو جلس، اتلان أو ثلاثة أو أربعة دون أن يتدخل أحد ووقف أحد للسجاني فوق السقف القريب يرقب الموقف دون تدخل...

خلال الفترة التالية أصبح موضوع للجلسات الثقافية والتعبدية والدراسية في السجن أمراً عادياً جداً، حيث نجد في هذه الغرفة جلسة يتحدث فيها مقدمها عن التاريخ الفلسطيني وفي الغرفة الثانية جلسة سياسية حول آخر تطورات الأحداث، وفي الثالثة جلسة حول مبادئ وشعارات وأهداف حركة فتح وفي الرابعة جلسة عن الفكر الاشتراكي والفلسفة الماركسية وهكذا بدأ السجن يتحول إلى مدرسة متقدمة يعلم فيها المتعلم غيرة، ويتكرب فيها عديم الخبرة على المناظرة والتفكير السياسي، وبدأ يتبلور فكر سياسي وإيديولوجي واضح للمعتقلين حسب لئماءاتهم السياسية حيث كانت قد برزت ثلاثة تجمعات واضحة تجمع قوات التحرير الشعبية بميولها اللينينية، تجمع فتح بطرحه الوطني المجرد، وتجمع الجبهة للشعبية بطرحه الماركسي اليساري.

١٩٨٥

الفصل الحادي عشر

اقترب موعد إطلاق سراح محمود فهدت أمي تعد العدة لاستقباله والاحتفال بعودته المفطرة. مرة أخرى طرشنا الدار بالجير (الشيد)، وأعدت الحلبة واليسبوسة وأصناف المأكولات الأخرى وبدأنا من جديد نتحدث عن المشاريع والطموحات التي كنا قد تحدثنا عنها عند عودته من مصر.

يوم إطلاق سراحه انتظرنا جميعاً بكامل عقبتنا وعقادنا أمام باب السرايا... نل من باب السرايا مع ساعات الظهر، حين رآنا جرى نحونا وجريتنا نحوه، واستقبلناه بالأحضان ونحن نشتم الحمد لله على السلامة الحمد لله على السلامة) كانت أمي كالعادة متأخرة، وصل إليها محمود وانكب عليها بقل رأسها ويديها وهي تحاول منعه فائلة (لا يا بلش مهندس) ثم انطلقنا إلى البيت ورؤوسنا تطول للعلن وكلما مررنا بأحد معارفنا وقف مسرعاً أو التفت إلينا مسرعاً وجاء مهتماً مقلداً، حاضناً لمحمود قائلاً (الحمد لله على السلامة يا باش مهندس) وصلنا أطراف الحارة فكانت كلها في انتظارنا واستقبل محمود استقبال الفلاحين المحررين ودامت الأفراح والاحتفالات والمستقبل للمهندسين أياماً مثالية.

ما إن انتهت فرائضنا بعودة محمود من السجن بدأت من جديد احتفالات بتوظيفه في الوكالة حيث بدأ الدول في مقرها، والعمل كمراقب أمنية ومهندس عمراني في مشاريعها المختلفة، وكان واضحاً أن باب السماء قد فتح لنا بعد طول انغلاق، فالوظيفة في الوكالة تعود براتب ممتاز للغاية.

وما إن انتهت احتفالاتنا بوظيفة محمود جاءت فرحة جديدة بدأت بخطوبة أختي فاطمة لأحد زملاء محمود في العمل ثم بإجراء الزواج، يوم زفاف فاطمة وبعد أن انتقلت إلى بيت عريسها وعدنا من حفل الزفاف إلى البيت شعرنا أن ركناً من أركان البيت قد هدم فقد ماتت فاطمة علينا البيت بل شعرت أنا شخصياً أن قلبي انقطع من بين ضلوعي وقفز خارجاً، ولكن مع الأيام اعتدنا على ذلك، خلصة بعد أن عرفنا أنها سعيدة في زواجها.

بعد فترة قصيرة أطلق سراح عبد الحفيظ جارنا ابن أم العبد الذي كان قد سجن بتهمة الانتماء والعمل للجبهة الشعبية للحارة استقبلته استقبالاً حافلاً لا يقل عن استقبلها لأخي محمود وأمه أم العبد كانت هي الأخرى قد أعنت الحلويات احتفالاً بالإفراج عنه.

أما استقبال أخي محمود لعبد الحفيظ فكان غريباً جداً فمن ناحية كان حميماً للغاية حيث إنهما عاشا في السجن معاً، وخاصاً الإضراب والمعاناة سوياً، مما جعلهما صديقين حميمين ومن ناحية أخرى كان واضحاً أن بينهما خصومة حادة حيث سرعان ما ينتقد أحدهما الآخر قاطعاً حديثه حين يتطرق للمواقف السياسية والفكرية.

بعد أشهر من وظيفة محمود أصرت أمي على بدء مشاريعنا ببناء غرفة جديدة تليق بالباش مهندس، ومن باتون لزيارته من أصحابه وزملائه وشباب ورجال الحارة، وبالفعل فقد استأجرنا أحد البنائين واشترينا المواد اللازمة، وبينا غرفة واسعة مرتفعة الجدران مسقوفة بالإسبست لها عدة شبابيك كبيرة وباب خشبي ممتاز، وأرضيتها كانت مرتفعة ومرصوفة بالأسمنت.

أصرت أمي بعد ذلك على شراء سرير، صحيح أنه كان مستخدماً ولكنه كان صرخة في عالم للتطور في بيتنا، كان ينام عليه محمود وأحياناً يستلقي عليه أحدهما لبعض الوقت ثم اشترى طاولة وكريسيين وهكذا بدأت الأمور تتطور في الدار تطوراً ملموساً. ثم بدأ الحديث بتزايد عن الفوليا لزواج محمود وبدأت أمي تتحاور معه حول الفضة التي يريد ما هل يريد بنتاً بعينها؟ وما هي الموصفات التي يريد ما في عروسه؟.

كانت المقاومة قد بدأت تخف جذوتها فقد اعتقل الكثيرون، ولتشهد العديدين، وافتحت الدنيا على الناس وشغلهم بالإضافة إلى النجاحات الكبيرة التي حققتها المخابرات الإسرائيلية ضد المقاومة حيث ضبطت كميات كبيرة من السلاح والذخائر. وبسبب أن مستوى معلوماتها ومعرفة بالواقع الفلسطيني قد تزايد بصورة كبيرة جعلها قادرة على حصر ومضايقة المقاومة وتقليصها، قوات التحرير الشعبية بدأت تضعف بصورة كبيرة فهي تنظيم عسكري بأساسه وليس لها ذلك البعد التنظيمي والدعم من الخارج ووجوده كان محصوراً في قطاع غزة دون الضفة الغربية ومع مرور الوقت بدأت تحتل مكانة فئحة والجبهة الشعبية.

مع عمليات الاعتقال والسجن للعديد من الشباب تم انتهاء مدة محكومياتهم وإطلاق سراحهم بدأت تتبلور تيارات فكرية وسياسية تتجم عنها حوارات فكرية وسياسية حادة في أوساط هؤلاء الشباب وأهلهم وفي الدوائر المغلقة التي يعتقدون أنها بعيدة عن سمع وبصر

المخابرات الإسرائيلية، وبدلاً نسمع بصورة واضحة أن هناك من يتبنى وجهة نظر فتح ويروج أفكارها وهناك من يتبنى وجهة نظر الجبهة الشعبية ويحمل أفكارها وأيدولوجيتها.

كثيراً ما كان يأتي عبد الحفيظ لدارنا يجلس هو وآخرون في غرفة أخي محمود يتحاورون ويتناقشون في مسائل فكرية، عبد الحفيظ ماركسي اشتراكي يدعو إلى ذلك الفكر ويبدأ في نقاش مسائل فكرية تتعلق بحركة التاريخ (الديالكتيك) يستشهد ببعض الكتب مما كتب ماركس أو لينين أو أنجر ويتحدث عن دعم الاتحاد السوفيتي للنضال شعبنا وحقوقه المشروعة ودعم الدول الاشتراكية لنا ولقضيئنا، وأنا يجب أن نسفل هذه الصداقة والدعم. محمود كان يتبنى وجهة نظر أخرى بأن قضيتنا لا تحتمل أن تتوزع إلى تيارات فكرية لبا كانت، وعلى كل واحد أن يتبنى الفكر الذي يريد فهو حر في ذلك، ولهم أن مجهوداتنا يجب أن تنصب كلها في بوقفة العمل الوطني للموحد تحت لواء حركة التحرير الوطني فتح، التي تنمى للمنتدين والعلماني والشيعي، للمسيحي والمسلم للجميع، وأنه لا مجال للخلافات الفكرية.

كلما اجتمعوا في دولنا أو دار لم العبد أو وقفوا على زاوية الشارع شارت تلك النقاشات ولرفعت الأصوات بها، كل يتطرق لموقفه وأحياناً يعتد النقاش ويصبح مثل (الطوشة) ولكنهم في النهاية ينتهون بشرب الشاي الذي قدم لهم وينصرف كل منهم إلى عمله ومشاغله.

من جانب آخر بدأ الشيخ أحمد بدعوة مجموعة من الشباب الصلاة، والقعود للمسجد وأخذوا يترددون على المسجد يؤدون الصلوات فيه، ثم يجلسون في حلقة يقرؤون القرآن أو يتكلمون أحد الكتب الدينية من السيرة أو الفقه أو الحديث، كان الشيخ أحمد يشرح ويشرح ويشرح للشبان من حوله، يستقبلون ما يقول بفهم وإقبال، والشيخ يوجه هؤلاء الشبان وينتشرون ثم يعود لشباب جدد للمسجد فأكبر الحلقة وتتعاظم.

أخي حسن كان طليئنا قلباً وأكثرنا استعداداً للتضحية من أجل الآخرين، فقد تحمل عبء إعالة البيت وتغطية نفقات تعليم محمود في مصر من خلال عمله على بسطة الخضراوات ومواصلة تعليمه، ثم بقبوله أن يدرس في صناعة الوكالة رغم أنه حصل على مجموع ودرجات ممتازة في شهادة الثانوية العامة.

ولو توفرت له فرصة مناسبة لأمكنه أن يدرس هو الآخر الهندسة أو العلوم ولكن الظروف كان قاهراً فقبل الدراسة في الصناعة راضياً مع استمرار تحمله لعبء إعالة بسطة الخضراوات، وقد شارك على للتخرج من قسم (الخرطة والبرادة) من مدرسة الصناعة.

خلال عمله على بسطة الخضراوات تعرف على الشيخ أحمد حيث اشترى منه احتياجات بيته عدة مرات ولاحظ طيب خلقه وأصاله نفسه فدعاه للصلاة والتردد على المسجد مذكراً بالأخرة، محذراً من عدم طاعة الله ومخالفة أمره والطمع فيما عنده من نعم.

وبأن طريق الدين وطريق الاستقامة عليه هي خير طريق، وأقصرها للمسعدة والنصر في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة فوجد الحديث طريقه إلى قلب حسن، ووجد الشيخ بأن يبدأ الصلاة وأنه سيأتي للمسجد، وبالفعل فمن مساء ذلك اليوم بدأ حسن يتوضأ ويصلي، يتردد على المسجد للصلاة كلما منحت له الفرصة لذلك.

عادة ما كان يذهب إلى المسجد وقت صلاة المغرب ويظل هناك حتى يؤدي صلاة العشاء وبعد العشاء يعود إلى البيت، الأمر كان مقبولاً جداً علينا في البيت وخاصة لسي لموضوع الصلاة والتردد على المسجد هو أمر لا غنى عنه فيه، وحسن كبير وواع ولا خوف عليه منه. بشارك أحياناً في النقاشات التي تنور بين أخي محمود وجارنا عبد الحفيظ والشبان الآخرين حيث يكون خادماً جداً في نقاشه ضد عبد الحفيظ خاصة، وبدأ في اتهامه بالإلحاد وعدم الإيمان والكفر، وقد كان واضحاً أن عبد الحفيظ أقوى في طرحه الفكري، حيث أن مستواه الثقافي أفضل بكثير من أخي حسن ويبدو أن فترة السجن قد مكنت عبد الحفيظ من تلك القدرات الفكرية، حيث يبدأ يتهم على منهج التفكير الديني ويدعي أن الدين هو القوية للشعوب وهو عامل تخدير. أين المتكبرون وأين دورهم في النضال الوطني ومقاومة الاحتلال؟ فيبدأ حسن بالردود عليه ردوداً ضعيفة، كما أن حسن كان بصطلم كثيراً بمحمود في تلك النقاشات حيث يطرح عليه ضرورة العودة للدين والتمسك به خلال عملية التحرير مستشهداً بمقولة بنسبها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن حال آخر هذه الأمة إن يصلح إلا بما صلح به حال أولها، فيجد ردوداً قوية من محمود بأن الدين لا شك فيه ولا اعتراض عليه ولكننا في مرحلة تحرير وطني ويجب ألا يشغلنا عن ذلك أي خلاف فكري وديني. ويسكت حسن فلا يجد جواباً، أما سؤال محمود: وماذا مع النصارى من أبناء شعبنا؟ وأين دورهم ومحلهم من النضال الوطني؟ وكيف سيتعامل معهم إذا أعلنوا وبدلنا الصراع.

يعود حسن في اليوم التالي من المسجد وقد حمل عدة كتب أحدها يناقش ويسفه تفكر الماركسي ونظريات الاشتراكية والآخر يناقش النظام الاقتصادي في الإسلام وثالث كتب في العقيدة يضمها بجواره ويبدأ في نقلها ولبحث فيها عن إجابات للأسئلة التي عجز عنها في حوار الأمن.

محمود بدأ يحلق على حسن إزاء التطورات التي تطرأ عليه وبدأ يجلس معه أحياناً متسائلاً عن المسجد والنشاط فيه وكونه يتردد عليه معلولاً نصيح حسن بالابتعاد عن أولئك الجماعة ولما لم يسمع حسن لصوته ونصيحته، بدأ محمود يحاول استغلال تأثير أُمِّي لمنع حسن من الاحتكاك بأولئك الجماعة، وبدأنا نسمع كلمة كثير ترددها مثل (إخوانية). حيث يقول محمود لئن الشيخ أحمد والجماعة الذين يترددون على المسجد ويحضرُونَ الدُّعُوات ويتبادلون الكتب الدينية هم إخوانية أي من الإخوان المسلمين ويُبدِي لأمه خوفه من أن يصبح أُمِّي حسن (إخوانياً) معترفاً من أن الإخوانية لا يؤمنون بالقومية العربية وهم ضد جمال عبد الناصر وقد حاولوا قتله، وأن الأنظمة والحكومات ضدهم وتكرههم وتطاردهم وأن حسناً إذا صار إخوانياً فسيعرض نفسه للخطر دون مبرر.

أُمِّي كانت تدعو حسن وتجلس معه محاولة الاستئصال منه عما سمعت من محمود خاصة عن موضوع الإخوانية، فينفى حسن نفياً قاطعاً أنه من الإخوان لو أن أحداً ممن يترددون على المسجد قد تحدث معه عن الإخوان، أو أنه سمع واحداً منهم يتحدث مع الآخرين عن الإخوان، وأن كل ما يحدث في المسجد هو الصلاة، وتعلم القرآن وقراءته وتعلم سور الدين، فهل هذا خطأ؟ فتجيبه أمه: لا، ثم توصيه أن يأخذ حذره ولا يتدخل في الأمور التي توجع الرُّس قُبطمتنها ويمارحها وتخرج أُمِّي في النهاية راضية.

كنت أسمع الكثير من تلك الحوادث سواء بين محمود وحسن، أو بين محمود وأُمِّي أو حسن وأُمِّي، أحاديث محمود كانت مقبحة أكثر لحظي ولكن طيبة حسن وبساطة تتلوه للأمور كانت تدعو للراحة والطمأنينة أكثر، ولعل حسناً قد أحسن بذلك فهذا يحاول التأثير علي بالصلاة والتردد معه على المسجد فكانت أصلي أحياناً وأترك الصلاة أحياناً أخرى، وقد ترددت معه مراراً على المسجد وجلست معه في الجلسة (الحلقة) التي تعقد في المسجد بين المغرب والعشاء فكان يديرها الشيخ أحمد، وقد حضرت عدة جلسات في تفسير بعض السور القرآنية مثل سورة الزمر والممتز.

كان كلام الشيخ مؤثراً وجيلاً وهو يتحدث واصفاً مشاهد القيمة وعذاب الآخرة وتعيمها، وهو يصف كيف تلقى رسول الله ﷺ أوامر ربه لعمل راية الدعوة وتبليغها والصدع بها.

تخرج حسن من الصناعة وعلى الفور وجد عملاً في إحدى ورشات الحدادة والخرابة والبرادة في منطقة للزيتون في غزة، ويراتب معقول، مع وعد بالزيادة إن أثبت جدرته وقدراته الفنية وبات واضحاً لنا قد دخلنا عصر حياتنا الذهبي بعد سنوات الفقر والقحط.

كنت حينها قد لوشكت على إنهاء دراستي الإعدادية، وإبراهيم ابن عمي كان قد بدأ الثانوية وأخي محمد كان في الثاني للتكوي/ القسم العلمي، تهاني كانت قد أنهت الثانوية العلمية وسجلت للالتحاق بدور المصنعات في غزة وتنتظر النتائج في تلك الفترة، مما بدأ وكان الدنيا تبتم لنا من جديد.

بعد سنوات من الضباب لطل علينا حسن (ابن عمي من جديد) ولكن بصورة جديدة كان قد أصبح رجلاً كبيراً ولكنه قد أعفى لحيته وشعره، ملابس غريبة بصورة موحشة، مثل ملابس اليهود، وقد لبس في عنقه سلسلة ذهبية ووضع حول راسه يده سلسلة ذهبية سمكة، ويلبس بنطال كابوي متآكل عند ركبته وبجيبه طبة سجائر، يبدو نعلماً من كوكب آخر، طرقت الباب فتحت له ولم أعرفه للوهلة الأولى فوضع أصابع يده بين شعري نافراً ليأه قائلاً: أنت أحمد فعرفته من صوته: أنت حسن؟ فقال نعم فصرخت يا لمي يا محمود هذا ابن عمي حسن قد عاد للدار.

خرج الجميع يجرون من غرفهم تجاه باب الدار وكان حسن قد خطا خطوتين لو ثلاثاً للدخول، وكل من يخرج جارياً يتوقف كمن لأصابته صاعقة، ولا يدري ما يقول، كان أول من أفاق من الصدمة أخي محمود، تقدم وسلم عليه وعانقه، سلم عليه إبراهيم وأخذه محمود من يده إلى غرفته ولحقنا به إبراهيم وحسن وأخي محمد وأنا، وذهبت لمي لإعداد الشاي.

وجلسنا في الغرفة وبدأ محمد يستفسر عما جرى معه وكيف وصلت به الأمور؟ وما هي أخباره؟ وهو يحدثنا أنه يعيش في تل أبيب وأنه يعمل في مصنع والد صاحبه اليهودية، وأن وضعه ممتاز، وأنه يسكن شقة مستأجرة ممتازة في يافا، المهم أن لسانه كان ثقيلاً وهو ينطق بالعربية ويكثر من استخدام الكلمات العبرية في حديثه.

لحضرت لمي الشاي ودخلت به لتضعه على الطاولة فسألها: كيف حاله يا مروت عسي؟ أجابت: الحمد لله، فقال: المهم يا مروت عسي أنت كسيتي في خير، طلعت من المخيم وشفت الدنيا وعشت وأخذت راحتي بدل بؤس المخيم وجرماته. فقالت لمي متهمكة: (أه شفت الدنيا مع صاحبتك اليهودية)

فقال: آه ومالها اليهودية! ١١؟ تدخل محمود متسائلاً (اللهم يا حسن ايش بعدين) فاجاب حسن: (ولا بعدين ولا قبائين، بس انا جيت اسلم عليكو واشوف ابراهيم بده يشي) ومد بده إلى جيبه فأخرج محفظته وأخرج منها رزمة كبيرة من الأوراق النقدية وعد منها مبلغاً كبيراً وتناوله ومد بده بها نحو ابراهيم.

ابراهيم لم يحرك ساكناً وجميعنا للتزمنا الصمت، قال حسن خذ يا ابراهيم، فرد ابراهيم: لا شكرأ، أريد أن أعيش مع دار عمي مثل أي واحد منهم ولا ينقصني شيء فقال حسن: خذ أنا أخوك، فرد ابراهيم: أنت أخي حين تعود للدار وتعيش معنا وتترك قيوود وحياتهم رد حسن: مهلك يا ابراهيم مهلك، هل تريدني أن أرجع للمخيم لماذا لا تأتي أنت معي؟ رد ابراهيم: أعوذ بالله، رد حسن: (براحتك).

بدأ محمود يحاول حسداً محاولاً إقناعه بالعودة للبيت ولأن بيته لا يزال ينتظره ويمكنه أن يبنيه ويرتبه ويمكن أن تزوجه أحسن بنت، ويبحث له عن عمل محترم، كان حسن يبتسم طيلة الوقت معبراً عن رفضه ثم غادر بعد سلام فاتر.

ظلت أمي تحاول إقناع محمود بضرورة الزواج وكان يحاول التخلص من ذلك بدعوى أن البيت صغير وعدم صلاحه للزواج فيه، فكانت تحاول إقناعه بأن هذا يكون مؤقتاً حتى نقومع وعندما الآن في البيت ثلاث غرف، غرفته التي بنيناها جديداً، والغرفتان للقيدين وقد صلحناهما حيث تعيش هي وتهاني ومريم في إحداها ويعيش أخي حسن ومحمد وأنا وابن عمي ابراهيم في الثانية، ويتزوج هو ويعيش مع زوجته في الغرفة الجديدة.

فكان يتسائل ولو جامداً ضيف لو زوار أين سيجلسون؟ فكانت تجيب في غرفة الأولاد أو في غرفتي أنا والبنات، أليس هذا حال كل أهل المخيمات؟ وزيادة على ذلك فعندنا دار عمك ويمكننا إصلاح غرفة من غرفها للتوسع فيها، وبالفعل فقد اتفق على تصليح الغرفتين في دار عمي على أن تكون واحدة لمحمود وزوجته، والثانية لحسن حين يتزوج، وتظل الغرفة الجديدة لاستقبال الضيوف.

بعد بناء الغرفتين من جديد اقترح محمود على أمي أن يتم تأخير زواجه عدة أشهر أخرى ويتزوج هو وحسن مرة واحدة بدلاً من تكاليف عرسين نعملها عرساً واحداً، فنوفر تكاليف عرس حسن، وحسن مسكين وطيب وضاع عليه التعليم من أجل البيت،

فلنجعل فرحتنا فرحة واحدة. أمي فتتعت بالفكرة وبدأت تتحدث مع حسن لإقناعه بالخرفة جاهزة والعرس سيكون وسيكون.

بعد أيام من محاولات الإقناع والضغط والحق حسن هو الآخر، وبدأت أمي في حوار مطول مع كل منهما من التي يريدان؟ أو مواصفات التي يريدان؟ وبدأت تقترح عليهما بنت فلانة وبنت فلانة، وتخرج لزيارة تلك البيوت لتري الفئات في بيوتهن، وتري البيوت ومستوى نظافتها وترتيبها، وعادات أهل البيت وتعود غير راضية بالمستوى المطلوب.

تهاني اقترحت على أمي رؤية إحدى زميلاتها في معهد المعلمات فتاة كطلق للبدر وذات خلق حميد وبنت عائلة من طبقتنا (من طيننا) وأهلها ناس بسطاء ومحترمون، وقد اتفقت أمي مع تهاني على زيارة بيت تلك الفتاة، ذهبا وعابت أمي بخاية لرضا والتمسدة فقد عثرت لمحمود على العروس المناسبة، فقط ظل أن تعجبه هو وأن توافق البنيت وبوافق أهلها، ومن الذي سيرفض (الباش مهندس محمود الصالح!!) تحدثت أمي مع محمود ووصفت له الفتاة فأبدى موافقته المبدئية على أن بيت تهانيا في الأمر بعد رؤية الفتاة.

ذهبت أمي لزيارة بيت أبي محمد السعيد مرة أخرى، وهناك تحدثت مع أم محمد أن لنا تشرف في أن نتقدم لخطبة ابنتهم "وداد" لمحمود، فهل نأتي لذلك بصورة رسمية، أجابت أم محمد بعد مشاورات سريعة في البيت: أهلاً وسهلاً بكم واتفقن على الموعد أن يكون بعد عصر يوم الجمعة القادم.

يوم الجمعة حضر خالي ليششارك في الوفد كما حضرت أختي فاطمة وتجهزت أمي ومحمود وحسن وتهاني وخرجوا إلى بيت العروس، كالعادة جلس الرجال في إحدى الغرف والنساء في غرفة أخرى مع الكثير من عبارات الترحيب والمجاملات، في آخر الأمر رأى كل من محمود ووداد الآخر وأعرب كل منهما عن الإعجاب بالآخر، وموافقته عليه.

فانطلقت الزغاريد وأعلن عنهما كخطيبين وتفق على عقد القران والزواج بعد شهرين، حيث نكون نحن قد أكملنا الإجراءات اللازمة، خاصة بإتمام البحث عن عروس لحسن، وتكون وداد قد أنهت الدبلوم من معهد المعلمات وحصلت على الشهادة.

واصلت أمي البحث عن عروس مناسبة لحسن، ويوم بعد يوم تخرج لمعالجة إحدى الفتيات فلا تصحبها هذه لأن شعرها مجعد، ولا تصحبها تلك لأن أنفها طويل، ولا هذه لأن أنفها كبير، ولا تلك لأنها غير مرتبة، فبينهم لم يكن مرتباً، وتلك لأن بينها لم يكن نظيفاً كما يجب وبعد كل جولة من جولاتها الاستكشافية تعود لتقديم التقرير لحسن وبمرافقة تهاني.

وبعد طول جهد واجهها حسن بالسؤال: (يا ما بنت ليش مغنية حالك؟) التفتت إليه غاضبة عائبة قائلة: (بولش ما أغلب حالي هو بنت قليل يا حسن!!) فأجابها مناسكاً (ما تفهميش غلط بلما قصدي أن العروس موجودة وقريبة وتحت عينك من زمان) نظرت إليه بدهشة متسائلة: (مين؟ إيش قصدي!!) فقال: (سعاد بنت أم العبد، جارتنا) ابتسمت أمي وداعبته متسائلة: (والله كنت بتحبها يا شيخ حسن؟) ظهرت ملامح الخجل على وجه حسن قائلاً: (والله بلما كنت عارفتيني والله عمري ما اطلعت عليها من حد ما كبرنا، لكن البنت حلوة ومحترمة وغلابة زي حالتنا، وزى ما بقول للمثل: من طين بلادك نط اخدلك) تصامعت أمي بهدية: هل تريدنا بحق؟ (بذلك لياها عن جد) نعم وبكل للعبد.

ثلاث أمي تهاني وأخبرتها بالأمر، نظرت تهاني بدهشة متسائلة (وهل تريدنا بجد؟) أجب: نعم، قالت تهاني: الصحيح أنها جميلة ومحترمة ومن عائلة محترمة كيف لم ننتبه لها من البداية؟ أجب حسن: هذا هو حال الدنيا يكون للذهب بين يديك ولا تراه وأنت تنظر بعيداً!! تعجلت أمي للقول (بكرة من الصبح راح لخطبها إلك بعون الله).

وبالفعل من ساءت الصباح الباكر صارحت أمي أم للعبد وبدون مقدمات أخبرتها أنها تخطب سعاد لحسن، طلبت أم للعبد إيمالها حتى الظهور لتتظر ما هو رأي ابنتها وما هو رأي إخوتها. بعد الظهور عادت أمي إلى بيت أم للعبد لتعرف جوابها، وعرفها للجواب حين سمعنا زغاريدها وزغاريد أم للعبد معاً، وبالطبع فقد خرجت للجارات من البيوت القريبة مهئنات.

بدأت الاستعداد لحفلة الزواج على قدم وساق، شراء أثاث البيت للعروسين وإعداد شنطة ملابس كل واحدة من العروسين، على مدار حوالي شهر لم تجلس أمي في البيت مرة إلى بيت أم للعبد ومرة إلى بيت أبي محمد السعيد، (مرات إلى البلد) أي إلى قلب المدينة لشراء الملابس والمجوهرات للعروسين حتى اكتملت للتجهيزات، وجاء موعد عقد القرانين والزواج.

كان عليّ أنا ومحمد وابن عسي إبراهيم أن نجهز الكثير من الأمور واستأجرنا عدداً من كرسي القش ونقلناها على إحدى عربات (الكارّة) ووضعناها أمام الباب، أحضرنا صواني البقلاوة واشترينا كمية من اللحم، وكيسين من الرز وجمعنا عدداً كبيراً من الصواني من الجيران نكتب اسم كل عائلة على صينيّتها خشية أن نغفل عنيّنا الصواني، ولشرفت لمي على عدد من جاراتها اللاتي جئن بمساعدتها في تحضير الطعام، أعدنا منصة زفة العرسان (اللوّج) حيث استعزنا عدة طاولات وربطناها ببعضها وثبتناها إلى جوار الجدار وغطيناها بالبسط والعصائر ووضعنا عليها كرسيين من الخيزران مزدوجين استعزناهما من الجيران وغطيناها بسجادات الصلاة بحثاً عن وصلة طويلة من أسلاك الكهرباء وصلناها بأحد بيوت الجيران البعيدة ممن لديهم كهرباء حيث لا توجد كهرباء إلا في بعض البيوت فقط من ذوي الحال المعنّز، وكنا قد استأجرنا وصلة فيها عدد من اللامبات ذات الألوان المختلفة علقناها فوق منصة الزفاف، كل ذلك كان جاهزاً بعد الظهر حيث بدأ المدعوون والمدعوّات يحضرون.

النساء جلسن داخل الدار وللرجال جلسوا تحت العريش، الذي أقامه في الشارع. بصوت غناء النساء وزغاريدهن لم يقطع قط، ثم بدأنا بتقديم الطعام صواني الأرز الأصفر وعليها قطع اللحم الأحمر ثم وقفنا أنا ومحمود وإبراهيم بأرشدنا قطع الصلبنون وأباريق الماء الفخارية وعلى أكتافنا القوط القطنية، فمن شبع من المدعوين قام إلينا فنأوله ألدنا قطعة الصلبنون وسب على يديه الماء حتى إذا غسل يديه وفمه وهو يهنئ ويبارك، نولناه (البشكير) لينشف يديه ومن ثم ذهب إلى صينية البقلاوة ليتناول منها (التحلية).

بعد انتهاء الطعام انصرف الكثيرون من المدعوين، أهل العروسين علواً لبيوتهم في تنتظر ذهابنا لكتابة الكتاب، ولصطحاب العروسين إلى بيت عريسيتها وظل معنا أخص الأقارب والأصدقاء، حيث تجمعت النسوة وبدلن السير وهن يقنين ويزغردن إلى بيت جديد من الصوف تحتها أغطية بيضاء وعلى كل واحد فتدلي ربطة عرق، استمرت النسوة في غناء الأغاني الشعبية والطبل يرافقه حتى تقربن من بيت "أبو محمد" فبدلن يقنين الأغنية الشعبية الشهيرة (عمين لفين يا بنات... عادار أبو محمود لفينا ياليله، طلينا منه المنصب... رحب واحترم ياليله...)

وهن وصلن الباب انطلقت زغاريدهن من داخل البيت. دخل الرجال إلى (حدى الغرف، حيث حضر الشيخ الذي أتم إجراءات عقد القران وتوثيق ذلك كما هي العادة من خلال ذلك تم تجهيز العروس، وخرج الرجال وانتظروا عند باب البيت، وخرجت العروس

بمسك أبوها بذراعها وأحد إخوتها بذراعها الآخر حيث سلمها لأخي محمود،
والزغاريد تتعالى وتطلق الركب عودة إلى البيت.

أدخلت العروس البيت وظل عدد من النسوة معها وعدد آخر يغنين ويرشدن
وخرج الركب مرة أخرى ليصلح الأمتار القليلة حتى يبت العروس للثانية وينص الطريفة
وبنفس الإجراءات أمسك أخوها سعيد ذراعها وسلمها لحسن الذي تقدم بها نحو البيت بين
الزغاريد والأغاني.

أدخلت العروسان إلى نفس الغرفة ليجهزن للزفة، وطلبت أمي من محمود وحسن
للمعود إلى منصة الزفاف ليجلس كل منهما على كرسيه انتظاراً لخروج عروسة لتجلس
إلى جواره لتتم الزفة كالعادة، محمود لم تكن لديه مشكلة، أما حسن فقد رفض ذلك بقوة
قائلاً: كيف سأجلس يا أمي بمكان منقوم فيه النساء بالرقص أملي هذا حرام... خرجت
أمي بالأمر وبدأت ترجوه فهذا يوم فرحتنا الذي انتظرت طيلة حياتي ومحمود يحاول مع
حسن لكي لا يفقد الفرحة والزفاف وحسن يرفض ذلك رفضاً قاطعاً.

استمر الحوار وطال، وفي النهاية اقترحت فاطمة حلاً وسطاً بحيث يصعد محمود
وحسن نصف ساعة، حيث تجلس عروستهما، وفي نصف الساعة هذه لا ترفض النساء
ويكتفين بالغناء والزغاريد ثم يفاضن العريسان ويرفع أحد المقعدين وتجلس العروسان على
نفس المقعد حيث يتم الاحتكاك بهما كيفما تشاء النساء حيث يكن رحدهن، واللق محمود
على ذلك وتنازل حسن في نهاية الأمر. وصعدا على المنصة حيث جلس كل منهما على
المقعد، ثم خرجت العروسان وجلس كل واحدة إلى جوار عريسها، وبدأت النساء بالغناء
والزغاريد.

كانت دموع أمي في طيلة الوقت تسيل وجهها دون انقطاع، وفاطمة إلى جانبها
من اليمين وتبكي من اليسار يحاولان تهدئتها. لماذا البكاء وهذا يوم الفرج الذي انتظرتنه
طويلاً فتمسح دموعها ثم تتفجر من جديد وهي تهمس لو حضر أبوكما هذا اليوم فتهمس
دموع فاطمة وتبكي ومن يرددن همساً لماذا تفتحين هذا الجرح يا أمي وقد اندمل منذ
زمن بعيد!!!

نزلت العروسان لتبديل بذلتيهما البيضاويين بلون آخر، ونزل العريسان ليغسلان
وقد أخذتا معهما أحد المقعدين، ولزأحا الآخر إلى منتصف المنصة ومحمود يدفع حسناً
وينخره في خلصرتة قائلاً: (يا سيدي الشيخ أي هو كل يوم الولد متجوز والله طلعت
إخونجي أصلي أنا عارف إيش هلي جوزني معاك، روح الله بجازيك) فبسم حسن قائلاً:
(اطلع اطلع سيب النملون بفرحن لعالمين).

من ورائهم كان صوت غناء النسوة وزغاريدهن يتعالى دون انقطاع وقد أجبرن
نفسى إلى الدخول وسط التجمع للرقص ثم أجبرن أم العبد ولم محمد، نزلن ورقصن ولا
تدري كيف تفهم تلك الدموع الجارية في أجواء هذا الفرح الغامر، ولكنها أحوال المخيم
كل فرحة تنكأ الجراح من جديد، وتفتح مرة أخرى كل الذكريات.



الفصل الثاني عشر

زوج خالتي كان قد أنهى مدة سجنه وخرج من السجن وعاد لمزاولة أعماله التجارية ومثابرة شؤون أراضي العائلة، وقد بدأ ابنها عبد الرحيم يدرج على الأرض لاصباً وهو يردد كلماته الأولى.

زوج خالتي يتردد على ذات المعاملات التي كان يتردد عليها في الخليل والتي تربطه بها علاقات تجارية قوية، يجلسون في نفس المجالس وتكرر الأحاديث من جديد حول موقف الدار ورشقات الشاي والرجال يسألونه عن السجن، وكيف تعاملوا معه؟ وكيف عذبوه؟ وكيف حققوا معه؟ وهو يحدث بتواضع محاولاً التخفيف من مشاعرهم بالخوف والتعصب من المعتقل ومن السجن، مؤكداً أن ذلك صعب حقاً ولكنه ممكن ومحتمل، وهو يصقل العود ويقوي النفس ويجعل الإنسان يشعر بقوته وعظمته، والرجال يهزون رؤوسهم ويحلق أحدهم بالآخر مستغربين مستكبرين، ولعل أحدهم يقول للآخر بعد أن ينصرف زوج خالتي (شوف قليل هالعقل بهدل حاله وشنت عيلته وصنع على حاله ثورة، وبيقول ممكن ومحتمل!! إيش هالكلام الفاضي).

أخوه عبد الرحمن في السنة الثانوية الثالثة (النوحيي) في مدرسة طارق بن زياد الثانوية في الخليل معروف بجهده واجتهاده، وخلفه ودينه وعلاقاته الحميمة بالكثيرين من شباب المدرسة في المدينة والقرى المحيطة. في تلك الفترة بدأت تتبلور في مدرسة طارق بن زياد الثانوية مجموعة من الشباب المتدينين المحسوبين على التيار الإسلامي، عدد من المدرسين في هذه المدرسة كانوا قد تخرجوا من قبل وقت من الجامعة الأردنية وقد انتظموا أثناء دراستهم هناك في صفوف الإخوان المسلمين، بعددتهم إلى الخليل وعملهم في مدارسها، بدأوا يحاولون نشر الفكر الإسلامي في المدينة ووجدوا في صفوف طلاب المدرسة الثانوية تربة خصبة لذلك.

في نفس الوقت افتتحت كلية الشريعة في المدينة، رئيس البلدية في المدينة هو الذي أشرف على فتحها، التجمع الشبابي في الكلية أوجد تلقائياً تيارات سياسية وفكرية كان أبرزها تيار الإخوان المسلمين بتأثير المدرسين في الكلية والدراسة الإسلامية والشرعية منها.

تكلل عدد من الشباب في تلك الكلية كنواة لعمل الإخوان المسلمين وهؤلاء بدأوا ينتشرون في أنشطتهم إلى المدارس الثانوية، فالتقى جهدهم بجهد المدرسين في مدرسة طارق بن زياد،

حيث بدأت تتكلم مجموعة من الطلاب الذين تجمعوا حول فكر الإخوان المسلمين، اسم الإخوان المسلمين في مدينة الخليل لم تكن تلك الموسيقى الصاخبة التي ترافقه إذا ذكر في قطاع غزة أو في شمال الضفة الغربية، فهناك كان اسم الإخوان أشبه بالشئمة أو العب، أما في الخليل فقد كان للإخوان تاريخ قديم، كانت فكرة الإخوان مثبغة لدى عائلات معروفة بخاها وبشرها في المدينة لذا فقد كان من السهل ظهور الاسم وإعلانه دون حرج.

في مدرسة طارق بن زياد التي عبد الرحمن مع مجموعة أخرى من شباب المدينة وشباب من القرى الأخرى وشكلوا بتأثير طلاب الجامعة/كلية الشريعة، وتأثير بعض المدرسين شكلوا إطاراً مفتوحاً يدرس ويتبنى أفكار الإخوان المسلمين، ويقبل على دراسة الإسلام وكتب الفكر الإسلامي المعاصر.

في أحد الأيام جاءت مجموعة من هؤلاء الزملاء إلى قرية (صوريف) لزيارة عبد الرحمن وتأكيد الأنشطة التي يستخدمها الإخوان للتعريف والتربط والتربية، التقت مجموعة من حوالي عشرة طلاب من زملاء عبد الرحمن على سفح جبل تلهو وتلعب وتجلس للتحدث في أمور الدين والسياسة، كانت خالتي -بناء على طلب عبد الرحمن- تجهز لهم طعام الغداء، حيث ذبح لها عبد الرحمن منذ الصباح أربع دجاجات وبدأت بإعداد (أكلة المسخن).

عند الظهر عاد زوج خالتي من متجره، ولما تأخر عبد الرحمن لأخذ الطعام بنفسه توجه إلى الأرض ليوصله إليهم، قرأ عليهم السلام ونادى عبد الرحمن أنه قد أحضر لهم الطعام وأجاب عبد الفتاح شاكراً متسائلاً: لماذا أرقق نفسه فقد كان ينوي القدوم لأخذه؟ أوضح عبد الفتاح ألا يرهاق في ذلك وأن هذه فرصة للتعريف على الشباب.

جلس معهم يتناولون طعام الغداء ويتعرف عليهم ويشاركهم مرحهم وسعادتهم وأحاديثهم محاولاً استثارة مشاعرهم وانتمائهم الوطني، لقراءة آرائهم وأفكارهم واستعدادهم، متسائلاً: ما رأيكم في العمل الوطني ومستواه الحالي في البلد أجاب أحد الشباب: المشكلة أن شعبنا ما زال يفتقر إلى أهم مقومات العمل الوطني والمقاومة ولذلك فمستوى الاستعداد والتضحية لا زال منخفضاً.

ناقش عبد الفتاح متفاجئاً: كيف نقول ذلك وعلام تستند في ادعائك هذا؟ أجاب الشاب: إن قضية يمثل حجم وأهمية القضية الإسلامية، قضية المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين تتطلب الكثير من التضحيات والغداء ومستوى العمل الوطني لا زال بسيط بكثير من المطلوب. واستداحية الناس لا تزال أقل يملكون مرة من المطلوب.

ناقش عبد الفتاح مرة أخرى قائلاً: ولكن لم تسمع عن العمل الفدائي في كل المناطق المحتلة في قطاع غزة في شمال الضفة ووسطها وفي القدس والخليل والقرى؟ قاطعه الشاب: بلى قد سمعت ولكن ذلك كله أبسط وأقل بكثير جداً من المطلوب!! ألا ترى يا رجل كيف يصول اليهود ويجولون في مدينة الخليل دون أن يتعرض لهم أحد إلا نادراً، وكيف يأتي السياح لزيارة الحرم واليهود يسرحون ويمرحون في الحرم الإبراهيمي، وكيف يأتون للمتاجرة في الخليل كيف يترددون على ورشاتها للحداثة والنجارة، وكناس وأهنا يتعاملون معهم وكأنهم ليسوا احتلالاً ولا محتلين وغاصبين لأرضنا ومقدراتنا.

قاطعه عبد الرحمن: لا شك أن الدافع الوطني وحده غير قادر لإدارة الصراع وأن من الضروري... قاطعه عبد الفتاح: يا أخي هذا شعبنا طيلة تاريخه يدافع عن أرضه ولا يستسلم وهو... قاطعه الشاب: أنا سأحدثك بقصة حدثت معي، بعد الاحتلال الإسرائيلي للخليل كنت لا أزال صغيراً، ورأيت يهودياً يسير وحده في شارع الخليل، فأغلظني ذلك الأمر فتناولت حجراً عن الأرض وألقيته على ذلك اليهودي ثم هربت وراء الأشجار (التفاح) في قطعة أرض لنا وجلسنا هناك لبعض الوقت حتى اعتقدت أن اليهودي قد ذهب، وإذا بي أسمع صوت أحد أبناء الجيران ينادي يا جمال يا جمال... تعال لقد ذهب. خرجت من وراء الأشجار فإذا باليهودي يختبئ وراء زلوية للبيت، يخرج نحوي وقد أشهر مستمعه نحو رأسي، وبدأ يحول إصبعي كي لا أعلود الكرة، وقد فهمت أنه بعد أن ألقيت عليه الحجر، قد طرقت باب الجيران وهددهم إذا لم يحضروني وبملموني له أنه سوف يخرب بيتهم ويسجن أولادهم، فقام أحد أبنائهم بذلك الدور حيث سلمني لليهودي بذلك الصورة.

قاطعه عبد الفتاح هذا يحدث هذا يحدث... ولكن الناس بخير وشعبنا بخير، وأنا أقول إن شعبنا بخير حتى أولئك الناس بخير، فهم قناس طيبون ولكنهم مساكين يخافون على مصالحهم يعني استعدادهم للتضحية محدود، ولا بد من أن تتم عملية طويلة من... قاطعه عبد الفتاح: يا رجل، لا لزوم لأي عملية فالواجب يحتم على كل واحد أن يقوم بدوره لكن مالنا ولهذا الحديث ولماذا أوجع رؤوسكم بأحاديثي على أن أترككم تكملون يومكم.

وقام بنفض ملابسه وهو يقول: أهلاً وسهلاً بكم يا شباب أهلاً وسهلاً بكم ووقف قائلاً السلام عليكم وهو بنفض ثيابه وانطلق منصرفاً، فقام الشباب يمزحون ويتسرحون بين أشجار الزيتون.

أخي محمد ولين عمي إبراهيم تأثرا كثيراً بأخي حسن وتدينه فبدأ بصليان وملتزمان بالصلاة تدرجياً ويترددان معاً على المسجد، أنا لم أكن مثلهم، كنت أصلي أحياناً وأترك الصلاة أحياناً أخرى وكنت أرافقهم أحياناً إلى المسجد فنصلي تلك الصلاة جماعة.

ثم نجلس أحياناً في إحدى تلك الحلقات التي يعقدونها بعد الصلاة، فبدأ أحدهم يتحدث في أحد الموضوعات الدينية بضمير شيئاً من القرآن أو يشرح حديثاً شريفاً، أو يقرأ في أحد الكتب ويشرح ما يقرأ، أو يشرح شيئاً من السيرة النبوية وأحياناً بعد صلاة المغرب حين أصلي معهم في المسجد كانوا يجلسون في تلك الحلقات ويبدلون في قراءة أدعية يسمونها المأثورات بصوت جماعي أنا لم أكن أحفظ مثلهم ما يقرءون فأحركه شغتي معهم وكنتني أحفظ ما يقرءون.

محمود كان مستاء جداً من تدين محمد وإبراهيم وقد ساءه من قبل تدين حسن، وكثيراً ما كان يجلس معهم جميعاً أو مع كل واحد منهم على حدة، يثمه بالامتناع الدائم عن الذهاب للمسجد والجلوس فيه والمشاركة في الأنشطة التي تجري هناك، محذراً من أن من يشرف على ذلك هم إخوانية يعني (إخوان مسلمين)، الشيخ أحمد إخواني والإخوان ضد عبد الناصر وضد الوحدة العربية ولا يعترفون بمنظمة التحرير الفلسطينية، ويقولون إن شهداء الثورة الفلسطينية (قطايس) وليسوا شهداء ولا يشاركون في المقاومة والعمل المسلح، فينظر إليهم ثلاثتهم إن كانوا سوية أو أحدهم حيث يكون وحده مستغرباً قائلاً ماذا تقول؟ أنا ذاهب للمسجد وأجلس في الندوات وأسمع ما يقال، وليس هناك أي شيء مما تقول! فيقول محمود وقد ارتفع صوته وزدادت حدته: (ولك أنا يعرفهم، ما هم يقولون هذا الكلام إليكم هلقيت، هلقيت بيحكوا لكم عن الدين والإسلام والرسول والصلاة وبعينين بيدخلوا للموضوعات الساخنة) فيعبر أحدهم عن تذمره قائلاً: (يا راجل سيبك من هالحكي هو إنت بتعسبنا ولاد صغار).

في كل المرات التي ذهبت فيها إلى المسجد وجلست فيها في تلك الندوات لم أسمع أحداً ممن تحدثوا فيها قد تطرق للسياسة، أو ذكر فلسطين أو المقاومة أو الاحتلال ولا حتى تاريخ القضية الفلسطينية، ولا منظمة التحرير ولا فتحاً ولا الشهداء ولا غيرهم، فقط كانوا يتحدثون في موضوعات دينية محضة.

فهو المتطرق لتلك الموضوعات ثم في جلسات لم أكن أحضرها لا أدرى. ولكن كنت مثلي مثل كل الشباب في المخيم في تلك الفترة أشعر بشيء كبير من الاحترام والتقدير لأبي عمار "بامر عرفات" الذي أصبح رمزاً للثورة الفلسطينية، وأعتبره قائدي وزعمي، ولطالما رفعا صورته في المظاهرات، ولطالما رددنا شعار (بالروح بالدم نفديك يا أبو عمار) وقد كنا نقول ونردد ذلك الشعار من أعماق قلوبنا، وبكل صدق وجدية.

لكني كنت ألاحظ أن أخي حسناً ليس مثلي ومثل الباقين من الشباب في المخيم فلم أكن أشعر أنه حين يذكر اسم أبي عمار بفعل أو يتأثر مثلاً وكأنه أي شخص آخر يذكر اسمه، لكنه لم اسمعه ولو مرة واحدة يصرح بموقف معادٍ أو مضاد لعرفات أو لمنظمة التحرير.

وحين يطرح موضوع الشهداء، فيقال الشهيد فلان أو استشهد فلان، كان أحياناً يصرح بأن الله هو العالم بمن هو شهيد ومن ليس شهيداً، فهذا موضوع مرتبط بالنوايا والقلوب، وقد كانت صراحته تزداد حين يذكر أن أحد أفراد الجبهة الشعبية استشهد، فيقول: ومن يدري أنه شهيد؟ فقد يكون أصلاً غير مؤمن بالله وملحداً فكيف يكون شهيداً إذا...؟ في مثل هذه المواقف كان محمود يحث ويصرخ عليه من أنت ومن كل مشايخك حتى تحدوا أن فلاناً شهيد وفلاناً غير شهيد وأنتم تجلسون في بيوتكم وعند نساءكم تصدرون الفتاوى على الناس التي تحمل روحها على كفتها وتتاضل في سبيل الوطن.. فبعضكم حسن بكلمات غير واضحة، وبقي بحدّة وعصبية، ويدّبر المكان فلذا ما كان فيه محمد وإبراهيم غادرا المكان بعده بقليل، فتخرب الجملة وتنفض.

كان الحواري يحث كثيراً جداً إذا ما كان عبد الحفيظ في إحدى هذه الجلسات فيبدأ بالنهيم على المشايخ وعلى الدين ويصل به الحد إلى القول أن الإخوان عملاء لأنهم يقضون رواتب من السعودية، بالإضافة إلى نقائات فكرية مختلفة وكان حسن يرد عليه ردوداً غاضبة بتهمة الإلحاد وعدم الإيمان بالله، وأنهم أنساب للاتحاد السوفيتي الذي كان أول من اعترف بقيام دولة إسرائيل عام (١٩٤٨).

كان الكثير من حديث حسن وحواره يعجبني ويحد صداه مع نفسي وأصلي وروحي لكنني كنت لا أفهم مواقفه في عدة نقاط وكنت أرى ضيقه وانسحاباً جلياً حين يناقشون معه دور الإسلاميين في حمل الهم الوطني، ودورهم في المقاومة المسلحة ضد الاحتلال إضافة إلى موقفهم من الشهداء الذين يقضون في سبيل الوطن.

كذلك موقفهم للمخيم من منظمة التحرير الفلسطينية، وكان حسن ومحمد وإبراهيم كانوا يشعرون بعجزهم الواضح في تلك القضايا وعدم قدرتهم على إقناع الآخرين بموقفهم حيث أنهم هم أصلاً غير فاهمين بالضبط ما هو الموقف من تلك القضايا وكانهم توجهوا للشيخ أحمد وسأله عن الأمر فأخبرهم أنه سيتحدث في هذه الأمور في الندوات التي سيعقدها في المسجد خلال الأيام القادمة.

بعد أيام أحسست أنهم يريدونني أن أذهب معهم إلى المسجد في صلاة المغرب حيث عادة ما تعقد تلك الندوات بين المغرب والعشاء فذهبت معهم، صلينا المغرب وراء الشيخ حامد الذي كان قد هزم وصوته لا يكاد يسمع والمسجد كان مكتظاً بالشباب والرجال والأولاد على غير ما كان عليه عندما كنت أتى إليه مع جدي - رحمه الله - وأنا طفل، وبعد الصلاة انصرف بعض الناس من المسجد ثم جلس عدد كبير من الشباب حوالي خمسين شاباً في حلقة.

وجلس الشيخ أحمد الذي بدأ حديثه: فحمد الله وصلى على رسوله، ثم بدأ يتحدث عن دور الإنسان في الأرض وعبودية الله ضارباً مثلاً واضحاً لمن فهم الرسالة بربيعي ابن عمر رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم قائد الفرس قبل يوم القادسية، حين سأله رستم ما الذي جاء بكم من جزيرة العرب لقتالنا فقال: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد لعبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، وشرح ذلك مستفيضاً موضحاً أن هذا الفهم يصعب على الناس اليوم من شعبنا فهمه في ظل أزمة وجود شعبنا وأرضنا تحت الاحتلال ولكنه هو وحده طريق التحرير والخلص ولكن الناس لا تترك ذلك وحتى قد تعادي هذا.

كما كان الرسول ﷺ في مكة يدعو أهلها والعرب إلى الإسلام وفيه عزهم وسوددهم وهم لا يدركون ذلك، فعادوه وحاربوه وقد ثبت في النهاية أن عز العرب بالإسلام وهذا ما كان وهذا ما سيكون فعزنا بديننا.

ثم بدأ يتحدث عن تعريف للشهيد في الإسلام بما مفاده من قاتل لكي تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وأن هذا هو التعريف الشرعي للمعنى للشهيد، أما ما لمصطلح عليه للناس بأنه شهيد فهذا شيء آخر ونحدث طويلاً عن مفاهيم مرتبطة بطبيعة الجماعة الإسلامية التي تمثل المسلمين، وكأنه يتحدث عن تحفظه على أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، ولكن دون أن يكون ذلك صراحة بل تلميحاً.

جاء الشيخ حامد وأثنى العشاء فقمنا إلى الصلاة وقد قدم للشيخ حامد أحمد للإمامة فصلى بالناس وقرأ في الصلاة آيات مطلع سورة الإسراء وكان يكرر في صلاته بعض الكلمات أو الجمل من الآيات وكأنه يكمل درسه من قبل الصلاة حول موضوع (عباداً لنا أولي بأسٍ شديد) وقد أدركت أن الشيخ يتجنب الحديث عن موضوع الصراع مع الاحتلال صراحة، وبحلول التلميح إليه خشية مطاردة سلطات الاحتلال له وملاحقته ومنعه من التعليل بنشر فكرته.

حسن ومحمد وإبراهيم خرجوا من المسجد راضين وقد عبروا في حديثهم لثناء طريق عودتنا إلى دار عن شعورهم بالرضى والقناعة من كلام الشيخ والإعجاب به ولم يكن أحري ما يعجبهم في الأمر، رغم أن كلام الشيخ كان جميلاً ومؤثراً ولكن ليس فيه إجابات واضحة على التساؤلات التي بطرحها كل من محمود وعبد الحفيظ في حوارهما مع حسن.

كان مستوى الحياة في المخيم قد بدأ يتطور ويرتقي بصورة ملحوظة فقد أصبح في معظم البيوت عامل أو عاملان ممن يعملون في إسرائيل ويكسبون دخلاً ممتازاً مقارنة بأوضاع القطاع القديمة أو في الدول العربية مثل السعودية والكويت. وبدأت أوضاع الناس تتحسن بصورة واضحة، فبدأت تجد في كل الدور أجهزة منياع وفي كثير منها أجهزة التلفزيون، وكثير من البيوت اشتركت في شبكة الكهرباء فأصبحت نساء واليعض منهم أصبح لديه ثلاجات أو ثلثان غاز ومعظم البيوت اشتركت في شبكة المياه، في بيتنا كان منياع جيد واشتركتنا في شبكتي الكهرباء والمياه، ولكن لم نحالفنا الحظ بعد بالتلفزيون أو الثلاجة أو ثلث الغاز، ورغم ذلك فحالتنا كلنا أفضل بكثير من حال العديد من العائلات التي ظلت في حالة الضنك.

المهم في الأمر أنه خلال العقدين الماضيين من بعد الهجرة بعد نكبة (٤٨) قد تضاعفت أعداد سكان المخيمات بصورة مذهلة حيث لم تعد البيوت تتسع لسكانها، وخاصة أن كثيراً ممن كانوا أولاداً حينها أو حتى ممن ولدوا بعد النكبة قد أصبحوا رجالاً وتزوجوا وأنجبوا أولاداً وبنات وأصبح في كل بيت واحد أو أكثر من الأخوة المتزوجين، وتحوّلت بيوت المخيم المكتظة أصلاً إلى ما يشبه كراتين فراخ الدجاج...

في هذا الوقت بدأ الحديث عن مشاريع إسكانية تعد لها دائرة الإسكان في الحكومة العسكرية بحيث أن من يريد أن يتوسع في دار المخيم يمكنه أن يسجل اسمه في الإسكان ويدفع رسوماً رمزية شريطة أن يهدم دار المخيم، وبذلك يمنح كل واحد منزلاً في هذه الدار غرفة سكنية في الأحياء التي ستنشأ.

وقد فتح هذا الأمر جدلاً صديقاً في أوساط سكان المخيم، فلا تجد تجمعاً أو لقاء أو زيارة (لا ويطرح فيها هذا الأمر وينقسم الناس إلى معارض ومزيد، المؤيد يطرح فكرة التعاطي مع الواقع، حيث لا يمكننا العيش في المجتمعات مثل (علب السريين) إلى ما لا نهاية.

فالببوت لا يمكنها الاتصاع لنا مع الزيادة الكبيرة في النسل، وحل القضية ليس في الأق للمنظور ولا يمكننا شراء أرض عادية والبناء عليها فكلقة ذلك أعطى من أن تطلق والمعارضون يخشون من نوبان قضية قلاجئين بتفريغ المخيمات من سكانها، وأن هذا هو هدف الاحتلال توطين اللاجئين في هذه الأحياء وإنهاء قضيتهم. استمر الجدل وكانت تلك المشاريع لا تزال مجرد فكرة لم تخرج لحيز التنفيذ بعد حتى يثبت رأي أحد الطرفين أو عكسه.

قبل زواج أخوي محمود وحسن، لم يكن أعرف أن هناك شيئاً اسمه مواد تجميل فاسي مثلها مثل نساء المخيم لم تستخدم تلك المواد، وكل ما كان يطرا عليهن في المناسبات السارة هو أنهن ينزعن الشعر عن وجوههن ويخطفن من جواجبهن، ورغم ذلك فقد كن يبدون غاية في الجمال. ومن تلك التي كانت ستبحث عن مواد التجميل وهي لا تجد قوت أولادها وأولادها لا يعرفون طعم اللحم إلا في المناسبات العظيمة، أو لا يميزون بين أسماء وأنصاف الفواكه التي لا يرونها إلا في صور كتب الأحياء في المدارس.

حين كانت تزوج إحدى الفتيات كان يبدو واضحاً أن النساء حين يزينها يستخدمن بعض مواد التجميل، ولكن لم تذكر أن هناك شيئاً اسمه مواد تجميل ولكن بعد زواج محمود وحسن، وعندما كنت أدخل إحدى غرفهم كنت أرى في رفوف (التسريحة) وهي خزنة في وسطها مرآة كبيرة توضع في غرف النوم - عدداً من القفاني والعلب التي فهمت أنها مواد تجميل، ولكنها على ما يبدو لم تكن للاستخدام أكثر من يوم للزفاف وفي مناسبات الزواج للأقارب.. لم تر حتى هذا الوقت أياً من النساء تسير في شوارع المخيم وهي متبرجة وتضع على وجهها تلك المواد.

صحيح أن كثير من النساء لم يكن يقطنن رؤوسهن وبعضهن كن يقطبنها، ولكن مواد التجميل لم تكن معروفة أو مشهورة حتى مع الشعور بالوضوح بنصن وضع الناس الاقتصادي العام... لم نشعر أن هناك تغييراً كبيراً في هذا المضمار، ولكن لا شك بأن بعض النساء كن قد بدأن يستخدمن من هذا أنواعاً ولكن هذا ظل محدوداً.

فتيات المخيم كن على طبيعتهن دون مواء تجميل دون أي عمليات تجميل، حتى البدائية جداً مثل نزع الشعر وتخفيف الحواجب، ورغم ذلك فقد كن في العادة مثل القبور وأجمل ما في غاليتهن كان الحياء في أوج درجاته فإذا سألت الواحدة منهن ظلت عيونها نحو الأرض ولو صاف أن وجهت نظرها، والتفتي بنظر أحد الشباب خفضته فوراً، والدم يكاد يتقهر من وجنتيها، الأمر الذي يزيد جمالاً على جمالها...

"خليل" أحد أبناء الجيران كان قد بدأ يتلق بإحدى فتيات المخيم بعد أن التفتي نظره بنظرها ذات مرة، أحس أنه أحبها، وبدأ يحس أنها تبادلته للشعور، وبدأ دوماً ينتظر خروجها من البيت للمدرسة وعودتها من المدرسة إلى البيت، دون أن يجرؤ على الاقتراب منها، أو يتبادل كلمة واحدة معها، كان يكفي في معظم الأيام بأن ترفع عينيها عن بعد فتلتقي عينه بعينها، ثم تخفض نظرها فبدرك أنها تبادلته ذلك الشعور، ويكتفي بذلك إلى أن يتمكن من التقدم إلى أهلها ليخطبها منهم بعد أن ينهي دراسته ويعد له عملاً، ويجمع ما يكفي لتغطية تكاليف البناء والزواج ليتقدم لخطبتها.

بعض الشبان كانوا يتراسلون مع فتيات أحبوهن، وبعضهن كن يجين على تلك الرسائل أي غالية شبان وشابات المخيم كانوا ملتزمين بالقواعد الصارمة بعدم الاقتراب من هذا الميدان وقد كنا وفقاً لتعليمات أمي للصارمة وتربيتها السامية أبداً ما نكون عن هذه الأشياء، ولكن يبدو أن بعض الشبان والشابات قد تجاوزوا ولو غلوا في هذا المجال... وبدأوا يتعاملون معه وكأنه لعبة.

ف ذات مرة كنت قائماً من شاطئ البحر إلى الدار، وبينما التفت عند زاوية الدار وإذا بإبراهيم ابن عمي حائذ من المسجد وإذا بواحدة من فتيات الجيران من تلك الفتيات اللعوبات تجلس عند باب دارهم فحين رأت إبراهيم يسير مستهياً وهو ينظر إلى الأرض وفقاً لتوجيهات المشايخ في المسجد وتعليمات أمي ووصاياها الدائمة. حين أصبح قبالتها نظرت إليه وقالت بصوت نوح (إيه الكبر لأنه سيدي الشيخ، دخلك لطلع علينا باهل الله ياللي فوق متطلعوا علي تحت) نظرت نحو إبراهيم فوجدته قد انفجر وجهه احمراراً من شدة الحرج والخجل وأصبحت خطوته ثلاثة أضعاف ما كان، كمن يفر من اعتقال طويل الأمد وظلت تلك الكلمات مطروحة محرجة لإبراهيم، وجملتي التي أهدته بفضحتها لزوجته عمه (أمي) إذا ما لف ودار معي.

انتصار عام ١٩٧٣ ورغم أنه لم تخفف شيئاً عملياً لنا كفلسطينيين كان نقطة تحول إستراتيجية في مشاعرنا جميعاً، صحيح أننا لم نر إسرائيل تزلزل وترحل عن فلسطين ولم نعد إلى بلدتنا ومدننا وقرانا التي هجر منها أهلنا عام ١٩٤٨ وحتى لم نتحرر المناطق التي احتلت عام ١٩٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء وأن كل ذلك الذي حصل عملياً هو تقدم الجيش المصري واجتيازه لقناة السويس وخط بارليف، إلا أننا شعبنا وأرتويننا حتى تمام الرضى من هزيمة إسرائيل..

هكذا فهمنا الأمور حينها وصدقنا وأمننا وأتبعنا بكل عقولنا وقلوبنا أن أسطورة إسرائيل وجيشها الذي لا يقهر قد انهارت أمام عظمة ولادة الجندي العربي الذي خاض معركة معقولة سواء على الجبهة المصرية أو الجبهة السورية، وكانت رؤوسنا جميعاً تكاد تطاول السماء فخراً وعزاً.

ولكن مشاعرنا تلك بدأت تتقلب تدريجياً أمام الذبلة الجديدة التي بدأنا نسمعا من للرئيس المصري السادات حول استعدائته للسلام مع إسرائيل.. وكما كانت صدمتنا عظيمة ونحن نسمعه يعلن أنه مستعد لزيارة الكنيسة (الإسرائيلية)، والمسيحية كانت قد أجمعنا تماماً ونحن نسمع المذيع وهو يغطي زيارة السادات للقدس وخطابه في الكنيسة أمام الحكومة الإسرائيلية وأعضاء الكنيسة في إسرائيل، لم يكن عندنا في الدار جهلنا تفزيون. لذا لم نر تلك الصور ولكن للتغطية للحدث في العذراع كانت كافية لصدمتنا بصورة أفتقدنا للقدرة على إبتراك هل كان ذلك حقيقة أم مجرد خيال؟ ويبدو أن الصدمة أصابت العالم العربي بأسره لو في معظمه حيث أن مستوى التناقضات والخلافات التي حدثت بين الأنظمة كانت خطيرة وبعمدة الأثر وبصورة طبيعية فقد كنا كفلسطينيين نميل بكل جولاحنا إلى الصوت المعارض والمضاد والهجومى ضد السادات وضد اتفاقيات كامب ديفيد، حيث أننا كنا نحب أن نسمع لمحطات المعارضة خاصة تلك المحطة التي كانت تبث من بغداد.

الحدث الأهم بالنسبة لنا على مستوى العائلة هو أن الجامعات المصرية قد أغلقت أبوابها أمام الطلبة الفلسطينيين، على خلفية التناقض الكبير بين السادات ومنظمة التحرير المعارضة بقوة للسلام مع إسرائيل، والذي كان معروفاً واضحاً وصريحاً وقد نتوج بأنه قام بعض الفلسطينيين بقتل الكاتب الصحفي المعروف "السباعي" على خلفية ذلك، صدر القرار المصري السياسي بتقليل العلاقات مع الفلسطينيين والذي شمل عدم قبول خريجي الثانوية العامة الفلسطينيين من القطاع في الجامعات المصرية، كما كان من قبل.

أنهى أضي محمد هذه السنة دراسته الثانوية وكان من المفترض أن يتم قبوله في الجامعات المصرية، وقد كان وضعنا الاقتصادي في هذا الوقت أنسب ما يكون لذلك (هناك) ووقف محمد حينها على مفترق طرق أين يدرس؟ في نهاية الأمر اتفق على أن يدرس في جامعة بيرزيت في الضفة الغربية قرب مدينة رام الله، فسافر إلى هناك وقدم طلب التحاق بالجامعة، وقد قبل في كلية العلوم، وبدأ الدوام هناك منذ مطلع العام الدراسي الجديد، حيث اشترك مع طلاب آخرين وسأجروا إحدى الشقق في مدينة رام الله وسكنوا هناك، وكان محمد يعود إلى البيت مرة كل شهر يمكث عندما عدة أيام ثم يعود إلى رام الله.

للمعل الفدائي لم يتوقف في الأراضي المحتلة ودخل الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨ ولكنه نقل بصورة كبيرة وبدأ كثير من العمل الوطني بأخذ صورة العمل السياسي والنفابي والجاهري، كانت السلطات الإسرائيلية قد سمحت بإجراء انتخابات للبلديات في الضفة الغربية وقد تبلورت الأمور السياسة في مختلف المناطق لتخوض الانتخابات.

في الخليل تحالف ممثلو حركة فتح وعلى رأسهم فهد القواسمي مع الإخوان المسلمين وغيرهم ضد الشيخ الجعبري الذي كان في رئاسة البلدية منذ الحكم الأردني في الضفة الغربية وإبان فترة الاحتلال الإسرائيلي، وقد اصحب الشيخ "الجعبري" حين وجد أن حظه في الفوز ضعيفاً، فحاز التحالف الفتحاوي/الإخواني وتشكل مجلس البلدية من خليط فكري وسياسي، كما فاز في مدن الضفة الأخرى مندوبون وطنيون ووجوه وطنية معروفة مثل "بسام للشكعة" في مدينة نابلس وغيره. في نفس الوقت تشكلت العديد من النقابات المهنية مثل جمعيات المهندسين، والجمعيات الطبية، وجمعيات المحامين في شتى مدن الضفة الغربية التي كانت تجري فيها انتخابات دورية لاختيار الهيئات الإدارية فيها، وكان التناقص فيها بين قوى اليسار وفتح، ثم بدأ يبرز التيار الإسلامي الذي كان في الغالب يتحالف مع فتح ضد اليسار ثم بدأ في بعض المواقع يخوض الانتخابات بمفرده، كذلك فقد بدأ نشاط شبيه في الجامعات، جامعة النجاح الوطنية في نابلس وجامعة بيرزيت في بيرزيت قرب رام الله، وفي جامعة الخليل التي بدأت تنطور عن كلية للشرعية في المدينة...

في هذا الوقت من أواخر السبعينيات وبعد إطلاق أبواب الجامعات المصرية أمام الطلاب من قطاع غزة اجتمع عدد من وجوه مدينة غزة وقرروا فتح جامعة في قطاع غزة وبدلوا بالعمل على تخفيف ذلك بالاتصال بالسلطات الإسرائيلية التي لم توافق على افتتاح جامعة.

لكنه لم يكن من الصعب الاتفاق على ذلك، حيث فتحت جامعة في مدرسة معهد الأزهر الديني الثانوية في غزة في الفترة المسائية، وكانت امتداد للمعهد ثم بدأت تتسع تدريجياً وتحول إلى جامعة رغم أنها لم تحظ باعتراف سلطات الاحتلال مطلقاً، بل عانت طيلة الوقت من الحصار والمضايقات.

وواصلت تلك الوجود اتصالاتها مع قيادة منظمة التحرير في الخارج لتلقي الدعم لفتح الجامعة، ومع بعض الوجود المعروفة في فلسطين والفارح لتجنيدهم لجمع الدعم المادي للجامعة في الدول العربية... ولأن اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل قد خرجت إلى حيز التطبيق، فقد بدأت إسرائيل بمحاولات تجميل صورتها في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وكتحضير للحكم الذاتي الذي تضمنته اتفاقيات كامب ديفيد، فأنشأت ما يسمى الإدارة المدنية والتي كان عليها أخذ مسؤولية إدارة المناطق من القيادة العسكرية كمرحلة تمهيدية للحكم الذاتي المزمع إقامته بعد حين.

الإدارة المدنية كن مجرد اسم جديد للحكم العسكري والتغيرات لم تكن ذات قيمة واضحة ومميزة، ولكن على مستوى فتح المجال أمام بعض التغيرات السياسية المضبوطة، فقد كان ملموساً كما سبقت الإشارة لذلك.

خلال هذه الفترة نشط الإسلاميون وتقدموا بطلبات لافتتاح مؤسسات وجمعيات وفقاً للقانون العثماني، وسمح لهم بذلك مثل الجمعيات الإسلامية، وجمعيات الشبان المسلمين والمجتمع الإسلامي والجمعيات الخيرية والأندية ورياض الأطفال والعيادات الطبية. والتي من خلالها بدأوا يقدمون الخدمات للأهالي ومن خلال ذلك ينشرون الفكرة للإسلاميين.

أخني تهاني تخرجت خلال هذه الفترة من معهد المعطيات وبعد وقت توظفت في مدرسة الوكالة الابتدائية للإغاثة في المخيم كمعلمة، وبعد وقت تقدم لها أحد الشبان الطيبين وتزوجت به، وكانت سعيدة في زواجها وراضية بما رضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث عشر

انتهى العام الدراسي، فتقدم طلاب مدرسة طارق بن زياد في الخليل لامتحانات إنهاء العام الدراسي وظهرت النتائج وبده خريجو الثانوية العامة يبحثون عن أفاق مستقبلهم فمنهم من سدرس في كلية الشريعة/جامعة الخليل، ومنهم من سيبحث عن فرصة دراسة في الجامعات السعودية، ومنهم من سيبحث عنها في الجامعات الأردنية. زوج خالتي كان لا زال يحلم بالدراسة في الجامعة الأردنية، ولكنه كان مدركاً أن القطار قد فاتته وأن مشاغله أصبحت أكبر من التفرغ للدراسة، وقد رأى عند نخرج أخيه عبد الرحمن من المدرسة الثانوية فرصة ليحقق حلمه من خلاله.

حدثه عن الدراسة في الجامعة الأردنية، فوافق على ذلك حيث توافق ذلك مع رغبته خاصة في كلية الشريعة، وقد توافق ذلك مع رغبة صديقه جمال الذي كان معه اللقاء. والحوار على سفح الجبل في قرية صورييف.

وبالفعل فقد قبل الاثنان في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية. وتقبل بدء العام الدراسي سافرا إلى عمان وفي عمان استأجراهما وطلبة آخرون شقة سكنية في حي المهاجرين، وهو حي شعبي فيه بعض السكان الفلسطينيين. في الجامعة عالم جديد تماماً يختلف عن ذلك العالم الذي عاش فيه عبد الرحمن في صورييف أو جمال في الخليل، أو عشاء معاً في مدرسة طارق بن زياد.

الحياة الفكرية والصراعات السياسية والانفتاح الاجتماعي ومستوى وقدره الأشخاص القاطنين والمؤثرين في مجرى الحياة الطلابية، كل ذلك مختلف تماماً عما عرفوا وعاشوا من قبل. في كلية الشريعة التي يدرسان فيها مستوى التزام الطالبات بالحجاب كان ممتازاً، ولكن في الجامعة بصورة عامة كانت الحياة منفتحة إلى حد بعيد بالنسبة للمجتمع المحافظ في الخليل وعلى وجه الخصوص في القرى المحيطة مثل صورييف.

لكن عبد الرحمن وجمالاً كانا قد حصنا أمرهما واتجاه سير حياتهما بصورة كاملة ومنذ سنوات دراستهما في مدرسة طارق بن زياد في الخليل وانتمت لهما التصريح للتيار الإسلامي وتبنيهما لأفكار الإخوان المسلمين.

هنا في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية في عمان كان عدد من أقطاب الإخوان من المدرسين في الكلية من حملة شهادة الدكتوراه في الشريعة وهما التقى جمال وزميله مع أشخاص ذوي خبرة في العمل الدعوي والجهادي والتقى بمن كانوا أعلى من سقف أحلامهما، ففرقا في النشاط الطلابي وما يكتنفه من صراعات فكرية وسياسية في ردهات الجامعة وساحاتها.

في الجامعة الأردنية كان قد صدر قرار بإلغاء الاتحادات الطلابية ولكن ذلك لم يحد من أن يكون مستوى التفاعل في الأنشطة الطلابية في قمته، وقد وجد الطلاب متفهمين في الانتخابات التي تجري بما سمي الجمعيات، وقد ترشح جمال لجمعية إحياء التراث في كلية الشريعة، وكان من الفائزين ضمن مرشحي التيار الإسلامي المحسوب على الإخوان. حيث بدلت الجمعية مدير جويث من نشاط الطلاب في المجالات الثقافية والسياسية والتربوية بترتيب الرحلات إلى الأماكن الأثرية والتاريخية أو تنظيم الرحلات للحج والعمرة حتى اقترح أحد أعضاء الجمعية تمثيل مسرحية (عالم وطاغية) للشيخ يوسف القرضاوي، نالقت الجمعية الفكرة وقررت تبنيها وبذل الجهد المطلوب لإنتاجها، رصدت لها ميزانية وتم الاستعانة بمخرج تلفزيوني حيث تمت التدريبات وأجريت البروفات مراراً وتكراراً وحين بدأ العرض فقد لاقى المسرحية نجاحاً ملحوظاً للغاية لم يخف الكثير من الدكاترة والمحاضرين دهشتهم وإعجابهم بالمستوى الرائع.

في هذه الفترة كان الاجتياح الروسي لأفغانستان والذي كان له انعكاساته الكبيرة على مستوى الأنشطة الطلابية في الجامعة، حيث إن الإسلاميين أبرزوا الحديث وبدلوا بنظرة الثورة في أفغانستان والمجاهدين، وبات واضحاً أنهم يتبنون الثورة هناك ويعتبرون أنفسهم امتداداً لها، وبدلت أحداث عديدة في أوساط الشباب الإسلامي عن وجوب السفر إلى أفغانستان لنصرة المجاهدين والشعب المسلم هناك، وقد وصل الأمر بجمعية إحياء التراث أن تكبرج بخمسة آلاف دينار من ريع المسرحية (عالم وطاغية) الذي وصل إلى حوالي خمسة عشر ألف دينار.

ازدادت حركة الاستيطان اليهودي وتساعدت في كل أنحاء الضفة الغربية فابنما أنرت وجهك وجدت أرضاً تصائر ومستوطنات تنشأ ومستوطنين يهود يسكنون الأرض ويبدلون في التعامل معها على أنها أرضهم، الأمر الذي أثار حفيظة السكان ودفع لجنة التوجيه الوطني حينها إلى بدء التوجه لحملات من المظاهرات والمسيرات والعمل الإعلامي ضد الاستيطان.

بدأت الأحداث تتصاعد وعمليات رشق الحجارة والزجاجات الحارقة تزداد وقد برز دور بعض المنظمات في الضفة الغربية خاصة مخيم الدهيشة قرب بيت لحم وعلى الطريق من القدس إلى الخليل التي تكتظ بحركة المستوطنين.

على خلفية هذا التوتر بدأت تتشكل مجموعة يهودية متطرفة من المستوطنين بصورة سرية وبدأت تخطط لاختيال عدد من الشخصيات الوطنية الفاعلة من أعضاء لجنة التوجيه، يساعدهم ضباط متفجرات في الإدارة المدنية، وقد نجحوا في جمع معلومات عن عدد من الشخصيات وزرعوا لها عبوات ناسفة في السيارات أو في المرآب.

ومع صباح ذلك اليوم بدأت هذه العبوات تنفجر فأصابت البعض وتظاهرت قوات الاحتلال وكأنها اكتشفت باقي العبوات، وفككتها، هذه الأحداث أوجت الأرضي المحتلة ورفعت مستوى التوتر على مستوى الفعاليات الشعبية بصورة متقطعة للتأثير، ولكن بالمقابل كان من الواضح أن مستوى صل العقولمة المسلحة قد انخفض بصورة كبيرة جداً، إهدى دور هذه الفعاليات كانت جامعة بيرزيت، قرب رام الله والتي برزت خلال هذه الأحداث كمركز واضح للعمل الوطني.

في ظل هذه الأجواء وصل أخي محمد إلى رام الله بعد أن تم قبوله في كلية العلوم/جامعة بيرزيت إلى عالم جديد تماماً عن عالم المخيم والمعاندة والمغلق وعن عالم قطاع غزة بصورة عامة. في جامعة بيرزيت حينها لا تجد فتاة واحدة تغطي رأسها، وتجد جميعهن متبرجات وفي غاية زينتهن ولا تجد الفتاة حرجة من الحديث مع الشباب، وممازحتهم والسمر معهم حتى الاختفاء وراء أشجار الزيتون المترامية، مجتمع مفتوح تماماً كأي من المجتمعات الغربية، كان من الصعب جداً على محمد أن يندمج في هذه الحياة الجديدة؛ لأنه أولاً لم يعثر على مثلاً في قطاع غزة وفي مخيم الشاطئ ولأن تربيته والتمهيد الذي ارتضاه لنفسه والقواعد الدينية التي قرر الانقياد بها تجعل إمكانية حياته في هذا المكان شبه مستحيلة.

لما على مستوى الصدامات مع قوات الاحتلال في المظاهرات التي تشعل بين
الحين والحين الآخر إزاء كل تطور يطرأ على الساحة الفلسطينية، فلم يكن من الصعب
التعاطي معه فمن ترعرع في مخيم الشاطئ وعاش بين أحداث المقاومة المسلحة في
قطاع غزة يجد مثل هذه الأحداث بسيطة وسهلة مقارنة مع ما رأى وشاهد.

كل الليالي في بلدة بيرزيت استجرت من قبل الطلاب القدامى فلم يجد متسعاً له
هناك لذا اضطر أن يستأجر هو وعدد آخر من الشبان في رام الله، لذا كان عليهم يومياً
السفر من رام الله إلى بيرزيت مسافراً ليس طويلاً وكلفته محدودة، ولكنه يجعل الواحد
مضطراً لقضاء ليلة لوقت بعيداً عن غرفة دراسته وراحته وطعامه في انتظار
المحاضرات التالية.

في هذا البيت اكتشف محمد عدداً من التناقضات والأمر الذي لم تناسبه حيث أنه
الوحيد الملتزم إسلامياً من بين الشبان الستة الذين سكنوا معه في نفس الدار، وبعضهم
كانت له توجهات فكرية متناقضة فأحدهم كان ماركسياً يعلن ذلك صراحة ودون تردد،
وقد كان هذا التيار في الجامعة يكاد يكون التيار الأبرز في حينها لذا لم يتورع هذا الشاب
عن التهكم على محمد وعيادته ودينه، الأمر الذي كان يدخل البيت في كثير من الأحيان
إلى وضع من التوتر والقطيعة.

شاب آخر كان غير متفرغ للدراسة مطلقاً فكل همه أن يتحدث عن القبولات
وجمالين وعلاقاتهن وتجاوزاتهن، وعن بطولاته هو في هذا الميدان، يمكث الساعات
ليكتب رسائل الغرام، ثلاث أو أربع رسائل في نفس الوقت لثلاث أو أربع فتيات مختلفات
ثم يبدأ بقرأ تلك الرسائل بصوت مرتفع ليسمع كل من في الدار غير آبه أو غير متعبه
لأخطائه التي لا تحصى في الصياغة والنحو وغير آبه بمن حوله ممن يدرسون ويرجونه
لكف عن ذلك.

أوضاعنا المالية كانت قد تدهورت كثيراً لذا فلم تكن هناك مشكلة لدى محمد من
الناحية المالية والمصارفات لكنه كان يحاول الاقتصاد ما أمكنه ذلك ليوفر على البيت ولكن
ذلك لم يمنعه في كثير من الأحيان من الذهاب إلى مطعم الجامعة ليتناول طعام الغداء،
هناك في الأيام التي يكون فيها مضطراً للدوام شبه الكامل على مدار اليوم في الجامعة
لانتظاراً للمحاضرات.

في مثل هذه الأيام كانت تواجه محمد مشكلة أداء الصلوات، صلاتي الظهر والعصر وحتى أحياناً صلاة المغرب فليس في الجامعة مسجد فيضطر للانزواء خارج مبنى الجامعة قريباً من إحدى أشجار الزيتون ليؤدي الصلاة، ولكنه بعد وقت قليل عرف أن في البلدة مسجداً رغم أن غالبية أهلها للمسيحية من المسيحيين فبدأ يتردد على المسجد لأداء الصلوات فيه كلما سمح له وقته بين المحاضرات، وللمفاجأة فقد تعرف في المسجد إلى العشرات من الشباب من طلاب الجامعة ممن يؤدون الصلوات ويلتزمون إسلامياً.

هذه المجموعة من الشباب المؤمنين المتكدين تحقق بينها درجة عالية من الانسجام والتآلف في تلك الأجواء الغريبة والمعادية تماماً لأي صورة من صور التمييز، حين يعود لرم الله بعد المحاضرات والدوام في الجامعة يخرج أحياناً للتجوال في شوارع المدينة الهادئة ليلاً وشبه الخالية من المارة، فيسمع أذان العشاء في المسجد القريب، فيبدأ بتبع صوت الأذان الذي يقوده إلى المسجد ويصلي العشاء هناك.

مع تكرار صلاة العشاء والمغرب أحياناً ثم أداء صلاة الجمعة، بدأ محمد يتعرف على عدد من الطلاب الإسلاميين ومن الشباب الإسلاميين في المنطقة الذين بدلوا بشكلون نواة الكتلة الإسلامية في جامعة بيرزيت، يلتقون حول بعضهم البعض، يسدرون معاً ويصلون في المسجد القريب معاً ويجلسون في كافتيريا الجامعة على نفس الطولة يشربون الشاي ويتحدثون في أمور دراستهم وشؤون الجامعة والنشاط الإسلامي فيها وعلى طولة أخرى يجلس عدد آخر من شباب فتح بشكلون نواة كتلة فتح، وعلى طولات أخرى يجلس طلاب وطالبات من جبهة العمل الطلابي لإطار الطلاب للجبهة الشعبية وهكذا.

على كل طولة عدد من الطلاب لهذا التجمع أو ذلك، كل تجمع من هذه التجمعات يلتقي ليهيئ برامج عمله لضم الطلاب غير المنتمين لأي من هذه الاتجاهات ولتسبهم لاتجاهه يبدلون بتخصيص فترات بأسماء الطلاب والطالبات في كل كلية ويصفونهم حسب ما هو معروف عن توجهاتهم الفكرية والسياسية ويحددون اللامتنعين، ثم يوزعون أنفسهم لبدء الاتصالات بهم وفتح علاقات معهم لبدء دعوتهم للانضمام إلى تجمعهم أو أقل شيء أن يدعمهم في عملية الانتخابات القادمة. عدد كبير من طلاب جامعة بيرزيت هم من الإنث وأي تجمع طلابي يريد العمل وسط الطلاب لا بد له من العمل مع هذا الصنف، وإلا فلن يحقق أي نجاح، الاتجاهات اليسارية لا مشكلة عندها في هذا المبدأ حتى أن الكثير من أعضاء هذه الاتجاهات أصلاً من الطالبات أما الكتلة الإسلامية فهناك حواجز كبيرة أمام العمل مع الطالبات.

بعض الطلاب لديهم ميول إسلامية، وتأييد للكتلة الإسلامية، ولكنهم ليسوا ناشطين وفاعلات. وجميع نشطاء الكتلة بمن فيهم محمد علي قناعة بضرورة فتح قنوات اتصال مع الفتيات لدعوتهن للانضمام للكتلة أو تأييدها، لكن محمداً الذي جاء من مخيم الشاطئ والذي تربي على القواعد الصارمة التي ظلت أمي تعود وتكررها حتى حفظناها جميعاً كان أضعف من أن يقوم بهذه المهمة. هو لو حصل وجامت إهدى زملائه في الكلية لتسأله سؤالاً حول المحاضرة أو كتاب أو أي موضوع يتعلق بالدراسة وبالدراسة فقط فإنه يحمر وجهه ويتصب عرقه وينظر إلى الأرض محبباً إجابات مقتضية جداً بنعم أو لا أو بزيادة بعض الحروف الأخرى، ثم ينطلق مبتعداً.

الجميع يستعدون للانتخابات كل للكل أو للتجمعات، للجميع يتحدث مع الجميع مناظرات هنا وحولات هناك حول تاريخ القضية وحاضرها ومستقبلها ودور كل طائفة واعتراصاتها ونقاش الأفكار والعقائد والأيدولوجيات وساحة الجامعة تفص بالمصقات والقسمات والتلافات والجميع يحاول الحصول أفضل النتائج.

وبعد فرز النتائج للانتخابات يحقق تجمع اليسار أعلى النتائج ولكن بالنسبة منقارية بين فتح واليسار ولكن اليسار هو من يشكل اتحاد الطلاب لفوزه بأعلى النسب. أما الكتلة الإسلامية فحققت ما لم تتوقعه رغم كونها القوة الأخيرة في حجمها.

اعتاد محمد أن يعود إلى الدار في مخيم الشاطئ كل شهر مرة تقريباً، يعود مساء الخميس ويظل عندنا يوم الجمعة ثم يعود إلى رام الله يوم السبت صباحاً ليواصل دراسته ونشاطه الطلابي.

جمال وبعد الرحمن أنها امتحانات العام الأخير في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية ولم ينتظروا خروج نتائج الإمتحانات بل رزما لنواتهما وعادا فوراً إلى الضفة الغربية، أم جمال كان يقلقها أنها تريد أن ترى لهنها وقد اجتمع مع بنت العلال بعد تخرجه من الجامعة، فبدأت لا تفوت فرصة تتاح لها للاختلاء به إلا وتحدثه عن موضوع الزواج.

جمال كان يطمح أن يكمل دراسته الجامعية للحصول على درجة الماجستير وكان يود السفر إلى باكستان لإكمال الدراسة هناك. من هناك يستطيع بالإضافة إلى إكمال دراسته أن يشارك في أداء بعض الواجب تجاه القضية الأفغانية في أفغانستان ولو بالقليل من المشاركة المعنوية من خلال التواجد في ساحة مجاورة.

وأمام ضغط الوالدة بدأت الفكرة أكثر قبولاً فما للمانع من الزواج حيث لا تنافس بين الأمرين. أثناء رحلة السفر لأخذ الشهادة من الجامعة وفي إحدى القاعات التي اجتمع فيها عدد كبير من الخريجين والخريجات، أجاز لنفسه أن ينظر يمناً ويمرة بحثاً عن قد تكون زوجة المستقبل.

في إحدى الزوايا كانت تجلس فتاة مثل فلة البدر، كانت مَطرقة تتلعب في ردفها الإسلامي فيزيدها عفة وجمالاً، وكان القلب حدث صاحبه بأن الهدف قد تحقق فإذا بطفل صغير يأتي دارجاً نحوها فتحتضنه وتقبله، فأدرك جمال رأسه وهو يقول لنفسه، استنظر الله العظيم هذا لأنها فهي متزوجة وجلس ينتظر إتمام المعاملات التي يريدتها وبينما هو مطرق إذا بصوت امرأة تتحدث إليه قليلة: أليس جمال؟ رفع نظره نصف رفعة وهو يجيب: نعم ما الأمر؟ وقد أترك لها تلك المرأة التي نظر إليها قبيل لحظات فقالت: أنا انتصار زميلتك في الكلية وقد كان خالي الحاج حسن قد تحدث مع أهلي أنه يريد أن يخطبك لي.

وقد سمعنا عنك كل خير والآن يتقدم لي ابن عمي وهو شاب غير متدين ولا أريده وصممت حياة من أن تكمل. حينها أجاز لنفسه رفع نظره فوجد أمامه درة بجللها للوقار والحياء أطرق ثانية وقد احمر وجهه مثنماً: الله يجيب اللي فيه الخير. حين عاد للأهل والزملاء والمعارف ولشدة الأسف عرف أنها لا تمتلك بطاقة شخصية في الضفة الغربية وهذا يعني أنها لن تستطيع المكوث في الضفة لو قرر العودة وتم الزواج وسيجعل ذلك الحياة صعبة جداً فكثيرون أولئك الذين تزوجوا فتيات ليس معهن بطاقة الهوية الشخصية (الإسرائيلية) التي تثبت أنهن من الضفة فتحوّلت للحياة إلى جهنم، فقرر أن يصرف نظره عن ذلك للزواج.

حين توجه لطلب تصريح بالسفر للباكستان رفضت سلطات الأمن الأردني منه ذلك للتصريح لكونه مسجلاً لديها أنه ناشط معروف من الإخوان في الجامعة فاضطر للعودة للاستقرار في مدينة الخليل، وبدء العمل فيها، أحد الزملاء دله على فتاة تخرجت هي الأخرى من الجامعة الأردنية من كلية العلوم، ذهبت للوالدة للتعرف عليها وعلى أهلها فخالته إعجابها وعادت تحمل كل الفرح وتقرر الذهاب للتعرف على الفتاة ورؤيتها في بيت أهلها.

حين دخل الغرفة نُقل الحياء رأسه فأمطره، فجلس على أحد المقاعد في تلك الغرفة حاول للبدء بالحديث فإذا بفتاة أخرى وإذا بأماها التي كانت قد دخلت من قبل وخلتها من يربد خطبتها تعرف عليها. بدلت الحديث محاولة كسر جليد الحياء فلا محذور وقد قدر الله أن يكون النصيب وتكون شريكة التدريب.

الكثيرون من خريجي الكليات الشرعية من الإسلاميين كانوا يتوظفون في العادة في الجمعية الخيرية الإسلامية في الخليل والتي لها العديد من المؤسسات التعليمية والتنموية والاجتماعية.

جمال ذهب للوظيفة في مدرسة رابطة الجامعيين الثانوية للنموذجية، ولتسمى كان واضحا أنها تتبع بصورة أو أخرى لمنظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يتبع لها كذلك عدد من المؤسسات التعليمية مثل معهد اليوليتكنك ومركز الأبحاث، في المدرسة عمل في تدريس الثقافة الإسلامية لصفوف الثالث الثانوي.

العمل في هذه المدرسة والتواجد بين ذلك الكادر الكبير من المدرسين والجامعيين بين شتى الأطر السياسية والفكرية في الشارع الفلسطيني جعل هذا المكان مثل منسدى سياسي حيث يتم نقاش قضايا الساعة ويطرح كل وجهة نظره ويناقش الآخرين فيما لديهم. كثيرا ما مثل جمال بصورة تحمل تياره الفكري مسؤولية خروج المقاومة الفلسطينية من الأردن لماذا لم يشارك الإخوان في الأردن للمقاومة الفلسطينية للإطاحة بحكم الملك حسين؟ فيجيب جمال: إن هذه قضية حسم الإسلاميون رأيهم فيها منذ البداية وهم لم يكونوا ولن يكونوا يوماً لداة لحسم الاستقرار وإدخال المنطقة أو جزء منها في حالة عدم وضوح أو التورط في ممارسات تستثير ضداهم الرأي العام.

في أحد أزقة مخيم جباليا بقطاع غزة شاب في مقبل عمره يلبس (سترة) رغم أن الجو ليس باردا بصورة تدعو للشبهة، ولبقى بكوفية سوداء على رأسه ليحاول إخفاء ملامحه ويضع يديه في جيب (سترته) محاولاً التظاهر بانتظار أحد لصحاته، وإذا بسيارة جيب عسكرية تقترب حين وصلت قبالة للزقاق، سمع صفيراً منقطعاً من زميله الذي يرصد لها الهدف، فسحب يده من جيبه وأغلق قبلة يدوية سحبها، وألقاها على الجيب واستدار جارياً، ولكن لم يحدث أي انفجار، ولوقف الجنود سياراتهم وبدلوا يطلقون النار ثم يطاردون الشاب الذي تمكن من الإفلات مثل هذه الحوادث كانت معروفة للكثير من الشخصيات القيادية في فصائل المقاومة وخاصة فتح التي كانت قد تصدرت ذلك فأصبحت تثير قلقاً كبيراً لديهم.

في أحد اللقاءات لعدد من أولئك لدى أخي محمود تحدثوا عن قلقهم، وسأل محمود: هل ما يحدث بذلك على أن من يقوم بتزويد تلك المجموعات بالسلاح يقصد ذلك؟ أليس ذلك صورة من صور إجهاض العمل الفدائي؟ وهل من حقنا أن نرى أصابع جهل المخابرات الإسرائيلية الشمايك في ذلك؟ وأنه هو من يزود خلايانا بهذه الأسلحة الفاسدة؟ وقد كان هناك إجماع لدى الجلوس بأن الأمر يحتاج إلى تحقيق ومتابعة لمعرفة خفايا الأمور بالاتصال بكل من لهم علاقة بالأمر خاصة الشهاب المعتقلين في السجن لمعرفة ما لديهم من معلومات.

فهم

الفصل الرابع عشر

كانت في هذه الفترة قد تفجرت الحرب الأهلية في لبنان وبدأ يشتد وزرها وأصبح للفلسطينيون في لبنان جزءاً مؤثراً ومثثراً بها. أخبار الحرب من لبنان كانت تقبل فطها في الأراضي المحتلة فما من بيت أو عائلة إلا ولها نصيب في تلك الحرب، فالشعب الفلسطيني قد نشأت مرتين الأولى نكبة عام ١٩٤٨، والثانية نكبة ١٩٦٧، الأمر الذي أدى إلى تقسيم العديد من العائلات، يكون نصف العائلات في مخيمات الضفة ونصفها الآخر في لبنان، ويكون نصفها في مخيمات قطاع غزة والنصف الآخر في مخيمات الأردن ناهيك عن الذين رحلوا أو رُحِّلوا خلال هذه السنوات أو الذين خرجوا لأسباب عدة كالحمل وغيره، وانقطعت بهم الأسباب ولم يعودوا قادرين على العودة.

نحن لم يكن لنا أقرب معروفون في لبنان آنذاك، ولكن العديد من جيراننا كان لهم أبناء أو إخوان أو أقارب من الدرجات الأولى هناك، هؤلاء الجيران كانوا يعيشون على أصصهم وهم يتابعون الأخبار ويتناقشونها بين الحين والآخر، بعض النسوة كان لهن أبناء ممن التحقوا بالثورة وسافروا إلى لبنان ومكثوا فيها، هؤلاء للنسوة كان القلق يقتلهن ومن يستمعن للأخبار، ويحاولن معرفة ولو أي شيء عن أولادهن. والمشكلة أنه لم يكن حينها مجال للاتصالات الهاتفية وكان السفر إلى لبنان مكلفاً ومعقداً حيث يضطر من يريد السفر إليها العبور من خلال الأردن حيث لا علاقات لإسرائيل مع لبنان ولا معايير بينها، وفوق كل ذلك ما قد يتعرض له من يريد السفر من مشاكل مع مخبرات الاحتلال.

إحدى جاراتنا كان لها لبنان مع الثورة في لبنان. هذه المرأة كانت أن تفقد عقلها لو حتى فقدته في تلك الفترة كانت تظل شاردة للذهن شاحبة الوجه بدأت تمتنع عن الطعام إلا نادراً لتحل جسمها وهزل وظلّت كوابيس المنام واليقظة تلاحقها بمصير شوم لأبناتها، ونسوة العارة يحاولن أن يخفن عنها بكل الصور الممكنة كي يبقى آخر ما تبقى لديها من قوة لتواصل الحياة وفيها عقل تترك به ما يجري حولها، وكي يطمأن أن تتناول القليل القليل من الطعام.

ومع استمرار الحرب وطول أمدها ومع صباح أحد الأيام استيقظ المخيم على خسر وفاتها دون أن تعرف شيئاً عن مصير ولديها، مع تخرج ابن عمي إبراهيم من الثانوية للعلمة وجد نفسه أمام خيار أن يخرج للدراسة في إحدى الجامعات في الضفة (النفاج أو بيرزيت) تحديداً أو أن يدرس في الجامعة الإسلامية التي افتتحت عامها الأول بحوالي عشرين طالباً.

وفي هذه السنة هناك حديث عن قبول عشرات فقط وعن افتتاح كلية للغة العربية بالإضافة إلى كويتي الشريعة وأصول الدين، الاتفاق أمام هذه الجامعة الوليدة لم تكن واضحة وما كان يرجحه أي عاقل حينها أنها ستؤول إلى الفشل المحقق، حيث إنها بلا مبان، فطلابها يدرسون في مبنى الأزهر الثانوي بعد الظهر وهي بلا طاقم أكاديمي من المدرسين، حيث يدرس فيها عدد من مشايخ مدرسة الأزهر ولا ميزات تذكروا ولا شيء من مقومات الجامعة بهذا الأدنى.

فور إنهاء إبراهيم دراسته وظهور الامتحانات التي أظهرت تفوقه الباهر حيث حصل على (٩١%) في القسم العلمي، تحدثت أمي مع أخي محمود عن دراسة إبراهيم الجامعية واقتُرحت أن يدرس مع محمد في جامعة بيرزيت. في مساء ذلك اليوم حين اجتمع شملنا في الدار، نادى محمد علي إبراهيم وجلس معه في غرفته حيث طلب منه أن يتوجه خلال الأيام القادمة إلى رلم الله ويسجل في جامعة بيرزيت، أظهر إبراهيم تردداً من التسجيل في بيرزيت فتسائل محمود: سلك به خوف وشك من طموح لا نحتلمه قدرتنا المالية - (إذاً أين تريد للدراسة؟) أجاب إبراهيم بصورة غير المتأكد: قد أسجل في الجامعة الإسلامية، تسائل محمود بدهشة واستغراب: الجامعة الإسلامية!! تقصد الجامعة التي افتتحوها في الأزهر؟ أجاب إبراهيم محتلم محتمل...

دخلت أمي إلى الغرفة وقد كانت تسمع الحديث قائلة ماذا جرى لك يا إبراهيم كأنك تريد ألا تدرس في بيرزيت خشية التكاليف، يا بني أنت ولولادك مثل الإخوة وما يكفي واحد يكفي الاثنين، ورزقنا ورزقك على الله وحالنا الآن والحمد لله بخير... كلن واستمعاً أن أمي قد فهمت ما هي أصمق صدر إبراهيم ولكنه حاول أن يخفي ذلك مضغماً، وقد ترهق للسمع في عينه (الله يخليك إلنا يا مرت عمي، بس أنا ما بديش أطلع من غرة).

أخرج محمود من جيبه مبلغاً مالياً من الأوراق النقدية الأردنية ومدها إلى إبراهيم فقللاً: (هذه رسوم الفصل الأول ورسوم التسجيل وتكاليف السفر وشوية للمسحاة لنذهب ونسجل في بيرزيت) رفض إبراهيم أخذها ودفع يد محمود للوراء، تصرخت عليه أمي (أخذها الآن وفكر برأيتك وسجل حينما شئت نحن نريدك أن تسجل في بيرزيت مع محمد وأنت حر والقرار قرارك في النهاية... خذها خذها) مد إبراهيم يده وتناول للنقد وقد طلقاً رأسه إلى الأرض ويبدو أنه كان قد حسم أمره بالتسجيل في الجامعة الإسلامية، حيث أن أي عملية حسابية تؤكد أنها لا تكلف نصف ما تكلفه الدراسة في بيرزيت أو غيرها.

وهو لا يريد أن ينقل على العائلة، زيادة على أن وجوده في غزة يمكنه من العمل أحياناً لكسب بعض النقود التي يمكن أن تخفف مما سيكونه للعائلة، وبالفعل فقد توجه إلى مبنى مدرسة الأزهر حيث سجل للدراسة في الجامعة الإسلامية وقد تم قبوله فيها (لغة عربية).

حين عاد بالخبر أخبرني به أولاً وأخرج من جيبه باقي المبلغ ليحطني إياه لأعيد له أمي فهو خجل منها، ولكنني رفضت أخذه منه قائلاً: مالي ومالك وملاذا أدخلني بينك وبين الحكومة لأذهب إليها بنفسك وتدير معها الأمر فقال تعالى: وخرجت أمي إلى المطبخ حيث تعد أمي الطعام قائلاً لها: باركي لإبراهيم فقد تم قبوله في الجامعة الإسلامية/ كلية اللغة العربية، فالتفت إلي أمي وقبل أن تنفقه بأي كلمة قال: الله يبارك فيك، هذا ما زاد من القلوس، فامتثلت عيون أمي بالإكبار والتقدير، تناولت النقود منه ثم أعادت له منها خمسة بتفكير قائلة: أصرفها لو تصرف فيها فهي تلزمك الآن حاول الرقض فأرغمته على أخذها، فأخذها والحياء يكاد يقتله ويردد (الله بخليك لنا يا مرت عسي، الله بكثر خيرك).

للجامعة الإسلامية في هذا الوقت لم تكن أكثر من طموح. وبعض الطلبة الذين اضطرتهم الحاجة للدراسة فيها، حيث أن فرصهم الأخرى معدومة. في مدرسة معهد الأزهر الديني الواقع على شارع الثلاثين في غزة بعد أن تنتهي فترة الدراسة الصباحية لطلاب المعهد الديني وينصرفوا إلى بيوتهم يأتي طلاب الجامعة الإسلامية، حوالي عشرين طالباً، لدراسة العلوم الأولى في كليتي الشريعة وأصول الدين، وعشرات معنودة من الطلبة الجدد في كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية.

تدخل كل مجموعة إلى أحد الفصول في المعهد، ويدخل إليهم أحد مشايخ المعهد ليدرهم إحدى مواد تخصصهم. يخرج الشيخ الأول ليدخل الشيخ الثاني، وهكذا أربع أو خمس محاضرات متتالية تماماً كما في المدرسة الثانوية من دون أي تخيير ملموس.

إلى هذه الأجواء الدراسية دخل إبراهيم دون أي شعور بأن هناك جامعة أو حياة جامعية مثل تلك التي سمع عنها من محمود عن الحياة الجامعية في مصر، أو مما سمع من محمد عن الحياة في بيرزيت، ولكنه يدرك أن ليس من حقه الانتقال على العائلة بقرش واحد وإياه نفسه كان يمنع من أن يسلك غير هذا الطريق.

في نفس الوقت كانت نفسه قلادة على أن يعاود العمل على بسطة الخضروات في السوق خلاصة أن دراسته في الجامعة تكون في الفترة المسائية ويمكنه العمل بصورة ممتازة في الفترة الصباحية، ولكن يدرك أنه إن ذكر ذلك مجرد ذكر أمام أمي وأمام محمود يستقروم القيامة على رأسه، لذا بدأ يفكر في طريقة أخرى للعمل لكسب بصورة لا تثير أمي ولا تستفز مشاعر محمود.

كان أحد أصدقائه من شباب المسجد يعمل في البناء ويرفض العمل لدخل الأراضي المحتلة عام (٤٨) ويرفض بالعمل في القطاع، رغم زهادة الأجور في البناء ورغم قلتها، فاتفق إبراهيم معه أنه حين يجد عملاً فإنه مستعد للعمل معه كمساعد حتى يظهر فوجد ذلك مقبولاً عنده، عاد إبراهيم وطرح الأمر علينا على أنه يريد أن يستلم مهنة البناء مع صديقه وليس على أنه يريد اكتساب الرزق، ولم يكن لدى الأهل ملاحظة وفقاً للصورة التي عرضها عليهم إبراهيم.

في الأيام التي كانوا يجدون فيها عملاً في أحد البيوت كان يخرج إلى العمل من الصباح الباكر، وقد لبس ملابس العمل فإن كان العمل قريباً عاد بعد العمل ليبدل ملابسه ويذهب للجامعة وإن كان العمل بعيداً أخذ معه ملابسه وكتبه، عند الظهر يبدل ملابسه إن كان الطرف مناسباً ويذهب للجامعة، أو يذهب بملابس العمل وهناك يبدلها وأحياناً يضطر إلى حضور المحاضرات بنفس ملابس العمل، وفي كثير من الأسابيع كانوا يعملون يوم الجمعة يقطعون العمل بالذهاب للمسجد لصلاة الجمعة ثم يعودون لإكمال عملهم بعد الظهر، وقد بات راضياً، أن إبراهيم قد بدأ يكفي نفسه المصاريف والاحتياجات، وقد استمر بعد وقت دراجة هوائية لكي تسهل عليه الحركة بين البيت والعمل والجامعة، وتوفر عليه الجهد والمصاريف.

مستوى الحياة في الأراضي المحتلة بدأ يتطور بصورة ملموسة، فقد بدأت التكتلات السياسية والفكرية في النقابات المهنية المختلفة تزداد بروزاً. في جمعية المهندسين تشكلت الاتجاهات الرئيسية الثلاثة في ككل بارزة اتجاه فتح والاتجاه اليساري والإسلاميون، أخي محمود كان من النشطاء الفتحاويين في الجمعية، وقد كان هو وزملاؤه ينسقون عملهم لكسب أكبر عدد من أصوات المهندسين في محاولة للفوز بالانتخابات للهيئة الإدارية للجمعية، حالهم حال نظرائهم من التوجهين الآخرين وكما هو الحال في الجمعية الطبية وفي نقابة المحامين.

التنافس في هذه الجمعيات والتخابات كان على أشده، حيث يشكل كل إطار طواقم من نشاطه يبدأون بزيارة زملائهم في بيوتهم وأماكن عملهم في محاولة لاقناعهم بالمشاركة في الانتخابات وانتخابهم دون غيرهم.

وفي بعض الأحيان تتحالف قوات ضد القوة الثالثة لانتزاع الهيمنة منها ولأن اليساريين كانوا أسبق في العمل للنقابي، وأقصر على تنظيم أنفسهم، فقد تحالفت فتح مراراً مع الإسلاميين للعمل على التغلب على اليساريين.

الصورة الأبرز حينها كانت في انتخابات جمعية الهلال الأحمر في غزة، حين كان اليسار قوياً و متمكناً في هذه الجمعية الأمر الذي اضطر فتح والإسلاميين للتحالف في محاولة للفوز ودحر اليساريين، الأمر الذي تطور إلى صدامات حشد لها الإسلاميون حشداً كبيراً في الجامعة الإسلامية في القطاع وقد تامت في الأونة الأخيرة بصورة ملحوظة.

أخي محمود شارك بما عليه في انتخابات جمعية المهندسين من فتح الذين كانوا يخططون لحسم أكبر عدد من المهندسين من أجل كسب الانتخابات، كان لهم اجتماع كل يومين أو ثلاثة يجلسون يستعرضون أسماء المهندسين ونتائج الاتصالات معهم ويقوم عمل القوى المذاوئة، ثم ينطلقون للعمل لمزيد من الحسم وهكذا حتى جاء يوم الانتخابات فشغلوا عدداً من سياراتهم لنقل بعض المهندسين المترددين في القدوم، كذلك في الجمعية الطبية وفي نقابة المهندسين، وفي نقابات مهنية أخرى.

وقد كان من الواضح أن الإسلاميين يركزون جهداً على طلاب الجامعات بصورة خاصة وعلى طلاب المدارس الثانوية على وجه العموم ففي كل جامعات ومعاهد الأرض المحتلة في الضفة الغربية أنشطة شبابية ثقافية ورياضية واجتماعية هدفها جمع الشباب وتأطيرهم وتعبئتهم فكرياً وعقائدياً.

الشيخ أحمد كان يشرع على النشاطات الطلابية في غزة بنفسه. كان يدعو إليه هدداً من الطلاب الناشطين في الجامعة الإسلامية ليتعرف على لوائح الطلبة ويطلب منهم الحضور مرة في الأسبوع، وقد دعوا معهم آخرين من الشباب القريبين منهم ويأتون فيناقش معهم أمور العمل الإسلامي في الجامعة، والتحضير للانتخابات، وكيفية العمل مع الشبان المعادين وأساليب التقرب منهم، وحسمهم لصالح الإسلاميين.

حتى إذا تمت الانتخبات وتحقق الفوز بدأ يوجههم للعمل في المدارس الثانوية
لتهيئة الأجواء بين الطلاب الذين سيأتون للجامعة الإسلامية أو سيذهبون للجامعات
الأخرى ليكونون جاهزين للانصواء تحت لواء الكتل الإسلامية، وحمل أعباء العمل
الإسلامي.

إبراهيم كان أحد الناشطين في الجامعة في تلك الفترة، وكان الشيخ أحمد بن محمد
عليه وعلى عدد من الطلاب بصورة كبيرة، وقد كان أحد مرشحي الكتلة الإسلامية
لانتخابات مجلس اتحاد الطلبة الذين فازوا في الانتخابات، وكان طيلة الوقت منهمكاً في
عمله لكسب بعض القروش في الفترة الصباحية ثم الدراسة في فترة ما بعد الظهر وفي
فترة المساء ينشغل في عمله الإسلامي، كان إبراهيم مثال الشطة حركة ونشاطاً، فإذا ما
دخل الليل وعاد إلى البيت تناول عشاءه ثم جلس يقرأ في كتب دراسته أو بعض كتب
أخرى، ولما نام بصورة طبيعية، فغالباً ما يخلد النوم والكتاب في يده فأقوم لأخذه عن
صدره وأضعه في حواره ثم أعطيه، ولما أزداد احترماً وتقديراً له... وأزداد إصراراً
واقبالاً على دراستي في سنتي الثالثة في الثانوية.

محمد كان يقطع أشواطاً ممتازة في دراسته في كلية العلوم في جامعة بيرزيت،
السكن في رام الله لم يكن مناسباً فحرص على تكبير سكن جديد في بيرزيت نفسها
وبصحوبة وجد ذلك السكن مع مجموعة من شباب الكتلة الإسلامية. في نفس البيت تحت
أحد الليوت الفاخرة من الجهة الأخرى الخلفية للشارع ثلاث غرف كان يسكن محمد مع
خمسة من زملائه.

هذا البيت كان مختلفاً تماماً عن البيت الذي سكن فيه في رام الله، فشاركه محمد
في البيت كلهم شباب متدينون من الكتلة الإسلامية. البيت تحول منذ مطلع العام إلى شبه
مقر للكتلة ونشاطها، يتردد عليه غالبية نشطاء الكتلة ويعتمدونه في اجتماعاتهم، ويعتدون
فيه خططهم للعمل الطلابي في الجامعة.

كان لمحمد دور بارز في قيادة العمل الأمر الذي جعله رغباً عنه ملزماً بالتصديق
مع الطالبات المؤيدات للكتلة، وقد بدأت بعض الطالبات بلبس الحجاب، الأمر الذي كان
شبه تحول استراتيجي في جامعة بيرزيت بأن ترى بعض الطالبات للمتجعدات، وكان
دوماً يدعوهم بصورة جماعية فيأتين اثنتين أو ثلاثاً، فيقفون يتحدثون في أحد مسرات
الجامعة، أو يجلسون في المقصف وهم يطرقون فلا يرفعون نظرهن إليهن، وعن يطرهن
فلا يرفعن نظرهن إليهم فيوجهونهن لترتيب العمل مع الطالبات ويشرهن لهن دورهن
في العمل في الجامعة.

العمل الطلابي في الجامعات لم يظل محصوراً في إطار الجامعة الواحدة، وهذا كان مستوى التوجهات والأطر الطلابية جميعاً، فكل تكتل طلابي في أحد الجامعات بحلول الاتصال بنظيره في الجامعات والمعاهد الأخرى بصورة تلقائية، طلاب حركة فتح في بيرزيت يتصلون بزملائهم في جامعة النجاح وغيرها.

وكذا بالنسبة لطلاب الكتلة الإسلامية كثيراً ما تجد وفداً منهم من جامعة النجاح يزور زملائهم في جامعة بيرزيت أو العكس، يتبادلون الخبرات أو النصائح وينسقون الأنشطة المشتركة ورغم صغر وبدلية الجامعة الإسلامية ومحدودية العمل الطلابي فيها إلا أنها أخذت دورها في ذلك النشاط ولطالما التقى محمد وإبراهيم في بعض الأنشطة المشتركة التي كانت تنظم.

كثيراً ما كان النشطاء من جامعة بيرزيت يذهبون إلى جامعة النجاح الوطنية في مدينة نابلس، هناك مستوى الانفتاح أقل مما هو عليه في جامعة بيرزيت، ولكنه يزداد بعشرات الأضعاف عما عليه الوضع في مدينة غزة المحافظة إلى درجة غير عادية، حتى قبل انتشار للنشاط الإسلامي ولعل هذا كان أحد عوامل الانتشار الكبير له في القطاع الذي قلل مناطق أخرى.

جامعة الخليل كانت تقع في تدرجها بين نابلس وغزة، فهي أقل محافظة من غزة وأشد من جامعة النجاح، حركة هؤلاء الطلاب كانت بعيدة عن أي رقابة واضحة أو مضايقات من أجهزة محلات الاحتلال وإن كان هناك شيء من الرقابة فلم تكن ظاهرة. فكان هؤلاء الطلاب يتحركون بسهولة ويمارسون أنشطتهم دون أي قيود خاصة وأنها كانت في العادة محصورة في مجالات الصراعات الفكرية والتنافس الدلالي بين الأطر والتوجهات المختلفة، ولم يكن لذلك أثرٌ واضح على الاحتلال.

في بعض المناسبات الوطنية أو حين تطرأ حوادث خاصة وتكون لقوات الاحتلال معلومات أو شك بأن أحداثاً ستقع في الجامعات فإنها تمنع الطلاب من الوصول إليها بوضع الحواجز في الطرق، وإرجاع الطلاب أو بمحاصرة الجامعات بقوات كبيرة ومنع الطلاب من الخروج منها، ونقل موقوفاتهم ونشاطهم إلى المناطق القريبة وقد تحدث بعض الإشكالات بين الطلبة والجنود. تلقى الطلبة الحجارة خلالها ويرددون شعارات ومناشآت وطنية، ويطلق الجنود القنابل المسيلة للدموع أو الرصاص فوق الرؤوس، وأحياناً على الأرجل، وأحياناً يعذب نك بعض المظاهرات والاعتقالات

لبعض الطلاب، حيث يتم احتجازهم لبعض الوقت بعضهم يسجن لفترات لا تطول، ثم تتواصل الحياة على طبيعتها.

في مدرسة الكرمل الثانوية حيث أدرس نظم طلاب الكتلة الإسلامية الذين يشرف عليهم ابن عمي إبراهيم نظموا رحلة إلى القدس وبعض المناطق السياحية الأخرى داخل فلسطين وقد بدأ بالتسجيل لمن يريد حيث يدفع الراغب بالتسجيل رسوم الرحلة. جاعني أحد النشطاء وعرض علي المشاركة في الرحلة فترددت ووعدته بدراسة الأمر والرد عليه لاحقاً، في البيت تحدث معي إبراهيم أن علي أن أسجل في الرحلة وألا أتخلف عنها، خسارة أن أضيع هذه الفرصة للخروج من القطاع إلى الضفة الغربية والقدس وداخل الأرض المحتلة عام (١٩٤٨) والتعرف إلى بلادنا وقد سألتني وقال: إذا كان لديك مشكلة في رسوم الرحلة فيمكن أن أسدها عنك.

ابتسمت وأوضحت له أن وضعي المالي يسمح لي بذلك والمشكلة لم تكن في الرسوم وإنما في مبدأ المشاركة في مثل هذه الرحلات. ضغط علي كي أشترك فوعدته بذلك.

في اليوم التالي سجلت للرحلة ودفعت الرسوم لمسؤول الكتلة في المدرسة وفي يوم الجمعة استعدنا للخروج منذ ساعات الصباح الباكر، حيث تجمعنا عند باب المدرسة وكل واحد منا يحمل كيساً فيه طعامه لهذين اليومين وقد كنت على علم بمشاركة إبراهيم لنا فهو المشرف الحقيقي على الرحلة، وفي الحافلة يدعو دعاء السفر ونحن نردد وراءه: ﴿بسم الله مجربها ومرساها الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإننا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى﴾.

وكلما مررنا على أحد المواقع أو آثار إحدى القرى أو البلدات الفلسطينية التي تدمرت في الحرب أو دمرها اليهود ليزيلوا كل آثار عروبة المكان وقف إبراهيم أو شاب ثانٍ معه يعرفون ويشرحون هذه كذا، وهذه آثار مدينة عسقلان، وهذه الجميزة تقع في مركز قرية حمامة، هنا آثار مسجد حديقة أسود، وهناك آثار مدرستها وتلك آثار بعض بيوتها. وقفنا الأولى كانت فوق هضبة جميلة عليها أحد الأديرة النصرانية، نزلنا هناك من الحافلة وبدأ إبراهيم يشرح عن هذا المكان الذي يسمى اليوم باسم (دير للطررون) وأن هذا المكان قد دارت عليه معركة عمواس بقيادة "أبي عبيدة عامر بن الجراح" الذي قاد جيش المسلمين لفتح فلسطين.

فحتى إبراهيم وهو بصف بعض التفاصيل للمركة والعدد الكبير من الصحابة الذين استشهدوا فيها، وقبض حفنة من ترابها الذي يمل لونه إلى الحمرة، وقال: هذا التراب يشهد أنه مهبول بدم صحابة رسول الله ﷺ وترقرقت الدموع في عينيه وساد صمت مطبق على الحاضرين إلا من تغريد عصفور أو حفيف أوراق الشجر نهزه الريح، ثم قال: هذا التراب ترابنا، وهذه الأرض أرضنا جعلها صحابة رسول الله ﷺ بدمائهم الزكية ولا بد أن تجبل بدم زكي طاهر من أتباع الرسول ﷺ حتى تتحرر من جديد.

صعقت مما لسمع خصوصاً أن يأتي من إبراهيم، ذلك الأخرس الأكم في الدار خاصة أمامي، يتألق هنا كأفضل منظر لفكرته، وهو يعرف الكثير من المظومات تفصيلية عن كل الأماكن التي نمر بها، وكان يزداد ينظري عظمة واحتراماً.

انطلقت الحافلة من جديد تقطع المسافات ووقف زميل إبراهيم يشير بيده إلى سفح الجبل وهو يقول هنا على سفح هذا الجبل تقع قرية دير ياسين، وبدأ يشرح عن المجزرة التي حلت بالقرية وذاع صيتها، وأصبحت رمزاً للبطش اليهودي بأهل فلسطين، وصلنا بعد قليل إلى القدس ثم إلى أسوار المسجد الأقصى والبلدة القديمة في القدس، دخلنا شوارع القدس القديمة سيراً على الأقدام، المحلات التجارية على جانبي الطريق، تعرض شتى أنواع البضائع التقليدية، كل ما تريد وعلى وجه مخصوص لتتحف الخشبية التي يشترها السائحون الذين يملكون شوارع القدس القديمة وأزقتها، وقد قدموا من شتى أنحاء العالم، وفي كل زاوية تجد عدداً من جنود الاحتلال من حرس الحدود يحملون بذائهم ويراقبون بعيونهم كل حركة ومكنة.

تقربنا من أحد الأبواب للمسجد الأقصى المبارك كان على تلك البوابة عدد كبير من حرس الحدود الذين يتفحصون كل زائر، ويفحصون بطلقة هويته الشخصية وأحياناً يسجلون رقمها. دخلنا المسجد الأقصى بعد أن سجلوا أرقام هوياتنا وصوت أحد المشايخ عبر مكبرات الصوت يقرأ آيات من القرآن الكريم.

كانت قبة الصخرة المشرفة بألوانها الزاهية تتربع فوق تلك التلة المرتفعة، حيث تصعد إليها عبر الدرجات الحجرية، تقمنا حتى وصلنا باب المسجد الأقصى المبارك، شعور من الخشوع والرهبة اقتابني ولما أخطو خطواتي الأولى داخل المسجد بعد أن أسكت حذائي بيدي وقفنا لنؤذي ركعتي تحية المسجد ثم جلسنا بانتظار خطيب الجمعة الذي صعد المنبر وألقى خطبة عادية لم أشعر أن فيها شيئاً جديداً أو مميزاً عما يخطبه المشايخ في عزة، ثم وقفنا نصلي صلاة الجمعة وسنتها وبدأ الناس يقضون من المسجد.

تجمعنا من جديد وصعدنا الدرجات إلى مسجد قبة الصخرة، بدأ إبراهيم يشرح لنا عن المسجد وعن تلك الصخرة التي صعد من فوقها رسول الله ﷺ إلى السماء في رحلة الإسراء والمعراج وشرح أن الإسراء كان من مكة إلى القدس وأن المعراج كان من القدس إلى مدرة المنتهى في السماء، ثم بدأ يشرح الحكم في أن القدس كانت المحطة الأساسية في الأرض في رحلة تنافس إلى السماء.

فقد كان من الممكن أن يصعد الرسول ﷺ إلى السماء مباشرة من مكة، ولكن حكمة الله اقتضت هذا المرور من القدس ليوضح الله للمسلمين أن للقدس أهمية خاصة في عقيدتهم ودينهم وطريقهم إلى السماء ويعود ويؤكد مراراً وتكراراً من هنا من القدس ارتقى الرسول ﷺ إلى السماء، مرت بجسدي رعدة وغطيتي بضميريرة لم أستطع أن أخفيها عن وجوه بجانبي الذين ملأهم نفس الشعور، نحن في مخيمات عزة هناك نزور القدس للمرة الأولى، وقد كانت هي عولنا من قبل مجرد اسم تذكر له بعض التأثير البسيط، وما نحن نقف اليوم في هذا المكان المقدس الذي يحيط به جنود الاحتلال يسمعون لمن يريدون إخلاعه ويمنعون من يريدون وهذه أمة المسلمين والعرب يملأونها وأموالها وجيوبها نقف عاجزة عن تحريره وتخليصه من هذه العصابات النكدة العينة.

منذ هذه اللحظات بدأنا نفهم جيداً أن للصراع وجهاً آخر غير ما كنا نعي ونسرك من قبل، فالمسألة ليست فقط مسألة أرض وشعب طرد من هذه الأرض وإنما هي معركة عقيدة ودين، معركة حضارة وتاريخ ووجود، وقد نجح إبراهيم ومن نظموه هذه الرحلة في غرس هذا المعنى جيداً في نفوسنا، من وسط تلك الخواطر انتزعنا صوت إبراهيم معلناً أن علينا التوجه الآن إلى الحافلة لنوجه إلى مدينة الخليل، حيث سنزور فيها الحرم الإبراهيمي الشريف وتكرر الصوت فصرنا نحو البوابة ننتزع أقدامنا من الأرض انتزاعاً فلن رهبة المكان وقديسيته وما يثيره في النفس من مشاعر يجعل من الصعوبة عليك أن تفارقه طامعاً راضياً وتود لو أنك تبقى هنا.

طيلة الطريق إلى الحافلة كانت لا تزال تتردد في معنى كلمات إبراهيم عن منحصر صلاح الدين الذي أعده قبل تحرير القدس بسنوات ووضعه أمامه ليكون له حافظاً ومحركاً للمسير نحو القدس لتحريرها من أيدي الصليبيين وكيف أحرقته الأيدي اليهودية الأثمة عام ١٩٦٨ وأتساءل في نفسي هل من صلاح الدين لهذه المرحلة؟

انطلقت بنا الحافلة نحو الخليل، حيث مرت في طريقها بمدينة بيت جالا، ثم بيت لحم ثم مخيم الدهيشة، عرفنا المخيم من شكل بنائه المكتظ المتراس ومن بساطته، عرف إبراهيم أن هذا مخيم الدهيشة ثم أشار إلى الجانب الآخر، فإذا بخيمة قد نصبت في أرض خالية وعشرات الجنود يحرسونها فقال: هنا يعتصم الحاخام 'موشي ليفنجر' أحد كبار المستوطنين في مدينة الخليل، وهو يعتصم أمام مخيم الدهيشة احتجاجاً على عجز قوات الاحتلال من حماية المستوطنين في طريقهم إلى الخليل من حجارة فتيان المخيم التي تنهال عليهم ليل نهار، مررنا بعد ذلك بمخيم العروب، وبعد وقت وصلنا مدينة الخليل. حين دخلنا قلب المدينة القديمة، وجدنا أنها تشبه بتكنة عسكرية لقوات الاحتلال. مئات الجنود هنا وهناك، وعشرات السيارات العسكرية تتحرك في المواقع الحساسة، والأسلاك الشائكة تحيط بالعديد من المواقع والمباني.

منذ أواسط السبعينيات كان المستوطنون اليهود بدعم وحماية وتغطية قوات الاحتلال قد بدؤوا يسيطرون على العديد من المباني والمواقع في المدينة القديمة بطردون الناس منها ويسكنون فيها وعشرات الجنود يحرسونهم ثم يبذلون بملايات بناء وترميم وتغيير لوجه المنطقة العربية، وفي كل يوم يسيطرون على مبنى جديد أو موقع جديد والجنود يحصونهم ويدعمونهم.

وصلت بنا الحافلة إلى الحرم الإبراهيمي الشريف. أعداد ضخمة من الجنود يتمركزون في المكان ويفحصون بطاقات القادمين من العرب ويستوقفونهم بينما للسياح من اليهود والأجانب يتحركون بكل سهولة ويسر صعوداً بذلك الدرج (المسلم الحجري) الطويل، ثم سرنا في ممر طويل حيث إلى جوارنا ساحة طويلة مقروشة للصلاة، ثم دخلنا إلى ساحة جانبية نفضي إلى صحن للمسجد الرئيسي في الحرم، وفي طرفها الآخر قاعتان أخريان للصلاة، رأينا أضرحة عديدة كتب عليها أسماء موعلة في التاريخ: إبراهيم، اسحاق، سارة ويوسف عليهم السلام، مجلة بالقماش الأخضر، أدينا في المسجد صلاة المغرب، وتجولنا فيه نعرف على أركانه وما فيه من تاريخ أمثنا وعقيدتنا، ثم خرجنا حيث انشربنا من الباعة عند الأبواب قطع الملبين والقمردين والزبيب والقطين، ثم انطلقت بنا الحافلة إلى غزة.

بدأ الجميع يقرأون أدعية مأثورة المساء: «إلهنا وأمسى الملك لله والحمد لله... وما كان من المشركين» كان صوت الدعاء الجماعي يتردد من هنا وهناك وقد غرق كل واحد في مقعده، وبدأت الكلمات التي نردها معاني أخرى غير التي اعتكنا عليها حين يتكرر محمد ﷺ ولبونا إبراهيم الخليل عليه السلام. بعد هذه الرحلة، في تلك الأماكن المقدسة يصبح للكلمات معنى ووقع آخر تماماً. من هذا اليوم قررت أن ألتزم على الصلاة فلا أتركها قط، وقد كان علي أن أبدأ لتجهيز الجاد لامتحانات إنهاء الثانوية العامة (التوجيهي) فلم يبق للامتحانات سوى شهرين ونصف وعلي أن أحصل على درجات معقولة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الخامس عشر

النصف الأول من العقد التاسع من الساعة العاشرة للألفية شهد الكثير من التغييرات على الساحة الفلسطينية، كما شهد الكثير من التطورات على مستوى أخلاقنا ومسلكتنا. أنهيت درستي الثانوية وقررت الالتحاق بالجامعة الإسلامية بغزة، رغم معارضة أخي محمود الذي كان يقول ماذا؟ هذه جامعة؟ هذه لا تصلح أن تكون مدرسة ثانوية! أما حسن فكان مع فكري في الدراسة فيها، وإبراهيم كان موافقاً، ولمي نزلت عند رغبتي، وطلبت من محمود السكوت عن الأمر وترك الخيار لي، فالأمر بخصني، ولنا صاحب القرار فيه، فالتزم السكوت سكوت الحائق الغاضب غير الراضى.

سجلت في الجامعة الإسلامية وقبلت في كلية العلوم وانتظرت قدوم العام الجديد وبدء الدراسة على آخر من الجمر، خاصة وأن الأخبار قد جاءت أن الجامعة هذا العام ستطور تطوراً ملموساً، حيث إنها ستستقبل خمسمائة طالب وطالبة، وسوف تنتخب رئيساً بحمل شهادة الدكتوراه وسوف يأتي عدد من حملة الدكتوراه للتدريس فيها، كما سيتم بناء مبنى خاص بها.

إبراهيم حافظ طيلة العطلة الصيفية على المواظبة على العمل في البناء مع صديقه وكسب مبلغاً مالياً جيداً، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إنه أصبح الآن بناءً معترفاً حيث تعلم المهنة من صديقه، وأصبعا شريكين يشغلان معهما أحد العمال كمساعد، وصارا يأخذان مقاولات متوسطة في البناء وأشغاله، وبات واضحاً أن عصابة إبراهيم تصنع منه رجلاً.

أخوأي محمود وحسن رزق كل منهما بمولود وكذلك أختي فاطمة، وتطور عمل حسن حيث قرر أن يفتح ورشة خراطة وبرادة خاصة به، استأجر المكان وبدأ بالعمل على شراء الماكينات اللازمة للورشة، ولم ينقصه المال، ومحمد كان يتقدم في دراسته (الكيمياء) في جامعة بيرزيت، وينهى كل فضل بلنتيلز، ولم تعد الجامعة تستوفي الرسوم، حيث أن الجامعة كانت تعطي الطلبة المتفوقين منحة دراسية، وكل الذي يلزمه كان فقط بعض المصاريف الحياتية.

مع بدء العام الدراسي بدأنا الدوام في نفس مبنى المعهد الديني للأزهر، والكثير مما سمعنا عن تطور الجامعة بدأ يتحقق حقاً، فعدد الطلاب والطالبات المقبولين كان سميحاً، وقد حضر دكتور لرئاسة الجامعة، وعدد آخر من حملة الدكتوراه للتدريس فيها.

وقد شرعوا في إتمام بناء كانت أسسه موضوعة منذ زمن ليكون خلاصاً للجامعة.
كل ذلك كانت مؤشرات على أن الجامعة ستصبح جامعة بحق، وأن البشائر تؤكد
ذلك، مما جعلنا كطلبة أكثر اطمئناناً للمستقبل، ولكن رغم ذلك فقد بقينا ندلوم في غرف
المعهد بعد الظهر، الطلاب بدلومون في القسم الخاص بطلاب الأزهر، الطالبات بدلومن
في المقر الخاص بالطالبات الأزهر.

السنة التي قبلنا فيها كانت سنة تأهيلية، حيث ندرس فيها مواد دراسية تعادل
دراساتنا للتأهيلية العامة، مع دراسة طلبة الثانوية الأزهرية، أي أنها كلها كانت مواد نظرية
في غالبيتها مواد دينية، بدرسا إياها بعض المشايخ مع بعض المواد العلمية التمهيدية،
ولكن هذه كانت قليلة لذا فمستوى شعورنا بالجنسية والإرهاق من الدراسة كان محدوداً جداً
وقضينا معظم العام في اللعب والتسالي ومواكبة الصراعات الفكرية بين طلبة الاتجاهات
المختلفة. كان واضحاً أن طلبة التيار الإسلامي هم الأكثر عدداً من عموم الطلاب، وهم
الأكثر تنظيماً والأكثر على عرض أفكارهم والتقرب من الطلاب، وإنشاء العلاقات معهم.
شباب فتح كانوا أقل قدرة ولكنهم كانوا يحاولون تطوير قدراتهم ومستواهم بشكل
جيد ودافع طلاب اليسار كانوا أقلية، ولم يكن لهم صوت يُنكر، كانوا تكتلاً صغيراً
منظوباً على نفسه، وحركتهم كانت محدودة للغاية.

بعد شهر من بداية العام بدأت الجامعة تضطرب بالحركة بين الطلاب استعداداً
لانتخابات التي ستجري قريباً لانتخابات اتحاد الطلبة، وبالمقابل فقد كان هناك انتخابات
مرئزية لهيئة الطالبات، بدأ الناشطون من شتى التيارات أكثر نشاطاً في الاتصال بالطلاب
الجدد لعرض أفكارهم، ومحاولة استقطاب هؤلاء للطلبة لأطرحهم.

قاعة الكافيتريا الصغيرة كانت تزخر بالمناقشون على الطاولات ويمر بعرضون
أفكارهم لو بهاجمون الآخرين، بعد أيام بدأنا نحس أن هناك مشكلة بين ناشطي الكتلة
الإسلامية بحيث أن غالبيتهم يعملون بصورة منفصلة عن مسئولهم السابق الذي كان
السبب وراء الأحداث و الصدامات حول انتخابات الهلال الأحمر.

وبعد أيام أخرى عرفنا أنه انفصل عنهم وسينزل للانتخابات في قائمة خاصة به،
وسينزلون هم في قائمة أخرى وستجتمع القوى الوطنية من فتح والمنظمات اليسارية معاً

في قائمة ثلاثة، وبدأت المناقشات تزداد حدة، والبيانات توزع والشعارات تعلق على الجدران، طلاب الكتلة الوطنية أكثروا من إصمق صور "أبو عمار" على الجدران. كل قائمة جعلت أسماء مرشحيها الأحد عشر في قائمة عليها اسمها وشعارها، وبدأت بتوزيعها على الأنصار والمؤيدين، إبراهيم كان من أبرز الناشطين في الكتلة الإسلامية ورغم أنني لم أعتبر نفسي كتلة إسلامية، لو نصيراً لها، لم يكن أمامي خيار لانتخاب ابن عسي وقائمته حيث أن ما بيننا من الحياة المشتركة وإعجابي الشخصي به لم يكن يسمح لي بأن أخالف ذلك مع أنه كنت لذي ميول ما لفتح، لما لها من رمزية ولورها في العمل للفدائي والمقاومة المسلحة.

يوم الاقتراع كان تجربتي وتجربة الكثيرين الانتخابية الأولى، اصطفتنا طليوراً طويلاً كل واحد يحمل بطاقته الشخصية، ويبرزها للجنة التدقيق من قبل ساعة الاقتراع، ثم يدخل فيعطى نموذج الاقتراع ويشطب اسمه من قائمة المقترعين ثم يذهب إلى إحدى الطاولات المخصصة فيختار من بريد ويطوي الورقة ويضعها في الصندوق أمام رقابة عدد من العاملين في الجامعة ومراقب مع كل قائمة تخوض الانتخابات، وقد كان إبراهيم مراقباً عن قائمته.

بعد خروجي من باب الخروج من قاعة الاقتراع وجدت حلبة تحدث في أحد أطراف الساحة توجهت لأتظر ما حدث فكان حديث من نشطاء فتح أن نشطاء الكتلة الإسلامية قد مزقوا صور "أبو عمار" وداسوا عليه لاشك بأن الأمر أحدث تأثيراً سلبياً لدى البعض، وقد يكون أثر ذلك على آراء البعض فغيروا قرارهم بالتصويت للكتلة الإسلامية.

بعد أن انتهت عملية التصويت بدأت عملية الفرز وبدأت تتسرب بعض الأخبار عن النتائج الأولية للانتخابات، مرة يقال لصالح الكتلة الإسلامية ومرة يقال أنها هُزيت في الجامعة في انتظار إبراهيم ونتائج الانتخابات.... وقرابة الساعة العاشرة ليلاً خرج عميد شؤون الطلبة وأعلن النتائج، كان الفوز بصورة مميزة للكتلة الإسلامية، وبفارق واضح عن الكتلة المستقلة التي سبقت الكتلة الوطنية، عدداً ليلاً أنا وإبراهيم للبيت، كان إبراهيم في قمة السعادة، وكانت أُمي في انتظارها في قمة القلق، حيث وصلنا للبيت تذكرت ما حدث حين خرجت من قائمة الاقتراع وبألتة هل صحيح أن أحد نشطائكم مزق صور "أبو عمار" وداس عليه؟ فنفى ذلك نفياً قاطعاً وأكد أنهم قد لحصوا الأمر فوراً وتحققوا من عدم صحته، وأنهم يعتقدون أن ذلك كان مجرد محاولة انتخابية من نشطاء الكتلة الوطنية لمسيب مؤيدين في الكتلة الإسلامية في اللحظة الأخيرة، بالنسبة لي كنت أصدق إبراهيم

دون تفكير حيث عرفت أنه صادق دوماً ولم أشهد عليه كذباً مطلقاً، ولكن هل من سألهم إبراهيم كانوا صادقين لم أكن متأكداً من ذلك.

رغم تفجر الحرب الأهلية في لبنان والتي كانت للمقاومة الفلسطينية جزءاً أساسياً فيها، إلا أن وجود المقاومة الفلسطينية في لبنان ظل قوياً ومصدر قلق دائم لإسرائيل، خاصة وأن رجال المقاومة بين الحين والآخر كانوا يطلقون عدداً من صواريخ الكاتيوشا على المستوطنات الإسرائيلية في شمال فلسطين المحتلة خاصة على كريات شموني، وقد استغلت حكومة إسرائيل برئاسة "مناحيم بيغن" ووزير حربه "شارون" عملية اغتيال شخصية إسرائيلية في أوروبا فضدت جيشها على الحدود اللبنانية، وبدأت اجتياح لبنان.

كان البعض يتوقع أن يكون ذلك لعدة كيلومترات محددة لمنع إطلاق الكاتيوشا، وحتى يبدو أن "بيغن" كان يظن ذلك، ولكن "شارون" دفع بالجيش الإسرائيلي إلى العمق اللبناني، حتى حاصر بيروت، وأمام خوف قيادة الثورة الفلسطينية من اجتياح الجيش الإسرائيلي لبيروت والمخيمات الفلسطينية حولها بهدف القضاء على المقاومة وسيطحن في مثل هذه الحرب عشرات آلاف من المدنيين، فقرر رحيل المقاومة من لبنان من خلال بعض الوساطات وبالفعل وصلت قيادة الثورة وكل المسلحين الفلسطينيين من لبنان، وتركزت المخيمات والتجمعات السكانية من اللاجئين الفلسطينيين دون حماية وتنسيق وتفاق بين الكتائب اللبنانية، والجيش الإسرائيلي.

ارتكبت مجزرة صبرا وشاتيلا حيث قتل فيها المئات من اللاجئين الفلسطينيين رجالاً ونساءً ولطفالاً، وارتكبت أبشع جرائم ضد الإنسانية في تلك المجازر. ومع تناقل الأخبار عبر وسائل الإعلام تفجر قوضع في الأراضي المحتلة، في هذه الفترة كانت صعبة وقاسية للغاية فما من بيت من بيوت المخيمات (لا ولها أبناء أو آباء أو أقارب من الدرجة الأولى في المخيمات اللبنانية، وكان على اللاجئين أن يعيشوا لهم ولهم مرة ثانية وثالثة ورابعة مع ما في ذلك من قصص إنسانية مؤلمة من أم لا تعرف أخبار أولادها، أو أبناء لا يعرفون أخبار آبائهم، أو زوجة لا تعرف ما حال زوجها.

نحن في الجامعة نظاهرها بصورة صالحة جداً، وقد تناسى الجميع انتماءاته وخلفاته واصطدمنا مع قوات الاحتلال التي كانت تمر على طريق شارع الثلاثيني بجوار الجامعة وألقينا عليها كميات خيالية من الحجارة وهي لم تتوقف عن إطلاق الرصاص علينا، وإطلاق قنابل الغاز المدمع وقد أصيب العديد من الطلبة ونقلوا إلى مستشفى دار الشفاء للعلاج.

في مدينة الخليل كان الاستيطان في تزايد يومي في كل سبت يسيطر المستوطنون على بيت جديد يتردون منه أهلهم ويدخلونه، والجيش يحميهم ويوفر لهم الدعم الكامل وقد ضاق السكان ذرعاً بالأمر.

في نفس الوقت خلية فدائية تفصح من ثلاثة شبان بتنظم وتبدأ بالتخطيط لعملية فدائية قوية ورادعة ضد المستوطنين والجنود الذين يحرسونهم وسط الخليل، في قمة الإجراءات الأمنية يحصلون على سلاح، يضع بنادق وذخيرة لها وعدد من القنابل اليدوية ويبدلون في رصد الأماكن محلولين اختيار الهدف الأسهل والأمكن حيث يمكنهم أن يوقعوا أكبر قدر من الخسائر بالأعداء بعد جولات عديدة في أنحاء المدينة القديمة لممرات مختلفة للتنويه والتغطية على هدفهم الحقيقي.

اختاروا مهاجمة التجمع الاستيطاني والعسكري في مبنى الدبوبة وبخفة وحذر نملوا إلى المقبرة التي تطل على المبنى من أعلى أخذوا موقعهم وانتظروا للحظة المناسبة، حيث أقوا ما بأيديهم من قنابل يدوية، وأطلقوا نيران بنادقهم وارتفع صوت الصراخ والعيول من كل حذب وصوب ولم يجرؤ أحد من الجنود على إطلاق النار رداً على المهاجمين إلا بعد وقت طويل.

بعد قليل حضرت قوات كبيرة لتعزيز المكان، وإخلاء القتلى والجرحى، وقد تضاربت الروايات حول عدد القتلى، ولكن مما لا شك فيه أن عددهم لم يكن قليلاً، فرض نظام منع التجول على المدينة وبدأت عمليات تمشيط وتفتيش وتحقيقات في المدينة لانتقاط أي معلومة عن المخطئين، يرافق ذلك حملة من التخريب والتدمير المبرمج والمقصود في كل الأنحاء. استمر حظر التجول ليلاً عديدة وحين رفع كانت قوات الاحتلال قد فرضت قواعد جديدة في المدينة. وفي الحرم الإبراهيمي الشريف الذي كانوا يلتزمون بزيارته كسائحين فقط أما الآن فقد اقتطعوا منه أجزاء خصصوها لهم حيث يتواجد فيها المستوطنون المتكثرون اليهود بشكل شبه دائم ما عدا أوقات صلاة الجمعة.

وضموا في القاعة اليومية مقاعدهم وشمعاتهم، ومكث على مدار الساعة عشرات الجنود يحرسون هذه الأماكن والمكتبيين اليهود وأوقات عبادتهم في جوف المسجد، كما ألغيت طرق ومسودت بيوت وزاد التضييق على الناس وزدادت كثافة الانتشار لقوات الاحتلال للمرة تخصص بطاقات هوياتهم للشخصية، وتجري عليهم وعلى أغراضهم للتفتيشات في كل شارع أو زقاق يهرون فيه وتحول حياتهم إلى جحيم حقيقي، وبات واضحاً أن الناس تكاد تختنق مما يمارسه المحتلون والمستوطنون.

جمال كان يتوجه للصلاة في الحرم الإبراهيمي وقد واصل ترده على الحرم رغم كل التضييق والتشديد بأي شيء في التكون يجب ألا يمنعنا من الصلاة في مسجداً، وكل ما يفعلوه هو محاولات منهم لإرهابنا وطردنا من المسجد. ونحن من دلم فينا عرق ينهض فلن نتخلي عن مسجداً أبداً، فتضطر الأم الحانية والزوجة المشقة على التسليم بالأمر الواقع وتلجأ للدعاء بالحفظ والسلامة.

في مدرسة رابطة الجامعيين حيث يعمل وبين عدد كبير من المدرسين من مؤيدي حركة فتح يتقهر النقاش في كل مناسبة، يبدأ أولئك المدرسون بمهاجمته ومهاجمة الإسلاميين الذين يقفون وقوف المتفجع ولا يشاركون في العمل المسلح ضد الاحتلال، وهو يتسم مناقشاً أن شعبنا لكي يخوض معركته الحقيقية التي نتواصل ولا نتوقف أبداً لا بد أن يتسلح بسلاح الدين والإيمان ولا بد أن يعود إلى دينه كي تأخذ المعركة بعداً الحقيقي وتكون بالمستوى المطلوب حين يدرك الناس أنهم يجاهدون ويعانون ويقاسون في الدنيا لينالوا الأجر والرضوان في الآخرة فإنهم سيتحملون ذلك بسهولة بل وسيتذللون وينفهمون أبناءهم للجهاد والبذل والتضحية، فلا ينالهم أذى ولا يتهمون بالتقاعص عن أداء الواجب الوطني.

لم يمر وقت طويل حتى كان المستوطنون قد شكلوا تنظيماً سريعاً، بدأ يعد ويخطط لمهاجمة العرب في مدينة الخليل وغيرها، مجموعة المستوطنين هذه لديها السلاح والذخيرة والمتفجرات ولديها الخبرة العسكرية حيث خدم غالبية أعضائها في وحدات عسكرية قتالية في الجيش الإسرائيلي، كبار الحخامات المتطرفين يدعمونها ويوفرون لها اللغطاء الديني، ويصدرون لها الفتاوى لقتل أكبر عدد من العرب وتدمير بيوتهم وأماكن عبادتهم.

في ساعات الصباح وبينما طلبة وطالبات جامعة الخليل يجتمعون في حرم الجامعة توقفت سيارة (بيجو ٤) بيضاء اللون ونزل منها ثلاثة مسلحين وقصوا نيران أسلحتهم الأوتوماتكي على الطلاب وخلال دقائق معدودة كانت السيارة تتحرك مغادرة المكان وقد خلفت وراءها العشرات من الطلبة والطالبات بخصوف في دمائهم بينهم عدد من الشهداء، بعد وقت طويل جاءت قوات جيش الاحتلال ومخابراته متظاهرة بأنها تريد التحقيق في الحادث، حيث استجوبت عدداً من الطلاب والمارة في الشارع والناس تنهم...ماذا يريد هؤلاء؟ هل يعتقدون أننا نصنع لأن الحوادث ليس من نخطيطهم وتكبيرهم؟.

نفس المجموعة من المستوطنين كانت قد استأجرت بيتاً في المدينة القديمة في القدس وبدأت تركز فيه كميات من المتفجرات المتطورة، وتجري تدريبات مكثفة يشرف عليها ضباط متقاعدون من بينهم لتفجير المسجد الأقصى على من فيه لإزالة أي شيء من آثار إسلامية منه.

سرب الضمير لأجهزة الأمن والسادة درسوا الأمر ووجدوا أن الوقت لم يزل غير مناسب لتدمير المسجد الأقصى فقرروا وقف عمل هذه المجموعة المتطرفة فقاموا باعتقالها وأودعوها بالسجن بشكل مؤقت رغم ضلوعها بقتل العديدين والتخطيط لأعمال شاذة في الخطورة.

في وقت قريب من ذلك أعلنت حركة دينية متطرفة تسمى حركة أمناء الهيكل أنها تنوي الدخول إلى باحة المسجد الأقصى ووضع حجر الأساس لإقامة هيكلهم على أنقاض المسجد الأقصى المبارك وأنهم قد بلجأوا للقوة في فعل ذلك، حيث قبل وقت ليس طويلاً قام أحد المتطرفين باقتحام المسجد الأقصى وإطلاق النار على الحراس المسلمين العاملين في الأوقاف الإسلامية، وعلى المسلمين وقتل عدداً منهم.

الأخبار عن نية هذه الجماعة اقتحام المسجد الأقصى، طارت إلى كل مكان ووصلت إلى الجامعة الإسلامية. قبل الظهور على الفور تجمع عدد من أعضاء مجلس الطلاب وعلى رأسهم إبراهيم وسط ساحة الجامعة وبدلوا في عقد مهرجان خطابي عن المخاطر التي تهدد المسجد الأقصى وأعلنوا أنهم سيخرجون مع من يريد من الطلاب لم يكن يستطيعهم السفر للقدس دون اطلاع أهلهم وعدد آخر لم يترددوا في إعطاء حقائبهم وكنيتهم لزملائهم ليوصلوها لبيوتهم ويخبروا أهلهم بخروجهم للقدس، وقد كنت وإبراهيم ممن فعلوا ذلك.

انطلقت بنا الحافلة إلى القدس ومعنا أحد المدرسين من الجامعة الشيخ يونس وكنا نريد أن تطير بنا الحافلة للوصول إلى القدس لنجعل لأجسادنا درعاً لحماية المسجد الأقصى وطيلة الطريق كان الشيخ يحدثنا عن فضل هذه الأرض المقدسة وعن فضل الجهاد فيها حتى انتهت عواطفنا ومشاعرنا فوق آتھابها الأصلي.

وصلنا المسجد الأقصى فوجدنا فيه أعداداً كبيرة من الرجال والنساء والولدان، تجمع كبير غير منظم كنا نحن حوالي ستين، تجمعنا في أحد أركان المسجد وشكلنا قيادة على رأسها إبراهيم، وكان الشيخ هو الوجه والمعين، تم تقسيمنا إلى عدة مجموعات لوكلت كل مجموعة بحماية أحد الأبواب التي يفترض أن يأتي منها المعتدون، لم يكن لدينا ما ندفع به غير أيدينا وما نيمر من العصي والحجارة، أخذنا مواقعنا وقد طلب منا عدم مغادرتها مهما كان خشية أن يهاجموا المسجد الأقصى من عدة أماكن، والجموع كونها غير منظمة فهي مستدفع إلى الباب الأول الذي سنكتي الأخبار أن الهجوم حصل منه.

تم تقسيم كل فرقة إلى مجموعتين لإداء الصلوات عند حلول وقتها مجموعة تصلي وأخرى تواصل الحراسة فإذا أنهت الأولى صلاتها احتلت مواقع الحراسة وذهبت الثانية للصلاة ثم عانت، حين حل الليل وسكنت الحركة وبدأ أن الأمور قد تطول القلق على أن تذهب للمجموعة الأولى للنوم شطر الليل الأول ثم تعود لتذهب الثانية للنوم شطر الليل الثاني ومجموعة القيادة توزع الأول على كل لفرق بحيث كان العمل موحدًا للجميع.

من ظلوا للحراسة بدأ الليل بيرده يتناوشهم، فسارع عدد من الأهالي لإحضار البطانيات الصوفية وأعطوا كل واحد منا واحدة ليلف نفسه بها، ونزلنا بجوار الجدران والأعمدة الحجرية نترقب تداعب خواطرننا كل تلك الأفكار الجميلة عن قدسية المكان والمراحل التي مر بها والتهامس بأننا والحمد لله قد قلنا شرف للرباط العلمي في الأقصى لنحميه بأجسادنا من أي عدو آثم.

تذكرنا بسراء ومعراج رسول الله ﷺ وتذكرنا الناصر صلاح الدين وأهروقت العميون بالدموع وسمع نحيب البعض، بذلتنا المجموعة الثانية عند منتصف الليل فأعطيناهم البطانيات ليلتقوا بها والحجارة ليتسلحوا بها، وانطلقنا إلى صحن المسجد الأقصى نفترش بعض بسطة وننتظي بالبعض الآخر، حتى أذان الفجر قلنا وتوضأنا وصلينا للفجر مع المصلين.

كان أحد حراس المسجد الأقصى قد رأى مستوى للتنظيم والاستعداد لدينا فهمس في أذن إبراهيم بأنه يوجد مئات المواسير الحديدية مما تستخدم لصنع مقالات البناء، خنوها واستخدموها لن لزممت.

حين لشرقت الشمس كانت حافلة أخرى قد وصلت من طلاب الجامعة فأصبحتا نزيد عن المائة مسلح كل واحد منا بماسورة حديدية أفضل بمئات المرات من الأكرع وحدها أو من الحجارة وأخذ الجميع مواقعهم، وبدأ الناس يندفعون من جديد للمسجد. بين الحين والآخر كانت تصل إشاعة بأنهم سيهاجمون من باب المغاربة فيندفع الناس بمجموعهم للباب، ويظل طلاب الجامعة كل في مكانه انتبهنا أن هناك مجموعة كبيرة من قشبان والرجال أكثر نظاماً من عموم الناس، وقد انتبهوا هم كذلك لنا ويبدو أنهم شخصوا أن إبراهيم هو قائدنا، فتوجه إليه بعضهم يتعرفون عليه وعرفوه على أنفسهم فهم من قشبان المتكئين من أهلنا في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ من المثلث وخالصة من بلدة أم الفحم، على الفور انضموا لنا وأصبحوا ضمن فرقنا ومجموعاتنا، إن أكثر ما يميزه طيبة قلب غير عادية واستعداد خيالي للتضحية والفداء وسرعان ما تجد أحدهم قد أطلق لنفسه العنان للشهيد أو الغناء أو المولوديل بمعان غنية في السمو والغضب حول فداء الأقصى بالروح والدم، فلا نتمكن من حيس دموع عيوننا تنهمر على وجوهنا، وتشتد قبضات أيدينا على المواسير التي بأيدينا.

مر اليوم الذي حده لثناء الهيكل دون أن يجرؤوا على الاقتراب من المسجد الأقصى وبقينا يوماً آخر زيادة في الطمأنينة، وحين تأكدنا من زوال الخطر وبعد أن صلبنا الظهر في المسجد الأقصى جلسنا في حلقة وسط صحن المسجد وجلس الشيخ يونس يحدثنا عن هذه السرية التي خرجنا فيها معاً في سبيل الله وسبيل أئمتنا، والتي لم يكتب الله لنا فيها لقاء العدو، ولم ينل أحدنا فيها الشهادة، ثم أخذ يدعو بدعوات يسأل الله فيها أن يحمي لنا أئمتنا من كيدهم وأن ينلنا الشهادة وفضل الجهاد في ساحتهم، وأطال في دعواته تلك ونحن نردد خلفه آمين آمين، وقد تفجرت عيون الجميع بالبكاء وعلا الحبيب ثم انطلقت بنا الحافلة عائدين إلى غزة والصمت يطبق علينا طيلة الطريق.

رحلنا إلى المسجد الأقصى ولقائنا بأهلنا من عرب الداخل نكرنا بشطر آخر من شعبنا الممزق في لثناء شتى، كانت تلك المرة الأولى التي احتك بنا الناس من عرب الداخل وقد كنت أسمع من قبل القليل عنهم ولكنهم في هذا اللقاء عرفتهم فوجدت أنهم سرعان ما لفتحوا علي قلبي وتربعوا في سويداته لجصيل خصالهم وطيبة قلوبهم وخفة روحهم.

الأهم بين ذلك كله ممودهم طيلة سنوات الاحتلال ورغم كل ممارسته لسلخهم عن هرويتهم وإسلامهم وفلسطينيتهم إلا أنهم لا زالوا أصلب مما يمكن أن يتصوره أي من الناس ممن لم يلتق بهم وير روحهم واستعدادهم.

أخي محمد كان قد التقى ببعض من شبان الدلح أثناء زيارته لجامعة الخليل، فكما هي عادة النشاطاء في القوائم المختلفة، كان محمد يقوم مع زملائه بجولات على الجامعات الأخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة حيث يلتقون مع الناشطين من نفس تياراتهم وينصقون العمل والمواقف.

أثناء إحدى تلك الزيارات لجامعة الخليل دعاهم أحد الناشطين إلى أحد بيوت الطلاب لتناول طعام الغداء، هناك وجدوا عدداً من الشبان الذين أحسنوا استقبالهم وبصورة مميزة وجهزوا طعام الغداء ثم جلسوا يتفولونه معهم. حينها تعرف محمد أنهم من شبان الدلح (٤٨) من لم للفهم وكفر قاسم وغيرها وقد كان واضحاً أن هؤلاء الشبان يشطون بنفوس طيبة للغاية وبمحتوى من التدين عال جداً وأنهم يشعرون بالانتماء الجدي لهذا الدين ولهذا الشعب وأن سنوات عيشهم تحت الاحتلال لم تزدهم إلا تمسكاً بدينهم وبقضيتهم.

تخرج أخي محمد من كلية العلوم بامتياز، الأمر الذي مكّنه على الفور من أن يقبل في جامعة بيرزيت معيداً في قسم الكيمياء في كلية العلوم، وقد كانت أمي في انتظار تخرجه وبعودته للاستقرار في غزة، ولكنه مع تعينه في الجامعة أصبح من الواضح أنه سيواصل قضاء معظم وقته في الضفة الغربية، هذا في حد ذاته كان بالنسبة لأمي مشكلة باستمرار عذاب محمد في رام الله وكان حلاً لمشكلة فلا شك أنه بعودته وقد تخرج يحتاج لغرفة جديدة وليس في البيت متسع لذلك، ونحن ناقشنا موضوع مكانه في رام الله أكد أنه سيعيش السنة الأولى على الأقل مع نص الطلبة في شقة مشتركة معهم كما كان وقت دراسته.

في أحد الأيام بعد رباطنا الذي كان في المسجد الأقصى وبينما كنا في إحدى الجلسات التي جمعت بقبب العائلة ذكرت ذلك الحدث، أقلت الحديث عنه من بين أسفاني ولم أعد قادراً على التراجع أو التوقف، رغم نظرات إبراهيم الحادة على الفور بدأ محوود بمهاجمة إبراهيم ومحمد محسن كأعضاء في التيار الإسلامي، متفقاً عدم المشاركة في المقاومة المسلحة والاكتفاء بالعمل السيلسي والجماعيري، وأن هذا الوقت بضع قبائلكم في موضع الاتهام، حيث أنها تعطل طاقات كبيرة من الشباب عن الاشتغال في المقاومة بلحم الدين.

رد عليه محمد الذي يبدو أن شغله في العمل الطلابي قد جعله صاحب خبرة عالية في النقاش السياسي قائلاً: إن من يسمعك يظن أن مدافعكم لا تتوقف وعصيانكم ستجعل اليهود يهربون خلال ساعات، أنت تعرف أنه منذ سنوات لم يكن هناك شيء اسمه مقاومة مسلحة وكل ما يحدث هو محاولات ضعيفة تموت في مهدها ليس كذلك (يا باش مهندس).

حين ذهبنا في اليوم التالي لصلاة المغرب في المسجد، جلس الشباب في المسجد كعادتهم في الحلقة وجلس الشيخ أحمد يريد الحديث فاستأنفه محمد قائلاً: يا شيخ أحمد سمح لي فهناك سؤال أود أن تحيب عليه لأنه كثيراً ما يتردد ويطرح علينا في كل مناسبة، وهو أين دور الإسلاميين في العمل الوطني يعني المقاومة؟ لبتتم الشيخ أحمد وهو يتفرس في وجوه الحاضرين ويلتفت حوله قائلاً: نحن الآن في مرحلة تربية و(إعداد، وبدأ يشرح موضوع التربية وأهميتها في صناعة مستقبل الأمم ولضغوب التي تطمح لتحقيق أهداف سامية، ثم انتقل إلى الموضوع الذي كان ينوي التحدث فيه من قبل.

كلمنا (إعداد وتربية) أو (تربية وإعداد) ظلتا نترددان طيلة الوقت على مدار شهر وسنوات كلما حدث نقاش في بيتنا أو في بيت لم العبد بحضور ابنها عبد الحفيظ أو في الجامعة في أي نقاش يتم للتعرض فيه لموقف الإسلاميين من المقاومة المسلحة في الوقت الراهن، فإذا سأل أحد أفراد الاتجاه الوطني عن ذلك الدور أجابه مناظره من الإسلاميين نحن الآن في مرحلة تربية وإعداد، وكثيراً ما كان من يطرح هذا الجواب يستشهد برجل الدعوة الإسلامية الأول محمد رسول الله ﷺ بالعمل التربوي والدعوي على مدار سنوات طويلة قبل بدء الجهاد بالسيف.

في أحد الأيام عدنا للبيت متأخرين فوجدنا أمي في قلق كبير وعلمنا أن شرطياً قد أحضر مذكرة تبليغ لإبراهيم تطالب منه الذهاب صباح اليوم التالي إلى مقر المخابرات ونعذره من التأخير. إبراهيم لم يزعج ولم يبد عليه القلق أو الخوف وطمان أمي أن هذا الأمر روتيني جداً، وهناك المشرات من الشباب يتم طلبهم بهذه الصورة حيث يسألونهم عدة أسئلة ثم يتركونهم يمشون.

في اليوم التالي ذهب إبراهيم لتلك المقابلة حيث تم احتجازه في أحد الأكشاك هو وعدد من المطلوبين مثله ساعات طويلة حتى العصر، بعدها أخطوه إلى مكتب مسؤول المخابرات عن منطقتنا الذي كنيته 'أبو وديع' وبدأ يوجه له أسئلة عادية اجتماعية عن أهله وأقربيه ومسكنه ودراسته، وإبراهيم يجيب إجابات قصيرة ومقتضبة جداً، وأبو وديع يحاول أن يستخرجه للاستقلضة في الحديث، وإبراهيم ملتزم بسياسة الاقتضاب.

بعد وقت قصير من هذه الأسئلة بدأ يوجه أسئلة عن نشاطه للطلاب في الجامعة فلا يجد إلا إجابات بنعم أو لا أدري، استقر أبو وديع وصرخ هل تظن أننا لا نعرف نشاطاتك وعلاقاتك ولا نعرف أن رأسك مثل الحجر.

ظل إبراهيم صامناً فرد صراخ رجل المخابرات وقد بدأ يدفع إبراهيم بيده أو يصفعه صفعات خفيفة وإبراهيم لا يحرك ساكناً وقد احمر وجهه صرخ أبو وديع تربية وإعدا...تربية وإعدا لماذا التربية والإعدا؟ نظر إبراهيم قاتلاً: لا أدري عم تتحدث؟ ضحك أبو وديع: أعرف أنك مستقل ذلك ولا أتوقع منك غير ذلك، ولكن ليكن في علمك أننا نعرف لحكم تردون هذه الكلمات، وأنت قلتها في الجامعة مئات المرات في ردودك على أسئلة طلاب الكتلة الوطنية عن دوركم في العمل التخريبي ضد دولة إسرائيل، وليكن في علمك أننا نراقبكم، وأنا نعرف كل نفس تتقوه ولول ما تفكر في عمل شيء غير الحكي سنعرف كيف نضحكم في السجن.

مد يده ببطاقة الهوية منولاً لها إبراهيم قاتلاً: كل هذا الحقد الذي يملأ صدوركم مثل عيون البقل لا تحضرو معك حين أطلبك مرة ثانية وأتركه في البيت، تناول إبراهيم بطاقته وخرج من الغرفة وهو يبتسم ابتسامة لم يكن من السهل إخفاءها.

الجزء الثاني

الفصل السادس عشر

خالتي فتحية رزقت بنتاً أسموها "مفي" ورغم جمال وليدة وخفة دمها وظرافتها، إلا أنها لم تشغل خالتي مطلقاً عن ابنها عبد الرحيم الذي بدأ يدرج ويتكلم... ثم بدلوا يعدونه للذهاب للمدرسة مع بذلية للعام الدراسي الجديد. عبد الرحيم كان طفلاً أسمر مليحاً ولكنه كان حاد المزاج، إذا أغضبه أحدهم عيى وظل عابساً حتى إذا تمكن من تنفيس غضبه، يضرب ذلك الذي أغضبه، وهو متعلق بدرجة كبيرة بعمه عبد الرحمن الذي تزوج بعد إنهاء دراسته الجامعية وأنجب بنتاً أسموها "رغبة".

عمه عبد الرحمن يحبه حباً جماً، وكلما سئحت له الفرصة يأخذ بيده الصغيرة بعد أن تجهزه أمه للخروج مع عمه ويخرج به من الدار إما إلى الجبل أو إلى مشوار في القرية في مسانها الهادي بعيد للغروب، فيشتري له ما يحب من دكان قريب، ولطالما أخذه معه إلى المسجد حيث يصلي المغرب، وعبد الرحيم يقف إلى جوار عمه يقلده في صلاته، فإذا طل المسجود في صلاة نافلة رفع عبد الرحيم رأسه ليرى الوضع الذي عليه عمه، فإذا ما رآه ساجداً عاد إلى السجود. ثم يجلس معه في المسجد برفقة عدد من الشبان الذين يترددون على المسجد يناقشون قضية فقهية أو مسألة في التاريخ أو حدثاً في السيرة النبوية فيجلس عبد الرحيم متربعاً ويطرق برأسه قليلاً ثم يرفع نظره إلى المتحدثين ويضع رأسه بين يديه وقد أسندهما إلى ركبته.

ولطالما أخذه عمه معه إلى الغليل ليزور صاحبه وزميله جمالاً فيجلسون في الدار يتجاذبون أطراف الحديث حيث يأتي معهم أصحاب آخرون يتحدثون في قضايا دينية وميضية وغيرها، وأحياناً يخرجون إلى أحد المساجد في الغليل أو إلى أحد بيوت الأصدقاء لزيارتهم.

الوعي السياسي في الأراضي المحتلة تطور بصورة واضحة، خاصة في مراكز التجمع الشبابية وعلى وجه التحديد في الجامعات والمعاهد والمدارس الثانوية... كما أن التناقض بين القوى السياسية والفكر السياسي قد بدأ يتصاعد تدرجياً خاصة وأن كل قوة تحاول أن تحسم أكبر عدد من المواقع لصالحها... ففي الجامعات مثلاً يحاول كل تيار أن يحسم الطلاب لصالحه ليضمن فوزه في الانتخابات لاتحاد مجلس الطلبة.

لكناء عملية التفاوض هذه تحدث يوماً صدامات صغيرة ومحدودة يتم حلها بسرعة ويسر، ولكن أمام تناقص قوة التيار الإسلامي في كافة المواقع بدأت تنور حساسية شديدة لدى التيار الوطني وعلى رأسه حركة فتح. فالتيار الوطني الذي يمثل منظمة التحرير الفلسطينية بفصائلها المختلفة يعتبر نفسه أنه هو الامتداد للمنظمة التي هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وهذا ما اعتاد عليه الشعب الفلسطيني على مدار عشرات السنوات، وهذا ما اعترفت به جامعة الدول العربية والدول العربية وحتى الأمم المتحدة، وغيرها من المؤسسات الدولية.

هكذا جرت الأمور خلال عشرات السنوات وفجأة يبرز التيار الإسلامي في الأرض المحتلة، ويتنامى بصورة كبيرة ويصبح يتنافس على العديد من المواقع مقابل ممثلي فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، ويفوز في العديد منها أو يحصل على نسب جيدة في مواقع أخرى الأمر مقلق للغاية وما يزيد القلق أمران آخران، فهذا التجمع لم يحمل على عاتقه أي مسؤولية عملية في مسيرة الكفاح المسلح ضد الاحتلال، والآخر أنه لا يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية على أنها الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني، صحيح أن قائدته وزعماءه لا يصرجون بذلك ولكنهم في نفس الوقت لا يظنون احتراقهم الصريح بهذه الحقيقة، وإن سئلوا عن ذلك أجابوا إجابات دبلوماسية لا لا ولا نعم.

مع تنامي قوة هذا التيار على كافة مناطق الأراضي المحتلة خاصة في غزة، وتعدداً في الجامعة الإسلامية التي سيطر عليها للتيار الإسلامي شبه سيطرة كاملة على الطلاب من خلال الفوز في انتخابات مجلس الطلاب بنسبة عالية جداً، وعلى هيئة العاملين بفوز مرشحيه على مرشحي التوجه الوطني، وعلى الطلابيات بفوز مرشحاته بهيئة الطلابيات على مرشحات التيار الوطني.

مع هذا للتنامي أصبح الأمر مقلقاً فبدأت محاولات أكثر جدية لمعادلة إعادة التوازن، ويبدو أن التعليمات قد جاءت من قيادات الخارج للعمل الجاد لحسم الأمور فبدأت كل الدوائر بالعمل الأمر الذي أحدث احتكاكات حادة في العديد من الأماكن، والتي وصلت أكثر من مرة إلى صدامات تبدأ في الجامعات ثم تنتقل إلى شوارع وأزقة المناطق والمخيمات.. حيث تبدأ عمليات الاعتداء من أحد الأطراف على أعضاء في الطرف الآخر ثم يأتي رد هذا الطرف على الأول وهكذا في سلسلة من الاعتداءات التي تؤدي إلى لضرار جسيمة ويتقضي العلاج في كثير من الحالات.

في هذه الأجواء كان الجميع يتحزبون لجماعاتهم وتنظيماتهم، كل واحد يتحزب لجماعته ولو بالقول والدفاع عن مواقفها، الأمر الذي كان ينعكس فوراً على دارنا، قلبي محمود فتحلوي، وإخواني حسن ومحمد وابن عمي إبراهيم من التيار الإسلامي وجارنا ونسيينا (أخو امرأة حسن) من الجبهة الشعبية، قور تفجر أي صراعات أو صدامات من هذا النوع ينعكس ذلك على الدار والعلاقات فيها، حيث يحدث النقاش ويتحول إلى صراخ أنتم فعلتم، لا أنتم الذين فعلتم... من أنتم حتى تفعلوا؟ ومن تظنون أنفسكم أنتم؟ لمي تقف محاولة الإصلاح والتوفيق لو على أقل حد ألا تتطور الأمور إلى ضرب بالأيدي، وأنا لقف معها في العادة، زوجة محمود تقف معه، وزوجة حسن تقف معه... وتنتهي الأمور بأن ينفض الجمع كل واحد إلى غرفته محاولاً تجنب الآخر بصورة مقصودة وواضحة مظهراً زعله وغضبه من الآخر.

لوجود إبراهيم في الجامعة ودوره القيادي في الكتلة الإسلامية فقد كان يكن لها احتراماً غير عادي قد يصل إلى شيء من القداسة، ولكني لوجودي في الجامعة وقربي منه فقد كنت ألاحظ ذلك بصورة واضحة وقد كنت أخشى أن يعتدي عليه البعض فكانت أحاول أن أكون قريباً منه ما استطعت، وما سمحت لي ظروف المحاضرات وما سمحت لمي حركته وظهوره فقد كان يفتني أحياناً، وقد كان يجلس لو يقف أحياناً مع نشطاء الكتلة، فلا أقترب منهم حيث أقدر أنهم يتحدثون في أمور خاصة بهم، ولا بد أنهم لا يحبون لطلاعي عليها.

ويبدو أن المعلومات عن دور إبراهيم كانت تصل عن طريق نشطاء فتح من الطلبة إلى أخي محمود الذي يعتبرونه أحد قياداتهم فكانت أرى على وجه محمود الفيط والعنق على إبراهيم وهو لا يستطيع الإقتراب منه، أو حتى الحديث معه ولو بكلمة نعمة لو تسبب في زعله فهذا خط أحمر عند لمي لأن زعل إبراهيم من أحناء يعني قيام الساعة، هكذا عودتنا منذ أن تركته أمه.

أحياناً كان محمود يحاول أن يتحاور مع إبراهيم ضابطاً أعصابه محاولاً ضبطها كيلا تنفث فيحدث الصراع، فذهب لمي لتصب على رأسه جام غضبها فيبدأ يحاوره أن الأمور لا تجري بهذه الصورة وأن ما تقوله خطأ وما ثابته بما يوحي أنه يُحمل إبراهيم وجماعته مسؤولية ما يحدث من صدامات.

يبتسم إبراهيم ويقول: يا رجل أنت تحول أن تلقى بالمسؤولية علينا... نحن لم نبدأ
الصدام، وأنتم غير مستعدين للاعتراف بوجودنا كقوة شعبية وكتيار سياسي واجتماعي
يختلف معكم، فيرد محمود: أنتم من لا تعترفون بمنظمة التحرير الفلسطينية ولا تحصلون مسئوليتكم في
الكفاح المسلح وتعتمدون على ممثلي الحركة الوطنية والاحتلال بتفريج عيكم.

فينظر إليه إبراهيم عتياً ويشأمل: هل هذا اتهام لنا بالعمالة بأننا ركبنا
الاحتلال؟ فيحول محمود التبرير لنا لا اتهامك يا إبراهيم لنا لا اتهامك، لكن ممكن
مسؤولوكم لهم أهداف شخصية، فيجيب إبراهيم: يا رجل نحن لم نبدأ الصدام في أي مرة،
نحن في كل مرة نلجأ عن أنفسنا، وأصل المشكلة هو عدم استعدادكم للاعتراف بوجودنا
كقوة منافسة وكأن طابو العمل للفلسطيني والسيطرة على المؤسسات والجمعيات والهيئات
مسجلة على أسمائكم وحكمكم، يجب أن تعترفوا أن هناك قوة منافسة تختلف معكم في
الكثير من وجهات نظركم ومواقفكم، حينها تتدخل أسي التي تكون قد انتهت للمديث
وبدأت تراقب تطوراته دون أن يشعر مطالبة للكف عن هذا الحديث وعدم نقل المشاكل
في الشؤون إلى خلافات داخل الدار.

في إحدى المرات أرسل الحاكم العسكري منكرة بطلب الحضور لإبراهيم
ولعدد آخر من النشطاء في الاتجاهات المختلفة لمقره، حين ذهب إبراهيم وجد جمعا من
حوالي عشرة من النشطاء، وبدأ الحاكم يطلبهم إلى مكتبه ولحداً ثلث الآخر، حين طلب
إبراهيم بدأ يتحدث معه وكان بحمله مسئولية ما يحدث، اعترض إبراهيم على الأسلوب
موضحاً أنه لا علاقة له بما يجري من صدامات، فانتقل الحاكم إلى أسلوب المزاولة،
كيف أنتم كنتم تحت الاحتلال تريدون الاستقلال، تتحاربون وتقاتلون أنتم شعب لا
يستحق الحياة وأنتم وأنتم...

وجد إبراهيم نفسه في مأزق إن لم يجب فإن ذلك كصفعة حادة، وإن أجاب فكله
يؤكد ما يجري أو أنه جزء منه، فكر قليلاً ثم قال: بداية أريد أن يؤكد ألا علاقة لي بكل
ما يجري ولكني أعتقد أنك تعرف أن كل الشعوب التي تعيش تحت الاحتلال لو انسي
تكون لديها سيادة ومؤسسات كما حل شعبنا، يحدث عندها خلاقات وصدامات وقد حدث
ذلك عنكم مراراً وتكراراً... قديماً وحديثاً، وأخرها ممارسات الهاجاة ضد الإتسل.

بهت الحاكم، ولم يستطع أن يخفي ذلك وتساءل: من أين عرفت هذا؟ أجاب إبراهيم: هذا مكتوب في الكتب، حاول الحاكم أن يعيد الكرة إلى إبراهيم قائلاً: لنا افتخر أن ولداً مثلك يعتبر الشعب اليهودي قدوة ومثلاً له، رد إبراهيم: أنا لم أذكر ذلك كقدوة ومثل، وإنما كنموذج من التاريخ وأنا لأؤكد لك مرة أخرى ألا علاقة لي بما يجري. في كل يوم كان إبراهيم يزداد في نظري سموا واحتراماً، فهو الذي تربي يتيماً من أبيه الذي استشهد وهو في الرابعة من عمره، ثم تركته أمه وهو لا زال مستغراً، وتربي بيننا، وقد أصبح رجلاً عسائماً، وقائداً حقيقياً رغم صغر سنه، وصعوبة الظروف تحت الاحتلال.

كنت أنظر إليه وهو يتحرك في ساحة الجامعة يتحدث مع هذا ويوجه ذلك، ويصدر أوامره وتعليماته لهؤلاء، ويُنَظَرُ الأمور كما يريد، ثم تجده مفكراً ومناظراً جيداً، وفوق كل ذلك فهو في حياته كالسكر في خدرها سرعان ما يتفك الدم إلى وجهه فحمر ويكاد ينفجر من وجنتيه.

كان الاحتلال يمنع البناء في الجامعة في محاولة لحصرها والتضييق عليها، ولم يكن يُد من فرض سياسة الأمر الواقع، كان عدد طلاب الجامعة وطلبتها قد تجاوز الألف وخمسمائة وزاد عدد الكادر الأكاديمي والإداري فيها بصورة لم نعمل لدى أي من طلابها أو مراقبيها شكاً بأنها قد تجاوزت مرحلة الخطر، وبدأت تخطو في طريق الجامعة الرسمية.

وكان الأمر قد تحول إلى تحدٍ ضد الاحتلال الذي يحاربنا في كل شيء حتى في التعليم، لذلك رأينا ونحن ننشئ الخيام وعرائش سعف النخيل لتدرس فيها، وإبراهيم يقف على رؤوسنا ويشرف على العمل بكل جد واهتمام، ويزرع في الطلاب روح الإصرار والتحدى فيأتي الواحد منا للجامعة وهو يشعر أنها جزء من واجبه الوطني أولاً قبل همه الدراسي. بدأ بتطبيع اسم (جامعة الخيام) على الجامعة الإسلامية، وكان هذا موضع فخرا واعتزازنا ولم يكن بوسع الاحتلال الوقوف أمام إرادة شعب للعلم والتعليم، فقد بدأ يستلم بالأمر الواقع، وكان علينا التقدم للأمام.

فجأة ودون سابق إنذار تدخل الجامعة عدة شاحنات ثقف وتبدأ بتفريغ كميات كبيرة من مواد البناء، وإذا إبراهيم يتحول من طالب ونشط إلى مقاول حيث انهال هو وعدد من الطلاب المحترمين والمئات منا بمساعدتهم في بناء قاعات دراسية بالطوب وسقها بالإسبست.

هكذا فرض الأمر الواقع على الاحتلال فإذا بعدة قاعات قد جهزت للدراسة، وبعد فترة جهزت عدة قاعات أخرى ثم دفعة ثالثة وبات واضحاً أننا قد أصبحنا في غنى عن معرشات سقف النخيل والخيام، كل ذلك كان يزيد إبراهيم في عيني وفي قلبي عظمة وسمواً وحياً.

كان إبراهيم يدرس ومتفوقاً في دراسته، ويزول نشاطه الطلابي ويحصل بين زملائه موقفاً مرموقاً كقيادي في جماعته، وفوق كل ذلك كان يزول أعمال البناء التي يكتسب من ورائها المال الذي يكتفيه للمصروف، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إنه في أحد الأيام ونحن جلوس في البيت في إحدى الأمسيات توجه إلى أمي قائلاً: أريد أن أقترح لأمي ولا أريد أن تزعلي مني، فقلت: أنت تعرف أنني لا أزعج منك وأنا أعرف أنك لا تقول ما يعيب زعلي، فقال: ولكن يبدو أنني هذه المرة الأولى أفعل ذلك فأرجو أن تصامحيني، نظرت إليه أمي بدهشة واستغربت وتساءلت: ما الأمر يا إبراهيم؟

فأجاب وهو يمد يده في جيبه ويخرج رزمة من النقود: أريد أن أشارك في مصروف الدار، فأنا الآن رجل وأكسب الكثير من المال ولا بد أن أشارك في المصروف ويكفي لكم... صرخت أمي مقاطعة: إبراهيم ماذا جرى لك؟ هل جئت؟ فتعتم إبراهيم: يا مرة عمي أنا الآن... صرخت أمي مرة أخرى: لا أنت الآن ولا غيره... دعك من هذا الكلام الفارغ، وإذا كان لديك نقود فائضة فهاتها لأخبرها لك فقد تلزمك غداً لو بعد غد، وعلى كل حال ستلزمنا حين نزوجك بعد تخرجك من الجامعة، ثم بدلت تحدته بحتو: كلما زاد معك قرش هاته لأخبره لك سوف يلزمك، سوف يلزمك يا إبراهيم.

ويبدو أن الرفض لم يرقه فكانت أراء كلما مرت عدة أيام يعود للبيت وقد حصل ظرفاً أو كيمناً معلوماً بالمواد الغذائية أو الفولكه أو الخضراوات أو الحلويات، يحضرها للبيت كنوع من المشاركة، فتتظر إليه أمي نظرة إكبار واحترام وهي تتعتم: أه ماذا فعل معك يا إبراهيم، الله يرضي عليك.

للمقاومة المسلحة تقلصت إلى حد بعيد، وشاع المثل (كل مونة يهودي) يحدث كذا، للتخليل على ندرة حدوث ذلك الشيء أو انعدامه، ليس فقط الموت بين الأعداء تقلص، بل أي عمل مقاوم، تقلصت مظاهر الاستفغار العسكري، تقلص عدد الدوريات التي تجوب الشوارع، نادراً جداً ما كان يفرض حظر التجول، حظر التجول الليلي رُفع، سمح للناس بالتواجد على شاطئ البحر ليلاً في العديد من المناطق.

بدأت حافلات من اليهود تأتي إلى كافة المناطق مثلاً إلى قلب مدينة غزة لزام السبب للصحة وللتسوق حيث الأسعار رخيصة، مع ما في ذلك من تأثير سلبي كبير على مستوى البلد المحافظ حين تأتي عشرات الحافلات التي تقل الفتيات والنساء شبه العاريات. ضباط المخابرات (مسئولو المناطق) بدلوا بتجولون بسياراتهم (السيوفارو) في الشوارع بل ويوقف أحدهم السيارة في أي ساعة من ليل أو نهار وفي أي مكان وينادي على أحد العامة ويطلب بطاقة هويته الشخصية ويبدأ باستجوابه أو الحديث معه دون أي حراسة من أحد، دون خشية أو تحصب، وأحياناً إذا رأى ما يريه في أحد الأزقة نزل جرياً في تلك الأزقة وراء من يريد، هكذا بدلاً من تلك القوت الضخمة التي ما كانت تستطيع لفتح المخيم وصل الحال إلى هذا الوضع، وقد تجده يصرخ على أحد الشباب الذين استوقفهم وقد يصغعه أو يركله ثم يستقل سيارته دون أن يعيد له بطاقة هويته طلباً منه الحاق به إلى مكتبه، والويل لهذا الشاب إن لم يفعل.

حركة العمال للداخل أصبحت بدون حدود أو ضوابط، ونسج العديد من هؤلاء العمال والعرفيين علاقات صداقة مع أصحاب العمل اليهودي ولم يظل ذلك محصوراً في علاقات العمل فقط بل تعدى ذلك للعلاقات الاجتماعية، فإذا ما طلب هذا العامل إجازة لمدة أسبوع لأنه يريد الزواج استفسر منه (معلمه) عن موعد ذلك وأخبره أنه سيأتي مع زوجته للتهنئة وإحضار الهدية. فكثيراً ما تجد سيارة إسرائيلية تحمل إشارة ترخيص صفراء اللون، تدخل المخيم تتوقف وتسال سائقها بالعبرية أو بالعربية المكسرة عن منزل العريس فلان أو العريس علان فيدلوته عليها، فيوقف سيارته أمام الباب وينزل هو وزوجته نصف العارية بمعاييرنا في المخيم ويحملون الهدايا، ويطلقون الناب، ويخطون للبيت ساعة أو أكثر أو أقل ثم ينصرفون دون أن يعترض عليهم أحد.

كانت مخابرات الاحتلال قد بدأت تتدخل في المخيم شيئاً فشيئاً بشكل منهج ومدرس وما من مجابهة لذلك أو معترض يرسل ضابط المخابرات المسئول عن المنطقة عشرات مذكرات الاستدعاء (تتليغ) للشبان والرجال فيذهبون لمكتبه، يجلسون في قفصية ساعات طويلة، ثم يبدأ باستدعائهم واحداً واحداً، يضرب، يهدد، يتوعد، يسلم، يعزي ويبدل كل جهده في محاولة تجنب من يستطيع منهم، وينجح أحياناً في اقتصاص بعض ضرائب النفوس، كل من يريد السفر للخارج للدراسة، لزيارة أقاربه، للعمل، كل من يريد ترخيصاً للبناء، لفتح ورشة، أو مشجر كل من يريد ومن لا يريد لا بد أن يمر من مكتب ضابط المخابرات حيث يبدأ المساومة ويعرض خدماته المسهلة مقابل خدمات بسيطة جداً من هذا المواطن.

فلذا وجد استعداداً للتعاون المبني فهم أنه يمكنه تطوير ذلك إلى تعاون وحيثية، الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى أن عدداً من العملاء أصبح مشهوراً ومعروفاً ويعمل المسدس على جنبه ويتردد به في الشوارع، ويدخل إلى مكتب المخابرات وفقاً يشاء، ويعرّض على الناس ويحتدي عليهم. وقد وصل الأمر بأن البعض حين تكون له حاجة لتصريح أو ترخيص فيرفضه ضابط المخابرات يمكن أن يتوجه إلى أحد هؤلاء العملاء المشهورين طالباً وساطته للحصول على حاجته، فيطلب هذا عمولة على ذلك. أحد أبناء الجبرلين كان قد خرج للدراسة في تركيا، أنهى ست سنوات في كلية الطب وبقيت سنة الامتياز، منع من السفر، تردد على ضابط المخابرات مراراً وهذا يرفض في كل مرة إعطاء تصريح السفر، حتى خفيت قدامه.

فقصحه أحد الناصحين أن يذهب إلى أحد العملاء طالباً مساعدته، فذهب إليه فطلب ذلك العميل عمولة مقدارها خمسمائة دينار أردني، مبلغ كبير جداً، وحين حاوله الرجل في أن المبلغ كبير أجابه بتهكم، أنا عميل لليهود لو استطعتم قسقتلوني لذا يجب أن أضمن دماءكم قبل ذلك.

بعضهم افتتح مكتباً لإصدار التصاريح وما شابه من المعاملات التي لا تتم إلا من خلال إذن المخابرات وأصبح يجني من وراء ذلك عمولات وينمسي الثروات ويركب السيارات الفاخرة بات واضحاً أن مخابرات الاحتلال ومن خلال عملائها قد بدأت تروج تجارة واستخدام الحشيش والمخدرات والخمر، هي تعتبر ذلك وسيلة لتدمير الشعب وقتل أي روح للمقاومة فيه وعملها يعتبرون ذلك وسيلة للكسب السريع وظهورهم محمية، وبدأ العملاء بروجون الفساد والرشوة من خلال نشر الصور والمجلات الخليعة وأشرطة الفيديو الجنسية على الحسبة والفتيات.

المطلعون من الناشطين من التنظيمات المختلفة كانوا يرون تلك الصور الكثرة المظلمة، وليس فقط أنهم لا يستطيعون أن يحركوا ساكناً إزاء الظاهرة بل إنهم أصبحوا جميعاً تحت الرقابة الدائمة من هؤلاء العملاء، كون أخي محمود وابن عمي إبراهيم ناشطين معروفين فقد لازم العميل رقابة باب المنزل الرئيسي فلم يكن هؤلاء يعرفون أن لبيتنا باباً آخر، باب بيت عمي سابقاً، فكان محمود وإبراهيم يفتادون الدار من الباب الخلفي يهتدء، ولولئك المشبهون يظنون أنهما لا زالا في الدار.

جميع الشباب في المخيم كانوا يعرفون الكثير من قصص النساء وأن تلك المرأة أو الفتاة قد أسقطت في العمالة وصارت تشغل مع المخابرات كدعارة لإسقاط الشباب في الجنس أولاً ومن ثم يتم تصويرها في أوضاع مخزية وفاضحة، وتبدأ المخابرات في محاولة إبتزازهم وتهديدهم للعمل على تجديدهم للتعامل معها.

اشتهرت بعض القصص عن محلات كوافير أو محلات استوديوهات تصوير أو غير ذلك ممن يمتلكها العملاء أنها كانت كأركان للإسقاط الأخلاقي كمنصة للإسقاط الأمني، افترضت هذه القصص تعديداً بعد أكثر من حادثة لتفجير القنات حيث تكتب قوافله متهن رسالة لأهلها أنها خدعت حين ذهبت لصالون الكوافير القلاني وضجوا لها المنوم في كلس الليموناة وحين استيقظت وجدت أن العملاء قد هنكوا عرضها وصورها في أوضاع فاضحة وهددوها بوجوب التعامل مع المخابرات وإلا فضعوها فأثرت الموت والانتحار.

عُرِفت واشتهرت العديد من هذه القصص بأسماء من انتحرن وأسماء المحلات وأسماء من مارس فيها تلك الممارسات المخزية. بلت واضحا أن مخابرات الاحتلال باستخدام عملاتها تمارس عملاً مدهجاً لتشر الفساد المنظم لتكمير الشعب وإنهاء كل أمل لديه في مستقبل للتحرر أو المقلومة، وفي كل يوم تتطور أساليب عملهم في هذا الميدان، حتى أنك تجد أحد المكاتب التابعة لأحد العملاء المشهورين يُعلن عن التمسجيل لرحلة سياحية إلى داخل الخط الأخضر لبعض المناطق السياحية المشهورة مثل الفسحة أو بنباس أو عين جدي وحين تخرج للرحلة وفيها عشرات الشبان الأغراب تؤخذ معهم عدة داعمات معروفات بعمالتهن مع مخابرات الاحتلال حيث تجري أثناء الرحلة، وفي تلك الأماكن السياحية محاولات توريط أولئك الشبان في مشاهد وحالات يتم تصويرها وبذلك يتم تهديدهم بالفضيحة أو إخبار عائلاتهم وأهلهم بما كان إذا لم يوافقوا على التعاون مع المخابرات.

لقد شبلن المخيم كان قد خرج في إحدى هذه الرحلات وتورط أثناءها حيث التقطوا له صوراً في أوضاع تعيسة، وأن ضابط المخابرات المسئول عن المخيم طلبه إلى مكتبه وعرض عليه التعامل معه فرفض، فأظهر له صورته تلك وهدده بنشرها في المخيم وفضحه وتشويه صورته، وقد أصر الشاب على الرفض، فقال له "أبو وديع": ساممك أسبوعاً للتفكير، وبعد أسبوع سأتطلبك مرة أخرى وإذا لم توافق على مساعدتي فسأفترى كيف أقضضك؟

للشباب خرج مذخوراً وهو يشعر أنه وقع في مصيدة، فإن رفض التعامل فضع على مستوى المخيم وساعت صورتته، وإن وافق على التعامل فقد ازداد تورطاً واضطر لخيانة أهله ووطنه. وأخيراً لجأ إلى أحد أصدقائه يسأله عن المخرج؟ صاحبه وجد نفسه في حيرة حيث لا خبرة له بمثل هذه الأمور، فتوجه هو وذلك الشاب لمطور إلى أخى محمود صسى أن يفيدهم وشرحوا له الأمر.

محمود علف ذلك الشاب كيف يخرج في مثل هذه المرحلات؟! وكيف يقترب من العملاء أصلاً؟ وكيف يتورط في ذلك الأمر؟! وأفهمه في النهاية أن مشكلته محلولة أصلاً فما دام قد تجرأ وذكر ذلك لصديقه، وكان لديه الموافقة على المجيء إليه فقد حلت الحدة، حيث أن المخبرات في العادة لا تنشر مثل هذه الصور، وإنما تهدد الشبلن الأغرار بها، وخشيتهم من علم الناس بذلك هي التي قد تجعلهم يوافقون على التعامل وأنه إن طلب فعلاً لضابط المخبرات مرة أخرى فخطيه أن يوضح له أنه لا يخاف لفضيحة وبإمكانه أن ينشر للصور ولا مانع لديه هو أن يأخذ منه ألف نسخة ليوزعها هو بنفسه في المخيم.

استدعي الشاب بعد أيام وفعل مثلما أفهمه محمود، فاستشاط أبو وبيع غضباً وبدأ يهدد ويتوعد ولكنه في النهاية طرده من المكتب وقال له إنه سيمهله فترة أخرى، للتفكير وإن لم يوافق فسيجعل حياته همّاً وغمّاً، في إهدى الأمسيات وبينما كان أبو وبيع يتجول بسيارته في شوارع المخيم كان ذلك الشاب في طريقه لشراء بعض الحاجيات فرآه أبو وبيع فتوقف لكي ينادي عليه فالتفت لذلك الشاب فالتفت وجرى هارباً في أحد الأزقة، فزّل أبو وبيع جرياً وراءه في الأزقة.

كثيراً ما كان أخى محمود وزملاؤه يتحدثون في جلساتهم ولقاءاتهم حول هذه الموضوعات حول أنشطة المخبرات وعملاتها، ويتناقشون في كيفية مواجهتها فلا يجدون حيلة ويبدو أن الوضع قد وصل إلى حد صدق المثل (التمسح بالخرق على الراقع).

مصيبتنا كانت أن ابن عمي حسن قد عاد مرة أخرى للظهور في المخيم، فقد كانت صاحبتة أو عشيقته لليهودية قد طردته من شقتها بعد أن انهارت شركته مع أبيها وأعطنا إفلامهما، فهم على وجهه ثم قرر العودة إلى المخيم، حين جاء إلى البيت كان من المؤكد أنه لا مكان له بيننا وأنه قد وصل نقطة للعودة، فقد أصبح أكثر شبهاً باليهود منه بنا، ولا أحد منا بإمكانه أن يطبق رؤيته.

ورغم ذلك تبني محمود فكرة أن نعطيهِ فرصة ونحاول إصلاحه وإعادته إلى وضعه الطبيعي، أفرغنا له غرفة الضيوف وبدلنا جميعاً نحاول أن نشعره بدفع العودة للعائلة، ولكنه لم يكن قادراً على الشعور لا بدفع ولا بحلوة، وفي كل يوم نحاول التنازل على أحد الجيران أو الاعتداء على أعراضهم، فتأتي الشكاوي، فبدأ محمود بالنصح والإرشاد دون جدوى حتى فاض الأمر وطفح الكيل، ويات واضحاً لنا نعالج في حالة مستحيلة فقررنا بالإجماع طرده من الدار وكان أحد المتطرفين في ذلك إبراهيم.

حين عاد حسن من إحدى طيشاته وقد كان في حالة معاكلة، بدأ إبراهيم الحديث معه بحدة وعصبية وأخبره بأنه لا محل له عندنا وعليه الانصراف حيث يشاء، ودخلنا جميعاً لنشارك في ذلك الحديث حيث أوضحنا له ذلك بصورة قاطعة، تناول بعض أئوته خاصة جهاز تلفازه وانصرف وهو يتمتم بالثلاثين معظمها باللغة العبرية وبعضها بالعربية المعكوسة، وشاب عنا وقد تصورنا أننا قد ارتحنا منه ومما جلبه لنا من هرج مع الجيران.

بعد أيام جاءت الأخبار أنه يسكن في بيت أحد المشبوهات التي فاحت رائحتها حتى لركمت الأكوف، ثم بدلت الأخبار فتوالى أنه يصل في ترويق المخدرات والعشيش والصور والمجلات الفاحشة، ويات واضحاً لنا أنه على علاقة لكدة بالمعابر، وقد تأكدنا من ذلك حين جاء بعض أصدقاء محمد وأخبروه أن حسن يذهب إلى مكتب لبي وبيع بصورة دورية، ويدخل ويخرج من هناك بدون تشديد أو رقابة أو مواع.

صورتنا وسمعتنا في المخيم كانت على أفضل ما يحبب كل فلسطيني طيلة فترة حياتنا بل إن وضع محمود عند فتح، ووضع إبراهيم عند التيار الإسلامي جعلنا كأننا بؤرة للعمل الوطني والاستقامة الدينية وكما كانت أمي تقول: (الحمد لله كل المخيم بحلف بجهلكم وبأنبيكم) وفجأة بطل علينا حسن هذا ليثبوش كل الصورة، أكثر المتضررين من ذلك كان أخي حسن فكثيراً ما سمع للناس عن الفاسد الكبير والمشبوه "حسن الصالح"، فإذا ما ذكر أخي حسن لسمعه "حسن الصالح" لرتجف السامع وفتح عينيه مستغرباً مستغرباً، وعلى حسن في كل مرة أن يفسر ويوضح القصة من بدايتها فأحياناً يصدق السامعون وأحياناً يهزون رؤوسهم ويعيونهم تخبر بأنهم غير مصدقين.

أصبح حسن والحديث عن حسن ومشاكل حسن شغلنا الشاغل، ورغم معرفة جميع أهل الحارة والمخيم لنا بدانا نشعر أن علينا أن نسير ونحن مطأطئو الرؤوس من هذه الوصمة التي حلت بنا، فكيف يمكن أن نتفك عنا هذه اللعنة، كان علينا أن نتصرف، وبدا عجزنا واضحا جاعني إبراهيم ذلك مرة قتلنا: يا أحمد أريد أن أحدثك في أمر، وأريد منك عهداً ألا تخبر أحداً بذلك، قلت: لك العهد، قال: يجب أن نقتل حسناً!! انتفضت مما سمع، ونظرت إليه مستغرباً دون أن أتيس بيئت شفة، فأعادها: نعم يجب أن نقتله، وإما أن نفعل ذلك علناً، نسمح ما حل بنا من عار ولنا مساعد لنفعل للثمن بالسجن المؤبد، وإما أن نفعله سراً والمهم أن نخفيه عن وجه الأرض.

كنت أحرص ما يعاني إبراهيم، وما نعاني جميعاً من وراء حسن وأفعاله وسيرته، لكنني لم أكن مستعداً للذهاب إلى هذا العهد حتى ولو في التفكير فقط، ولكن لا بد من حل للأمر فاقترحت على إبراهيم أن نذهب أنا وحسن ونكمن له ونكسر رجله حتى يظل ملقى في تلك الدار ويكف عن أذاه للناس، وافهمته أنني غير مستعد للذهاب أبعد من ذلك... فوافق.

توجهنا لحسن بالأمر، فوافق على الفور، واستعد أن يجهز هو ثلاث مواسير حديدية وثلاثة أقنعة، وبالفعل فقد تربصنا به وكما له، وفي إحدى الليالي وهو عائد إلى بيت الشوم ثملاً مغموراً لتقضيضنا عليه، ضربه إبراهيم على رأسه فخر صريعاً، همت وأنا لمسك إبراهيم لا تضربه على رأسه على رجله فقط، ولتهلنا على رجله وبديه ضرباً دون وعي، ثم انتقلنا منسرفين من المكان، وقد أخذ حسن المواسير والأقنعة لإخفائها.

مع صباح اليوم التالي كان الخبر قد شاع أن مجموعة حاولت قتل حسن، وأنه لم يمت وأنه مصاب بإصابات بالغة وقد كسرت قعماه وإحدى ذراعيه ولديه كسر في الجمجمة، أخذوه للمستشفى ونحن لم نبد أي اهتمام وكان الجميع ينظرون إلينا وعيونهم تقول: لقد فعلوها، الله يسلم أيديكم.

بعد أيام جاءت سيارة الشرطة إلى البيت وأخذونا، كل من في البيت من الشجاب وحققوا معنا حول الاتهام بمحاولة قتل حسن، أكرنا ذلك، فكيف نقتل ابن عمنا، فهو من لحمنا ودمنا ولهم لا يتحول لماء، احتجزونا حوالي أسبوعين ثم أطلقوا سراحنا بعد أن لم يثبت ضدنا أي شيء، ورغم مرور الأسبوعين فقد ظل حسن ملفوفاً بالجبس ملقى في المستشفى ما يزيد على شهرين، بعدها خرج وظلّت ترافقه في سيره عرجة تميزه حتى في الظلام، ولكنه اشترى سيارة بيجو (٥٠٤) بيضاء اللون وظل يتحرك بها، ولكننا لم نعد نسمع عن فضائحه في المخيم.

عام ١٩٨٥ حدثت صفقة تبادل الأسرى بين إسرائيل ومنظمة للقيادة العامة أحمد جبريل حيث تحرر خلالها عدد كبير من الأسرى الفلسطينيين ممن قضوا في السجون سنوات طويلة معظمهم كانوا من فتح والجبهة الشعبية، وبعضهم كان من التيار الإسلامي في السجون الذين كانوا أصلاً من تنظيم قوات التحرير الشعبية، تحررهم جعل المناطق المحتلة تدخل في عرس وطني على امتداد الوطن، فأينما ذهبت تجد الاحتفالات والميادين...

من ناحية أخرى فقد شكل ذلك دفعة واضحة بمستوى الوعي الوطني والأمني في الشارع الفلسطيني، بخروج هذه الدفعة من أصحاب الخبرة والتجربة وكان له أثر واضح في زعزاع الجدل السياسي في القضايا المختلفة، حين يتواجد أولئك المحررون في أحد المجالس وبيتنا والعمل، ولكن دوريات الناطرين للبيت من المشبوهين لم تتوقف بل تزايدت حدتها وتكثفت وأصبحت على مدار اليوم والليلة.

أخي الشيخ محمد تعرف على إحدى طالباته المتكبرات، وبدأ واضحاً أنه يميل إليها، وأن قلبه قد بدأ يهفر نحوها، وقد بانفته أحياناً نظرات يملؤها الحياء، وفيها رسالة واضحة على ما يقابله من شعور... عاد إلى غزة يوم الخميس ومكث عندنا يوم الجمعة حيث أخبر أمي عن تلك الفتاة، وطلب إنفاها في أن يخطو الخطوات الأولى فأذنت له بعد تردد، حيث أنها مقتنعة بأنها يجب أن تراها أولاً فهي ترى في محمداً مثل القطة العمياء، وقد لا تكون الفتاة جميلة بالقدر الكافي.

عاد محمد لبيروت، طلب من تلك الفتاة أن تسمح له بالحديث معها دقيقتين في أمر خاص، وهو يكاد ينفجر حياءً، فسألها هل يستطيع أن يتقدم لأهلها لخطبتها، فدخل قدم إلى وجنتها فزادها جمالاً وهزت رأسها إيجاباً، فطلب منها عنوان أهلها، فأخبرته.

عاد في الجمعة التالية لأخذ الوفد العائلي فذهبت معه أمي وأخوأي محمود وحسن وخلقتي وأختاي فاطمة وتهاني إلى بيت تلك الفتاة، أعجبت أمي بالتأكد، وظلت لاحقاً تتفكه بالأمر (والله يا شيخ محمد طول الوقت بحسبك زي قبة العمياء، طلعت محسوبة) وافق أهل الفتاة وأعلنت الخطوبة، وتفقوا على تأجيل (كتابة الكتاب) عند القرن والزواج حتى تخرجها بعد سنة ونصف وكان ذلك مناسباً لمحمد وأنا.

الفصل السابع عشر

جمال وعدد من إخوانه من مدينة الخليل يركبون سياراتهم التي تنطلق بهم إلى صوريّف لزيارة صديقهم عبد الرحمن... يطرقون الباب فيخرج عبد الرحيم جارباً لدى الباب فيجد أصدقاء عمه وأصدقاء الكبار الذين يعرف غالبيتهم، فطالما زارهم برفقة عمه منذ طفولته... يبتسم مرحباً، أهلاً وسهلاً، وبتفت ادخل الدار صارخاً: يا عمي لقد جاء الشباب لزيارتك، ثم يلتفت إليهم: تفضلوا... تفضلوا ويفتح لهم الطريق إلى غرفة الضيوف، بينما عمه عبد الرحمن يأتي مسرعاً مرحباً، يجلسون يتحدثون وعبد الرحيم يعتبر نفسه واحداً منهم رغم فارق السن الذي قد يزيد عن خمسة وعشرين عاماً.

تجهز النساء طعام الغداء ويحضرونه حتى باب الغرفة فيخرج عبد الرحمن وعبد الرحيم ليتناولوا طعامهم يخرجون للتزوّج في أطراف القرية، وعبد الرحيم يرافقهم.

الأرض سهلة خصبة، ولكنها تملو من الزرع الجيد ويقابها أسلاك ممتدة بمسافات بعيدة، يشير عبد الرحمن إلى الأسلاك قائلًا: هذا خط الهدنة الفاصل غربه الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ وجزء من أراضي القرية للغرب من السلك لعائلتنا أربعون دونماً قد صودرت عام (٤٨) وهذا الجزء يكمل أرضنا بضع دونمات لا نستطيع زراعتها لمحاذاتها للحدود الفاصلة، لا تقس هذا يا عبد الرحيم، فيهر عبد الرحيم رأسه وهو يتمتم، وكيف أتس يا عم وكيف أتس؟ فيتمتم جمال وكيف ينسى وكيف ينسى، وكيف يعيش المرء من دون قلبه وجوارحه... .

يستقلون السيارة التي تنطلق بهم إلى الخليل وعبد الرحيم يجلس إلى حوال عمه، على الطريق عشرات السيارات تحمل إشارة الفريخين صفراء اللون مما يعني أنها إسرائيلية، تسير في الاتجاهين رائحة وغادية، ينفث جمال زفيراً ساخناً بصوت صاخب قائلًا: ثم ماذا مع هؤلاء المستوطنين لقد ابتلعوا الأرض لا يكتفون ولا يتوقفون عند حد...

يدخلون المدينة يقترب أذان المغرب وينطلق الأذان من مؤذن للمسجد الحرام إبراهيمي الشريف فيتجه السائق نحو الحرم. لا تكاد السيارة تتقدم من شدة الازدحام فهناك المئات من المستوطنين والجند المحتلين يحرسونهم في طريقهم إلى الحرم. يسيرون للدخول للمسجد وعشرات البنادق مشرعة مشهرة بأيدي جنود الاحتلال المستوطنون اليهود يلبسون على رؤوسهم القبعات الصغيرة المزركشة، والحقى الطويلة غير المهدبة، ويلتفون أجسادهم بتلك الأقمشة المخططة التي تتلى فيها خيوط كثيرة، فتقرب ركبهم بهرولون للمسجد يزاحمون أهلهم ويوقفونهم عند كل حاجز. يدخل الشباب للمسجد وقد رفعت البسط من الجزء الخلفي منه وتم تقديم الحواجز من الأعمدة الحديدية التي تمتد بينها الجبال الخليطة محددة الساحة للمصلين بالصلاة فيها... ربيع المسجد فقط للصلاة، وفي ثلاثة أرباعه بالإضافة إلى الساحة الخارجية والقاعتين المرفقتين بها تمتلئ باليهود (آه... اليوم السبت) تمتلئ جمال وفي كل زاوية يقف أحد اليهود بيده كتاب يقرأ به كلاماً غير مفهوم وسريع وهو يهز جسده للأمام والخلف. أقام المؤذن للصلاة، وتقدم جمال للإمامة، لصطف المصلون، كبر تكبيرة الإحرام، وقرأ الفاتحة وجاء صوت المصلين من خلفه عانداً رداً على الدعاء (غير المنضوب عليهم، ولا الضالين) آمين، ثم بدأ يقرأ بصوت جهوري جميل «سبحان الذي أمرى بعده ليلاً...» حتى قوله تعالى «وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً»، الله أكبر فركع وبركعون، والمصلون اليهود من ورائهم يهزون أجسادهم وهم يتلون توراتهم. خرجت من قاعة المحاضرات من محاضرتي الأخيرة التي كانت في وقت متأخر فقد قرئت الشمس على الغروب، وإذا إبراهيم ابن عمي في قاعة قريبة، حبيته بالسلام، فرد للتحية سألته: عائد إلى الدار فأجاب: نعم، وانطلقنا سوية كل واحد منا يحمل كتبه، ومن حولنا العديد من الطلاب والمنصرفين إلى بيوتهم، وإحدى الحافلات تقف بباب الجامعة، تجمع طلاب المناطق الجنوبية ليعودوا إلى بيوتهم.

¹ معودة الإسراء قبة (٨)

سرونا على الأقدام عائدين إلى البيت ومن بعيد كانت إحدى سيارات الجيب العسكرية تقف ترتقب الطلبة الخارجين من الجامعة، نظر إبراهيم نحوهم وقال: من كان يصدق أن غزة سيصبح بها جامعة بحق وحقيقة كما هي الآن؟ هل تذكر يا أستاذ حين قررت التسجيل في الجامعة الإسلامية ماذا كان رد أمك؟ هزئت رأسي بالإيجاب، توقفت على الجانب الآخر من الطريق سيارة فيها عدد من نشطاء الكتلة الإسلامية أصدقاء إبراهيم، واندأوا عليه ذهب تحدثوا ببعض كلمات ثم عاد إلي وناولني كتبه قائلاً: خذها معك، سأذهب مع الشباب في مشوار وقد تأخر قطعن الحكومة.

ابتسمت وتناولت حافظة أوراقه وكتبه وانطلقت أفكر في حكومتنا أي (أمي) وفي طريقة تعاملها مع إبراهيم وحبها له وحبها لها، وبذلت للصورة والذكريات ذاعب خيالي، فتبتهت على صوت بوق إحدى السيارات وقد كانت تصدمني حين تجاوزت طريقاً رئيسياً دون أن أنتبه. مع المفاجأة سقطت الكتب من يدي وتناثرت، انحنيت لأجمعها تحت ضوء المصباح الكهربائي على العمود الكهربائي عند زاوية الشارع، اختلطت كني وكراستي وأوراقني بكتب وكراسات وأوراق إبراهيم، فحاولت أن أركز لأميزها وأعيد كلأ منها لمكانه.

استدعت انتباهي ورقة، ميزتها أنها من أوراق إبراهيم وبينما كنت أضعها بين أوراقه وقع نظري على سطر العنوان فيها... تقرير حول تحركات وممارسات "حسن الصالح" لم أتمكن من مقاومة الفضول للاطلاع على ما فيها، جمعت باقي الأوراق بسرعة، وأجزت لنفسي أن أقرأ ما كتب في ذلك التقرير الاستخباري للمحكمة الذي بحمله إبراهيم والموقع بأخركم (٢٣) إذا فالأمر لدى إبراهيم وجماعته أكبر من العمل الطلائي، وللتنافس الحزبي، والصلوات في المسجد.

تأخر إبراهيم في تلك الليلة بصورة ملفتة للنظر، فقلت أمي فطمأننتها بسلامه فقالت: قلبي يحدثني أن إبراهيم قد دخل طريقاً شائكاً وأخشى عواقبه، طمأننتها بأأمي إبراهيم واع وكبير ولا تخافي عليه، وماذا يمكن أن يفعل؟ وما الخطر الذي سيكون عليه؟ قالت: قلبي يحدثني بذلك، قلت: لا تصدقي قلبي، هذا من الشيطان يحاول أن يفلتك، قالت: قلب الأم لا يخطئ يا أحمد، نظرت إليها فإذا الدموع تترقرق في عينيها، وكأنها أدركت استخباري، فقالت: إنه ابني مثلك تماماً، ألم لربه منذ طفولته.

ظلت أُمِّي جالسة على سجادة الصلاة بعد أن أدت صلاة العشاء ما يقارب ثلاث ساعات والقلق ياد عليها ولا تستطيع إخفاءه، حتى سمعت طرق الباب وهو يُغلق، ودخل إبراهيم فهبت إليه صارخة: أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ فأجاب إبراهيم: الحكومة تريد تقريراً خطياً لم شفويًا؟ صرخت مرة أخرى حيث لم يتمكن إبراهيم من تهدئة روعها لسألك أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟ أدرك أن الوضع صعب فأجاب: أحد أصدقائي له مشكلة وذهبا لحلها واحتجزنا وقتاً حتى أقتعنا والده فرضي، قلت: ألا يصح تأخير ذلك للنهار؟ لا تتأخر هكذا مرة أخرى، هل تفهم؟ فأجابها مملحاً: أسمع والطاعة يا جلالة السلطان، خرجت لتجهز له الطعام فنادى عليها أن تترك ذلك وتسلم عليها ألا تفعل فهو مسجوزة بنفسه.

كنت لراغب ذلك وبداخلي بركان يكاد ينفجر فلا بد أن أصارحه بأنني قرأت الورقة وأوضح له الأمر، لا يصح أن أسكت على ذلك، قد يزعل ويخرج، لا ضير ولكن لا بد أن أخبره.

ذهبت أُمِّي لغرفتها لتنام وخرج هو ليجوز لنفسه العشاء ثم عاد ليهتاوله بجوارتي، فقد كنا ننام سوية في نفس الغرفة، جلس يتناول طعامه، فسحبت الكرسي وجلست إلى جواره وقد حرصت على الابتعاد منه وهربت فمي من أنفه وقلت له أرجو أن تعذرني فقد وقعت حادثة لأوراقك مني، وحين جمعت الأوراق التي تناثرت منها رأيت التقرير المكتوب عن حسن، توقف عن الطعام وقد كادت اللقمة التي في حلقه أن تغصه ونقلته وقال: ماذا؟ قلت: لا تقلق فأنا أحمد وأنت تعرفني، ومركه في يثر هذا ما حدث ثم لم أستطع أن أقاوم الفضول فقرأت للورقة.

بدت الحيرة عليه ولم يعد قادراً على التصرف، كان ذلك أصعب موقف لري فيه إبراهيم، استعربت قاتلاً: اعتبر أن أحداً لم يقرأ ذلك ولم يره، ولم يرد ولم ينطق أي حرف... وانتهى طعامه سريعاً ثم ذهبنا للنوم.

في اليوم التالي رأيت أنه يفضل أن ينظرني ليرافقني إلى الجامعة، خرجنا للجامعة سوية، في الطريق قال لي مفتحاً الحديث، اسمع يا أحمد أنا ولقي أنك لن تذكر ذلك لأحد ولكن أعلم أن موضوع حسن يقلقني، وأنا شغلت عدداً من زملائي ليرافقوه حتى أعرف ما يفعل أدركت أنه يحاول ذر الرمال في العيون ليخفي عني حقيقة من جهز التقرير، نظرت إليه نظرة عبيقة وقلت: يا إبراهيم لعب هذا على خير، فالتقرير ليس شغل أي لولاد لو أصحاب، هذا شغل ناس تعرف ما تفعل والمعلومات التي فيه مطومات لا يحصل عليها أي ناس، هذه معلومات ناس مختصة، ولكن ليس هذا ما بهمني... ما بهمني هو ماذا سيقول مع حسن؟ اتهد بحمق وقال: أقسم بالله العظيم أنني سأقتله وأريح الناس من شره، ولنا أول من يقتله، ولكن كل شيء في وقته جميل.

كان إبراهيم يدخر مع أمي ما يفيض من حاجته من النقود مما يكسب من عمله في البناء، في تلك اليوم حين عاد من الجامعة توجه إليها طالباً مبلغ ألف وخمسمائة دينار من تلك المدخرات؛ لأنه يريد أن يشتري سيارة تساعد علي التنقل وعلى نقل أدوات العمل، وتوفر عليه الوقت بين العمل والدراسة. كنت مدركاً أنه بدأ يخطط بعق لنهيه امر أخيه حسن، أعطته أمي النقود وأخبرته أنه يبقى ما يقارب ألف وخمسمائة أخرى، لشترى إبراهيم سيارة بيجو برليفت (٤٠٤) وهو من نوع سيارات مشهور جداً في القطاع ومنشتر انتشاراً واسعاً، وكلها سيارات مستعملة وقديمة بما لا يقل عن خمس عشرة سنة، ولكنها بمعايير المخيم شيء فآخر.

محمد يخرج من الشقة التي يستأجرها هو ومجموعة من الطلاب في بيرزيت متوجهاً إلى الجامعة، يدخل الجامعة ويلاحظ على الفور أن الوضع منوتر غير طبيعي للطلاب والطالبات يستعدون كماتهم للصددمات مع جنود الاحتلال.

يحضرون أكوام الحجارة في الزوايا المختلفة ويحضرون اللثامات، ويضمدون المتألمين، ثم انتظموا في مظاهرة عارمة خرجت من الجامعة تهتف ضد الاحتلال والاستيطان وتهتف لفلسطين، لم يمر وقت طويل حتى جاءت دوريات الاحتلال، وبدأ الصدام، تترس الجنود وراء سياراتهم، وتراجع الطلاب ليتترسوا وراء الجدران الحجرية، انتهالت الحجارة على الجنود الذين بدأوا يطلقون النار والغاز المدمع على الطلاب.

كل القوى الطلابية كانت مشاركة في الأحداث. في مثل هذه الأحداث حين تشارك كل القوى الطلابية يكون للصدام أشد وأعنف حيث أن روح التنافس تزكي استعداد الطلاب والطالبات للصدام وتلهب حماسهم. استمرت المواجهات طيلة عدة ساعات اضطر فيها الجنود للانسحاب عدة مرات، وهم يسحبون أدمهم والدم ينزف من رأسه أو من وجهه وقد أصابته الحجارة، وبدأ الجنود يطلقون النار ليس فقط لتفريق المتظاهرين أو إصابتهم، وإنما بهدف القتل الواضح.

خلال دقائق تجندل شهداء من الطلاب تجود أبو سلمية وصائب ذهب... وكالمادة جن جنون الطلاب فبدأوا يطاردون الجنود الذين اضطرروا للانسحاب إلى أطراف البلدة بعيداً عن الجامعة وعن الطلاب. نقلت الجثث والجرحى إلى مستشفى رام الله وكان الليل قد حل... مع ساعات الصباح كانت أخبار الشهداء والصددمات في بيرزيت قد انتشرت في كل لوطن فعمت التظاهرات كل المناطق وأعلن الإضراب العام وامتدت المواجهات بين المتظاهرين وجنود الاحتلال إلى كل الأنحاء في الجامعة الإسلامية.

خرج الطلاب في مظاهرات عارمة، وصحبوا حجارتهم على دوريات الاحتلال ولصكت الأحداث إلى المخيم إلى كل أنحاء المدينة، خاصة حي الشجاعة حيث يسكن الشهيد "صائب ذهب"، كما لصكت إلى جنوب القطاع خاصة خان يونس حيث يسكن الشهيد "جواد أبو سلمية".

ظلت الأحداث تتلاحق خلال الأيام التالية، ومع إلقاء الحجارة على دوريات الاحتلال التي تجثم بجوار الجامعة وتمر بجوارها، حضرت قوات كبيرة من جيش الاحتلال وحاصرت الجامعة، وبدأوا أيضاً أنهم يريدون أن يؤدبونا كي نصبح لولداً جديدين وهادئين، مئات الجنود حاصروا الجامعة وحاولوا اقتحامها مراراً وفي كل مرة يرجعون على أديارهم أمام سيل الحجارة الذي يتدفق فوق رؤوسهم، مر الوقت حتى اقرب المساء بات واضحاً أن المبيت سيكون في الجامعة.

ولكن قلقت سيارة بعض الوجهاء وسمح لها بدخول الجامعة وتقلوبت مع القنصل من الطلاب ومع مسؤولي الجامعة، ثم أخبرتهم أن الحاكم العسكري لا يسمح خروج الطلاب من الجامعة على شكل مجموعات محددة عشرة كل خمسة دقائق، كي لا يحدث تجمع، وتمتد المظاهرات في المدينة وأنه تمهد لهم بألا يمس الجنود أحداً من الطلاب. وافق الجميع على ذلك وبدلنا بالخروج عشرة عشرة والجنود بوجهون السير إلى أحد الشوارع الجانبية، وكلما خرجت مجموعة تلتها الأخرى.

خرجت في إحدى المجموعات وحين وصلنا إلى إحدى التفرعات عن ذلك الشارع وجها الجنود للالتفاتات وإذا بمئات الجنود يقفون وييديهم الهراوات وسيفارتهم تغلق الشارع وتحوله إلى معسكر اعتقال، حيث تحت الضرب أجبرونا على الجلوس جثواً على ركبنا وأيدينا فوق رؤوسنا، ووجهنا إلى الحائط بعد أخذ بطاقتنا الشخصية للتفتيق، ويبدو أنهم قد كانت لديهم قوائم بأسماء الناشطين حيث كانوا يفرضونهم إلى ساحة قريبة تحت الضرب والركل، ثم يسمحون للبقيين بالانصراف بعد أن يعيدوا لهم يطاقتهم. لم أكن مصنفاً كناشط ولا لأي من القوى الطلابية، أخذت بطاقة هويتي وطرت من المكان فلراً بجلدي...

إبراهيم اعتجز مع حوالي مائة طالب آخرين لمدة ثلاثة أيام وقد ضربوا ضرباً مبرحاً ولاهوا من الذل ما يفوق الخيال، وقد ظن الحاكم العسكري أنه كذبنا ولقنا الدرس لنصبح (لولداً شطراً).

بعد عدة أيام دخلت الجامعة وبدأ من النظرة الأولى أن الحرب ستشمل هذا اليوم مجموعة من الناشطين على رأسهم إبراهيم يحضرون لمواجهات، بعد تجمع الطلاب، بدأت الحجارة تنهال على التوريات والسيارات العسكرية التي تمر بجوار الجامعة، خلال نصف ساعة حوصرت الجامعة وبدأت الحافلات العسكرية تحشد مئات الجنود... ويبدأ واضحا أننا هذه المرة سنلقي من الضرب لضعف ما كان في المرة السابقة، ولكن لكل حادث حديث، الآن مواجهة فنواجه كما يجب.

نظم الغالبية من الطلاب تجنبا للكاميرات والمناظير التي نصبت فوق بناية مرتفعة ومقابلة، وبدأت الحجارة تنهال على الجنود الذين يتمرسون وراء سياراتهم ودروعهم البلاستيكية فيردون بإطلاق النار والغاز المدمع، ولكن واضحا أن الطلاب هذه المرة ينقسمون لما لا قرا قبل أيام، أحضروا مدرعة كبيرة لرش الماء الساخن، تقدمت نحو باب الجامعة والجنود يستقرون وراءها اقتلعت الباب ولم توقفها الحجارة وتقدمت نحونا فواجهناها بمطر غزير من الحجارة.

الجنود لم يستطيعوا التقدم معها فتراجعت، وظل الحال بين كر وفر، مرة بهاجمونا ومرة تهاجمهم حتى العصر، وإذا بصوت دبابة صكرية تدق الأرض دقا وتقطع الباب الخلفي للجامعة، صرخ أحد الطلاب بمكبر الصوت: إن دبابة اقتحمت الجامعة من الباب الخلفي!! وإذا بما يزيد عن سبعمائة من الطلاب يستكثرون مرة واحدة نحو الدبابة، بدل أن يفروا من وجهها استدلوا نحوها وأقدمهم تسابق الريح، منظر أقرب إلى الجنون، كان هناك ما يزيد عن مائة متر بينها وبين جموعنا التي انطلقت نحوها، كان واضحا لسائق الدبابة ومن فيها أنهم سيقتلون تحت الجنزير عثرات، ولكنهم كانوا ولقين أن هذا الجمع الذي أصبح فوق الدبابة سوف ينهش لحومهم نهشا.

استدارت الدبابة ثم عادت أراجها خارجة من الجامعة، وصل الجمع إلى الباب الذي خلع وبدلوا بإغلاقه بكل ما يقع تحت أيديهم من حجارة وكتل إسمنتية وبراميل وجذوع شجر... ثم عادت عالقينهم بعد أن ظل على السور البعض ليراقبوا تمركات الجنود.

مر الوقت واقترب المغرب، وجاء الوجهاء للوساطة، رفضت وساطتهم وأسمعوا كلاماً مؤنياً، ووقفنا ننظر ونسأل: ثم ماذا بعد؟ وإبراهيم بحلول إخفاء بسمة عريضة تلو وجهه دون أن ينجح، ساد الهدوء قليلاً وإذا بأصوات عثرات المساجد مكبرات الصوت في كل مساجد مدينة غزة انطلقت في نفس اللحظة تصرخ حي على الجهاد... جنود الاحتلال يحاصرون لناكم وبناتكم في الجامعة اخرجوا لإنقاذكم الله أكبر... الله أكبر.

وإذا بالأهالي في كل أحياء المدينة يبدؤون بالتجمع، وإذا بالجموع تلتحم في مسيرات ومظاهرات عارمة تنطلق من كل الاتجاهات نحو الجامعة، وإذا بمدينة غزة قد خرجت كلها عن بكرة أبيها تردد الله أكبر... الله أكبر والموت للاحتلال. حالة الانفلات الأمني سادت وعلى الفور صدرت الأوامر للقوات التي حاصرت الجامعة بتركها والانسحاب في أنحاء المدينة لضبط الأمن استدارت القوات ونوزعت فإذا أمامها جحافل من الناس الغلظبة ومن وراءها الآلاف من طلاب وطالبات الجامعة الغاضبين الذين يشعرون بالغزة... يخرج إبراهيم بسيارته من باب الجامعة ورأني فوقف ليأخذني معه، وقال لي لمت ذاهباً للبيت ولكني أريد أن آخذ جولة في المدينة لأرى الأوضاع. المدينة عن بكرة أبيها رجالها ونسائها، أطفالها وشيوخها في الشوارع، إطارات السيارات المشتعلة في كل مكان المتاريس تغلق الطرق وهناك مجموعات من الجنود المذعورين يدورون حول أنفسهم لا يدرون ما يجري حولهم.

الابتسامة على وجه إبراهيم كانت عريضة ولا يحلول إخفاءها الآن، قلت له والله لقد ربتم الأمور جيداً، واصل الابتسام قائلاً: الحمد لله الحمد لله الناس بخير والحمد لله الناس بخير وقد رأينا جموعاً من آلاف المواطنين والمثالب يتوجهون نحو مبنى المراسم حيث مقر الحاكم العسكري، يقذفونه بأطنان من الحجارة والجنود لا يتمكنون من حماية رؤوسهم وإطلاق النار دون حساب.

جاء عدد من أصدقاء محمود لزيارته في البيت وكان واضحاً عليهم الاهتمام جلسوا وبعد قليل أخذت لهم الشاي الذي أعنته زوجة محمود، دخلت تقدمه لهم، فواصلوا الحديث، كانوا يتحدثون عن أحد شباب (فتح) الذي اعتقل حديثاً والذي كان مسئولاً عن إهدى المجموعات العسكرية النوعية، وأنه في التحقيق اعترف على كل شيء، تساءل محمود وكيف؟ قلنا سمعت أنه شاب قوي وعنيد، أجابه أحدهم: صحيح هو قوي وعنيد ولكنهم أخذوه إلى المصالحير واعترف عندهم.

أعزت نفسي لتدخل متسائلاً: إلى المصالحير؟ وما هي المصالحير هذه؟؟ فأجاب هؤلاء مجموعة كبيرة من الجواسيس الذين يصادون المخابرات في التحقيق حيث يجمعونهم في غرف مثل غرف السجن ويأخذون المعتقل عندهم إذا أعزت المخابرات عن انتزاع الاعتراف منه هؤلاء الجواسيس يمثلون أنهم سجناء وطنيون قسي للسجن العادي ويبدلون بمحاولة استرجاع ذلك المعتقل للحديث إليهم بما لديه من معلومات.

الحجة انهم يريدون إخراجها للمسؤولين خشية اعتقال تلك الخلية، أو بأي حجة أخرى، وأحياناً حيث يرون أن المعتقل يحاول الدفاع عن نفسه أنه محترم وليس عميل وهم يواصلون اتهامه، فالبعض يضطر أن يكشف له أسراراً ليثبت له أنه ليس عميلاً، وهكذا من مثل هذه الحيل والخدع.

في الجامعة الإسلامية هناك فصل كامل بين الطلاب والطالبات، وكل فريق يدرس في أقسام خاصة ولا يحدث اختلاط بين الطلاب والطالبات في الجامعة ولكن أثناء ذهاب الطلاب والطالبات إلى الجامعة وإياهم منها فإنهم يلتقون في الشوارع والطرق ومواقف السيارات والحافلات والغالبية يراعون آداب الطريق والقواعد العامة بل ويبلغون فيها، رغم أن هناك قلة من الطلاب أو الطالبات إذا خرجوا من الجامعة انطلقوا دون تواضع كما هي العادة في المجتمعات، طالبات الجامعة كلهن يرتدين الحجاب فهذا قانون الجامعة، ولا يسمح لهن الدخول بدونه، غالبية الطالبات وبواقع الطبيعة المحافظة لخالبة أهل للقطاع يرتدين الحجاب بجدية ولكن بعضهن يرتدينه فقط عند دخول الجامعة، وغور خروجهن منها ولتبعادهن عنها ينزلن أو بعضهن ينزلن غطاء الرأس للوراء فيكشف جزء من شعورهن.

إحدى الطالبات من بنات الجيران في المخيم كانت تدرس في الجامعة وقد تصادف مراراً أن أكون في طريقي للجامعة أو عائداً منها، فأجدها في طريقي، ولا أعالي حين أقول إنها بحق كفتل للبدر، كنت أشرق النظر إليها أحياناً وهي تطرق ناظرة إلى الأرض منطلقة إلى حفها دون تفت أو تردد، بدأت نفسي تزلزني وتساورني أنني قد أعجب بها لاحقاً، لم أجرو أن لقرنها السلام حياة وعجلاً وخوفاً.

وذلك يوم تصادف أن وقع تطري على نظرها فشعرت بقشعريرة تسري في جسدي وبمشاعر جياشة تغزو قلبي، نظرة خاطفة ثم غصت بصرها على الفور، بدأت أفقد أن التقي بها في طريق ذهابها للجامعة أو إيابها ولو لم أنظر إليها أو تنظر إلي مجرد أن تكون في الشارع كان يغمرني بشعور من الراحة، وبدأت أتساءل هل أصبحت أحبها؟ وهل هذا هو الحب؟ الذي كثيراً ما يتحدثون عنه. مرة ثانية تقابلت عيوننا عن بعد، وبدأت أشعر بخففت قلبي تزداد وتتضاعف كلما رأيتها في الطريق، وفي المرة الثالثة حين تالفت للعيون لبسنت فاحمر وجهها حتى كاد أن ينفجر وغصت طرفها وتسارعت خطواتها مبتعدة.

لكنني فيما بعد بتربيت خروجها للجامعة لأراها من بعيد غير طامع في أكثر من ذلك، ولا حتى في النظرة فيكيني التي أحببت وبكفي أنها فهمت ذلك جيداً، وتفهمه كلما أحست بحرصي على رؤيتها كل يوم أو يومين، ولا بد أن أحرس عليها فلا أطمع بالمزيد في هذه المرحلة قبل أن أخرج من الجامعة وأكون قادراً على التقدم لخطبتها وفق القواعد والأصول كما تربيت منذ طفولتي.

موضوع ابن عمي حسن كان يقلق إبراهيم كثيراً وكان قد ملأ عليه رأسه أكثر من مرة لسطحيني معه لترقب تحركات حسن للتأكد من صحة ما ورد في التقرير، وقد تأكدنا من أكثر من معلومة مما ورد فلقد رأيناه يذهب لمقابلة "أبو وديع" في مواعيد محددة، يوقف سيارته قريباً من السرايا ثم يتزلزل منها ويدخل السرايا بعد أن يخرج بطلقة خاصة معه ويربها للجنود الذين يحرسون البوابة، يدخل فيخب ساعاً أو يضع ساعات ثم يخرج، وقد رأيناه يتردد على عدد من المحلات المعروفة لأصحابها أنهم صلاء مشهورين ورائحتهم تفرح وتركم الأنوف.

وقد رأيناه بضايق الفتيات في الشوارع ويلقي بكل سفالة عليهن، وقد رأينا بعض الداعرات يركبن للسيارة معه وينطلق بهن إلى أماكن بعيدة، وفي بعض الأحيان يأخذ معه واحدة منهن، ويأخذ شاباً عزيزاً إلى مكان بعيد مهجور، مما يؤكد أنه يعمل على إسقاط ذلك الشاب، وقد أصبحت الأمور واضحة وضوح الشمس، ولا تخفى الشمس أو القلوب.

لشي كانت لا تسمح لأحدنا بالتأخير كثيراً في الليل وتكون أكثر تشدداً إذا أراد الواحد منا الخروج في وقت متأخر. نظرنا نائمة أو مشغولة فإذا تقرب أحدنا من الباب بلب الدار ففزت صارخة إلى أين يا أحمد وإلى أين يا إبراهيم، وهات حينها من ينقذنا من بين أسننها واستفساراتها.

إبراهيم كان يعرف أنها متخلق له المشاكل في محاولاته لفعل ما يريد تجاه حسن لذلك اتفق معي على أن نبدأ بالرجوع للبيت مبكرين ندرس ونجتهد ثم ننام مبكرين وعند منتصف الليل أساعده على الخروج من البيت، وانتظر عودته ليدخل بهدوء، وقد بدأنا بتنفيذ الخطة، كل أسبوع يخرج مرة أو مرتين ثم يعود يشكرني ويدخل للنوم، دون أن أسأله عما حدث؟ وأين كان؟ وماذا فعل؟.

في إحدى الليالي رجع إبراهيم مكفهاً وواضح أنه مر بوضع صعب للغاية بدل ملابسه ودخل الفراش ونام دون أن نتبادل أي كلمة، بعد هذه الليلة لم يسطحيني مطلقاً في أي مهمة مراقبة ومطاردة لحسن.

بعد حوالي أسبوع من تلك الليلة قال لي، يا أحمد لا داعي لأن تظل على هذا البرنامج فخذ راحتك وتصرف كما تريد، استخريت من الأمر ولم أسأله عن اللوائح لذلك. إحدى الليالي التالية كنت عائداً للبيت في وقت متأخر من الليل، وبينما انحرفت في طريقي إلى إحدى الطرق الفرعية، رأيت سيارة ضابط للمخابرات "أبو وديع" واقفة على جانب الطريق وقد نزل منها بلباسه المدني كما أنه يقف إلى جوار حائط المسجد ويده شيء يشير به إلى الحائط، انحرفت إلى زقاق فرعي كي لا أصادم به، فوسبب لي وجع الراس وانتظرت حتى لتصرف. ثم عدت إلى طريقي ماراً بالمكان الذي كان أبو وديع يقف فيه فانتبهت أنه رسم على الجدار إشارات وكتب بعض الأرقام.

حين وصلت إلى البيت ودخلت الغرفة، وجدت إبراهيم يجلس على فراشه، يقرأ في أحد كتبه الجامعية، أخبرته بما كان فتحضر للخروج ثم نظر إلى الساعة، وقال لو لم يكن الوقت متأخراً لخرجت لأرى ذلك لكن الحكومة ستقضيني إن خرجت في هذا الوقت المتأخر، فلننتظر حتى الصباح، عند أذان الفجر نطلقاً للصلاة في المسجد. قبل أن نصل الجدار المقصود بمسافة حترني ألا أكتب أو أشير للجدار بيدي، ولكن أن أحدثه بالكلام دون إشارات، حدثته ونبهته للمكان قبل وصولنا إليه، وقد تمكن من رؤية ذلك جيداً.

همس بعد أن تجاوزنا المكان: هناك الكثير من هذه الإشارات في أماكن عديدة، وقد أثارت قنياهي من قبل، وظننت أنها إشارات للبلدية للمجاري أو للكهرباء أو ما شابه، فإذا هي للمخابرات يعني أنها للعملاء، يعني أنها إشارات تحديد مواعيد مقابلات عملاء سريين جداً وخطيرين جداً، لأنهم لو كانوا محروفين ومحروفين لما لزم هذا الجهد وهذه اللقبة. صليخا الفجر أثناء عودتنا نظرنا إليها مرة أخرى وحين تجاوزناها تمتم إبراهيم محدثاً نفسه هذا اليوم هذه الساعة وهذه المكان، سأكتبه ماذا تقول قال لا شيء ولكن سنرى.

عصر ذلك اليوم أخذني معه بالسيارة وطلب مني إخراج دفتر وقلم وأن تكون جاهزاً لتسجيل بعض الأمور، وبدأ يدور بالسيارة في شوارع المخيم، وكلما مررنا بأحد الجدران خفف السرعة وقل: فنظر إلى الجدار إلى يمينك، هذه إشارة شبيهة بإشارة الليلة سجلها في الدفتر ثم إشارة ثانية سجلها في الدفتر، وثالثة ورابعة، وخرجنا من المخيم إلى أحياء أخرى سجل هذه وسجل هذه، جمعنا العشرات من الإشارات، ونزلنا للصلاة في أحد المساجد حيث أذن المغرب ثم عدنا إلى الدار.

دخلت الغرفة أخذ للدفتري مني ووضعته على الطاولة وبدأ يجري مقارنات بين الأرقام وبهمس: ألا ترى هذا التشابه مائة في المائة، هذا الرقم يعني تاريخ اليوم فكل الأرقام تقع بين (١) وحتى (٣١) أليس هذا معقولاً؟ أجبت: صحيح، ثم بدأ بمقارنة الرقم الثاني وقال: هذا يبدو أنه يعني الساعة ألا ترى أنه بين (١) وحتى (٢٤) وعلى عدد ساعات اليوم أليس هذا معقولاً؟ أجبت: صحيح، قال: وهذه الأرقام تدل على الشقائق ألا ترى أنها صغيرة بجوار الأرقام الكبيرة التي تدل على الساعات وهي إما (١٥) لو (٣٠) (٤٥) فقط قلت مائة بالمائة.

لبسهم ورفع كفه لوضرب على كفي فصدت كفي فضرب عليه بصوت خافت ثم قال: هذه شيفرة المخابرات مع صلاتها يا أحمد حللتها والمهم الآن أن نستفيد منها، وجدت الفرصة مناسبة لأفتح موضوعاً حمت عليه طويلاً، فقلت آه المهم الآن أن نستفيد منها، شغل جهازك الآن عليها، رفع نظره بحدة وعصب قللاً: عمّ تتحدث؟ قلت عن أولئك الذين أصحوا لك التقرير عن حسن نظر نظرة عتاب، وقال: ألم نتفق أن ننسى هذا الأمر؟ قلت: لا، لم نتفق على النسيان، ولكن اتفقنا على أن لا أحدث به أحد وأنا لمحدث به معك أنت، وليس مع أي شخص آخر، قال بعصبية: وماذا تريد؟ وجدت نفسي في حيرة فأنا لا أعرف ما أريد بالضبط، فأجبت لا أدري لا أدري دعنا ننسى الأمر الآن، ذهبنا للنوم بعد أن كتف إبراهيم الأوراق جيداً.

❦ ❦

الفصل الثامن عشر

كنت غارقاً في النوم عندما استيقظت على صوت صخب رجال في الدار. فركت عيني ونظرت إلى ساعتى كانت عقاربها تشير إلى الثالثة والنصف قبل الفجر، كان صوت أمي يصرخ: ماذا تريدون؟ قبل أن أتمكن أنا وإبراهيم من القيام من فرشنا، كان باب الغرفة قد ضرب ضربة قوية لأطارنه، وعدد من قوّهات القنّاق، شهِرت ووجهت علينا وجاء صوت "أيو وديع": لا تتحركا ابقياً في مكانكما.

ثم دخل هو وعدد من الجنود وأشار إلى إبراهيم قائلاً: أنت إبراهيم؟ أجاب إبراهيم: نعم أنا إبراهيم ماذا تريد؟ ضحك أيو وديع قائلاً: لماذا أنت مستحجل؟! تربت يا إبراهيم، ونظر إلي وقال: أنت أحمد؟ قلت: نعم، قال: قوما وتعالا، أخذنا ولوقنا إلى أحد الجدران، أمر الجنود بالتفتيش فهجموا يتفتشون الغرفة نبشاً، وقام هو بنفسه بتفتيشنا شخصياً حيث لم يعثر معنا على أي شيء. قلب الجنود الغرفة فلم يجدوا أي شيء. يبحثون عنه، وكان يقلب أوراق إبراهيم ونفاثته ليقرأ ما فيها، ثم جمع كل ما لرتاب به من أوراق ووضعها في صندوق أحضره أحد الجنود وأمره بأخذه للسيارة.

كانت أمي تصرخ وتقول: ماذا تريدون؟ خربتم الدار الله يهدكم، وقد كان عشرات الجنود يفتشون كل زاوية من زوايا الدار، بعد حوالي ساعتين من التفتيش ربطوا يدي وراء ظهري، ووضعوا عصية قماشية على عيني، وكذلك فعلوا مع إبراهيم، وأخذونا من الدار ولَمي تصرخ؟ إلى أين تأخذوهما؟ يا مجرمين فائقكم الله. ألقوا بي في سيارة الحبيب كما يلقي كيمس البطاطس، ثم شعرت بكيمس بطاطس آخر يرمى فوقى فعرفت أنه إبراهيم.

كنت أرتجف من شدة الخوف والقلق، ويبدو أن إبراهيم قد أحس بذلك فهمس قائلاً: شد حيلك، مابلك يا رجل ترتجف ليس هناك شيء!! كلها أيام ونعود إلى الدار، فنزلت صفقة قوية على قفا رأسه وصوت جندي يصرخ بعيرية مكسرة: امسكت يا حملاً، سارت بنا القافلة ثم توقفت قدرنا أننا وصلنا السراجيا، أنزلونا دفعاً وركلاً، ثم بدأوا بجرّجرونا في أزقة وممرات ضيقة، ثم صعدوا بنا درجاً ضيقاً طويلاً، استلمني واحد بتحدث عريية بشكل أفضل طلب مني الوقوف وعدم التحرك، لوقفني إلى جانب الجدار، وسمعت ذلك يوقف إبراهيم بجوار الجدار ويطلب منه نفس الشيء.

مر وقت طويل دون أن يتحدث معي أحد، وكل ما أسمعته أصوات أبواب تفتح وتغلق، وأصوات تتحدث بالعبرية التي لا أفهمها، بعد وقت طويل جرتني صاحب ذلك الصوت قائلاً: تعال، ودفعني إلى إحدى الغرف وقد رفع العصابة عن عيني، وجدت نفسي في غرفة صغيرة فيها مكتب يجلس وراءه شاب بلبس للزي المدني يتعمم قائلاً: تفضل اجلس ويشير إلى كرسي أمامه، جلست على الكرسي وبدأي لا تزالان مربوطتان وراء ظهري، سألت قائلاً: أين حسن؟ نظرت بدهشة وأجبت: في الدار؟ سألت: أي دار؟ قلت: دارنا، قال بدهشة: حسن في داركم!!! قلت نعم.

نظر في أوراق أمامه على الطاولة ثم سألت: أي حسن ذلك الذي في داركم؟ قلت: أخي حسن، قال: أه أنا أسألك عن حسن ابن عمك أين هو؟ قلت: لا أدري؟ قال: كيف لا أدري؟ قلت: هو لا يمكن عتقنا منذ سنوات طويلة، ونحن لا نعرف أين يذهب وأين يروح قال: متى رأيته آخر مرة؟ قلت: لا أذكر، قال: تقريباً؟ قلت: منذ سنوات طويلة، سألت ومتى ذكرتموه آخر مرة في الدار؟ أجبت قلت: لا أذكر، قال: تقريباً؟ قلت: منذ وقت طويل جداً فنحن نسيناه، سألت: لماذا؟ قلت نسبب لنا في مشاكل كثيرة مع الجيران وطردناه من الدار ولم نعد نهتم به فهو لا يعنينا.

سألت: هل سمعت أنه ضُرب قبل حوالي سنة وظل في المستشفى حوالي شهرين؟ قلت: سمعت، قال: من الذين ضربوه؟ قلت: وما يدريني، قال: ما هو تقديرك؟ قلت: لا أدري ولكن قد يكون أهل إحدى قبائل التي يطاردون أو ناس مختلف معهم على شيء ما، قال مثل من؟ قلت: لا أدري ولكن هذا ما فكرت فيه حينها وهو لا بهمننا أصلاً، قال: يعني أنت لا تعرف أين هو الآن؟ قلت: نعم لا أدري ولا أريد أن أعرف... نادى على الرجل الذي أدخلني وطلب منه أن يخرجني من الغرفة، وضع على رأسي كيس القماش السميك، وسحبني من الغرفة وأوقفني إلى حوار الجدار ثم سمعهم يسحبون إبراهيم ويدخلونه للغرفة ثم سمعت صوت إغلاق الباب بقوة.

بعد وقت طويل قد يصل للساعة سمعت صوت المحقق ينادي على ذلك الرجل: 'أبو جميل' فذهب إليه وسمعه يسحب إبراهيم ويوقفه إلى حوار الجدار، فقدرت أنه سأل نفس الأسئلة. وتساءلت في نفسي ما بل حسن يسألون عنه أين هو؟ فهل هو مفقود؟ أو هارب منهم؟ بقيت على تلك الحالة واقفاً وجهي إلى الحائط تلقيت صدمة أو ركلة انستني نجي وإرهاقي.

ثم نعد قدامي فاندريتين على حملي، فانسيت جالساً على الأرض، جاء الجنود بضربون ويصرخون ويركلون طالبيين مني الوقوف، كان التعب والإرهاق بلغ مني مبلغه، ظم أعد أوالي بالضرب والركل، ضربوني وضربوني لأقف فلم أقف بطوع إرادتي، وكلما مسكوني من أكتافي وأوقوني عدت إلى الاتسياب والجلوس، فعادوا بالضرب وعادوا رفمي لعدت إلى الجلوس حتى جاء المحقق وأمرهم بتزكي على الأرض، صحيح أنني دفعت ثمناً باهظاً لجلوسي ولكني أصبحت مرتاحاً للغاية .

بيت الحياة في قسم التحقيق (السلخ) مرة واحدة حيث دخل عشرات المحققين مرة واحدة ففترت أن النهار وأن هذا يوم عملهم الجديد، بعد وقت أدخلوني إلى إحدى الغرف، وحين رفعوا الكيس عن رأسي وجدت أمامي حوالي سبعة من المحققين، قيل أن ألقن إلى ما حولي تماماً كان أحدهم قد ركض قدامي للأمام، وأحدهم دفعني في صدري للوراء فالتفت باتجاه الأرض، وقد التقوني وأنزلوني إلى الأرض. خرز حديد القيد دخل في ظهري وهجموا عليّ واحد على صدري بخنقني، والآخر وقف على بطني وبدأ يدوس فيه بقدمه، والثالث فصل بين رجلي والرابع بدأ يضغط على خصبتي.

وكلما مرت دقائق من ذلك كله توقفوا معاً وسألني الذي يجلس على صدري أين حسن؟ فأجبت: لا أدري، فيبدلون من جديد، ثم يتوقفون ويسأل نفس السؤال وأجيب نفس الإجابة، فيعادون الكرة من جديد. ثم يتوقف ويسأل: إبراهيم اعترف بما حدث؟ لعك أين حسن؟ فأجبت: لا أدري، وهكذا مررت عديدة حتى تأكدوا أنني لا أعرف أين هو فتزكوني. ونادوا على الجندي في الخارج ليأخذني، أفذني بجوار الجدار فجلست، هاول سحبي وضربني ولكني كنت قد صمت أمرى منذ قليلة الماضية.

سمعت صراخ إبراهيم وصراخهم عليه، وهم على ما يبدو يستخدمون نفس الأساليب، إبراهيم كان ينفي أي علم له بمكان حسن، ولكنه كان يرد عليهم ردوداً حادة ويسب ويشتم عليهم مما دفعهم لزيادة الضغط عليه، ولكن في النهاية أخرجوه وأوقفوه إلى جوار الجدار. بعد أيام لوكوني إحدى السيارات وأنا معصوب العينين مقيد اليدين خلف الظهر ومقيد الرجلين وانطلقت بنا السيارة حوالي الساعة ثم توقفت وأنزلوني، مسحبوني وأنا أتمتر كلما مررنا بإحدى الدرجات أو الأبواب، أوقفوني لبعض الوقت بجوار أحد الجدران ثم مسحبوني مسافة صغيرة سمعت صوت باب حديد يفتح ودفعوني لداخل زنزقة سوداء الجدران وهم يرفعون الكيس عن رأسي.

جلست في الزنزانة، بعد وقت فتح الباب ودفع شاب آخر للزنزانة وقد رفعوا الكيس عن رأسه، جلس بجولري بعد فترة عرفت عن نفسه باسمه ومكانه وأنه في التحقيق منذ شهرين، أحضروا طعام الغذاء والعشاء، وبعد أن تناولنا طعامنا، سمعنا صوت ضوضاء، فتح قباب ودفعوا للغرفة خمسة شبان يلعبون ملاييس المسجن، الأقمص البنية اللون وهم يضربونهم بالهراوات والشباب يدافعون ويردون عن أنفسهم، جلس الشاب وبدلوا يعرفون عن أنفسهم وأحكامهم العالية جداً وأنهم في المسجن منذ عشر سنوات وأنهم اكتشفوا أحد العملاء وضربوه بأمواس الخلاقة وجاءت الشرطة وعاقبتهم.

ثم سألوا عن أسمائنا وسبب وجودنا هنا، الشاب الذي كان عندي بدأ يتحدث معهم عن نفسه وقضيته وما يخفي وما يعلن، وهم يطلبون منه خفض صوته، ويؤكدون له أنهم سيخرجون هذه المعلومات للثورة خارج المسجن ليأخذوا حذرهم، ثم استدلوا إلي ليسألوني عن التفاصيل، تذكرت حديث أستاذ محمود عن المصالحير، وتأكدت أنها مصيدة لمعرفة ما لدي والحقيقة أنه ليس لدي شيء أصلاً لأخفيه.

لجيتهم باقتضاب شديد وهم يسألون ويتحوصون إذا كان لدي أي شيء أخفيه، بعد وقت طويل فتح الباب مرة أخرى ونادى السجنان عليّ، وضع الكيس على رأسي وسحبني ثم أخذني في زنزانة أخرى، كنت متأكداً أنهم الآن يقدمون تقريرهم عني لضابط التحقيق.

بعد وقت أخذني الشرطي إلى غرفة التحقيق وجدت فيها أحد المحققين الذي قال لي: إهم تأكدوا من عدم وجود معلومات لدي أخفيها، ولكنهم سيحولوني إلى المسجن ثلاثة أشهر إداري، وأن التحقيق معي قد انتهى، أخذني السجنان وسار بي مسافة، أخذوني لمخزن الملابس وملموني الألبات التي يملونها لكل سجين بصورة كاملة، ثم أخذوني إلى قسم في المسجن فيه عدة غرف وفيه عشرات السجناء.

حياة سجن كاملة وطبيعية تماماً، استقبلني السجناء بالترحاب والحفاوة وتعرفوا عليّ وأخذوني إحدى الغرف، ورفقوا لي سرير وأغراض وأعدوا لي الشاي، وجهزوا لي الحمام لتصمت وارتحت وتناولت طعامي. وفي المساء جلسوا جميعاً وأنا معهم لتتعارف، احتفلوا بي وأكرموني في نهاية الحفلة جاعني أمير الغرفة وأخبرني أن لا أتحدث في قضيتي مع أي شخص وغداً سيأتي مسئول التنظيم، ومسئول الأمن في التنظيم، لينهموني كل شيء، ومنوع منعاً قطعاً أن أتحدث مع غيرهم في هذا الأمر.

في اليوم التالي جاء المسئولان، جلسنا معاً في إحدى زوايا الغرفة، تعرفا عليّ وبدأ
بذكر أن أُنهما يعرفان أخي محمود وأخي حسن وجارنا عبد الحفيظ، وغير ذلك من
المعلومات التي جعلتني مطمئناً لهما مائة بالمائة، ثم بدأ يسألانني عن قضيتي وسبب
التحقيق معي وسبب اعتقالني؟ حدثتهما بالأمر بالتفصيل بأنهم اعتقلوني لسبب لا أعرفه
ويسألونني عن حسن أين عمي، ولما لا أعرف أين هو ولا أدري لماذا هذه الأسئلة؟! وأن
حسناً لا يسكن عندنا. فقد طردناه من الدار منذ سنوات ولا نعرف أين هو ولا نتابع
أخباره، أعادوا الأسئلة مراراً وتكراراً ثم شكراني وانصرفا.

بعد أيام جاء السجان ونادى عليّ باسمي أخذني إلى المخزن، أخذوا مني ما سلموني
من أغراض وأعادوا لي أغراضي وملابسي وأخبروني أنهم سيطلقون سراحي، أخذوني
إلى باب السجن، وتركوني خارجاً، تنسمت الهواء النقي من جديد ولما لا أصدق أنني قد أخطي
سبيلي ولا زلت أتعامل ما بال حسن؟ ولماذا هذه الأسئلة عنه وهذا التحقيق؟ ولا أجد
جواباً.

وصلت الدار وقد سبقتي الأخبار إليها فطارت أسي لاستقبالي والزعاريد تطر
والجيران يهتفون ويحمدون الله على سلامتي سألت لسي أين إبراهيم؟ قلت: لا أدري
كان معي في التحقيق في الأيام الأولى ثم لم أسمع عنه شيئاً وحدثت أهلي بما حدث
معي، بعد أسبوع وبينما نحن جلوس في الدار وقت العصر؟ طرق الباب بلهفة وجاء
صوت البشير: هذا إبراهيم قد أطلق سراحه، فزنا نستقبله والزعاريد ولقتهاتي من كل
حذب وصوب.

سألني عما حدث معي، فأخبرته وأخبرني بما كان معي في التحقيق، وهو تقريباً ما
حدث معي بالضبط. أثناء الليل ونحن خلوت معي في غرفتنا سألتني عما حدث وما تفسر
ذلك؟ قال: لا أدري ولكن يبدو أن حسناً هارباً منهم أو مفقوداً! سألتني هل تعرف أن الذين
دخلوا عليه جواسيس وأنها مصيدة لمعرفة ما عنده؟ ضحك وقال: هذه ليست المصيدة يا
أحمد؟ تساملت بدهشة: ماذا؟ قال هذه المصيدة المعروفة لتقع في المصيدة الحقيقية،
تساملت: كيف؟ لا أفهم؟ قال: هم يعرفون أننا سمعنا عن المصائد وعن الجواسيس في
التحقيق لذلك يأخذون الواحد على مصيدة أولى مكتوفة حتى يكتشفها ويحذر منها، وينتفع
فجراً أنه خدعهم، ثم يأخذونه إلى ذلك القسم ليورط هناك، فهذه هي المصيدة الحقيقية،
تساملت: تعني أن القسم ومن فيه جواسيس وأنهم هم....؟ قاطعني قائلاً نعم نعم.

حدثت الله أنني لم يكن لدي معلومات أخفيها أصلاً لأنني كنت سأقولها لهم لأنني لم
أشك فيهم.

فأخبرني أنه حين كان عندهم مسأله فنفى أي علم له بالأمر، كأنهم أحسوا أنه قد شك فيهم فهددوه وقالوا له أنهم يشكون فيه أنه عميل وجاسوس، وأعطوا ذلك في الغرفة وفرضوا عليه حالة الطوارئ، وبدلوا يتعاملون معه كأنه جاسوس وقد أدرك أنهم بذلك يحاولون أن يخلقوا لديه ردة فعل ليدافع عن نفسه، ولكي يثبت أنه ليس جاسوساً يبدأ بالحديث عما لديه من أسرار وقد أحضروا له أوراقاً موقعة من مسئولين في الحركة وعليها اختام حمراء وغير ذلك يتحدث معهم بالحقيقة ولا يخفي عنهم شيئاً وأنه أكد أنه حدثهم بالحقيقة، وهي أنه لا يخفي عنهم شيئاً مطلقاً، ولو تحدث بأي شيء لما خرج من السجن لسنوات.

ف نظرت إليه بإعجاب وسألت: لكنك لم تخبرني أين حسن؟ أجاب بلا مبالاة: انس هذا الأمر والمهم أنه لن يضايقنا ولن يسيء لسمعتنا ولن يضايق أحداً بعد الآن، فتركته أنه قد أبرأ نفسه، وحمدت الله في نفسي أنني لم أكن شريك سره من قبل أو شريك فيما فعل، فلملني كنت قد تورطت وحدثت أولئك الفضائيين وتورطت وورطت ابن عمي.

مع أول فرصة سحبت لي بعد خروجي من السجن، خرجت مبكراً وانتظرت خروج "أنصار" محبوبتي لأراها ولأجعلها تراقني، فإن كانت قد سمعت باعتقالي تطمئن على ونشر عيها، لمعتها قد أطلت من الزقاق فنظرت إليها، فنظرت إلي نظرة خاطفة وغضت طرفها وتمتمت شفها بكلمات صغيرة، اعتقدت أنني قرأتها (الحمد لله) لو قد أكون لوهمت نفسي بذلك إذأ فهي قد عرفت أنني كنت في السجن وها هي تحمد الله على سلامتي، غمرتني سعادة لا توصف وانطلقت لسابقها إلى الجامعة أتقدمها في السير حتى تراقني، وتؤكد من سلامتي.

في إحدى الأمسيات بعد الإفراج عن إبراهيم وبينما كنت أجلس معه في لفرفة ندرس في كتبنا الجامعية دخلت أمي الفرفة وقد قرأت علينا السلام، وهي تحمل بين يديها صينية وعليها ثلاثة أكواب زجاجية وإبريق شاي، سحبت الطاولة نحو سرير إبراهيم وجلست على طرف السرير فاستند جالسا إلى جوارها، صبت الشاي وناولت كل واحد منا كوبه وارتمشت رشفات طويلة من كوبها وقللت وهي تتحدث بحديثها لإبراهيم: انظروا ما أجمل أولاد محمود وحسن وفاطمة وتهاني، الابن هو أعلى ما في الكون، ولا تحس بذلك المعنى إلا حين يكون لك ولد، يا سلام ما أجمل أن تصبح أما أو أباً، هذا أجمل ما في الكون من مشاعر وأحاسيس.

أدركت أنها تمهد لموضوع آخر، فرمقت إبراهيم بطرف خفي، فلاحظ الماكر نظرتي يرد ببسمة خفيفة وكأنه يقول لي: أنا أدرك ما تمهد له أمك.

وكانها أدركت أنها أطلقت المقدمة فقالت: يا إبراهيم أريد أن أزوجك وأفرح بك؟ ضحك ضحكة طويلة وقال: لا عيب يا عمتي الله يخليك لنا يا بركتنا، لكن لا تخافي علي فلن الفعل شيئاً ضاراً أو خطيراً ولا زلت صغيراً وبعد التخرج من الجامعة يكون خيراً إن شاء الله. أجابت بحدة وغضب، سوف أزوجك، يعني سوف أزوجك؟ ولماذا بعد التخرج إن لديك حوالي ألفي دينار محي وهي تكفي لأزواجك وزيادة، فاطمعا يا عمتي... فاطمعة أصبحت لتنتهي الأمر سوف تتزوج يعني سوف تتزوج للمهم الآن من التي ستزوجه؟ أخبرني ولما أكمل الباقي ولا تتفشني في الأمر، ودفعته عدة دفعت في خاصرته أعتقد أن هذا ليس وقت هذا الأمر، فلا زال هذا مبكراً وسليماً لأولاه، سألتته: هل هناك واحدة بعينها تريدها؟ نظر بدهشة وقال: لا قلت لك لم أفكر في واحدة، وقامت وهي تعمل معها صينية الشاي.

وجدت الفرصة سانحة لأرى موقفه ورأيه في قضية حسنة: ألا تريد أن تتزوج حقيقة؟ قال: هذا الأمر لم يخطر ببالي قبل دخول أمك الغرفة، ولم أفكر فيه من قبل، قلت: والآن؟ قال: أعتقد أن هذا ليس وقت هذا الأمر، فلا زال هذا مبكراً وسليماً لأولاه، سألتته: هل هناك واحدة بعينها تريدها؟ نظر بدهشة وقال: لا، قلت لك لم أفكر في الأمر، قلت: يعني بصراحة هل هناك واحدة تحبها؟ قال وقد زادت دهشته: واحدة أحبها؟ عمتي تتحدث يا رجل؟ قلت: يعني تريد أن تقول لي أنك لا تحب؟ قال: ومن قال أصلاً أنني أحب حتى أنفي هذا الأمر.

قلت: ولم تحب في أي يوم من الأيام؟ قال: تريد الصراحة قلت: نعم، قال: هذا موضوع شائك وطويل، فقبل حوالي خمس سنوات رأيت فتاة وشعرت أنني أحبها وبدأت أرقب رواحها وضوفاً وبدأت أشعر أنني أحبها وأنها تبادلتني الحب، لم يتطور الأمر عن ذلك ولكن حين بدأت أصلي ولتزم بالمسجد فهمت أن مثل هذه العلاقات ممنوعة قبل التفكير الجدي في الزواج، فكففت عن الوقوف في طريقها لأرقبها، ولكنني شعرت أن قلبي لا زال معلقاً بها وبمشقتها ولا أعتقد أن في ذلك حرجاً دينياً.

لكن بعد عودة حسن ومكوته في المهيم والمصائب التي فعلها واندماجي في الحياة السياسية وشعوري بأنني أصبحت جزءاً من الهم الوطني، هم هذه البلد ومقدراتها، فكرت قليلاً وقررت أنني يجب أن أتوقف حتى عن هذا التفكير مجرد للتفكير في الحب، يبدو يا أحمد أننا يجب أن نظل محرومين حتى من هذا الشعور... مجرد للشعور.

كان يتحدث من أصباق نضه وروحه، وكأنه في حالة ولادة بعد المخاض، فتساقطت
الاعتقادات تلك تباع في هذا؟ فحسب علمي أن الثوار هم العشاق والأبناء، ضحك وقال: هذا
صحيح هذا صحيح يا أحمد ولكن ليس عندها، ليس في الشعب الفلسطيني هذا صحيح، مع
ثوار هيتلر وكوبا والصين الشعبية، لكن يبدو أن قدرنا أن نحش حباً واحداً فقط، حب هذه
الأرض ومقساتها وترايبها وهواتها وبريقاتها، ويبدو أن هذه الأرض ترفض أن ينقضها
أي منافع في حب العشاق لها بمشقه سواها من الصيايا.

ضحكت وقلت: والله لقد اجتمعت فوق الثلاث، ثائر وعاشق وشاعر فما قلته ليس (لا
صورة من الشعر، وهي تغزل في معشوقك الغيور، ولكني لا أعتقد أن هذا يتنافى مع
عشق واحدة من الصبايا الجميلات، فمشق من عشق الوطن، تنهد وقال: مرة أخرى يا
أحمد هل تريد للصراحة؟ قلت لا أريد غيرها، قال: معلما قال للمثل الشعبي (في هالبلاد
ولاد الحرام لم يتركوا لاولاد الحلال شيء)، يا أحمد الاحتلال لوث لنا كل شيء لوث
أرضنا، لوث هذونا، لوث بحرنا، لوث شوارعنا، ولوث نفوسنا، يا أحمد كم قصة سمعت
بذلك بحب عنيف في هذا البلد وتحولت إلى صوط يكوي به الاحتلال ظهور المتعابين، يا
أحمد حين تستخدم هذه العلاقة الشريفة للمقسة بيد العملاء إلى أورلق ضغط على العشاق
لإجبارهم على خيانة معشوقتهم الأولى (القدس)، هل يظل في حياتنا متسع للحب والعشق؟
قلت: أنا متأكد أنك تبالي وأنت تخط مفاهيمك الدينية والأحكام الشرعية مع ممارسات
الاحتلال وعملائه فتخرج بمزيج قبيح وحاد من الأفكار. لنسهم قليلاً: ومن قال أنه يمكن
فصل المفاهيم الدينية عن واقع الحياة وتفاعلاتها، يا أحمد أنا قررت قطع هذا الحبل بعد
أن عشقت بكل روحي وجوارحي فتاة ماء، رغم أن علاقتي بها ظلت في دائرة المباح
والعفيف، حتى كلمة لم أباذلها، عشقتها من أعماق روحي وحين ألمح علي ذلك القصور
الثقل والحد من الأفكار إلى حد بعيد سألت نفسي سؤالا: هل أحبها حقاً؟ وأجبت
نفسى بكل تأكيد. فقلت لنفسي حينها: إذا كان حبك صادقاً ففي مثل قبود حياتنا كفلسطينيين
يجب عليك التناهي في الحب بترك كل ما قد يفتح أبواب الفساد والشر، ما قد يخدش
صورة المحبوبة أو سمعتها، وحتى يجب أن توقف نسائم الهواء التي قد تمس وجه
الحبيب أو تداعب شعوره، نحن لسنا كغيرنا يا أحمد... لسنا كغيرنا، ونصبح على خير.

دخل فرأته وسحب الغطاء عليه، فأجبت: وأنت من أهله، وسحبت شطائي على
وأنا أفكر في كل كلمة قلها ولتصايل: هل إنه يبالغ حقاً لو أننا لسنا كغيرنا؟؟ فسمعتنا هذه
ليست قصة الايرلنديين أو الخمير الأحمر أو الباكستانيين، هذه قصة فلسطينية قصة تربع
في عتبتها المسجد الأقصى.

في اليوم التالي كنت في طريق عودتي للبيت من المسجد فاستدعى انتباهي أن إشارات جديدة كنتك التي رأيت ضابط المخابرات يكتبها وحللتها شيفرتها مكتوبة على الجدار، عدت للبيت وانتظرت عودة إبراهيم وأخبرته بالأمر، خرج على الفور ليأتي بتفاصيل ما كتب ثم عاد وفقاً لتحليلاتنا السابقة، فإن موعد اللقاء للمحدد في هذه الشيفرة بعد أسبوع، سألت إبراهيم: ما رأيك؟ قال هذه إشارة لمسيل لا أعرفه وهو خطير؛ لأنه غير معروف ويجب علينا معرفته؛ كيف؟ قال: دعني أرتب الأمور، فلا زال معنا أسبوع، كانت الإشارة تشير إلى أن موعد اللقاء هو الساعة (٢٠) أي الساعة الثامنة مساءً.

في اليوم المحدد منذ الصباح قال لي إبراهيم: كن مستعداً اليوم، سنخرج لنحاول معرفة العميل الساعة الثامنة سننتظرك في المسجد، انتظرت في المسجد في الموعد المحدد جاء وأخذني بالسيارة وانطلق خارجاً من المخرج وخارجاً من مدينة غزة متجهاً نحو الشمال، ثم انعطف لأحد الطرق الفرعية المؤدية إلى مجموعة من المستوطنات، وأشار إلى شجيرة صغيرة على جانب الطريق قائلاً: هل ترى الشجيرة هذه؟ قلت: نعم، قال بعد ساعة يكون الظلام قد حل ومن يكم وراء الشجيرة لا يراه أحد، وهو يرى كل من يمر في هذا الطريق خاصة تحت نور المصباح الكهربائي على عمود الكهرباء هناك، قلت تصحيح، قال: حين نعلم الدنيا سأتأكد هناك وسر بهوء والفحص الأجواء حولك، فإن وجدت الجو مناسباً فاختف وراء الشجيرة، لما سألوك إن لم تختف فسأني لأخذك وإن اختفيت جيداً فراقب الشارع جيداً واعرف من سيأتي هنا، وماذا يحدث، وابق خلفها حتى أتي لأخذك، تسامعت: وكيف حزمتم أن من وضعت له الإشارة سيأتي من هنا وليس لأي مكان آخر في العالم، ضحك وقال: ألا تثق بي؟ أترك لي ترتيب الأمور يا أحمد.

عاد بي في الوقت المحدد أنزلني من السيارة، سرت وتفحصت الأجواء كانت مناسبة حيث أن المكان خال فاختفيت وراء الشجيرة انتظر عقارب الساعة، لبت أن تتحرك لدقيقة وبعد دهور ودهور هذه الساعة تقرب من الثامنة ودقيقة... ودقيقتين... وثلاث ولا شيء يحدث.

قلت لنفسي يبدو أننا نخدع أنفسنا ونظن أنفسنا أنكماء وأنهم بهذه البساطة، يبدو أنني وثقت بإبراهيم أكثر مما يجب، انتزعني من هذه الأفكار صوت سيارة تقف على الطريق العلم على بعد عشرات الأمتار مني وشخص يفتح الباب وينزل ويطلق باب السيارة التي تتطرق في طريقها تأكدت أنها سيارة أجرة صومية.

بدأ هذا الشخص بخطو متجهاً نحوى في الطريق الفرعى، دقت النظرة وخفت قلبى
تزداد وترتفع وأخشى أن يسمعها هذا الشخص، فركت عيني لأتأكد من أنني سأراه جيداً،
حين أصبح تحت الضوء على بعد عشرة أمتار منى رأيت، كنت أشبه، فتخرج روحى
من بين جنبي وكثمت أنفاسي، فهذا "فليز" أحد أصدقاء إبراهيم المقربين وأحد النشطاء.
قلت في نفسي لعله جاء بطلب من إبراهيم للمراقبة هو الآخر!! وقبل أن ألقب هذه الفكرة
جاءت سيارة بسرعة وانعطفت في الطريق الفرعى، توقفت، فتح بابها الخلفى، ركب فيها
فليز وانطلقت كنت متأكداً مائة بالمائة أن هذه سيارة ضابط مخابرات المنطقة "أبو وديع"،
وكنت شبه متأكد أن "أبو وديع" كان في السيارة بنسبة لا تقل عن ٩٥%.

تتزعجني الأفكار هل أنا في رؤيا في المنام؟ هل هذا حقيقي؟ ليس هذا هو لولمأ بوليساً
أو جاموس؟ ماذا أقول لإبراهيم؟ هل أخبره الحقيقة؟ هل أخفى عنه الأمر وأقول له أن
شيئاً لم يحدث؟ ظلت الأفكار والتساؤلات تمزقني حتى جاءت سيارة إبراهيم، حين تقرب
تقصصت المكان فوجدته خالياً، خرجت من وراء الشجرة، وركبت معه وانطلق مستكبراً
بالسيارة خارجاً إلى الطريق وهو يتساءل؟ هل حدث شيء هنا؟ هل رأيت أحداً؟ هل جاء
ضابط المخابرات؟ وأنا لا أجيب.

لنتبه أنني في وضع غير طبيعي فتساءل: ما بالك ما حدث لك؟ قلت: لن تصدق ما
حدث، قال يتلهف وماذا حدث؟ قلت: جاء للرجل وجاء "أبو وديع" وأخذ به بالسيارة، صرخ:
صحيح، ومن الرجل؟ قلت: هذه المشكلة، قال: أي مشكلة؟ من الرجل؟ قلت: فليز، قال:
فليز!! من؟ قلت: صاحبك؟ صرخ: ماذا تقول؟ ماذا؟ وليس أحداً سواي؟ قلت: نعم هو
بشعنه ولحمه رأيت بهيئتين مائة بالمائة دون أدنى شك، قال: أبو وديع جاء وأخذ؟
قلت: نعم أبو وديع بسيارته أوقفها بجوارى، فتح الباب وصعد فيها، وانطلقت السيارة
للمستوطنات.

انعطفت إبراهيم إلى جانب الطريق وهو يخفف سرعة سيارته حتى أوقفها ومسح
الفرامل اليدوية وأطفأ السيارة وألقى برأسه بين يديه على مقود السيارة قائلاً: يا إلهي ماذا
يحدث هذا؟ أنا لا أصدق، هذا غير معقول (مش ممكن... مش ممكن) وظل يردد ما منات
المرات، قلت ولماذا مش ممكن؟ صحيح أنه لا يعرف عن... عوقف قاطعاً حديثه ثم
واصل قائلاً: يا إلهي يبدو أنني فقدت السيطرة على عقلي دعنا نذهب للبيت، جلست مكانه
على كرسي القيادة، وانطلقت إلى البيت دون أن ينطق حرفاً واحداً، حيث التقينا من
البيت، طلب منى أن أتوجه إلى بيت الشيخ أحمد، وقبل أن نصل طلب منى التوقف،
والانتظار بعيداً عن بيت الشيخ حتى عودته.

غاب حوالي نصف ساعة ثم عاد، ركب إلى جوارى وانطلقنا إلى البيت لم نهم
أحدنا بيئت شقة. أحضرت لنا أختي مريم العشاء بالكاد تناول بضع نقيمات، شربنا الشاي
ولمسك كل واحد منا يكتبه ينظر إليه ولا يرى للعروف.

بعد ساعة نظر إليّ وقال: أحمد أعرف أنك لست في حاجة للتذكير ولكن لا بد أن
أذكرك، هذا موضوع مطلق ولا تكبر به أهدأ، قلت: دون شك، هال: لا زلنا غير قادرين
على الجزم بأن تلك ليس جملة من الصدق التي اجتمعت ولا بد أن نفحص الأمور لتتأكد
مائة بالمائة، قلت: هو كذلك، ولكن كيف؟ قال: سنرى سنرى، تصبح على خير (وهو
يمسح غطاءه عليه) ثم التفت وقال لو قابلته يجب أن لا يحسن بأي تغير من طرفك، قلت:
هو كذلك مسحب كل واحد منا غطاءه ووضع رأسه على وسادته ولا أدرى كم من
الساعات مرت علينا ونحن نتقلب في فراشنا كمن فرش سريريه بالجمر.

عندما قمنا لصلاة الفجر همس في أذني وهو يحاول الابتسام قائلاً: هل يجوز لمثنا
ونحن نعيش هذه الحياة ونرى ما نرى أن نحب ونعشق يا أحمد، حينها قررت أن أنهي
قصة عرلي إذا جاز لنا أن نسميها قصة عرلم وأدركت معنى أن قصتنا قصة فلسطينية
مريرة لا مكان فيها لأكثر من حب واحد...وعشق واحد.

فصل

الفصل التاسع عشر

لاحظت مع إبراهيم صحيفة عبرية لم أكن أعرف أن إبراهيم يعرف اللغة العبرية جيداً، ولكن يعرف القليل منها، لاحظت أنها صحيفة (يدعوت أحرنوت) سألتته: ما هذه الصحيفة؟ وماذا فيها؟ قال هذه صحيفة عبرية (يدعوت أحرنوت)، وفيها مقال عن قطاع غزة، وسحب الصحيفة برفق ومعها ترجمة المقال، وتلوني ياها.

كانت مقالة طويلة تصف الواقع في غزة، وتلخص ذلك بأن قطاع غزة تحول إلى مستنقع من العملاء والجواسيس الذين يتعاملون مع جهاز المخابرات الإسرائيلية للشبابك، وأن غزة التي كانت بؤرة القلاقل ووجع الرأس للإسرائيليين في مطلع الاحتلال، لا يمكن أن تقوم لها قائمة، ولا يمكن أن تعود إلى هذه الزاوية مطلقاً وأن معظم ما في هذه المقالة منسوب إلى مصادر استخباراتية وإلى مسئولين في جهاز الشاباك.

قرأت ذلك بقلق بالغ وقد لاحظ إبراهيم قلبي فقال وهو يتنسم: شيء مقلق أليس كذلك؟ قلت: بكل تأكيد، قال: كل هذا كلام فارغ، ألم تر كيف تحولت غزة إلى بركان حين حاصروا الجامعة واستنفروا الناس من المساجد، قلت: صحيح ولكن... قاطعني قائلاً: لا شك أنهم نجحوا في ضرب المقاومة ضرباً قاسماً وأنهم قد تخلطوا في أوساط شعبنا بصورة مخيفة، ولكن هذه أرض مباركة، الله بارك فيها وفي أهلها، فإذا لُزمت الساعة لنطلق المارد من جديد، سيعرف هؤلاء أي منقلب ينتظرون، قلت: مرة أخرى أراك رومانسياً خيالياً ولا اعتقد أنك تبني نظريتك على معلومات صحيحة وإحصائية وإنما هي مجرد أحلام وأمنيات، ابتسم بيقظة عالية وقال: ستري يا أحمد ستري.

اجتمع شباب ثلاثة في مطلع العشرينات من عمرهم في إحدى دور مخيم رفح للجنين على بعد عشرات الأمتار من الحاجز الحدودي مع مصر على قرشة من القمشة القديمة يتهايمون:

- عبد الحميد: لا بد أن نفعل شيئاً، لا يمكن الانتظار هكذا دون عمل أي شيء.
- سأل خليل: وماذا يمكننا أن نفعل؟
- أجب فريد: يمكننا أن ندبر بعض السلاح القديم، ونبدأ العمل به.
- انتفض خليل قائلاً: لا... لا يمكن أن نستخدم السلاح الذي يشتري من السوق السوداء فأنتم تعرفون أن شالييته قاسدة أو مشرقة، أو تؤدي للاعتقال الفوري حيث أن من يتاجرون به يفعلون ذلك بعلم من المخابرات لاعتقال من يفكر في العمل ضد الاحتلال.

- تسأل عبد الحميد وقد ضاقت ذرعاً: وماذا نفعل؟ لا بد أن نبدأ العمل.
- ابتسم خليل قائلاً: لدي فكرة جيدة، ولا بد أن نجربها.

يوم السبت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، حافلات عديدة تتوقف في ميدان فلسطين في مدينة غزة، وينزل منها المئات من اليهود ذكوراً وإناثاً، حيث يبدلون التجول في المدينة وأسواقها، مجموعات مجموعات، يتمايلون ويتضاحكون ويشمرون ما طلب لهم ويأكلون ويشربون، وشارع عمر المختار في المنطقة التجارية المكتظة منه للواصلة بين ميدان فلسطين وميدان الشجاعة يكتظ بهم، يتحدثون اللغة العبرية وأحياناً يتلفظون ببعض الكلمات باللغة العربية بصورة مكسرة، فيتضاحك الباعة ويتضاحكون هم كذلك.

من طرف شارع المختار، من جهة ساحة الشجاعة يسير "خليل" مسكماً ووجهه هريدة القدس مطوية كما هي عادة للكثير من للشبان من أبناء المخيمات وينظر إلى زجاج محلات (فلترينلت) العرض في المتاجر، ومتقدماً رويداً رويداً، أصبح إلى جولته أحد أولئك اليهود على متر واحد جملته على يمينه، ليمر هو بجوار الحاجز الحديدي الذي يفصل الرصيف عن الطريق ولجأة سقطت الصحيفة من يده، وإذا بسكين مطبخ حادة الفصل في قبضته، طارت يده والسكين فيها باتجاه عنق اليهودي للأمام وللخلف بسرعة البرق لا أكثر ولا أقل، فكانت عنقه قد نبحت وتدفق الدم منها غزيراً وسقط على الأرض. كان خليل قد انعطف في شارع جانبي وما أن انتبه الناس وتصايحوا حتى كان قد ركب سيارة تنتظره يقودها عبد الحميد وانطلقت بصورة هادئة مندمجة في حركة المواصلات التي تزخر بها شوارع المدينة، خلال ربع ساعة كانت قوات ضخمة من جنود الاحتلال ومخابراته وشرطته قد حضروا إلى المكان، حاصروه وبدأوا بإجراءات، نقلوا جثة القتيل وتفحصوا المكان وبدأوا بحملة تحقيقات بين أصحاب المحلات والمارة، بعد أيام ليست كثيرة تكرر الحادث في منطقة قريبة.

خليل يرسل سكينه كالبرق إلى أحد المحتلين للأمام وللخلف مرة واحدة ثم تبتلعه أُرقة المدينة، ويختفي مع موائها الناص و قوات الاحتلال ومخابراته تقيم الدنيا وتقعدها، اعتقالات حجز، تحقيقات... دون جدوى.

في إحدى الأمسيات كنت أجلس في غرفتي لأدرس في أحد كتبي سمعت طوقاً على الباب وهمت لأرى الطارق فتحت الباب فإذا فائز أمامي يرد عليّ السلام، لم تكن قادراً علي رد السلام، فقد تعثرت الكلمات في حنجرتي ثم تذكرت ما قاله إبراهيم فرددت التحية.

سأل: هل إبراهيم موجود؟ قلت: لا، ولكنه قد يأتي في أي لحظة، قل: لا، سأعود بعد قليل، إذا جاء أخبره أنني سأتي لأراه فليفطنرني. ثم انطلق، عدت إلى دراستي. بعد حوالي نصف ساعة طرق الباب ثانية ولم يكن إبراهيم قد عاد بعد، كان فائز بالباب قلت له، لم يعد إبراهيم بعد بفضل بفضل، وقد كنت قد استوعبت فكرة الحديث معه، فلدبت على الأهل ليخلوا الطريق، ودخل معي إلى غرفتنا حيث جلس على حافة سرير إبراهيم، وبدأت أحاول الحديث معه في موضوع ماء، نشغل الوقت للتغلب على التوتر الذي يعتريني.

سألته عن دراسته واستعداداته للامتحانات التي اقتربت فأجاب بأنها جيدة ولن استعداداته على قدم وساق، فالدراسة أصلاً سهلة وليست معقدة، سأل فجأة: حسب علمك هل سيتأخر إبراهيم؟ قلت: لا أعتقد، قال: لا أريد أن أتأخر كثيراً، هل من عادته التأخر في الليل كثيراً؟ قلت: لا ولكنه قد يتأخر أحياناً، سأل: حسب علمك أين يمكن أن يكون الآن فعلى أنه يذهب إليه هناك، قلت: لا أعرف، سأل: ألا يذهب لزيارة أخيه حسن؟ ارتفع صوت دقات قلبي وأجبت: كلا نحن لا نرور حسناً ولا نتعرف عليه ولا ندرى ما هي أخباره منذ سنوات طويلة حيث طردناه من الدار لأفعاله السيئة.

قال فائز: ولكن حسناً أخوه والدم لا يصبح ماءً، فلا بد أن يكون مهتماً بأمره قلت: لا... لا، أنا لم أسمع به يذكر اسمه منذ تلك الوقت، ونحن قد نسيناه ولولا أنك ذكرته ما تذكرناه، وسألته: ولكن لماذا تسأل عن حسن؟ بدا عليه الارتباك للحظة ثم قال: قلت في نفسي قد يكون عنده فلذهب لأراه هناك، ثم سأل: ولكن أين يمكن الآن؟ قلت: لا أعرف. ونحن لم نره منذ زمن بعيد، استأذن بالانصراف فأخرجته من البيت، وعدت إلى غرفتي ودراستي التي لم أعد أفهم منها شيئاً وأنا أتساءل: هل أنه مكلف من المخبرات بالبحث معنا حول موضوع حسن؟ وإلا فما هذه الأسئلة الكثيرة عنه!!

عاد إبراهيم بعد قليل، فأخبرته بالأمر ضحك وقال: ممتاز ممتاز، الآن نحن نراه وهو لا يراقبنا، دعه يقوم بمهمته ونحن سنؤكد من كونه يعمل معهم لو لا، قلت: كيف؟ قال: هناك من يراقبه الآن ويحصى عليه كل حركة وسكنة قلت: ألا ترى؟ أنا متأكد منذ وجدت معك التقرير أن لديكم جهازاً أميناً يعمل في هذه الموضوعات، نظر إلي غاضباً وقال: يا أحمد ما لزوم هذا الكلام؟ أنت تريد العيب أم تريد مشاجرة الناطور، ضحكت وقلت: اللهم إن تضمني في صورة التطورات في هذا الموضوع لأنني كنت من البداية جزءاً أساسياً فيه، قال: لك هذا.

دخلت لمي تعمل العشاء وقد قرأت علينا السلام، فأجبنا بسلامه ووضعتنا على الطاولة وجلسنا على حافة سرير إبراهيم قائلة: تناولوا عشاءكم، وبينما كنا نأخذ مقاعدنا حول الطاولة تساءلت: ما هي أخبار عريسنا؟ قلت: إنها إبراهيم قائل: بخير يا عمتي، ولكن لا داعي لعريسنا هذه، ردت بغضب: لماذا؟ ليكن في علمك أنني قد بدأت أبحث لك عن عروس مثل القمر، قال: ألم نتفق أن نؤجل هذا الأمر لحين التخرج، قلت: نعم نعم، ولكنني أبحث لك ولول ما أجد العروس المناسبة سنخطبها لك ولو قبل للتخرج، قل: يا عمتي... التفتت مقاطعاً لمي أخلصه من المأزق، ما عليك أنه يريد واحدة محددة وهو يحبها، نظرت إلي ساخرة، اسكت أنت، من طلب منك للتدخل؟ ومن عرفك بالرجال؟ إبراهيم يريد واحدة بعينها!! وهو يحبها يا للغباء اسكت يا ولد اسكت، ثم توجهت لإبراهيم قائلة: أنا أبحث لك يا إبراهيم وسأخذك قريباً لتتعرف عليهم قال: يا عمة، قالت مقاطعة: اسكت أنت الآخر وخرجت من الغرفة.

في مدينة الخليل بعد صلاة المغرب للشيخ جمال يقف بين عدد من الشبان في المسجد يدرسهم شؤون الدين ويذرع فيهم معاني التقوى ويرغبهم في ما عند الله ويؤيدهم في الدنيا وفي نفس الوقت في مسجد آخر يجلس عبد الرحمن بين جمع من الشبان يتحدث معهم في نفس المعاني.

نظر الشيخ الذي يجلس بجوار المنبر إلى ساعته وبدأ يستعد للوقوف للأذان، وصعد صوت الأذان لصلاة العشاء من مآذن مساجد الخليل... الله أكبر.. الله أكبر، بعد إتمام الصلاة أشار عبد الرحمن لابن أخيه عبد الرحيم بيده أن هيا لنخادر المسجد فأنطلق عبد الرحيم ليلتقي بعمه عند باب المسجد وانطلقا وعبد الرحمن يقول: هيا، لا نريد التأخر فلهم معنا اليوم سيارة لنوصلنا للبلد فطلقنا في شوارع البلدة القديمة ذات البيوت الحجرية القديمة.

في أحد الأزقة علا الصراخ: الله أكبر يا ناس هذه دارنا وصوت يرد عليه بالعربية المكسرة: هذه ليست داركم هذه داري انصرفوا من هنا، نظر عبد الرحمن وعبد الرحيم في الزقاق فإذا بعشرات الجنود يقفون وقد شهبوا أسلحتهم بحموم عداً من المستوطنين والمستوطنات رجالاً ونساء، وهم يطردون سكان الدار ويلقون بأناثهم خارج البيت، وكلما حاول سكان الدار العرب العودة لدارهم وجه الجنود سلاحهم إليهم، وبدأ المستوطنون بدفعهم وسحبهم والصراخ عليهم.

توقف عبد الرحيم وقد اندفعت قدمه نحو الزقاق وشعر عمه بذلك فأمسك بيده وسحب به بشدة قائلاً: إلى أين؟ وماذا يمكنك أن تفعل مقابل تلك البنات؟ نظر إليه عبد الرحيم عاتياً وقال: هكذا نمر دون أن نفعل شيئاً!!

فقال: يا عم هذه مشكلة لا تحلها الانفعالات، وردات الفعل العريضة واللحظية وهذه ليست أول دار وآخر دار يستولي عليها المستوطنون، وهذه ليست أول عائلة أو آخر عائلة تطرد من بيتها، وأنت ترى أن العين بصيرة واليد قصيرة، والأمور تحتاج إلى حل جري.

قال عبد الرحيم وقد ضاقت نفسه ذرعاً: وكيف؟ ومتى؟ فرد عبد الرحمن مهلاً يا بني مهلاً فإن لكل أجل كتاباً وأمر الله أن لا محالة.

مع صباح اليوم التالي يتعالى صياح أولاد القرية فجري عبد الرحيم نحو الباب ليرى ما يحدث، يتلدى عليه خالتي إلى أين يا عبد الرحيم؟ فلا يجيب ويخرج جازياً مع الأولاد نحو الغرب ومن ناحية الغرب يعلو صوت جرافات وسيارات تدك الأرض دكاً. يطل الأولاد على تلك الآليات وهي تسوي الأرض وتقتلع الأشجار، وتهدم بعض البيوت الحجرية الصغيرة، صرخ العديد من الأولاد هذه أرضنا يجرفونها وانطلقوا عاكفين جرياً للقرية، أصواتهم تتعالى اليهود يجرفون أرضنا، اليهود يقتلعون أشجارنا، ومع أصواتهم تفتح أبواب المنازل، ويطل منها الناس يتعاطفون عما يحدث؟ ويخرجون ثم يسيرون نحو الغرب.

أحد الرجال يصرخ وهو يهرول قادماً نحو الجمع: الله أكبر يا ناس... الله أكبر، ماذا جرى ماذا جرى؟ وحين ينظر إلى الجرافات تطحن أشجاره يسقط على الأرض فاقد الوعي فيجتمع حوله عددٌ من الحضور لإسعافه، وأحدهم ينادي صارخاً أحضروا ماء وبينما ينشغل عددٌ من الناس في إسعافه يتقدم بعض الرجال نحو الجرافات، فيقتحم إليهم بعض الجنود ويدور بينهم حول أشبه بحولر الطرشان.

الرجال يقولون: هذه أرضنا ولماذا نجرهونها؟ والجنود يطلقونهم بالرجوع ويشهرون البنادق في وجوههم ويكرر الرجال اعتراضهم فبدفهم الجنود فيسقط أحدهم (رجل كبير في السن) فيساعده آخر للقيام وثالث يدافع الجنود، ويتعالى الصراخ وترتفع للصيحات، ثم يبدأ الجنود بضرب الرجال بالهراوات ومن يسقط على الأرض يتقلوه ركلاتهم فيبدأ الجمع بالصراخ والتكبير، فيبدأ الجنود بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع، فيتفرق الجمع، ويبدأ الأولاد برشق الحجارة، ويطلق الجنود النار فوق رؤوس المتظاهرين، تقضم الأرض وتقطع أشجار الزيتون وتطحن تحت جنازير الجرافات وتطحنها طحناً، عبد الرحيم يرشق الجنود بالحجارة، وإطلاق النار والغاز يتواصل وعمل الجرافات يتواصل حتى غروب الشمس، وتتصرف الجرافات والقوات التي تحرسها، وينصرف غالبية الناس إلا بعض الرجال والنساء كبار السن، فقد ارتموا على تراب أراضيهم بقلوبه وينثرونه على رؤوسهم ونحيبهم لا ينقطع.

جامعي إبراهيم فتللا اليوم إن شاء الله منقسم موضوع "فايز" وبصورة قاطعة ونهائية قلت: كيف؟ قال: عليك أن تقوم أنت بدورك فقط وهو مراقبته على مدار ستة الساعات التالية هذه مفاتيح السيارة عليك الحذر الشديد أن لا ينتبه إليك وأنت مراقبه، لأن كل الخطوة سوف تصد أخذت المفاتيح فتللا: لا تعلق للأمر، ذهب وهو يقول: من هذه اللحظة إلى المراقبة، قلت: على الفور وبدأت أحول بعيني، بحثاً عنه بين جموع الطلاب في ساحة الجامعة، وجدته ولدهشتي وجدت أن إبراهيم قد ذهب ليسير معه، بدأ يتحدث معه حديث شاكياً غير جدي ثم سحبه ذاهباً إلى مقصف الجامعة، راقبتهما وقد جلسا حوالي نصف ساعة ثم استأنف إبراهيم منصرفاً.

كان فايز يبدو مرتبكاً ومحتاراً فيما يفعل ثم قام وخرج من المقصف تجول قليلاً في الجامعة ثم انطلق خارجاً منها، أسرعت إلى السيارة وانطلقت بها من ورائه عن بعد كي لا ينتبه أنني أراقبه، سار في شوارع الثلاثين متجهاً نحو الشرق وهو يلتفت إلى المحل التجارية من حوله متحسباً شيئاً ما، ثم دخل أحد المحل أسرعت مسرعاً بالسيارة لأمر من أمام المحل لأرى ما يفعله بالداخل فراقبته يتحدث مع صاحب المحل وكأنه يستأئنه في استخدام جهاز التلفون، وقد لأن له فرفع السماعة واتصل بها مكالمه مسخيرة، ثم شكر الرجل وخرج.

كنت في انتظاره عن بعد، أشار لإحدى السيارات المارة فتوقفت فركبها وانطلقت انطلقت خلفها حتى وصل إلى ميدان فلسطين نزل من السيارة ودلر قليلاً في الميدان ثم توجه إلى أحد مواقف السيارات، تحدث مع السائق ثم ركب السيارة التي انطلقت به خارجاً من الميدان، ثم خرجت خارج غزة إلى الشمال عندما اقتربت السيارة من القنوع الذي كنت قد راقبته عنده يصعد سيارة "أبو وديع" خفتت السرعة ثم توقفت ونزل منها واتجه في ذلك الطريق الفرعي، انطلقت بالسيارة نحو الشمال، ثم استمرت وعبت وهكذا أروح وأرجع في الطريق العام وكلما مررت بالطريق الفرعي أنظر فيه فأجده لا يزال متجهاً فيه نحو الغرب.

أثناء إحدى تلك الالتفاتات شاهدت ضابط المخابرات "أبو وديع" متطلقاً بسيارته ثم خفض سرعته وانعطف في ذلك للفرع، سارعت نحو المفرق وعند وصولي كان أبو وديع قد توقف بسيارته وفتح الباب ثم ركب فايز معه وانطلق بها، لم أدر ما فعل بعد الآن، فهل عليّ أن لوصل مهمة المرافقة أم أن دوري انتهى. في النهاية انطلقت بالسيارة في ذلك الطريق الفرعي ومن بعيد شاهدت سيارة "أبو وديع" تدخل إحدى المستوطنات، استدرت وعدت إلى الطريق الرئيسي، وانتظرت عند المفرق علي بعد خمسين متراً من الفرع لستمر انتظاري حوالي (٤٠) دقيقة وفجأة خرجت سيارة "أبو وديع" بسرعة عائدة إلى غزة.

انطلقت ونظرت في الشارع الفرعي، فوجدت فايزاً في طريقه عائداً إلى المفرق استدرت بسرعة ورجعت إلى موقعي السابق، وصل فايز المفرق، وأشار للسيارات المارة حتى توقفت إحداها وركبها. سرت خلفه ونزل في ميدان فلسطين ثم ركب سيارة أخرى إلى المخيم وذهب إلى البيت. أدركت أن مهمتي انتهت ولن عليّ أن أبلغ إبراهيم بما كان. سارعت إلى الدار لأبحث عنه فلم أجده، سارعت إلى الجامعة، فوجدته أخبرته بما كان فضحك حتى كاد أن يقع على ظهره قائلاً لقد ابتلع الطعام، وتأكدنا الآن من عائلته، لكن يجب أن نكمل المقلب، قلت: أي طعام؟ وأي مقلب؟! قال: منذ أيام بعد أن رأيت في تلك الليلة وهو لا يترك فرصة بجدني فيها (لا ويسألني عن حسن فأدركت أن هذه مهمته الآن أن يعرف أي معلومات لدي عن حسن، فأخبرته اليوم لنتي سأذهب الساعة الثامنة لمقابلة حسن الذي لم أراه منذ سنوات وأنه أرسل لي ذلك مع شخص لا أعرفه وأنه يريد رؤيتي لأمر ضروري جداً، وقد كنت واثقاً أنه سيسارع إلى إبلاغهم بتلك المعلومات الهامة التي يبحثون عنها، وقد ابتلع الطعام ويجب الآن أن نكمل الأمر.

سأذهب أنا إلى مكان بعيد وكلّني أنتظر غداً حسن وقتاً طويلاً وأظهر لثني مرتبك وفي انتظار وقلق، سأنتظر ساعة وأنا أنظر في كل لحظة في ساعتني كمادة أي شخص قلق، ثم أعود للبيت، سألت بحيرة: وما فائدة ذلك؟ قال: يا أحمد هم اعتقلونا وحققوا معنا وأخذونا إلى المصائد حتى يعرفوا أين كنا قد قتلناه أو نعلم مكانه، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا لنا هذا الخائن لينبش معنا حوله، وإن يتركنا إلا إذا تأكدوا أن لا علاقة لنا بالأمر ولنا حقيقة لا نعرف أين هو وبهذه الطريقة سيكون عن البحث وراعاة وبهذا نكون قد ضربنا صنفورين بحجر واحد، تأكدنا من عائلته وخيائنه، واستخدمناه لتوصيل معلومة لهم تكف شرهم عنا.

قلت وقد علمتني الدهشة: والله إنك مصيبة، ليتسم متمماً ذلك للفضل من الله، قلت: هل تريد الآن مني شيئاً، نظر إلى ساعته وقال: لا هناك متسع من الوقت لأوصلك للدار ثم أذهب لموعدي، أوصلتني للبيت، في الطريق أخبرني أنه قد تم اعتقال مجموعة من الشباب تنتمي للجهاد الإسلامي هي التي وقعت وراء عمليات القتل بالسكين التي حدثت في غزة خلال الفترة الأخيرة، الله أكبر كل خلية تعمل لا بطول عمرها عن شهر ويتم اعتقالها ما هذه المصيبة؟ قال: ملأنا في شعبنا أسأل هذا الخائن وما دينا كتنظيمات وكقوى سياسية غير قادرين على معالجة هذه الظاهرة معالجة جذرية فيبطل الوضع على هذه الحال، بل وميزداد سوءاً، كنا قد وصلنا للدار فنزلت وأنا أقول له لا تتأخر، إن تأخرت عن الساعة الحاضرة فسأعرف أنه قد حدث لك مكروه، فانطلق مغادراً ليصل لموعده في الوقت المناسب.

خطيبة أخي محمد كانت تستعد لامتحانات نهاية الفصل الدراسي ونهاية دراستها في الجامعة لذلك فقد حرص محمد على التردد على منزلهم (منزل أهلها) في فترات متقاربة لينظر إذا كان يلزمها بعض العون في الدراسة. وقد صلى العصر في المسجد القريب، ثم انطلق إلى بيوتهم طرق الباب فخرج أحد إخوتها ليفتح الباب لاستقباله ثم أدخله البيت، حضر أبوها وأمه وأصنوا استقباله ثم حضرت هي الأخرى، ومعها كتبها وجلست على الكرسي المائل.

أما قامت لتحضير الشاي وأبوها ظل جالساً وبدأت تسأل في موضوعات الدراسة ومحمد يجيبها حتى أذن المغرب. قام يصلي هو وولدها وهي وأمه يصلين من وراءهما، ثم جلس ليكمل بعض الشرح، بعد حوالي نصف ساعة قل علي أن أشارك عائداً للبيت، قالت: ليس الوقت ميسراً بعد، قال: لا فأنتم تعرفون أن الوضع غير مستقر والبلد أصبحت الآن مثل مدينة الأشباح، لا راح ولا غادي، وعلي أن أصل البيت قبل العشاء، لئلا نلجأ في إحدى المشاكل مع الجنود أو المستوطنين أو أحد أبناء الحرام.

دفعته بيده في ركبته وكأنها تقول له علام الاستمجال؟ فقال لأبوها: صدقت يا محمد وكلامك عين الصواب، كان محمد قد توقف للمغادرة قائلاً: السلام عليكم، فوقف الرجل يودعه حتى الباب وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته مع السلامة، خرج محمد من البيت وقد كان الظلام يعم المكان فانطلق في طريق العودة لشقته، سار في طريق موحش ليس فيه سواء من الأحياء، سوى بعض القطط المشردة والكلاب الضالة في تلك الساعة المبكرة من المساء، كل المحال التجارية مغلقة وكل الخلق قد استترأ في بيوتهم خشية المشاكل ووجع الرأس، هت محمد خطاه عائداً للبيت دون كثير من الالتفاتات والبحث مما يعيق الوصول إلى البيت.

عاد إبراهيم إلى البيت قبل الساعة العاشرة، بعد دخوله الغرفة مائتته، كيف كان الأمر؟ قال: ابتلعوا الطعام، ويبدو أننا نجحنا مائة بالمائة، قلت: ماذا حدث؟ قال: ذهبت وانتظرت وأظهرت القلق والتوتر ولاحظت أن هناك مراقبة شديدة عليّ، وعلى المكان وحتى أن السيارات مغلقة كانت تقف غير بعيد يبدو أن فيها قوات خاصة للاقتصاص على المكان لو حدث فيه شيء، ولما لم يحدث عنت دون أن يعترضني أحد، ولا بد أنهم متأكدون أننا لا نعرف شيئاً عن حسن.

دخلت أمي الغرفة وهي تقول، ألا تريدون أن نتناول العشاء، وكانت تحمل صينية طعام وتضعها على الطاولة قائلة: السلام عليك، قلنا: عليكم السلام، جلست على حافة سرير إبراهيم ونحن نتقدم لتناول الطعام، قالت: والله يا إبراهيم لقد رأيت لك عروسة مثل القمر وسأخذك غداً لتراها عند أهلها، رفع إبراهيم يده عن الطعام: ماذا تقولين؟ قلت: متما سمعت غداً حصل العصر وتعال على الفور لتأخذني إلى بيت "أبو حسين" لتري ابنتهم سلوى، بنت مثل القمر خلقاً وديناً، وكل ما تريد وتتمنى، قال: يا عمتي... يا عمتي ألم أقل لك... فاطمة قائلة: بلا يا عمتي بلا يا غيره، فنتهي الأمر وأنت عارف أن خطيبة محمد سوف تنهي دراستها خلال أسبوع أو أسبوعين، وسن عقد قرانكما معاً متما فطناً مع محمود وحسن، أوفر وأسرع وأخف، قال: يا عمتي قلت لك من قبل أنني لن أتزوج قبل أن أخرج، قالت: بقي لك سنة في التخرج ولن أصبر عليك سنة متزوج متزوج، فقط لك الحق في اختيار العروس، أما أن تتزوج لو لا فليس لك الحق في ذلك ولا تنس أن تأتي غداً بعد العصر فوراً.

سكت سكوت المطلوب على أمره، فقامت أمي وهي تحمل صينية الطعام، جلس في سريره دون كلام بعض الوقت ثم قفز مذنباً يا عمتي يا عمتي، خرجت من غرفتها فلدمة وهي تقول: ما بالك يا إبراهيم؟ قال: تعالي أريد أن أقول لك شيئاً، جاءت وجلست إلى جواره قائلة: ماذا تريد؟ قال: لن أتى غداً بعد العصر ولن نذهب لدار "أبو حسين" ولن أتزوج ابنته سلوى. نظرت إليه وهي في قمة الدهشة والاستغراب، فليس هذا إبراهيم الذي يتحدث وزمجرة قليلة: ماذا تقول؟ لا لزوم لذلك يا عمتي، قلت: ماذا يعني ذلك هل تريد أن تكسر كلمتي؟ ولا تسمع كلامي؟ ولا تتزوج الآن قال: لا لا سألتزوج يا عمتي كما تريدان وقتما تريدان.

صرخت قائلاً: ألم أقل لك أنه يحب وأنه واضع عينه على فتاة محددة نظرت إلي أمي بلذراء وهي تقول: قلت لك لسكت ولا تتدخل، قال: الحق يا عمتي لن في كلامه شيئاً صحيحاً ولكن الأمور ليس بالضببط كما يقول.

قالت وقد ضلقت ذرعاً: أنا لا أفهم شيئاً هل ممكن أن توضح لي ماذا تريد؟ خفض رأسه وهو يقول أريد أن أتزوج مريم يا عمتي قلت: من مريم؟ قال: نعم ابنة عمي مريم، قالت: مريم، قال: نعم مريم وهل سأجد من هي أفضل منها، وهل توافقون على زواجها مني، تفرقت الدموع في عينيها وقالت: وهل ستجد من هو خير منك يا إبراهيم!! دعني لأذهب لأرى مريم ومحموداً وحسنأً، وقامت لتخرج فقلت: وأنا لا تريدن رأيي؟ قالت: لا، أنت لا تريد رأيك في هذا الأمر، لأنه صلاحك الروح بالروح ورأيك معروف. ضحكت وقلت له: مبروك يا إبراهيم، فطالماً رأسه قاتلاً: الله يبارك فيك يا أحمد لكن لنرى رأي الآخرين.

خرجت أُمِّي فنظر إلي وقال: والله لا أدري ماذا أفعل نحن في ولد وأمك في ولد، ولا أريد أن أغضبها وأخشى أن أورط مريم معي ثم أسجن أو... توقف صامتاً فقلت: لكم لؤ ماذا؟ هل تخاف أن تقتل؟ قال سريعاً: لا لا، لكن من يدري ما تخفي لنا الأقدار وما تلد لنا الأيام.

عادت أُمِّي بعد غياب ومحمود وحسن معها وهم يقولون مبروك يا إبراهيم مبروك واستطردت أُمِّي قائلة، لولا أن الدنيا منتصف الليل لزرعرت ففرحتني فرحتان لك ولـمريم، ولكن غداً إن شاء الله نفعك الواجب والمطلوب ثم نالت: مريم مريم تعالي يا مريم، ولما لم تأت مريم قامت لتحضرها ورجعت وهي تسحبها سحباً ومريم تتلوى حياءً محاولة إخفاء وجهها حتى دخلت الخرفة فدفعتها أُمِّي قائلة: اجلسي بجوار خطيبك ابن عمك، فجلست والعباء يتفجر من وجهها ومن وجهه ولا ينظر أحد للأخر.

فتجراً إبراهيم سائلاً أُمِّي: هل مريم موافقة أم أنك أرغمتها يا عمتي، فردت أُمِّي: أرغمتها!! ولماذا أرغمتها؟ وهل ستجد واحداً أفضل منك!!؟ احمر وجهه ثانية وهو يقول: أعوذ بالله وهل سأجد أنا من هي أفضل منها، والله يا عمتي إنني خجلان من أفضالكم علي، فردت أُمِّي أفضالنا عليك، يا بني أنت رجل صنعت حيلتك بينك الله يبارك فيك، صمتت قليلاً ثم قال: يا عمتي هل مريم موافقة فردت أُمِّي طبعاً طبعاً موافقة، فقال أريد أن أسمع منها ذلك، فقالت أُمِّي: قل لي يا مريم هل أنت موافقة فهزت رأسها إيجاباً ثم خرجت وضحكاتنا تلاحقها.

جلسوا قليلاً يتحدثون عن ترتيبات الخطوبة والزواج ثم استأنفوا بالذهاب للنوم لاستئناف ميكرين للقيام بالواجبات الكثيرة، حين خرجوا همست ضاحكاً: انبسط يا عم ليوم سعدك من أول النهار ولنت تحقق النجاحات وكل نجاح أكبر من الذي قبله، نسحك قائلاً: اللهم لاحمد نصيبح على خير، فرندت نصيبح على خير.

هنا في سجن غزة في نفس القسم الذي عاش فيه أخي محمود من قبل في غرفة مجاورة للتي عاش فيها، بعد أن لطفاً للسجان الأضواء وذهب للنوم كان أحد السجناء قد نعد على فرشته بجوار الباب ويده قطعة صغيرة من مرآة يخرج طرفها من تحت الباب ليراقب تحركات السجنان، اقترب للسجان فدق بإصبعه ثلاث دقات على الأرض فلزم الجميع فراشهم، كأنهم نيام ومحب هو مرآته.

وصل السجنان لباب الغرفة ولأضاء مصباح ليدي الذي يحمل في الغرفة يتفحص الأوضاع وجد الجميع نياماً فواصل سيره ليتفحص الغرف الأخرى ثم عاد راجعاً بعد أن تم جولته ساراً بالباب حتى وصل إلى كرسيه في طرف القسم وجلس عليه.

أخرج ذلك السجين طرف مرآته من جديد، نظر فيها ثم قال هامساً هيا مشيراً بيده فقام ثلاثة من السجناء ودخلوا الحمام ويدهم أحدهم نصله منشط جديد يلف طرفها بقطعة قماش كي يتمكن من الإمساك بها جيداً وعلا على ظهر صاحبه وبدأ يقص القصيب الحديد من جديد طرق الشاب المستلقي على الأرض ثلاث طرقات فخرجوا مسرعين كل إلى فراشه، جال للسجان جولته ثم عاد إلى كرسيه فملأوا إلى مواصلة عملهم.

فيل أذان الفجر كانت المهمة قد اكملت فقد أصبحت نافذة الحرية مفتوحة. فلنعلن كان يغلب ذلك السجنان للجلس على كرسيه مرتكزاً على الحائط وسنة منا الشبان كانوا يملقون باقي زملائهم ويكلمون من النافذة واحداً تلو الآخر، بعد أن وضعوا في فراشهم بعض الأدوات التي تبدو وكأنهم ينامون فيه، ومع التزلاق آخر واحد منهم خرج من النافذة لرتفع صوت الأذان للفجر الله أكبر الله أكبر، نسلوا خارجين من السجن بعد أن قفروا من فوق الجدار الخارجي.

عند الساعة السادسة جاء للسجانون لإضاءة الأنوار، ومكبر الصوت يعلن عن الاستعداد لإجراء عدد الصباح... جاء ضابط العد، فتحوا الغرفة، وبدأ العد، هناك نقص، أين الباقون؟ انضم الموجودون فاندفع إلى المراض، ثم خرج جارياً وعرقه يتصبب وقد رفع جهل الاتصال يتحدث فيه، وإذا بصوت بوق الإنذار في السجن.

كان قد مضى على مغادرة الشبان ساعتان ونصف وقت كافٍ ليصلوا إلى آخر فلسطين وليس فقط أحد المخاض الأمنة في أحد أحياء غزة أو ضواحيها، جاءت أعداد كبيرة من السجناء تقتل وتبحث وتغرب كل شيء في الغرف، وانطلق المئات بل الآلاف من جنود الاحتلال يضعون الحواجز ويوقفون الناس ويفحصون كل راحة وغلا، حالة واضحة من الإرهاب والهستيريا.

مع حلول أذن العصر كانت كل الترتيبات أصبحت جاهزة، أرسلت أمي من يعتذر لدار "أبو حسين" أننا لن نذهب للخطوبة فالولد لا يريد سوى ابنة عمه، وأرسلت لخالتي، وبلغت معظم الجيران وأرسلتني لأشتري البقلاوة ولأخير ولأحضر، بعد أذن العصر كانت الدار تموج بالخلق والزغاريد تتطلق والأغاني تتردد، والبقلاوة توزع...وبذلك أصبحت خطوبة إبراهيم لمريم معروفة ومطنة أمام الخاتمة والعلامة وإزالة الإحراج عن مريم أمام الجميع.



الفصل العشرون

شارع الوحدة بمدينة غزة عند مفرق شارع فهمي بك يكتظ بالناس والسيارات، فهذا المكان محور أساسي لحركة الآلاف من أهالي غزة ولحركة المئات من كبار الضباط والمسؤولين من الأجهزة العسكرية والمدنية والاستخبارات.

الاحتلال في مبنى السرايا حيث مقر الاحتلال المركزي في قطاع غزة يمثل الشارع بالسيارات، وحيث لا توجد إشارات مرور تنظم حركة السير تتداخل وتحدث انسداداً مرورياً شديداً، توجب على الجميع التوقف، وتبدأ السيارات تتقدم سنتمتراً بعد الآخر، تتقدم إحدى السيارات العسكرية يقودها قائد الشرطة العسكرية الإسرائيلية في قطاع غزة يتقدم بها رويداً رويداً وهو يركز ذراعه على نافذة السيارة وصوت المذياع في السيارة يبعث أغنية عبرية بموسيقى شاذة.

من بين الجمع تقدم "محمد" أحد الثياني الذين هربوا من سجن غزة قبل أسابيع، وحين وصل للسيارة، سحب مسدسه وصوبه إلى رأس قائد الشرطة وقلبه، وأطلق عدة طلقات ثم اختفى بين الناس إلى جانب، حيث أخذته سيارة كانت بانتظاره وابتعدت من المكان.

قوات كبيرة من الجيش حاصرت المكان وبدأت باحضاز الناس وإغلاق المحلات والضرب والركل والتخريب، وضباط المخابرات جاءوا للتحقيق في الحادث وجمع المعلومات التي لا تجدي نفعاً في عملية ضبط القاطنين.

بعد أيام كانت سيارة حيب عسكرية تقوم بأعمال الدورية للروينية على أحد الطرق الرئيسية في المدينة، تمشي رويداً رويداً، من وراء أحد القبور القريبة من الطريق أطل أحد الثياني ممن هربوا من السجن قبل أيام وقد سحب مفتاح القنبلة اليدوية وألقاها على السيارة فانفجرت بها، وانطلق هو منسحباً من المكان، بينما صراخ الجنود الجرحى يتعالى.

وبعد أيام عدة بنسق أوتوماتيكية فتحت نيرانها على إحدى السيارات العسكرية وتمسك حاملوها دون أي إشكاليات، وهذه الأخبار ملأت الأراضي المحتلة، وتردنت في كل حارة وفي كل دار وكل مجلس، وكان الجميع معجبين بمستوى العمليات وجراة منفذها وسعداء بالإرباك الذي حل بقوات الاحتلال، وقد كان هذا موضوع إحدى الجلسات الكثيرة التي تجري في دارنا.

بعد أيام استيقظ القطاع على أخبار سيئة، فقد نجحت قوات الاحتلال ومخابراته في اقتناص اثنين من الشبان الذين هربوا من سجن غزة، ويعتقد أنهم وراء العمليات الأخيرة قصفتهم بالآلاف للطلقات في كمين نصبت لهم في أحد الطرق الفرعية شمال مخيم البريج، وصلت الأخبار إلى الجامعة، فعلقنا الدراسة وخرجنا في مظاهرة، اصطدمت مع الجنود، ولتمتكت المظاهرات إلى أنحاء القطاع.

في (١٩٨٧/١٠/٦) بعد عدة أيام أخرى وبعد أذان المغرب كانت مجموعة أخرى من أولئك الشبان وعدد من مساعديهم يتحركون بسياراتهم في أحد شوارع حي الشجاعية بغزة فهاجمتهم عدة سيارات مدنية وأطلقت عليهم الرصاص، ثم انضمت إليها قوات عسكرية كبيرة واشتبك معها الشبان حيث قتلوا أحد ضباط المخابرات الذي كان يشرف على العملية والكمين المنسوب للمجاهدين، واستشهد الشبان جميعاً، وقد فرض نظام حظر التجول على الحي.

جاء إبراهيم لي وأخبرني أنهم سيحشدون كل من يمكن حشده في صلاة الجمعة في مسجد عثمان في الشجاعية، ومن هناك ستخرج مظاهرة حاشدة تأييداً للشهداء وإكراماً لذكراهم وحثي على الذهاب، أعدت ضخمة من الشبان تجمعوا في المسجد وأتوا صلاة الجمعة فيه الخطبة والصلاة كانت عادية، حيث انتهت الصلاة وبدأ المصلون يخرجون من المسجد، تجمع عدد من الناشطاء حول إبراهيم وبدلوا يهتفون: بالروح بالدم نفديك يا فلسطين... بالروح بالدم نفديك يا شهيد تجمع الناس من حولهم في مظاهرة علوية جابت شوارع الشجاعية مروراً ببيوت أهل الشهداء من الشجاعية، وخيام العزاء التي نصبت عندها، وكلما وصلت إحدى تلك الأماكن توقفت المسيرة وارتفع الهاتف محيياً الشهداء وأهلهم.

بعد حوالي ثلثي حضرت قوات كبيرة من الجيش حيث بدأت الصدامات معها بالحجارة والزجاجات الفارغة واستمرت حتى العصر، كانت تلك المرة الأولى التي تخرج فيها مظاهرات جماهيرية في القطاع بهذه الصورة، تأييداً للعمل المسلح، بشكل لا يحتمل التأويل، حتى أن أخي محمود حين اجتمعنا في الدار في مساء ذلك اليوم قال: أنتم مجانين، كيف تخرج مظاهرات بهذه الصورة تأييداً للعمل الفدائي المسلح وبشكل واضح.

أنهت خطيبة محمد دراستها وامتحاناتها وعاد محمد من غزة لترتيب إجراءات الزواج فكان قد استأجر شقة خاصة في رام الله، وجعلها بكل ما يلزم.

لمي أرادت حفل زواج بكل معنى الاحتفالات دون أي نقص، ولكن محمداً وإبراهيم أراداه حفلاً متواضعاً صغيراً وعائلياً فقط، واهتمت الصراخ وتصاعدت الخلافات، محمد كلن يريد الزواج في رام الله بحيث تذهب العائلة ولقرب الأقارب في سيارتين أو ثلاث إلى رام الله وتجري هناك المراسيم وتنتهي الأمور ببساطة، وإبراهيم أرادها بسيطة جداً في الدار للأقارب والجيران ولتقترح لمي وأخوتي وجاراتنا .

محمود وحسن لم يكن الأمر بالنسبة لهما مهماً، والمهم أن يتفقوا فاطمة وتهاني وفقاً إلى جانب لمي، وأنا ومريم وفقاً إلى حور محمد وإبراهيم، وخلص الجميع أن يذهب وفد ليس كبيراً منا إلى رام الله، لتعد قران محمد على عروسه، وأن يتم إحصانها هي ومن يريد من أهلها إلى غزة حيث يتم عقد قران إبراهيم ومريم، ويتم حفل زفاف للنساء كما يردن، وفي اليوم التالي بإمكان محمد وعروسه السفر من جديد إلى رام الله، وقد جرت الأمور كما خطط لها دون أي إشكاليات أو معوقات.

كان عليّ قبل ذلك أن أرحل من عرفتنا المشتركة أنا وإبراهيم، حيث جهزت له ولعروسه، وأن أسكن مؤقتاً في غرفة فضيوف، وبعد الزواج أصبحت أعيش مع أمي في غرفتها، وبات واضحاً أن البيت لا يمكن أن يتسع لثلاثة أزواج من العائلات الضاربة وأنا ولمي وقد اقترح الباش مهندس محمود بناء طابق ثان فوق الدار، وبدأ يوضح لنا أن ذلك من الناحية الهندسية ممكن مع شيء من الانتظار والجهد والغلبة علينا في الدار، وقد وقف إبراهيم على أفكاره أنها ممكنة التنفيذ وأنه قادر على تنفيذها، فاتفقوا على تأجيل الأمر حتى بعد شهرين من الزواج.

مساء الثلاثاء الثامن من ديسمبر من نفس العام (١٩٨٧) بينما كانت حافلة نقل عدداً من العمال الفلسطينيين العائدين من عملهم داخل الأراضي المحتلة عام (١٩٤٨) متجهة نحو الجنوب إلى مدينة غزة وقد تجاوزت حاجز البرز، وعلى الاتجاه الآخر من الطريق كانت فاطمة ضخمة بقودها أحد الصهاينة، تنهب الأرض نهياً، تكاد تطير عن الأرض، متجهة نحو الشمال، وحين أصبحت قريبة من حافلة العمال، اندحرت نحوها فطحتنا طحناً، حيث قتلت عدداً من العمال وأصابت آخرين، نقل للقلبي إلى بيوتهم، والجرحى للمستشفيات، وانتشر الخبر في أنحاء القطاع عن حادث متعمد لقتل العمال، فخرج الآلاف إلى الشوارع يتحشرون ويستقرون.

أخذ الشبان العمل إلى بيت الشيخ أحمد ليخبره بالأمر، سائلاً عن المقترح لقطعه، ببساطة وجهه الشيخ لتفجير الوضع مع خروج الجنازات إلى مظاهرات عارمة وصدامت عنيفة مع قوات الاحتلال، فانطلق ذلك لشباب لترتيب ما يلزم ومع خروج الجنازات من جباليا إلى مخيم جباليا لتشدت ورامها جماهير عارمة، وبدت تردد الهتافات والتكبير والتنهيل، وجاءت قوات الاحتلال، حيث حدثت صدامات عنيفة، امتدت حتى منتصف الليل.

حين عاد إبراهيم ليلاً إلى الدار همس في أذني أن الجامعة الإسلامية غداً ستكون بؤرة للمظاهرات، وأنهم قد رتبوا أمورهم، وعند ساعات الصباح أعلنت الإذاعة الإسرائيلية قرار الحاكم العسكري بغزة إغلاق الجامعة الإسلامية لمدة ثلاثة أيام، فانطلق إبراهيم بسيارته على المناطق المختلفة يخبر النشطاء بتغيير الخطة، من تركيز المظاهرات في الجامعة لنقلها إلى كافة المناطق وأن على كل مجموعة من الناشطين أن تفجر الوضع في منطقتها.

وبالفعل خلال نصف النهار الأول كان قطاع غزة من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه قد اشتعل ناراً في وجه المحتلين، حيث خرج عشرات الآلاف في كل المناطق في تظاهرات عنيفة اشتبكت مع قوات الاحتلال بحف وعضب، وفي كل المناطق سقط عشرات الجرحى الذين كانوا ينقلون إلى المستشفيات أو العيادات القريبة. ومع سقوط كل جريح جديد يزداد التهاب مشاعر الجماهير ويزداد غضبها وعنفها وقد سقط في مخيم جباليا شهيد الانتفاضة الأول، الشهيد الأول 'حاتم السيس'.

في اليوم الثاني الخميس تفجرت الأحداث منذ ساعات الصباح المبكرة حيث خرج عشرات المتشبهين بسدود الطرق ويضعون المتاريس، ويوقفون حركة العمل للتوجهين إلى العمل داخل الأراضي المحتلة عام (٤٨)، فهبت قوات الاحتلال تفتح الطرق للعمل، وكلما فتحو طريقاً من مكان أطلق في مكان آخر، وبدأ الشبان المتشبهون بتصدون لقوات الاحتلال رشقاً بالحجارة والزجاجات الفارغة، ومع ساعات الظهر خرجت السيارات الحاشدة في كافة أنحاء القطاع، تحمل الأعلام الفلسطينية، تهتف لفلسطين وللشهداء وضد الاستيطان، وتواجه قوات الاحتلال.

رجل عجوز يدخل بيته مهزولاً، ويقتحم غرفة ابنه الذي لا يزال نائماً حتى بعد العاشرة صباحاً وأنت لا تزال نائماً... قم، يستد الشب ينظر إلى والده مستغرباً ويفرك عينيه بيده متسائلاً في نفسه، من هذا الذي يوقظني لأشارك في المظاهرات والصدامت... ألي؟ ألي الذي كان منذ أيام يرتعد خلعاً حين كان يسمع أن هناك أحداثاً ما ضد الاحتلال، ويفلق علينا الباب ويمنعنا من الدخول!! ماذا جرى في هذا لكون حتى يحدث هذا التحول الخطير!!؟

كانت مكبرات المسجد الغريب تصدح بالتشديد: قسماً بالله للجبار لتعودي يا دار... بلسم الدين على فلسطين لير الغدار... مشينا الدرب... خضنا الصعب... خطينا الحدود... مهما الشوك... درب المر لتعودي يا دار... لتعودي يا دار.

مئات الشبان عند كل مفترق طرق، أو عند كل طرف زقاق يتشمون بكوفيات أحضروها معهم، أو حتى بأقمصتهم، يضعون المتاريس، ويشعلون الإطارات ويصادمون قوات الاحتلال، عيونهم تنرف الدمع، وأنوفهم تسيل دون انقطاع بفعل الغاز المدمع، فور سقوطها ليذوقوها مرة أخرى باتجاه جنود الاحتلال الذين قدفوها من قبل، ليذوقوا هم كذلك طعم الغاز ورأبته، يتدافعون بالمعشرات ليجعلوا لحدهم وقد سقط جريحاً بعد أن أصابته رصاصة غدر وصوت الرصاص من الجنود كما هي في معركة حقيقية وصراخ المتظاهرين هذا يحذر ذلك أو ثالث يطلب المساعدة من رابع، وأصوات مكبرات المسجد تصدح ليث روح الحماس في النفوس.

خرج إبراهيم بسيارته فناديت عليه: أين تأخذ السيارة والطرق كلها محدودة بالمتاريس؟ وإن تستطيع المرور!! لذهب مشورك سيراً على الأقدام، فخطر مبتسماً وقال: لا تقلق يا أحمد لا تقلق وانطلق واتبعته بنظري لأرى ما يفعل عند أول المتاريس، وما أن وصل ورأه للمتظاهرون والمتنمرسون حتى سارعوا يفتحون له الطريق، ويسحبون الإطارات المشتعلة بقضبان حديدية طويلة معقوفة الرأس، أعصوها من قبل لهذا الغرض، فتجاوز الحاجز وتجاوز الحاجز الآخر وكأنه قائد المعركة الأول، ولمعه قد كان ذلك.

عند العصر من ذلك اليوم احتشدنا مجموعة من الشبان حوالي ثلاثين، فجاءت نورية من الجنود المحتلين، حوالي عشرين جندياً، توزعنا على الفور على رؤوس الأزقة وحين وصولهم إلى مركز الشارع بيننا، انتهالت عليهم بالحجارة كالمنمطر المنهمر، وبدلوا بإطلاق النار دون وعي أو إبداع وفي كل اتجاه.

خرج المتات من الأهالي رجالاً ونساءً على سماع صوت الرصاص وشارك الجميع في رمم المحتلين الذين أصابهم السعار، فأطلقوا النار دون حساب، سقط الجرحى واستمر قذف الحجارة كالمنمطر، هبأ الجنود بفرون، بقي جندي لم يتمكن من الفرار، فقد كان يحمل على ظهره جهاز ثلاثي الثقيل، يتصل به بطلب النجدة، حاول إطلاق المزيد من النار فلم يستطع، ولم تعد قدماء قنارتين على حملة، فانهار ساقطاً على الأرض وهو يستجد بألمه (إيما) بالمبرية ومغناه لمي يا أماء.

عشرات سيارات الحبيب تهرع للنجدة، نصطدم في طريقها بالمتظاهرين من كل زقاق وبعد جهد جهيد يصلون ويخلصون جنودهم من بين الحجارة الغاضبة، عشرات بل مئات من الجرحى يصلون إلى مستشفى دار الشفاء بعضهم بسيارات الإسعاف، وغالبيتهم بسيارات المواطنين التي تطير عن الطريق وأبوابها مفتوحة، والعشرات يتعلقون بها مرافقة للجريح والآلاف يحتشدون عند مدخل المستشفى للتبرع بالدم، يمشرون عن أنرصتهم والطواقم الطبية تدفعهم للوراء، وهم يصرخون أن هذا أكبر بكثير من طاقتنا وقد رتقا في المستشفى على الاستيلاء لبحر هائج من الناس عند مدخل المستشفى تنشط الحركة بصورة أوثوماتيكية كلما أطلت إحدى السيارات تحمل جريحاً تطلق بوقها، وتنقل أضرابها.

هذا البحر الهائج يهتف بصوت واحد لفلسطين والشهداء والجرحى، وضد الاحتلال وقلنته وممارساته التي لا تخيف ولا تردع.

قوات ضخمة من الجنود تتقدم لمنطقة المستشفى وبدأ بإطلاق كميات خيالية من الغاز المدمع والرمصاص الحي على المتظاهرين وآلاف من الحجارة تقال على الجنود، فيزداد إطلاق النار فيندفع الحشد للوراء إلى داخل المستشفى، وصوت واحد يصدر هائلاً: الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر... جيش محمد سوف يعود... بسم الله، الله أكبر... جسم الله قد حالت خير خير يا يهود... جيش محمد سوف يعود... بسم الله، الله أكبر... جسم الله قد حالت خير خير فيندفع الجنود وراءهم لمدخل المستشفى فينقض الجميع مرة أخرى للأمام وقد تزود الشبان بالحجارة في أيديهم، وأمام ذلك الميل للهائر يتراجع جنود الاحتلال، فيعثر أحدهم ويقع على الأرض، بهاجمونه ضرباً وركلاً، ويجردونه من سلاحه وملابسه العسكرية ويتركونه يجري هارباً بملابسه الداخلية، ثم يلقون سلاحه بعد أن حذر أحد الحفلاء أن بقاء السلاح يجعلهم يقتلون ألف واحد منا، أرموا لهم سلاحه.

روح الجماهير المعنوية تطير في السماء وهم يرون أن أسطورة الجيش الإسرائيلي تتحطم أمام حجارة الغضب الفلسطيني العارم، وقصص عن المواجهات والشهداء والجرحى والبطولات تتطاير إلى كل بيت ودار، تذكي في نفوس الشباب والشبان روح التضحية والفداء.

في المساء التقى إبراهيم بالشيخ أحمد في منزل الشيخ، حيث أملاء الشيخ نص البيان الذي سيتم طبعه ونوزيعه في مساجد القطاع في صلاة الجمعة في اليوم التالي.

تطلق إبراهيم به حيث تم إعداد النسخة الأصلية، ثم بدأت المطبعة التي أخفيت في أحد المحلات الذي يبدو كمغزن لأدوات قديمة، تسحب منه آلاف النسخ، تزرع كل مجموعة منها وتطلق، ثم حملها إبراهيم في شحنة سيارته وتطلق إلى الأمام، على الطريق العام كانت تنتظره سيارة أخرى تسير أمامه كطليعة كي لا يقع فجأة في أحد الحواجز.

أضاعت السيارة الأولى أضواء خاصة موضوعة على الزجاج الخلفي فتراها السيارة الثانية، فتتوقف أو تستدير قبل أن تقع في الحاجر، ولما السيارة الأولى فليس فيها أي شيء ممنوع، لذا فلا مشكلة في وصولها للحاجر، انطلقت السيارتان توزعان المنشورات حيث ينزل إبراهيم رزمة من المنشورات لأحد المساجد في كل منطقة يخفيها في إحدى زوايا المسجد وينطلق إلى الهدف التالي، فيأتي أحد الثبائن بعد وقت ويأخذ المنشورات ليخفيها في مكان يعرفه حتى ظهر اليوم التالي.

مع صلاة الجمعة يوم (١٢/١١) وبينما ينهي المصلون صلاتهم، ويتوجهون لمغارة المساجد يجنون كومات من المنشورات على الأرض، وقد وضع على كل قطعة من الحجرة فيتناول كل واحد نسخة ليقرأها، وهو متعلق إلى بيته، البيان كان موقفاً باسم حركة المقاومة الإسلامية ومحتوياً بـ (ولنا الخريق فما خوفاً من الخرق) يستدير في الناس روح المقاومة والقداء وبحرضهم على المحتل الغاشم الظالم، تنف الناس وبدلوا بالاحتشاد والتجمهر، وارتفع صوت الهاتفين فيزداد الحشد والتجمع، ويرفع الصوت الهادر ضد الاحتلال وممارساته والفلسطينيين القداء ضد اليهود واحتصاصهم للمقدمات وعشرات الآلاف في كل منطقة يزحفون في شوارع المدن والمخيمات.

يومها انطلقاً في مظاهرة من تلك من مسجد المخيم، جابت المظاهرات شوارع المخيم زحفت إلى الطريق الرئيسي، وكلما اقتربت من الجنود وأطلقوا النار لزداد الناس حماساً والاندفاعاً، يضطر الجنود للترجيع، حتى اقترب الجمع من السرايا، هناك أخذ إطلاق النار يصبح كثيفاً بصورة غير عادية، وأطلقت طائرة مروحية تحلق فوق المتظاهرين وتلقي بسحابت كبيرة من الغازات المدعمة فوق الجماهير، شعرت يومها أن معظم مدينة غزة ومخيمها شبه محرر حيث انحصر وجود قوات الاحتلال في مبنى السرايا وحوله فقط، وكذلك كان الحال في معظم القطاع في نفس الوقت.

اشتعل مخيم بلاطة بالقرب من مدينة نابلس، كان المخيم يعاني طيلة شهر من ممارسات جنود حرس الحدود الذين معظمهم من الدروز العاملين في هذا القطاع من الجنود والذين بدعوا بمضايقات ومعاكسات لغتيات ونساء الحي، وكان المخيم في حالة غليان دائم على مدار الشهور السابقة، فجاءت أحداث غزة لتصبُّ الزيت على النار. صلى الناس الجمعة ثم تطلقوا في شوارع المخيم في تظاهرة حاشدة توجهت بصدامات عنيفة مع قوات الاحتلال، الصورة كذلك كانت في مخيم الدهيشة بالقرب من مدينة بيت لحم.

أغلقت كذلك جامعة بيرزيت بقرار عسكري، فاعتقم محمد وزوجته الفرصة وجامعا لزيارتنا والمكوث في غزة لعدة أيام، وفي ظل أحوال الإضرابات للعلماء التي حلت بالمناطق فقد اعتقم الكثيرون الفرصة للتزاور، وقد جاءت أختي فاطمة ومعها ابنتها وبنتها، واجتمعوا في البيت.

الدار أصبحت مليئة بالرجال والنساء والأولاد والبنات من نفس العائلة، وتذكرت حينها صورتنا ونحن أطفال، تضمنا غرفة واحدة صغيرة وفريد عينا، وإذا بهما الصغرة خلال سنوات أصبحت مثل الجيش... ذكرت ذلك مازحاً، فصرخت لي: صل على النبي، فنطق الجميع اللهم صل على سيدنا محمد.

وبينما كنا نتناول طعام الغداء فيما يشبه اللويزة، انفتح نقاش سياسي طويل حول جدوى ما يحدث، وهل يمكن أن يفيد وأنه سيعود على الناس بالضرر فقط، تباينت وجهات النظر بين مؤيد ومعارض أو متخوف وولبق من النتائج وأخي محمود كان يرى أن هذا شيء عبثي سرعان ما يزول بعد أن يفرغ الناس كبتهم وضغطهم وأنه لا يمكن أن يؤدي إلى شيء مفيد لإبراهيم تحديداً كان على قناعة أن هذه موجة سرعان ما تتطفي. في فترة أخبار المساء في التلفزيون الإسرائيلي باللغة العربية جاءت تصريحات لرئيس الوزراء الإسرائيلي "سحق شامير" يؤكد فيها أن الشعب الفلسطيني أن يحقق شيئاً بهذا العنف، وأن هذا العنف أن يجدي نفعاً وسبقاً بيد من حديد.

قال محمود موجهاً حديثه لإبراهيم: أرايت صدق كلامي؟ فضحك إبراهيم وهو يقول: يا أخي الرجل تراجع تراجع الأول، ألا ترى أنه قد بدأ يعترف بنا لنا للشعب الفلسطيني، هل انتهت لذلك؟ وهل سيق أن سمعت من شامير أو غيره من قادة اليمين الإسرائيلي من يسميها الشعب الفلسطيني؟ بالأمر فقط كان شامير يسميها سكان المناطق أو سكان غزة ويهودا والسامرة، وأما الآن فاسمها عنده للشعب الفلسطيني ونحن لم نبداً بعد. تظاهر محمود بالانفعال بابه كي لا يواصل الحوار أو يظهر الانهزام والتراجع.

أثناء الليل اجتمعت مجموعة من الرجال وعلى رأسهم الشيخ أحمد وقررت المواصلة والاستمرار في التصعيد، وبدأ للشيخ أحمد بشرح وجهة نظره بأن هذا الشعب شعب أصيل وهو مستعد للتضحية والفداء بكل غالٍ ونفيس، وقد أثبت من قبل وسيثبت أنه أكثر استعداداً من كل ما هو متوقع منه بمشرات بل بمئات المرات. وأنه بطمع أن تتحول حالة التمرد والانتفاضة هذه إلى حالة دائمة، بحيث تصبح دين الشعب الفلسطيني وحياته اليومية فهي المحور الرئيسي في حياتنا، وكل شيء آخر يتكيف مع هذا المحور الرئيسي، ويتكيف نفسه مع متطلباته: التعليم، العمل، الصحة وكل شؤون الحياة الأخرى حتى نحقق أهدافنا في نحر الاحتلال وتحرير الديار، وقال: نحن بدأنا على بركة الله بعد سنوات من العمل الصادق في التربية والإعداد لمثل هذه المرحلة، والآن قد بدأنا فيجب ألا نتوقف ويجب ألا نراجع، نتقدم ولا نراجع، نزيد من مستوى عملنا ولا ننقص، وتتطور مرحلة بعد مرحلة حتى نحقق أهداف شعبنا، وسيثبت شعبنا أنه أهل للمهمة وأنه محل بركة الله.

حسن وحسين إخوان يوثيان صلاة العشاء في مسجد العمى، وهما في طريقهما للبيت يقول حسين لأخيه: لا شك بأن الأحداث غداً ستكون مثل اليوم، لا شك بأن المواجهات ستستمر ولن جرحى سيمقتلون وأنه سيتم نقلهم إلى مستشفى الشفاء، وسيجتمع عدد هائل من الناس هناك، وسنأتي قوات الاحتلال لتفريق الناس، فأجلب حسن مؤكداً ذلك، وقال حسن: إذاً لا بد أن نتجهز لذلك من الآن، سأل حسين باستغراب: وكيف؟ قال حسن: تعال معي، أحضر من البيت جالون بلاستيك كبير، وتوجه إلى محطة الوقود القريبة، واشترى بما معه من نفود بنزين، ثم عاد إلى تلك الساحة العالية على أطراف الحارة، وجمع عدداً كبيراً من الزجاجات الفارغة، وبدأ يوزع البنزين فيها.

ملأ حوالي أربعين زجاجة، ثم بدأ يقطع قطع قماش، وأخذ يلف كل شريحة منها ثم يدخلها في فتحة الزجاجة حتى تصل البنزين، وضع الزجاجات في صناديق وحمل هو صندوقاً وحسن صندوقاً آخر، وانطلقا عبر الطريق الجانبية إلى مستشفى دار الشفاء حيث أخفيا الصناديق تحت إحدى شجيرات الزيتون وعادا إلى البيت.

في الصباح تشتعل المدينة وسقط الجرحى، ونقلوا إلى المستشفى (لشفاء) وبدأت الجماهير تتدفق إلى المستشفى وحناجرها تنفجر بالتكبير وبصياح: خير خير يا يهود... جيش محمد سوف يعود.

عند ساعات الظهر بدأت تتدفق قوات كبيرة من جنود الاحتلال لتحاصر منطقة المستشفى وتبدأ في مهاجمة المتظاهرين، حسين كان مرابطاً في المستشفى بانتظار قدوم جنود المحتلين، حين بدأت القوات تتجمع، بدأ يتملأ موزعاً الزجاجات إلى وعلى امتداد جدار المستشفى من الداخل وقد جهز برميلاً فارغاً قريباً من الجدار، تقدمت القوات وبدأت تشبك مع المتظاهرين، نقل حسين البرميل ووضعته إلى جوار الجدار، وتناول إحدى الزجاجات وصعد على البرميل.

أشعل الفتيل ثم ألقي الزجاجة على إحدى سيارات الجيب التي يمترس بها الجنود من سبل الحجارة، انكسرت الزجاجات واشتعلت على سيارة الجيب، وعلا صراخ الجنود فيها وتراجعت القوات للوراء وهي تطلق النار إلى المكان الذي ألقيت منه الزجاجة، كان حسين قد نقل البرميل للوراء وبينما الجنود مشغولون بالحجارة، ويمكن إلقاء الزجاجة، تناول زجاجة ثانية صعد على البرميل، أشعل الفتيل وألقاها باتجاههم، وهكذا مرة من الأمام وأخرى من الخلف، وحجارة الحشد الهائل من الناس تنهال عليهم.

استمرت الاشتباكات حتى بعد غروب الشمس بوقت طويل، أربعمون زجاجة خارقة لقاها حسين وحده في هذا اليوم ودون تنسيق مع أحد سوى مساعدة حسن له لثناء الليل.

صبي أخذ المطرقة التي يستخدمها والده في أعماله وأحضر بعض المسامير، وأخذ يدق في بعض القطع الخشبية الصغيرة المسامير، ثم بثبت تلك الأخشاب في طريق تأتي منه سيارات الجيب العسكرية، حين تبدأ بمطاردة المتظاهرين، بحيث يكون الطرف المنسوب من المسامير باتجاه الأعلى. وأخر كان يدق المسامير في جانب إحدى العلب ثم يدفعها في التراب لتعطى إطارات سيارة الاحتلال.

جالسان من بعيد يرقبان نتائج عملهما، ثم تأتي سيارات الجيب بسرعة لتتلف من وراء المتظاهرين، مما أدى إلى عطب إطارات أربع منها وتوقف وقد أغلقت الطريق على الآخرين فيضحك الصبيان ويقفزان طرباً وهما يرددن النشيد اليومي الذي عم كل القطاع: خير خير يا يهود... جيش محمد سوف يعود، ولا ينتبهان أن عليهما رفع المسامير التي ظلت وراءهما.

يهر إبراهيم بسيارته في السماء في ذلك الطريق القريب، فيحلب إحدى إطارات
سيارته، وينزل ليتفحص السبب، ويحضر الرافعة ويبدأ في معالجة الإطار المتقوب وهو
ينفخ غضباً وغيظاً، وحين يرفع الإطار وينظر إلى المسمار المثبت في قطعة الخشب،
ينفجر ضاحكاً وهو يتمتم: شعب جبار شعب جبار، بدل الإطار وطار إلى ورشة حسن،
حيث طلب منه تجهيز الآلاف من قطع صغيرة من الأسلاك القوية، يقطع كل قطعة بطول
مت متعمرات، ويثبتها من الوسط زلوية قائمة ثم يثبت كل قطعتين معاً من الوسط
بالعلم الكهربائي فتصبح القطعة مثل رجل الطائر كيفما يرميها، كان أحد أطرافها الأربع
للأعلى وهي ترتكز على الأرض بالأطراف الثلاثة الأخرى.

جهاز حسن كمية كبيرة منها خلال ساعات، وقد دعا إليه إبراهيم ليأخذها منه وليعيد
البيت، ثم ينطلق ويوزعها على شتى النشاطات في المناطق ليلقوها على الطرق أمام
سيارات جنود الاحتلال حين تتطلق لتطارده الملائكة.

في اليوم التالي لينما مرت ووقتما سرت كنت ترى سيارات جنود الاحتلال وقد
ماقت على أحد جوانبها، بعد انفجار أحد إطاراتها ووجد الجنود أنفسهم في مصيدة فلا
يستطيعون التقدم لمطاردة الملائكة والمتظاهرين، ولا يستطيعون التراجع بسياراتهم
ولا يستطيعون الاستمرار بهذا الحال، فيطلبون النجدة والتعزيزات التي تأتي، فلما أن
تصلهم بمتظاهرين ومتاريس، أو تجد مصير كل من سارعت لنجدته.

كان يوماً ممتعاً ومضحكاً للغاية، ولنت ترى سياراتهم على تلك الحالة، ويبدو أن
سياراتهم ذات الإطارات الكاوشوكية قد تعطل معظمها أو خشوا على تعطل ما تبقى منها
فألزوا الدبابات ذات الجنزير الحديدي ثقيلة الحركة، فرفع ذلك بروج الناس وهم يرون
أن العدو يتخبط ويتصرف بهستيرياً، فزاد إقدامهم واستعدادهم.

حين كنا أطفالاً ومع تأثيرات العمل الفدائي في ذلك الحين كانت لدينا لعبة خطيرة،
حيث نحضر مفتاحاً من النوع الذي يكون فيه ثقب في آخره، نحشو بمادة الكبريت الذي
نأخذه من أعواد الثقاب، ثم نربط المفتاح بخيط طويل من الطرف البعيد عن الكبريت
ونحضر مسامراً نربطه بطرف الخيط الآخر، ويدخل المسمار قليلاً في ثقب المفتاح
يرفق، ونمسك الخيط من الوسط نلوح بالمفتاح والمسمار مثبت فيه للأمام وللخلف عدة
مرات حتى يصبح سريعاً، ثم نضرب ذلك بالحائط، حينها يطرق المسمار بالجدار ويطرق
الكبريت في ثقب المفتاح، فويشتعل الكبريت في ذلك الحيز الضيق ويحدث صوت انفجار
قوي جداً.

هذه اللعبة كانت مشهورة لدى أولاد المخيم، كثيراً ما ضرب البعض على معلومة تلك اللعبة من أولياء أمورهم، لخطورتها وإزعاجها، لفكرة كانت باختصار أن تشتعل كمية من الكبريت في حيز ضيق تحدث انفجاراً. انعدام السلاح النظيف الأمين في المناطق المحتلة، دفع إلى التفكير في تحضير عبوات بسيطة من مولد أولية متوفرة في متناول اليد.

ثلاثة من الشبان في مخيم جباليا أحدهم يعمل (مواصري) يعكفون على إعداد عبوات بدوية يعيئوها بالكبريت، وغير تقب كان قد جهز من قبل بشظون شريطاً قلاباً للاشتعال، أعدت العشرات منها بحذر شديد، حيث أن أي خطأ أو احتكاك زائد قد يولد حرارة زائدة تؤدي إلى انفجار العبوة بيدي مجهزيها، ثم لتطلقوا ليوزعوها على بعض زملائهم، ليكونوا مستعدين بها لمواجهة اليوم التالي.

في الصباح كالعادة التجمعات والمظاهرات والصداعات، ورشق الحجارة وإطلاق النار والعاز المسيل للدموع من قبل الجنود على المتظاهرين وزجاجات حارقة، وعدد من الشبان يتربصون من راء جدران أو شجيرات أو قبور بجانب الطرق، ومع مرور إحدى سيارات الدورية يشعل أحدهم الشريط المتكلى من الماسورة ويقدمها باتجاه السيارة فتتفجر محدثة صوتاً مرعباً، وتصيب أحياناً بعض الجنود بجراح.

في إحدى الأمسيات للأيام الأولى للانقضاة جاء لزيارة أخي محمود عدد من أصدقائه أعرف بعضهم ولا أعرف الكثير منهم، جلسوا في غرفة الضيوف، وكان شكل الوضع يوحي أن هذا شبه اجتماع تنظيمي أو ما شابه، جلسوا عدة ساعات يتناقشون ويتحدثون، ويعلو صوتهم أحياناً حيث إن هناك رأيين أحدهما مع المشاركة في الأحداث بكل قوة، والآخر ضد ذلك، وقد اتفقوا في النهاية على المشاركة ولكن بشرط تشكيل إطار وطني موحد مع الفصائل الوطنية الممثلة في منظمة التحرير والعمل معاً.

بعد أيام جاء جمع آخر من الضيوف، كان خليطاً من الفصائل الوطنية، نعرف بعضهم جلسوا طويلاً وهم يتناقشون ويتحاورون، يدعو إلى تأجيل الانقضاة في وجه المصلتين، وقد أصبح معروفاً للجميع أن هناك بيانين سينزلان واحد باسم القيادة الموحدة، والآخر باسم حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، ويحملان روح التصعيد والمواصلة، ولكن كل واحد منهما يطرح برنامجاً مختلفاً للعمليات؛ الأول يدعو للإضراب العام يوم الأحد مثلاً، والثاني للإضراب يوم الاثنين الأول يدعو لاعتصامات يوم الأربعاء مثلاً، والثاني يدعو إلى الصوم الجماعي يوم الخميس تضامناً مع الجرحى.

ينزل كل بيان، للنشطاء من كل جهة يوزعون بيلاناتهم معلولين نشره على أوسع نطاق، ويوم كل فعالية ينزل النشطاء ملثمين إلى الشوارع، لفرض التزام الجميع دون خروقات تظهر للضعف أو العجز أو اللامبالاة من المواطنين، الأمر الذي أحدث عدة مرات احتكاكات وخلافات ضبطت في اللحظة الأخيرة من التخرج إلى مشجرة وسدلم وعلاج ما بطراً غوراً أولاً بلول.

القيادة الموحدة ترى أنها ممثلة منظمة التحرير للممثل الشرعي للشعب الفلسطيني، فهي صاحبة الحق في تحديد وتيرة التصعيد، وفرض برنامج الأحداث والفعاليات، وحاس ترى أنها فصيل فاعل وكبير ليس له تمثيله في منظمة التحرير، وهذا لا يمنعها حقها في فرض برنامج فعاليتها وتحديد التوتيرة التي تريدها، وفي النهاية استعدائية الشوارع والمواطنين هي الحكم الفاصل.

كثيراً ما تفجرت نقاشات حادة في البيت بين أخي محمود وبين أحد إخوتي حسن أو محمد أو ابن عمي إبراهيم، حيث إن المعروف أن محمود من القيادة الموحدة، وحسن ومحمد وإبراهيم من الطرف الآخر، حيث يدور جدل عنيف حول شرعية عمل هذا الطرف أو شرعية محاولة طرف لتجاوز طرف آخر، وتجاهل وجوده وتأثيره، وكل طرف يسوق للشواهد على أنه صاحب الصلاحيات، وأنه من خطط للانتفاضة أو أنه من نهجها وطور فعاليتها وأداءها.

وفي كل أسبوع تمتد الانتفاضة لتشمل مناطق جديدة لم تكن قد دخلتها من قبل، وفي كل أسبوع تنضم إليها قطاعات جديدة من السكان، حتى بدأت تتحول بالفعل إلى نمط حياة، إلى العمود الفقري لنمط الفلسطيني اليومي، والذي بدأت باقي الفعاليات والأنشطة الحياتية اليومية تتكيف معه، بحيث تعالفت على استمراريتها لضرورتها للحياة والمجتمع بصورة لا تتعارض مع الانتفاضة المستمرة.

الأولاد يذهبون لمدارسهم، يتعلمون في الفترة الصباحية، وفي الفترة المسائية تشتمل الشوارع وسدلمات ومواجهات وتظاهرات، للنجار يبيعون ويشتررون ويمارسون صلاهم في الفترة الصباحية وبعد الظهر يتم الإضراب العام، وهذا يخص القطاعات الأخرى في المجتمع.

كانت في الأشهر الأولى في مدينة الخليل التي تأخرت عن باقي المناطق في اجتماع حضره عدد من قادة التيار الإسلامي في المدينة، وكان من بين الحاضرين جمال وعبد الرحمن احتد النقاش بين مؤيد ومعارض للمشاركة وطال،

في النهاية تم الاتفاق على مسيئة توفيقية بالبداية التدريبية للفعاليات ولقط بعدد محدود من المشاركين، ثم تكون عملية تقييم للنتائج، بدأت الفعاليات بالحجم المحدود من المشاركة، فلاقى قبولاً ومشاركة واسعة من عموم السكان، فالتخذ للقرور بتشكيل لجنة طوارئ يقف على رأسها جمال لتطوير الفعاليات في اتجاه للتصعيد والاستمرارية.

وخلال فترة ليست طويلة كانت الفعاليات قد تطورت والقوى الأخرى كلها قد دخلت الميدان، قطاعات واسعة من الشعب كانت لا تزال لم تحسم أمراً بشأن الانتفاضة مثل قطاع العمال الذين يصلون داخل لمراضي (٤٨) المحتلة، فهؤلاء مصالحتهم ورزق عيالهم يعتمد على الهدوء وعلى قدرتهم على التمكن من التوجه لعملهم، وعلى هذا القطاع خاصة أن يتكيف مع الانتفاضة كما تكيفت القطاعات الأخرى، لأنه له التزامات مع مشغليه من اليهود في الداخل.

مع تصاعد فعاليات الانتفاضة واستمراريتها وإزعاجها الواضح للاحتلال قرر وزير الدفاع الإسرائيلي "اسحق رابين" البدء بتطبيق سياسة تكسير العظام حيث أن إلقاء حجر على إحدى الدوريات من بين جمع من الناس، يجب أن يقابله عقاب عنيف على كل الجمع كي يتعلم هذا الجمع كيف يمنع من يريد فعل ذلك من بينه.

وبصورة تلقائية يقف شاب بين جمع من العمال عند مرور إحدى الدوريات برشقها بأحد حجارتها، فيتوقف الجنود ويبدلون بمهاجمة الجمع ضرباً وركلاً وفجأة زمجر الجمع مانداً وانحنى الجميع وبصورة جماعية أثنى بالحركة الآلية يلتفتون العجالة ويقذفونها في وجه المعتدين، وإذا بهذا القطاع الذي كان متردداً يتدمج في الانتفاضة ويحاول المزج بين المقتاضات، فيوصل البحث عن قوت لولادة ما أمكنه، ويشارك في هذه الملحمة الشعبية ما أمكنه للمشاركة.

الاحتلال

الفصل الحادي والعشرون

نظراً للاكتظاظ الكبير في الدار قررت العائلة بناء طابق ثانٍ، وكانت المهمة باسمها ملقاة على عاتق إبراهيم وعليّ أنا وحسن أن نساعد، وعليّ محمود الإرشاد والإشراف الهندسي وإحضار ما يلزمنا من أدوات... وقد قررنا للعمل رويداً رويداً وبصورة لا تشل الحياة في الدار، إذ ليس لنا مكان آخر نذهب للعيش فيه.

حدد لنا محمود أماكن للحفر حيث حفرنا بجوار الجدران وتحت أساسها حفرة كل أربعة أمتار تقريباً كنا نحفر الحفرة، ويكون إبراهيم قد جهز أسياخاً من الحديد على صورة قفص فور انتهاء الحفرة يضع فيها ذلك القفص ويكون قد جهزنا الباطون حيث نقوم بصبه في الحفرة بعد أن يكون إبراهيم قد أخرج من ذلك القفص أسياخاً رئيسية وبذلك تمتلئ الحفرة بالباطون بدلاً من الرمل وتمتلئ إحدى قواعد البناء التي ستحمل الطابق الثاني... بعد يوم يقوم إبراهيم بتجهيز الحديد لعمود الباطون، ويجهز طوبلر الخشب، ويثبت في الجدار على الجدار من الخارج، ثم نصب الباطون فيه على ارتفاع أربعة أمتار، في اليوم التالي نضع الخشب ونبدأ بالعمل في القاعدة الثانية، ثم للعمود الثاني، وهكذا حتى أنجزنا جميع الأعمدة أربعة وعشرين عموداً.

استعار محمود كمية من الأخشاب ومواسير الدعم من أصدقائه المقولون بما يكفي لسقف نصف الدار، وبدأ إبراهيم بتجهيز الطوبلر لنصف السقف، بعد أن أزلنا السقف الإسبتي القديم ثم بدأ بمساعدة حسن على تجهيز التسليح الحديدي للسقف مع ترك الزبدات له ليتم وصلها بالجزء الآخر من سقف الدار، الذي سيتم إنجازه لاحقاً ومحمود يشرف عليها، وأنا العامل تحت يديهما ثم استعار محمود خلاطة من أحد المقولين ولحضروا الإسمنت والرمل والحصى وجاء شباب آخرون من أصدقائنا وجيراننا لمساعدتنا حيث أنجزنا تلك المهمة.

في أحد أيام الجمعة قبل أذان الظهر أنجزنا المهمة، وذهبنا نتجهز للصلاة على اتفاق أن يرجع الجميع للبناء. ظلت العائلة تعيش في ظروف استثنائية أسبوعين في نصف الدار الغربي حتى جف الباطون في النصف الشرقي، وفككنا الأخشاب، وبدأ إبراهيم يكمل الجدران القديمة حتى السقف، ثم يقصرها هي والسقف وكلما جهزت إحدى الغرف عاد صاحبها إليها حتى تنتقل كل العائلة إلى النصف الشرقي وشرعنا بالعمل لإنجاز النصف الغربي.

خلال ثلاثة أسابيع تم إيجازه وبقيت بعض الفريجات التي تخص رفع الأرضيات وبلاطها...والذي بدأ العمل فيها متزامناً مع بدء العمل في رفع الأعمدة وبناء الجدران الخارجية في الطابق الثاني. كان واضحاً أن علينا أن نجعل مستوى الفولاذ مرتفعاً جداً في الطابق الثاني وأعلى من مستوى الرؤوس كيلا تكشف دور الجيران.

كانت فعاليات الانتفاضة تزداد حدة وتنهياً ورغم انشغالنا الكبير بالعمل في الدار، إلا أننا حافظنا على دورنا في تلك الفعاليات، فقد كنت أشارك بين الحين والآخر في تصدعات والمواجهات ضد قوات جيش الاحتلال وكان واضحاً أن محمود وإبراهيم لازال يمارسان دورهما القيادي البارز كل في تنظيمه، خاصة في قضايا التنظيم للفعاليات والتوجيه والمنشورات وحل ما يطرأ من مشاكل، ويبدو أن قادة الإسرائيليين بعد أن رأوا أن مجرد القمع غير كاف لوقف الانتفاضة، التي بدأ واضحاً أنها أخذت تتحول إلى ظاهرة مستديمة ومزمنة، قرروا افتتاح معتقل للنقب الذي يتسع لعشرات الآلاف من المعتقلين، وجعله تحت مسؤولية الجيش مباشرة، بعد أن امتلأت السجون العادية.

وبالفعل فقد أعد الجيش مساحات واسعة في النقب أحاطها بالأسلاك الشائكة والأبراج للحراسة وبدلت حملة اعتقالات واسعة لجمع كل الناشطين أو من يشتبه بدورهم المباشر أو غير المباشر في إنكاء روح الانتفاضة واستمراريتها وإقائهم في المعتقل.

من الأفواج الأولى للمعتقلين كان أخي محمود وابن عمي إبراهيم، حيث جاءت قوات كبيرة داهمت البيت ليلاً، واعتقلتهما بين صرخات أمي وزوجتيهما والصغار في الدار، صرخت خوف أو غضب أو ارتباك، وفرضوا عليهما قرراً السجن الإداري لمدة ستة أشهر دون محاكمة وقرار من الحاكم العسكري للمنطقة.

الفوج الأول وصل للمعتقل الذي لازال مجرد مساحات واسعة من الأرض تعيط به الأسلاك الشائكة وتنتشر حولها أبراج الحراسة. استقبلوا بحفاوة بالغة من الضرب والركل والإذلال بفرض الجلوس متربعين على الأرض، والأيدي مضمكة فوق الرأس للمطاطنة مع الضرب والركل والشتم، ثم طلبت من مجموعات منهم النهوض لنصب الخيام العسكرية الكبيرة، ثم شرع بتسليم كل واحد أربع بطانيات وتوزيعهم على الخيام، في كل خيمة حوالي عشرون معتقلاً وبدأ المعتقلون يتكفون إلى المعتقل في كل ساعة، المنات ليلاً ونهاراً دون توقف، ومع قدوم كل فوج جديد نفس الاستقبال بالحفاوة والتكريم.

العدد كان يجري أربع مرات في اليوم. يعلن أحد الجنود العدد بمكبر للصوت وعلى الجميع الخروج من الخيام والجلوس في الساحة الواسعة أمام القسم متربعين بصورة منتظمة وفق الأرقام التي أعطيت لهم، ويبدأ العدّ، يقول الضابط للرقم ويقول الأسير اسمه أو يقول الضابط رقم الأول الذي يجب أن يجيب بنعم ثم يبدأ الثاني يقول رقمه وهكذا، وإذا حدث أي خلل تم البدء من جديد، ساعة، ساعتان ثلاث يستمر العدد أحياناً والجميع جلوس على الأرض والبنادق من وراء الأسلاك الشائكة موجهة إليهم والجنود على أبراج الحراسة يوجهون فوهات رشاشاتهم الثقيلة نحو الجميع، وحول الجمع عشرات الجنود يحملون الهراوات.

طعام للخمسة أو السبعة لا يكفي واحداً والملابس متسخة وغير كافية، وليست مناسبة حيث إن معظمها واسعة جداً يضطر الواحد من المعتقلين إلى ربطها بقطعة من القماش كي تثبت على وسطه، والمياه قليلة وشحيحة، الحمام مرة كل أسبوع، وخلال خمس دقائق يجب أن يكون قد انتهى، المراحيض صف متجاور من الأكشاك الخشبية الصغيرة مثبتة فوق حفرة طويلة كخندق، حيث لا يوجد صرف ولا مياه.

لا زيارات أهل، ولا رسائل، ومندوبو الصليب الأحمر الذين يأتون للزيارة لا يفيدون بشيء على سوى كتابة التقارير عن الوضع للمأسوي من الناحية الإنسانية ورفعها للجهات العليا.

بدأ الأمرى خلال الأسابيع الأولى يحاولون الانتظام وترتيب صفوفهم في محاولة لتصين ظروف حياتهم وفرض احترامهم على السجائين الأفظاظ. وعلى الفور ثارت مشكلة التمثيل الفصائلي حيث إن الفصائل المتمثلة في منظمة التحرير فتح الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وغيرها من التنظيمات الأخرى اجتمعت وتكلفت على عدم الإقرار بوجود تنظيمات إسلامية لا حماس ولا جهاد، وأن على الأفراد الذين يأتون للمسجن العيش تحت مسؤولية أحد تنظيمات منظمة التحرير فقط، ولا يمكنهم العيش بصورة مستقلة.

أعداد الأفراد التابعين لمنظمة التحرير كبير بكثير، وكان واضحاً أن الأمر يفرض بالقوة وأن من يرفض قد يتعرض لما يكره من العنف والإرغام كان على القلة من الإسلاميين قبول الأمر الواقع مؤقتاً والعيش بصمت حتى حين، وكان على إبراهيم العيش وفق تلك المعادلة... ينظر إلى محمود نظرات استنكار طويلة، يتسم محمود رافعاً كفيه مشيراً بهما وكأنه يقول: ما العمل؟ ليس لديك خيار عليك أن تسلم بالأمر الواقع بالعيش تحت مسؤوليتي المباشرة فهز رأسه إبراهيم وكأنه يقول: مهلاً مهلاً... فإن لكل أجل كتاباً.

الصراع الحاد كان مع إدارة المعتقل حيث إن الظروف القاسية لا تسمح بالسكوت عليها وتوجب تحزماً سريعاً، ولكن أي صورة للاحتجاج أو الاعتراض تقابل على الفور بالقمع الشديد والعقوبات الجماعية، فيضع المعتقلون في المساحات جلوساً على الأرض لساعات طويلة ثم يأتي قائد المعتقل ببذلة العسكرية، يضع يديه على حاصرته مستعرضاً متبخرأً يدك الأرض بقنميه مهدداً متوعداً باللغة العربية المعكوسة.

محمد كان مستقراً في رلم الله وكان عليّ لنا وأخي حسن القيلم بأعباء العائلة كاملة خاصة إزاء أمي وزوجة أخي محمود وإبنائه وأختي مريم وزوجة إبراهيم، وقد توقفت عملية إكمال البناء في الدار وتحولت الدار إلى واقع بنيس من بكاء أمي وزوجة محمود ومريم، إذا وضع الطعام انفجرت أمي بكاءً ولحقتها الأخريات فيكي الأطفال، ويبدأ حسن وأنا بمحاولة التهدة وتطبيب الخواطر و الدعوة للصبر وأن الفترة ليست طويلة، كلما احتاج أحد الأولاد شيئاً أو سأل أمه متى يعود أبي يا أماء؟ انفجرت أمه بكاءً ومن ثم كان عليّ أنا وحسن لن نهب للعلمة الأوضاع (عادة الاستقرار).

فجأة... ومرة واحدة وقع ما لم يكن بالصعيل، فقد جاءوا واعتقلوا 'حسن' كذلك فوجدت نفسي أمام مسألة إنسانية لا أملك القدرة على احتمالها، حيث انضمت زوجة حسن ولبنائه لجانب الأمي، وكان عليّ أن أحاول المولساء فأفطح أحياناً ولقد أعصابي أحياناً أخرى، فبدأ بالصراع: إن هذا الحزن والبكاء لا مبرر له وهل أن سنة أشهر من السجن تسوي كل هذا العذاب والبكاء، ويبدو أن الصراع عليهن كان أجدى لإنهاء الحزن أو لإخفائه حتى تكفل إحداهن ظرفتها فلا أدري ما يكون حالها... ولكن بدلت حالة الفواج والندب الجماعية تنقلص في الدار ويبدو أنهن قد تكيفن مع الواقع بعد مرور الشهرين الأولين.

بوصول حسن إلى القنب وصل معه المئات من المعتقلين من غزة والضفة، نشطاء من كل القوى والاتجاهات ولكن بات واضعاً أن عدد الإسلاميين يزداد بصورة واضحة، وقد بدأوا يشكلون قوة ملحوظة وواضحة، بعد أيام اجتمع عدد منهم وعليّ رأسهم إبراهيم وحسن حيث قرروا وقف حالة الإلقاء لوجودهم كتجمع وفرض التعامل معهم كأفراد، فذهب عدد منهم إلى محمود وعدد من قبائلي القوى الوطنية، أخبروهم أن عليهم التعامل معهم كقوة مستقلة لها كيائها وأن عليهم أن يخطوا لهم بعض الخيام ليتمكنوا من العيش معاً لسوة بيبالي للفصائل الأخرى وليتمكنوا من مزاوله حياتهم بالصورة التي تناسبهم.

كان الجواب الرفض والتفويض باستخدام القوة وبات واضحاً أن الأمور تتصعد باتجاه الصدام بدأ هؤلاء الشباب يفرضون أموراً يريدونها على أرض الواقع مثل الصلاة الجماعية بإمام منهم، وخطيب الجمعة منهم وعقد جلسات جماعية، وبوصول أعداد جديدة من المعتقلين بينهم بعض القوات الذين رفضوا التسليم بالواقع اندلعت مشادات كلامية تطورت إلى مدافعات بالأيدي إلى لكمات وصفعات ثم ضرب بالحجارة ومواسير الخيام وقد وقع عدد من المصابين وجنود الاحتلال يتفرجون دون تدخل حتى انتهت المشاجرة، فدخلوا لسحب المصابين، وتقديم العلاج وأوصلوا ذلك للإعلام بصورة محرجة، فالعقلون الفلسطينيون يتشاجرون ويحطمون رؤوس بعضهم البعض والجلاد بدلويهم ويقلب جروحهم.

لم نحل المشكلة وظل كل طرف متمسكاً برأيه وموقفه، ويبدو أن بعض الخلافات الشخصية مثل تلك التي كانت بين محمود و(إبراهيم وحسن) من جانب آخر كانت تعكس نفسها وتزيد الخلافات الفكرية والفصائلية حدة وعمقاً... واستمرت الأجواء متوترة من جانب على المستوى الداخلي بين فصائل منظمة التحرير من طرف والإسلاميين من طرف آخر، ومن الجانب الثاني بين مجموع المعتقلين وإدارة المعتقل التي تتعامل معهم بأشنع قصور، حدث صدام آخر لم يكن بحجم الصدام السابق وارتفع صوت العقلاء من الطرفين، أن هذا الحال لا يمكن أن يستمر وأن يستمر ولا بد من حل يزيل التوتر، وعقدت الجلسات والحوارات، حيث تم تلبية طلبات الإسلاميين بالاعتراف بهم كقوة مستقلة لها الحق كما لأي فصيل آخر وخصصت لهم خيام خاصة.

الانتفاضة كانت تتواصل وتزداد حدة وصداماً وانتشرت خلال الأشهر الأولى لتغطي وجه الأرض الفلسطينية المحتلة كلها فلم تبقى مدينة ولا قرية ولا مخيم ولا زقاق إلا وأخذ دوره وأخذت كل شريحة دورها في الفعليات بما يتناسب مع قدرتها وظروفها، وقد بدأت تختفي ظواهر العشود المتظاهرة الضخمة، والتي أخذت تتحول إلى أعداد محددة في كل زقاق وشارع وحي وقرية تشمل الإطارات وتضع الحواجز والمتاريس، فإذا قدمت قوات الاحتلال بدأت عمليات رشق الحجارة والزجاجات الحارقة والقنابل الكبريتية التي اعتاد الفتيان على تسميتها (الأكواع)، لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال أن تمر إحدى الدوريات راجلة أو راكبة إلا وفتح معها صدامات عند رأس كل زقاق أو شارع أو مغرق تمر به.

إلقاء قنابل الغاز السام على الدروع وإطلاق الرصاص الحي والمطاطي والبلستيكي والاعتقالات وتكسير العظام من قبل قوات الاحتلال مستمر ومتصاعد وعمليات المنتفضين تتزايد وتتناسب بين الشبان والفتيات يتصاعد، وعند كل زقاق عندما يجتمع الفتية ويجنون وقتاً للحديث، يبدأ كل واحد منهم يظهر آثار الهلولة التي شجت رأسه وآثار الغرز لا تزال بارزة، ومن لم يزل لياً من تلك الأوسمة خلول التهرب بفتح موضوعات أخرى لحديث، أو تقتصر فرصة قدوم سيارة النورية لطير إليها وقد التهب حماساً يريد وساما مثل باقي زملائه وأقرانه، فهو ليس أقل شجاعة، ولا رجولة من أي منهم.

كما تتمكن مخابرات الاحتلال من تحديد الناشطين والفاعلين في تحريك الأحداث فكانت تضطر إلى تشغيل عيونها، وبصفتهم ليكونوا قريبين من أماكن الصدام والمواجهات وعند أبواب المساجد. بعض هؤلاء كانوا معروفين من قبل بسوء سمعتهم، وشك الناس فيهم، وقد كان لبعض منهم يأتي للقيام بدور بصورة مكشوفة ومفضوحة، وملقبة بالنظر فراء للشبان فيمنصبون من المكان ثم يعودون ملتزمين كيلا يعرفهم ويكشفهم، فينقل أسماءهم للمخابرات التي تأتي لاعتقالهم.

في إحدى المرات وبعد سقوط أحد الشهداء وحين أخذ جسده الطاهر إلى المسجد للاحتفال بمسيرة دفنه، يجتمع حشد هائل من رجال ونساء وأطفال المقيم فيأتي أحد أولئك المشبهين ويقف على زاوية الشارع المقابل بصورة تثير حفيظة الناس وتقلق الناشطاء، فيبدلون بالانسحاب والعودة ملتزمين والجمع يحتشد ويزداد، وإذا بأحد الشبان الملتزمين يصرخ بالجمع لماذا نظل ساكنين من هؤلاء الخونة، وهم يرايوننا ويرسلون اسماءنا للمخابرات فيأتي الجيش لاعتقالنا وتضطر للاختفاء أو للتكتم (وضع اللثامات) يجب أن يغتفروا وأن يخلقوا هم، وصرخ بالجمع أن يهاجم ذلك المشبه المعروف، ونون تردد بتفك الجمع وراء ذلك المشبه يركلونه ويضربونه، وكانوا يقتلونه لخاصته من بين الأرجل أحد العقلاء ضارحاً هل تريدون قتله؟ كفى ومسحه وقد تورمت كل أنحاء جسمه.

ظاهرة ضرب المشبهين وما يسمى (بصفتهم) انتشرت كثيراً حيث أن الكثيرين من هؤلاء اعتادوا على مراقبة المتظاهرين أو الملتزمون وبصورة حمقاء ومكشوفة وكثيراً ما كان أحدهم يطارد مجموعة من الملتزمين مسافات طويلة كي يتعرف عليهم حين يظن الملتزمين أنهم، فكان المتظاهرون أو الملتزمون بضربونه ضرباً مبرحاً وكثيراً ما كان الأمر أن يصل إلى موت أحدهم.

أحد هؤلاء العملاء المعروفين كان يعمل مشرفاً إدارياً في مستشفى دار الشفاء حيث أن المستشفى أصلاً حكومي، أي تشرف عليه دائرة الصحة في الإدارة المدنية، وقد حرصوا حينها أن يوظفوا عمالهم في مثل هذه الأماكن الحساسة. وقد كانت مسيرة الرجل كربية ومعروفة وعمالته واضحة، حيث رفع سماعة الهاتف مراراً لطلب قدوم الحاكم العسكري أو الجنود لاعتقال شخص مصاب (هذا قبل الانتفاضة).

حين بدأت الانتفاضة حرص هذا العميل على الاختفاء قليلاً حيث يكون الجمع حائشاً وغاضباً. وفي إحدى المرات وقد تجمع حشد هائل قدم عدد من الجرحى لاحظته أحد قسبان قصرخ مذكراً للناس بحقيقته، فالتهاى عليه الجمع بالحجارة ورجموه كإيليس، ثم انكب عليه الحشد ركلاً وضرباً بالأحذية والأيدي حتى تورم جسمه، ونجا من الناس بأعجوبة، حين داهمت المكان قوات كبيرة من جيش الاحتلال.

خفت حدة ظهور العملاء المشهورين قليلاً ولكن كلما لاح أحدهم ووقع تحت أيدي الحشود أدانته ما غانته سنوات القهر من الاحتلال وعمالته. يبدو أن المخابرات قد بدأت تلجأ إلى تشغيل أنكى لعمالها، ولكن تجربة المنتفضين كانت تتطور بالمقابل.

فكثيراً ما ضبط أحد العملاء منظمياً وهو يسجل أسماء المتظاهرين، أو ضبط آخر وهو بصور المنظمين بكاميرا صغيرة على شكل ولاعة أو ما شابه، أو ضبط آخر وهو يسجل خطبة الجمعة في أحد المساجد بأحد المسجلات الصغيرة، التي تزود بالمخابرات عمالها بمثل هذه المهمات. فالتهاى الحشد على رأس هذا أو ذلك بالنعال، ولأن قوات الاحتلال بزوها الرسمي وخوذها وأسلحتها كانت تصطدم كلما تحركت بالمتظاهرين الذين يشلون حركتها وهي في طريقها لأحد الأهداف، حيث أنه كلما ظهرت دورية حاجبها الشباب وطلوا نغمها. فقد بدأت قوات الاحتلال بتطوير أساليب عملها، فقد ركب على زجاج السيارات بصورة عامة (أسلاك) شبك حندي لمنع تصطم الزجاج، حيث بقيه ذلك الشبك من الحجارة الملقاة عليه، ثم بدأوا يستخدمون القوات الخاصة: وهم جنود يلبسون لزي المدني مثل أي فلسطيني يسير أحياناً مشياً على الأقدام وأحياناً يتحركون بسيارات ذات لوحات ترخيص محلية خاصة بهم، أو يصادرونها من أصحابها على الطرقات، ينطلقون بهذه الصورة أو تلك دون أن يشك بهم أحد وهم يخفون أسلحتهم، فإذا وصل أحد المثلثين أو الناشطين للمتظاهرين سحبوا أسلحتهم وشهروها وهم يلغون القبض على ذلك الشخص، ثم أخذوا يطلقون النار على الأشخاص المحيطين ممن يتدخلون لنجنته، وتكون قوات عسكرية كبيرة قريبة منهم مثلاً في شارع قريب موز تنطلق بسرعة إليهم لتؤازرهم وتخلصهم من أيدي وحجارة الحشود التي تصارع إلى المكان أحياناً أفراد هذه القوات كانوا يقتربون من المتظاهرين أو المثلثين ويطلقون النار عليهم لإصابتهم، وأحياناً بهدف القتل في بداية الأمر.

حققت تلك القوات أهدافها بالاعتقالات أو بالجرح والتصفية من ناحية، وكذلك بإثارة نزعة الخوف لدى العامة من ظاهرة الملتزمين، ولكن لم يكن من الصعب بعد قليل من التجربة أن تتعد الجماهير على ذلك، وتصبح لديها القدرة على اكتشافه. وفي مرات عديدة تورط أفراد هذه القوات بين حشود هائلة أو بين أعداد كبيرة من الملتزمين حيث ألقوهم مرار الكأس الذي طالما أشربوه لهؤلاء الشباب وهذه الجماهير، وأحياناً كانت تحدث بعض الإصابات حين تنكس الجماهير في مجموعة من الملتزمين من شأن الانتفاضة فتحاول مهاجمتهم فيضطرون للكشف عن هوياتهم الشخصية خشية أن ينالهم العقاب.

وقد سرت إشاعات واسعة لدى الجماهير أن بعض العملاء يشاركون في القوات الخاصة التي تهاجم الشباب، حيث نجح بعض المتظاهرين في أكثر من مرة حين هاجمه أفراد هذه القوات في قزع اللثام عن أحدهم، فعرفه أو عرفه الناس الذين هبوا لنجدة، لذا فقد زابت النقمة على العملاء فإذا ضبط أحدهم نال أضعاف سابقه معن ضبطوا من قبل.

أعداد المعتقلين في معتقل النقب زادت وبلغت بالآلاف، وأصبح المعتقل مقسماً إلى أقسام لها أرقام تعرف بها، وظلت سياسة إدارته على نفس الأسلوب من القمع والظن، على أي شيء يتم استخدام العنف والتعذيب، ويخرق القسم للمعني ببحر من الغاز المسيل للدموع، أو يلقى قائد للمعتقل حيث يهدد ويتوعد ويرغي ويزيد.

في إحدى المرات طال وقت الجلوس في انتظار العدة، حين جاء العدة أخطأ الضباط عدة مرات، وكلما أخطأ عاد وبدأ من جديد، حتى تعب الجلوس، فحدثت مظلة واضحة من الذي تحدث؟ لا أحد يجيب، من الذي تحدث؟ لا أحد يجيب لأنه لم يكن حديث من شخص محدد، تؤثر الجو وحشدت قوات كبيرة، وجاء قائد للمعتقل يهدد ويتوعد وينهم للموجودين بالجبن، وأنه لا يوجد فيهم رجال، ثم يسأل من الذي تحدث؟ وقف أحد الشباب وفقاً صارخاً اعتبرني أنا الذي تحدثت، وليكن في علمك أننا كلنا رجال، وجنودك الجبناء فأنتم ترتعدون والتملاح بأيديكم، رفع قائد للمعتقل سلاحه تجاه الشباب الذي لم يتردد لحظة واحدة ولم ترف له عين وظل وفقاً فأطلق عليه رسالة واحدة بين عينيه فسقط شهيداً.

صوت الرصاصية وسقوط "السعد" كان إشارة بدء لثورة عارمة في المعتقل، ففر جميع الموجودين يلتقطون كل ما تقع عليه أيديهم فوقنقونه على جنود الاحتلال من حراس المعتقل الذين بدلوا بإطلاق النيران بغزارة والجنود من الأبراج فتحوا خيران رشاشاتهم الثقيلة.

أغرق المعتقل بالنار، وبدأ المعتقلون بالقتلاع للخيام، وهجموا على الأسلاك الشائكة التي تحيط بأقسام المعتقل بهزونها وبحلولون لقتلاعها، وبات واضحاً أن الأمور خرجت عن حدود سيطرة القوات المخصصة، فتم استدعاء قوات كبيرة من أحد المصكرات العسكرية القريبة التي جاءت بالدبابات تحاصر المعتقل، وتتصب الرشاشات الثقيلة، خشية أن يفلح المعتقلون في لقتلاع الأسلاك الشائكة والإفلات من المعتقل، وبات واضحاً أن العنف لن يحل المشكلة.

وهنا بدأ قادة عسكريون كبار بحلولون فتح قناة حوار مع بعض القيادات من المعتقلين ليهنئوا الأوضاع وبدلت للمفاوضات من جانب والعنف لا يزال مستمراً، حتى انتهى على إقالة ذلك القائد وتغيير منطق التعاون مع المعتقلين من أساسه، تغيير أسلوب العمل، وجعله بصورة محترمة، تحسين الطعام شراء الكنتينة، حصانة المسؤولين من التفتيشات، وفتح حرية تحرك وتجمع في المعتقل، فبدأ الوضع يهدأ ويستقر، وخلال أيام بدأ الوضع يتحسن في المعتقل تدريجياً، بدأ المعتقل يتحول إلى أكاديمية تدرس ثقافة وفنون الانتفاضة، في هذه الخيمة جلسة تدرس تاريخ القضية الفلسطينية، وفي الأخرى جلسة تدرس علوم الأمن وأساليب التحقيق، وفي الثالثة جلسة تدرس فقه الجهاد والشهادة، وفي الرابعة وفي الخامسة... هذا دورة محور أمية وهناك دورة في قواعد الخط العربي، يلقي الشاب إلى المعتقل أمياً فيخرج يجيد القراءة والكتابة خلال ستة أشهر من السجن الإداري مع عدد من الدورات في شتى المجالات التي تلزمه.

يجتمع عدد من الأصدقاء في هذه العارة أو ذلك المسجد يتفقون على العمل حين يخرجون ويتعهدون على مواصلة الانتفاضة وتطويرها، ولأن أكبر حشد للناشطين الفلسطينيين من كافة القوى الوطنية والإسلامية أصبح موجوداً في معتقل النقب، فقد بدأت مخابرات الاحتلال بالاهتمام بهذا التجمع من خلال دفع العشرات من صلاتها إلى هذا التجمع، حيث تتظاهر باصقائهم لسبب أو لآخر وزجهم في السجن، حيث يطلب منهم جمع المعلومات عن الناشطين ونواياهم وأقوالهم وأنشطتهم والتقرب منهم عسى أن يتم تسجيم في النشاط والفعاليات حين يخرجون من المعتقل، فبتم كشفها وإحباطها مبكراً.

بعض هؤلاء كان من الشخصيات المعروفة والمعروفة للنشطاء من القوى المختلفة وبعضهم كان غير معروف، وكأصحاب تجربة قرر المعتقلون بدء نشاط عمل أمني من المعتقل حيث يرصدون ويسجلون ويصدعون ويتابعون ويستجوبون... وقد تطورت الأمور إلى تحقيقات مع بعض هؤلاء العملاء أو المشبوهين وقد أقرط في مرات عديدة في استخدام العنف والضغط الجسدي الذي أودى أحياناً إلى حالات وفاة غير مقصودة، أو إلى أضرار جسيمة لدى بعض من انضموا للتحقيق، ولكن رغم سلبيات هذه الظاهرة فقد كشفت الكثير من مخططات وبرامج المخابرات لضرب الانتفاضة، وأحياناً لتصفية بعض النشطاء جسدياً. والشيء المهم أن معتقل النقب الذي ضم عشرات الآلاف من المعتقلين تحول إلى أكاديمية حقيقية دخل إليه أفواج من الشباب، وتخرج منه أفواج كلها تدرس وتكتسب التجربة وتتبادل الخبرات.

بدأت ظاهرة مطاردة العملاء تمتد إلى شوارع الوطن حيث تشكلت مجموعات من كافة الفصائل بدأت تطارد المشهورين من هؤلاء العملاء وتعتقلهم أو تخطفهم، تأخذهم إلى السيارات أو إلى أماكن مهجورة نائية، تفضعهم للتحقيق طيلة أيام أحياناً تستخدم العنف وأحياناً حتى العنف المفرط، ثم تقوم بعض هذه المجموعات بقتل هؤلاء العملاء وإلقاء جثثهم على المزابل أو في الميادين العامة، ليتحقق عامل التخويف والردع، وأحياناً يؤتى بأحد العملاء إلى أحد الميادين العامة، حيث يحتشد الناس، يربط إلى أحد أعمدة الكهرباء، ويجلد أو تقطع يده أو رجله، أو تطلق عليه النار... ازدادت هذه الظاهرة وأصبحت مجال نقاش بين بعض المجموعات حيث برزت مظاهر مفرزة من العنف ومثيرة للاشمئزاز.

لا شك بأن الخطوط الصراة قد تداخلت في بعض الحالات، فتحت المبالغة في تعذيب بعض للصفائر، مما أوقع ظلماً في هذه القضية أو تلك ولكن بات واضحاً أن ظاهرة العمالة مع الاحتلال قد ضلعت وضربت بصورة واضحة حيث تحقق عامل الردع، فاخفى الكثيرون من العملاء وهربوا إلى الاحتلال، أو سافروا إلى الخارج.

ومن شدة الضغط على العملاء وهروب أعداد كبيرة منهم في بعض الحالات مع عائلاتهم فقد اختلعت مخابرات العدو مركزاً لتجميعهم في قطاع غزة في منطقة تسمى (الدهيتية)، وفي مركز في الضفة الغربية يسمى (مخمه)... في كثير من الحالات لم تكن قوات الاحتلال تتدخل لحماية عملائها وهم يقتلون أو يُعذبون، حيث أن تدخلها لذلك يجبرها للدخول إلى وسط التجمعات السكانية مما يعرضها للخطر، حيث تستهدف عليها الحجارة والزجاجات الحارقة والعموات اليدوية التي بدأت تملأ الأزقة، وتتواجد بأيدي الفتيان في كل مكان، هؤلاء العملاء جندوا أصلاً لأقدمة العدو وليس للعكس.

أحياناً ولإنقاذ أحد العملاء الكبار (وهذه في حالات نادرة جداً) نزلت طائرة مروحية مع قوات لتخليصه وعائلته من دله قبل أن تدهمه الحشود الزاحفة، ولكن الظاهرة تقلصت والخوف من العملاء وتقاريرهم خفت حدته، والظواهر المكشوفة لمركبتهم ومراقبتهم أخذت بالزوال والانهاء. في المخيم كل يوم عائلات تحتفل بإطلاق سراح أبنائها من المعتقلات بعد قضاء محكوميتهم وعائلات أخرى تبكي وتمول لاعتقال أبنائها أثناء الليل، فالإفراجات والإعتقالات يومية لا يتوقف.

أطلق سراج محمود وإبراهيم، واحتفلنا بذلك وجاءنا المهنئون من الجيران والأقارب وعاد كل واحد منهما إلى مهامه في عمله أو دراسته وفي شغله ودوره في فعاليات الانتفاضة ولكن بمزيد من الحيلة والحذر، وعدنا لتكمل إنعام بناء الطابق الثاني...

فور إطلاق سراج إبراهيم أكثر "فايز" من التردد عليه وعلى دارنا وبدأ يلزم إبراهيم كظله، لا يكاد يفارقه طبعاً، نحن استغللنا ذلك جيداً في عدة اتجاهات فقد كنا نلقي عليه المهام الثقيلة والمتعبة في أعمال البناء في الدار من أعمال العتلة والنقل، وهو يحرم على إظهار التفاني، فيعمل بكل طاقته وترواح، وكان إبراهيم يسمعه بعض الكلام عن ضرورة الابتعاد عن الأحداث العنيفة من فعاليات الانتفاضة ليصل ذلك إلى المخبرات فيبتعدوا عن فكرة اعتقاله مرة أخرى، ولم يكن من الصعب علينا أن نرتب تلمساً منطقياً ومعقولاً لإبراهيم من ظله فايز، إذا لرد الذهب لإتجاز مهمة هامة وحساسة، لا نريد أن يعرفها فايز.

تتأققت مع إبراهيم عدة مرات حول فايز وكيف يصح السكوت عليه بهذه الصورة بعد التأكد من خيائته وتعامله مع مخبرات الاحتلال فكان يوماً يدعوني إلى الاطمئنان وأن كل شيء في وقته ممتاز، وأنه لا يريد أن يحدث له شيء تحمله هو المخبرات مسئوليته، وأنه سيتم ترتيب شيء معقول له يبدو أنه أمر عادي، وقد كان لإبراهيم قدرة عالية على إظهار الأمور بصورة طبيعية وأن يخفي ما بداخله، وأن يكتم لفعالاته، وأن يفكر بصورة بعيدة حتى أن زوجته أختي مريم قلما أحست بتحركاته غير العادية أثناء قيامه بواجباته ومهامه من فعاليات الانتفاضة، رغم أنه كان يحضر أحد الشخصيات المركزية في جماعته ويقع على كاهله عبء كبير.

أسي كانت تحس بذلك بقلها دون أن تضبط عليه معامك وألفة واضحة، فتأتي إليه بين الحين والآخر: يا إبراهيم يا إبراهيم كفاك كفاك، لا تتورط وتضيع نفسك وزوجتك وطفلك الذي تحمله زوجتك وقد اقترب ميعاد ولادته، فيضحك ويمارح ويهدئ مظهره أنه لا يفعل شيئاً يدعو للقلق وأنه أهدأ شاب في المخيم، وأنه لن يعود إلى السجن، فتمسكت

أمي حيث لا تتمكن من محاجته، وليس لديها أي دليل على صدق مغالفتها وهو لجسها، وهو لديه قدرة عجيبة على التملص وتحويل الحديث إلى مزاح وضحك حيث يجمع الأمور ويبدأ وجه مريم الذي كان عند بدء حديث أمي مصغراً، يتقصد عرفاً من الانفراج والابتسام حتى ينفجر ضحكها ويبدأ روعها.

أمي كانت مطمئنة من جهة أخي محمود أنه لن يتورط في قضايا خطيرة فهو كبير ومجرب وعقل وقد شارك في بعض الأمور، ولكنه لن يمسك بالحجر بيديه، وهي تعرفه جيداً لذا فقلقها عليه كان قليلاً جداً، قلّقها على حسن كان أكثر منه على محمود ولكنه أضعف بعشرات المرات منه على زوج ابنتها إبراهيم، أما عليّ فيبدو أنها لم تكن قلقة مطلقاً، فهي تعرف أن إقبالي على المشاركة في فعاليات الانتفاضة محدودة جداً، خاصة وأنتي ليس لي أي انتماء سياسي أو فكري لما أخي محمد فقد كان بطبيعته هادئاً ومشغلاً بعمله في جامعته ببرزيت وتعضيره لرسالة الماجستير.

تعبيرات قلّقها كانت بانتظار عودة كل واحد منا إلى البيت ومراقبة مواعيد الخروج والعودة، خاصة التأخر في الليل، وكانت كثيراً ما تقوم بحملات تفتيش في غرفة محمود أو غرفة حسن وخاصة لغرفة إبراهيم، حيث تجمع نساءم الثلاثة وتتدخل للغرفة وهن يرافقتها وتبدأ بتفتيش الأدرج والرفوف وتطلب من إهداهن قراءة كل ورقة خشية أن يكون فيها شيء ممنوع سقط من أحدهم، فيأتي جنود الاحتلال ومخابراته للتفتيش أو الاعتقال فتعثر على تلك الورقة فيقع للمحذور.

لم تعثر في أي مرة على أي شيء وراء إبراهيم، فقد كان دقيقاً وينظف كل شيء وراءه جيداً ضبطت وراء محمود أوراقاً أحياناً مثل مسودة بيان للقيادة الموحدة، حين يعود إلى البيت تجري له (زفة) وتعقد له محكمة عسكرية.

في إحدى المرات رأيتها تجري تفتيشاً شاملاً وجذرياً في سيارة إبراهيم، وكلفتها عثرت على شيء ما، دخلت مثل قوة التتعمق عليه وهو يتناول طعامه، طردت زوجته من الغرفة وأغلقت الباب، وكان صوتها يعلو أحياناً بكلام عام يحمل معنى التهديد، ثم يخفض حين تتحدث عما ضبطته في سيارته، وكان واضحاً أنه يحاول استخدام طريقته المعتادة بنميع الموقف بالمزاح والضحك ولكنه غير قادر على النجاح هذه المرة، ويبدو أنها ضبطته متلبساً بجريمة نكراء.

استمرت إجراءات التحقيق والمحاكمة المظلمة لإبراهيم ما يزيد على نصف ساعة وحين فُتح الباب وخرجت، استرقت النظر لأرى حالة إبراهيم فكان كمن تنهال عليه عشرة محققين في واحدة من أشد جولات التحقيق قسوة من مسلخ التحقيق في سجن غزة المركزي، وابتسمت شامخاً فرد ذلك بنظرة غاضبة، كأنه يقول لي سأخرج ذلك على جلدك بدل جلد أمك... حاولت جاهداً معرفة ما ضحك منه ومنها ومن مريم.

مريم لم تكن تعرف بحق، لأنها لو عرفت لما استطاعت إخفاء ذلك عني، ولكنه وأمي كنا بتعلمان معي بمنتهى المكر والسرية، ويزجراني كلما تبثت الموضوع لأعرف ما حدث بعد سنوات عرفت أنها عثرت على رصاصة مسدس عيار (٩مم) على أرضية السيارة في منطقة جلوس المسائق، فتأكدت أن لديه سلاحاً يخفيه، وهذا خطر ومصيبة، ولكن الأخطر الذي استحق تلك الإجراءات المشددة إهماله بسقوط تلك الرصاصة منه وبقلوها هناك دون أن ينشبه لها ويزيلها.

مرت فترة طويلة وأحداث الانتفاضة تتوالى وتتصاعد وتستمر، وقد امتدت حتى شملت كل الوطن، وأصبح معروفاً أن اسم هذه الأحداث هو الانتفاضة، حتى أن هذا الاسم دخل كما هو في اللغات الأخرى، حين نستمع في نشرات الأخبار في الراديو أو التلفزيون الإسرائيلي تتكرر كلمة الانتفاضة، وكذلك حين نستمع إلى نشرات الأخبار في المحطات الأجنبية.

جلس إبراهيم مرة مع فايز بحضوري، وبدأ يتحدث معه لإقناعه بتخفيف ترده علينا وتقليص علاقاته مع إبراهيم، لأنه يخشى أن يلتفت أحد العملاء لتلك العلاقة ويوصلها للمخابرات فتقوم باعتقالهما لشكهما في أنهما ينفذان عمل شيء معين، فايز حاول تخفيف مخاوف إبراهيم وأنه لا داعي لها ولكن إبراهيم حشره في الزلوية وفرض عليه ذلك، وبالفعل فقد قلص فايز ترده على البيت لكنه لم ينقطع.

في أحد الأيام وقد حلت ذكرى الإسراء والمعراج، وقد كان بيان حماس الذي وزع مسبقاً قد دعا إلى فعاليات ومواجهات في هذا اليوم لإحياء ذكرى الإسراء للمسجد الأقصى المبارك والمروح منه إلى السماء، منذ الصباح بدأ الشبان يضعون الحواجز ويشعلون الإطارات ويلقون فيها بعض العبوات اليدوية الصغيرة لتصدر منها أصوات الانفجارات لإشاعة جو من الجدية على الإضراب الذي دعت إليه الحركة، واستقرت قوات الاحتلال للمجيء بحثاً عن الانفجارات ليتم الصدام معها وعند رؤوس عدد من الأزقة كان ينجح عدد من الملتصقين.

حين جاءت قوات الاحتلال ألقت عليها الحجارة والزجاجات الحارقة، فبدأت بإطلاق النار، فألقيت عليها العديد من العبوات اليدوية، وحدثت حالة ارتباك كبيرة بين قوات الاحتلال التي كثفت نيرانها نحو المتظاهرين الذين كانوا يحسنون الاختفاء وراء السوتر والجدران.

سقط عدد من الجرحى وقتل يومها فايز*، صرخ إبراهيم الذي كان بجواره لقد أسيب فايز، فتدفق نحوهما شبان آخرون، وحين تفحصوه تأكدوا أنه مات، فصرخ أحدهم لقد استشهد أصابته الرصاصة في رأسه، فأمرهم إبراهيم بحمل جثته بعيداً كيلا تذهب إلى المستشفى، حيث أنه كان يعرف أن قوات الاحتلال قد تطلع على التقارير الطبية، هاج المخيم وخرج بقصد فخرجت الجماهير غاضبة، وحمل فايز إلى قبره والجماهير تهتف صارخة متوعدة، ولم يكن لدي شك أنه لم يقتل برصاص قوات الاحتلال، ولكني لم أكن أجزؤ على الحديث في ذلك مع إبراهيم، الذي لم يكن يسمح لي بالحديث في ذلك بالقطع، ولكن العيون كانت تقول ما لا تريد الأكسنة قوله.

تتالت قرارات الإغلاق للجامعات الفلسطينية الصادرة من الحكام العسكريين للمناطق بهدف منع تجمع تلك الأعداد الكبيرة من الطلاب التي يشكل تجمعها نقاط احتكاك وتفجيراً وإرهاقاً، وقد بات واضحاً أن الأمور ستطول وتطول.

ولكن لا بد للمسيرة العلمية أن تستمر، وتم البحث عن حل معقول، وقد وجدوا ذلك بتحويل قاعات الدراسة إلى المساجد والمؤسسات العامة، حيث حددت الجامعة الإسلامية مثلاً مكتباً لها ومن خلاله يتم الإعلان أن محاضرات المساق رقم كذا سيتم في مسجد العباس بمدينة غزة، ومحاضرات مساق كذا سيتم في مسجد فلسطين وتحدد اليوم والساعة، فيجتمع الطلاب في المسجد، ويأتي إليهم المحاضر، وهكذا استمرت المسيرة التعليمية بشيء من الصعوبة والمشاكل ولكنها تكيفت مع الواقع الجديد تكيف غيرها.

كان علينا أنا وإبراهيم أن نذهب للمحاضرات والامتحانات، وكان إبراهيم في عامه الأخير، وكان لا يزال أمامي عام آخر، رغم كل الإغلاقات والحصرات ومنع التجول إلا أن المسيرة استمرت وتخرج إبراهيم وحصل على شهادة البكالوريوس في تخصص (علوم الأحياء) وقدم لوراقه للعمل في وكالة الخوث، وانتظر قرار الموافقة.

أُسي مضطحت عليه بكل قوتها للسفر للخارج ليقيم أوراقه إلى الوظيفة في السمودية
أو في إحدى دول الخليج، فلم تجد إلا أُنثاً صماء واحدة ملكت بالطين والأخرى بالمعجن،
فقد كان حسام أمره أنه إن بقادر الوطن خاضعة في هذه المرحلة الحاسمة والخطرة.
قلب أسي كان يقول لها إن هذا الشاب يجب أن يترك البلاد لأن بقاءه فيها سيكون ثمنه
باهظاً وكانت تصرح بذلك، وقد بدأت تغير أسلوبها معه، حيث أُنثا أمام إصراره على
البقاء بدأت تتوسل إليه، وترجوه للسفر للخارج، ولو لعدة سنوات لتتزين أو ثلاثة على أقل
اعتبار، ولا تجد إلا قراراً واحداً نهائياً وقاطعاً أن أخرج من البلد ولو للحظة واحدة.
محمد استمر في عمله في بيرزيت مع ما في ذلك من صعوبات، في معمل الكيمياء
في كلية العلوم في جامعة بيرزيت، كان يراقب الطلاب وهم يقومون بعمل التجارب
الكيميائية وبوجههم أحد أولئك الطلاب طالب هادي الطبع، كريم الأخلاق حسن العشرة،
يعمل بجد واجتهاد على إنجاز تجربته والنجاح فيها، فوثر انتباه محمد بصورة خاصة،
يعجبه ذلك النشاط والجد.
ينهي الطالب عمله بنجاح، فوقف محمد إلى جواره ليتعرف عليه، حيث لاحظ أنه
شاب متدين، ويشتي على عمله واجتهاده، ويسأله أين تمكن وعن شركائه في المكان
الطائفي، ويدعوه لزيارته في البيت وأنه مستعد لمساعدته في أي صعوبات يجدها في
دراسته في مادة الكيمياء.

❦ ❦

الفصل الثاني والعشرون

عانت أمي تضغط على إبراهيم ليخرج إلى الأردن، حيث يقدم أوراقه للسفارة السعودية أو أي سفارة عربية خليجية أخرى، حيث الأرجح أنه سيتم قبوله للوظيفة هناك، فيأخذ زوجته ويخرج للعمل بعيداً عن المشاكل والمخاطر التي تكمن له في كل زقاق في غزة، فكان يتشم ويرد عليها: أن ذلك مستحيل فقد حسم أمره أنه إن بغادر غزة ولو عاش فيها على الخبز وحده، وانتظر رد وكالة الخوثر على طلب الوظيفة الذي قدمه ليتم توظيفه في القطاع، وبعد حين جاء الرد سلباً، فعدد المتقدمين في تخصصه أكبر من عدد الأماكن الشاغرة، فلم يدركه الدور.

وجدت أمي الفرصة سانحة مرة أخرى للضغط عليه للسفر للخارج ولكنه ذكرها بأنه لديه حرفة البناء وأنه يكسب من خلالها الرزق الوفير، وأنه ليس في حاجة للوظيفة لئلاً، ويمكنه الآن بعد أن انتهى من الدراسة أن يوسع عمله ويطوره وسيدخل عليه ذلك رزقاً كبيراً جداً.

وقد وضعت مريم حملها الأول حيث لمجيت بنتاً أسماها إبراهيم "إسراء" وحين تصالفت عن سبب هذه التسمية قال: حتى تذكرني كلما رأتها بواجبي تجاه أرض الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى، وبما أن الأولاد هم أحد أسباب تقاعس الناس عن الجهاد، فلن تسميتها إسراء يجعل هذا سبباً لدفعي لواجبي، بدلاً من أن تكون سبباً لتقاعسي، وقد ذكرني بتلك اللحظات الجميلة التي قضيناها أثناء رباطنا في المسجد الأقصى المبارك، حين مند اليهود باقتحامه، وقد تفرق الصبح في عينه.

في نفس الوقت واصلنا إتمام بناء الدار الطابق الثاني، حيث أنجزنا بناء الغرف وسقفناها بالإسبست، سقف الدار القديم الذي كان للطابق الأرضي من قبل، ولقد رلبت موقفاً لإبراهيم أتركت معه حب هذا الإيمان للناس من حوله، فحين كنا نسوي سقف الطابق الثاني كنا قد جعلنا ميل للسقف كما كان من قبل باتجاه الغرب، وحين بدأنا وضع الإسبست، توقف إبراهيم عن العمل فجأة، وقال لا يصح لنا أن نعمل بهذه الصورة، تصالفت أي صورة؟ قال أن نجعل ميل السقف للغرب، قلت: لماذا؟ قال لأن ماء المطر الذي يتجمع فوق سقفنا سينزل فوق سقف الجيران، قلت: وماذا في ذلك؟ فقد كان هكذا من قبل، ضحك وقال: لا يا أحمد الوضع اختلف الآن، فمن قبل لم يكن سقفنا يرتفع عن سقف الجيران ثلاثة أمتار ونصف، وحين ينزل المطر غزيراً فإن الماء الذي ينزل على سقف الجيران من هذه المسافة سيكون صوته مزعجاً للغاية ولن يتمكنوا من العيش مع ذلك.

وجدت أن الكلام صحيحاً، تسامعت: ولكن ما العمل؟ قال نعيد العمل ونجعل ميل
المسقف للشرق، فنزل الماء على الشارع، وبدأ بهدم الجزء العلوي من الجدار الذي يزيل
ذلك الميل، ثم بدلنا بيئاتها من جديد بصورة عكسية، ثم وضعنا المسقف، ووضعنا فوقه
الحجارة الثقيلة، كي لا يطير من هبوب الريح.

خلال فترة قصيرة أنجزنا العمل في الدار وأصبحت الدار أربح شقق، لكل شقة
شيء من الاستقلالية، عشت مع أُمِّي في واحدة على أساس أن محمداً حين يعود من رام
الله يسكن معنا فيها، وكل من محمود وحسن وإبراهيم استقر في إحدى الشقق الأخرى،
فأصبح بإمكان كل واحدة من نساءهم العيش بحرية أكثر، فلا تظل طيلة النهار تلبس
منديلها على رأسها لتغطي شعرها به، وتظل تشعر بالحرج من إخوة زوجها.

من خلال العمل مع إبراهيم في بناء البيت، تعلمت الكثير من فنون البناء، وبدأت
مشاركته فأفترض عليّ أن انضم إليه في العمل، حيث خلال أشهر قليلة يمكن أن أصبح
بناؤه محترفاً، حيث سيعمل على تعليمي ويمكن أن نعمل معاً كشركاء، خاصة أن فرص
الوظائف قليلة، فوجدت أن رأيه محقول، وليس هناك ما أخسره فبدأت أعمل معه في
اللورشات والمقولات التي يأخذ على عاتقه إنجازها.

وقد بدأ عمله يتوسع، كان يعمل معنا عدد من العمال، الملقب للنظر أنه كثيراً ما
كان يطلب منا إنجاز أجزاء معينة من العمل، ويقول إنه سيوصل مشوراً سريعاً، يخرج
من العمل ويركب سيارته وينطلق بها، فيغيب لوقتاً طويلاً أو قصيرة ثم يعود ليواصل
العمل، وكنت أتساءل في نفسي أين يذهب ويترك عمله؟ وحين أسأله عن ذلك يقول:
عمل، البحث عن عمل يا أحمد، فقبل إنهاء الورشة التي بأيدينا يجب أن نكون ورشة
أخرى بانتظارنا، فأنظر في عينيهِ ولما أؤكد أنه يكون في عمل من نوع آخر، (يبحث
عن عمل من نوع آخر، ليس له علاقة بشغل البناء والإعمار).

في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، قرب مكان يسمى صرغند، يقع أحد معسكرات
الجيش الإسرائيلي الكبرى، مئات الجنود يأتون للموقع في الصباح، ويفادرون في المساء
إلى بيوتهم ينتظرون في مواقف السيارات مرور أي سيارة تنقلهم إلى بيوتهم ويشيرون
بأيديهم للسيارات المريحة والغادية على الطريق العام، كي تتوقف وتنقلهم في ذلك المساء
البارد.

بعضهم يبدأ بالمسير على جانب الطريق، وكلما اقتربت إحدى السيارات أشار إليها بعض السيارات نقل هذا الجندي أو ذاك، بضعة كيلومترات عند أول نقطة تفرق فيها أهدافهما وعليه أن يبحث عن وسيلة مواصلات أخرى تكمل له (التوصيلة).

على الطريق تنطلق سيارة مبارو بيضاء حديثة، تحمل لوحة ترخيص صفراء (إسرائيلية) بفوقها شاب يبدو أنه من أصل لوروي... أبيض البشرة، أشقر الشعر، أزرق العينين، وإلى جواره يجلس شاب يبدو أنه من أصل عراقي، وفي الكرسي الخلفي يجلس شاب يبدو أنه من أصل يمني... المذيع في السيارة مفتوح على أغنية صربية هائلة للموسيقى.

أحد الجنود أشار للسيارة بالتوقف بلحاح، فتوقفت السيارة فيفتح الجندي بابها الخلفي ويلقي نفسه على الكرسي قتلاً للمسمية (باللغة العبرية لمسمية) فيرد عليه السائق لا بأس (بالعبرية بسيدر) وتنطلق السيارة من جديد بعد أن تقطع مسافة، يلتفت إلى الشاب الجالس إلى جوار السائق وقد شعر موماً صغيراً طلباً منه عدم إيداء أي حركة (بالعبرية شوم تنوعاه) ويقول للجالس على الكرسي الخلفي باللغة العربية: خذ بنقيته، ف يأخذها منه، ويرتجف الجندي ويبدأ بالبكاء، وهو يستجد بأمه (بالعبرية إيماما) ويسيل بوله ليبل بنطله.

فيبدأ محمد بالصراخ عليه أنتم تأتون لتقتلونا في غزة والضفة، وقد اغتصبتم أرضنا من قبل، هناك حين تكونون تشبهون السلاح وتطلقون الرصاص على الأطفال، تظنون أنفسكم رجالاً، وهنا تريد أمك وتقول في ثيلك، ويطلق عليه رصاصة واحدة في القلب، تتحلف السيارة في طريق جاثي، ينزل الشبان الثلاثة يخرجون أدوات حفر من السيارة ويحفرون حفرة ثم يدفونهم، بعد أن أخذوا سلاحه ومستنداته، صرخ أحدهم وهو ينظر في المستندات والسيارة تنطلق بسرعة تغادر المنطقة، يا ويلاه هذا الجندي من القوات الخاصة التابعة لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي، والتي تنفذ أخطر عمليات الكوماندو الخاصة جداً ومعه وسام شرف.

بعد أيام اختلقت نفس المجموعة جندياً آخر، واستولت منه على بندقية أخرى من نوع جاليلي أثناء عودتهما من قطاع غزة وبعد دفن الجندي في منطقة أخرى، وبينما هي تحاول اجتياز الأسلاك الحدودية التي تفصل قطاع غزة عن أراضي الداخل، لاحظها أحد الحراس فاتصل بالقوات التي تحرس المنطقة وبدأت مطاردتها، أدت بعد قليل إلى اعتقال بعض أفرادها، وهرب آخرون واختفوا ثم هربوا عبر الحدود إلى مصر.

جرت تحقيقات وأدت إلى اعتقالات، ولما كان الجنديان وسلاحهما لا زالا مفقودين ولا أحد من المعتقلين يعرف مكانهما، فرض حظر التجول على قطاع غزة كلاً، وبدأت حملة اعتقالات واسعة.

صفوف حماس لم يبق من عليه ظل من شك أنه ينتمي للحركة إلا وقد اعتقل وبالطبع فقد طالبت الاعتقالات أخى حسن وابن عمي إبراهيم، لم يثبت عليهما شيء من التحقيقات فحوالا إلى الاعتقال الإداري لمدة ثلاثة شهور، ونقلنا إلى معتقل النقب الصحراوي.

بعد أيام اعتقل محمود كذلك إدارياً لمدة ثلاثة شهور، وهناك في النقب التقى بحسن وإبراهيم اللذين كان رأساهما يطولان العنان ويدفان الأرض دفناً بأقدامهما، وهما ينظران إلى محمود الذي كثيراً ما تعامل مستكراً: أين دوركم في المقاومة المسلحة!!

ومع أول فرصة للحديث على حدة قال له إبراهيم: الآن بدأ دورنا في المقاومة المسلحة يا محمود، وهذه البدايات وما سيأتي بعون الله سيتحدث عن نفسه فتمتم محمود بكلمات باكر باكر... فرد حسن ليس المهم متى، المهم أنها البداية، والمهم ما سيأتي، والآن دورك أنت لتجيب أين دوركم في القيام بالواجب، فضحك محمود فائلاً: لم تقطعوا شيئاً بنكر بعد، ونسأل عن دورنا، دورنا معروف يا حسن على مدار ثلاثين عاماً ونحن رواد العمل لتفكيك السلاح، ونحن من فجر الثورة، ونحن من نفذ عشرات الآلاف من العمليات القتالية فقاطعه إبراهيم نحن أبناء اليوم والمهم الآن من يأخذ الراية ويكون قائداً على حملها، ودفع ضريبته، فرد محمود: صحيح صحيح وسري، وعلى كل حال فأهلاً وسهلاً بكم في خندق المقاومة، الآن تحظون مواقعكم برضى واحترام.

قاطع حديثهم عدد من الشبان جاءوا إلى مكان وقوفهم إلى جوار تلك الخيمة وهم يلحون التحية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردوا السلام واستأنن محمود بالانصراف، ووقف الشبان يتعرفون، أنا إبراهيم من مخيم الشاطئ، أنا أخوكم ياسر من مخيم خانيونس، أنا أخوكم عماد من مخيم جباليا، وأنا محمود من مخيم البريج، ولنا عز الدين من الشجاعة، جلسوا وبدأوا الحديث عن تلك العمليات البطولية التي نفذها إخوانهم، وكيف أنها وضعت المعتقلين أمام معادلات صعبة حيث لن جنوداً بزيهم العسكري

وبسلاحهم، جنوداً يمثلون رمز الأمن، وهم من يحمون الدولة وبحرسونها، يُخطفون ويختفون، ولا تستطيع أجهزة أمن الدولة، رغم كل ممارساتها وأساليبها وبطشها، حل هذه المعضلة، ثم يحمنون الله أن باب المعركة من خلال الجهاد والمقاومة المسلحة رسمياً قد فتح وأن الغد سيكون مشرقاً علينا ومليئاً بالخير إن شاء الله.

قُتلت الشهور الثلاثة سريعاً وعاد حسن وإبراهيم للدار وبعدها بلعام علا محمود، وكالعادة وافق ذلك الفرح والاحتفال والتهاني من الجيران والأهل.

في هذه الفترة اجتاحت القوات العراقية الكويت، وبدأت الحشود الأمريكية والغربية في المنطقة لحرب العراق وتقلصت فعاليات الانتفاضة إلى حد كبير في انتظار وترقب ما ستجني عنه الأيام. الشيء الذي كان يجمع عليه الفلسطينيون هو انتظار أن يحقق صدام حسين وعوده بإزالة نصف إسرائيل، ورغم الإشفاق على الشعب العراقي من آلة الحرب الغربية التي بدأت تتجمع، كنا ننظر على أحر من الجمر بدء تلك الحرب لنرى الصواريخ تصحق دولة اليمن والحدون، ومما كان يزيد التلهف لتلك الحرب، هو ما يبدية الإسرائيليون قيادة وشعباً من رعب وطمع مما سيحل بهم، خاصة نخوفهم من الأسلحة الكيميائية التي يتم الحديث عن امتلاك العراق لها.

وبدأ الجميع يتابع الأخبار بحساسية وتلهف، حيث أعلنت الأخبار بدنية الهجوم على العراق، بدأ الجميع ينظرون إلى السماء لرؤية الصواريخ القادمة من العراق بالكيمائي لمسح للكيان الزنيم وحين ضربت صفارات الإنذار لأول مرة في إسرائيل وهرعوا يلبسون الأقنعة الواقية من الغازات ويختفون في الملاجئ، خرجت الجماهير في شتى المناطق تهتف: (بالروح بالدم نفذك يا صدام... يا صدام يا حبيب اضرب اضرب تل أبيب)، حيث أنه من يضرب تل أبيب يصبح معشوق هذا الشعب المقهور الذي يعاني التويل منذ عقود.

أعلن المنياح رفع حالة الطوارئ، وأنه بإمكان سكان أغلبية المناطق رفع الأقنعة والخروج من الملاجئ، وأن للصواريخ تنزل في منطقة محدودة، ويتم فحصها الآن، هل كانت تحمل مواد كيميائية لم لا؟ سادت لحظات من الصمت الرهيب علينا، ونحن نجلس في ذلك الليل البهيم في انتظار للنتائج، بعد وقت أعلن أنها متفجرات عادية ولا يوجد أي سلاح كيمائي وطلب من سكان المنطقة نزع الأقنعة، كنا كمن صب علينا الماء المثلج، وأطبق الصمت وظل، كسرهم محمود فتلأأ لهاها عملية تمويه كي يطمئنتوا

ولا يلبسوا الأقنعة، فتأتي الضربة الساحقة، فرددنا إن شاء الله إن شاء الله.
قال حسن بنقرة غربية، يا نلس ليس لدى صدام كيماوي، فلن يضربه على إسرائيل ولو
ضربه على إسرائيل فلن يمسحها، فرد عليه محمود بعصية ولماذا هذه التصورات الكثرة
أجاب حسن بنقرة: لأنه من سيزيل إسرائيل لا بد أن تتوفر فيه صفات معروفة وهي ليست
موجودة في... قاطعه محمود صارخاً يا أخي أنا لا أعرف من أين تأتي هذه الأفكار
والأقوال، فتدخل إبراهيم محاولاً التوفيق، على كل حال إن شاء الله يكون عنده كيماوي
ويضربه عليهم، ولازال هناك متسع من الوقت، ومن السابق لأوانه الحكم على الأمور
الآن.

مع استمرار الحرب واستمرار سقوط الصواريخ العراقية على إسرائيل كانت مساعدة
الناس في قممها، صحيح أن إسرائيل لم تسمح عن الأرض، ولكنها تضرب للمرة الأولى
في عمقها، وكلهم يدخلون إلى ملاجئهم كالفران المدعورة أو يلبسون الأقنعة التي تقلعهم
وبعضهم مات فقط من الرعب، حين سمع صوت صفارات الإنذار، هذا وحده كان يكفي
لأن تفرج الجماهير وحسب ترى الصواريخ تمد نحو كيان الإحتصاب، تخرج الجماهير
تهتف وترعد وتغني رغم أن النتيجة كانت شبه معروفة للكثيرين، إلا أن خيبة الأمل قد
أسابت للعديد حين انتهت المعركة إلى ما انتهت إليه.

حالة الإحباط وخيبة الأمل هذه من نتائج الحرب على العراق سببت للزيت على
الهشيم المشتعل أصلاً، ولعل صورة اللعاب الذي هز صق الكيان المغتصب قد زادت فداحة
لنلس بهشاشة هذا العدو، فمع انتهاء وتوقف الحرب، تفجرت أحداث وفعاليات الانتفاضة
بصورة أهد وأثرب وبات واضحاً أن التوجه لدى قطاعات واسعة من القوى القاطنة في
المناطق لاستخدام السلاح ضد قوات الاحتلال قد زاد، خاصة وأن عدد الشهداء خلال
الفترة السابقة منذ اندلاع الانتفاضة قد ارتفع بصورة كبيرة، ناهيك عن الأعداء الخبالية
من الجرحى.

لكن المناطق كانت خالية تماماً من السلاح، فالاحتلال على مدار قرابة عقدين
ونصف من احتلاله لفزة والضفة كان يعمل بمنهجية على تفريغ المناطق من السلاح
والذخائر وإغلاق كل الأبواب التي قد يتم جلبها من خلالها، ومعاقبة كل من يشغل في
هذا المجال عقوبات شديدة جداً، وبات للناس لا تعرف كيف تستخدم السلاح لو وجدت.
لذا لجأ النشطاء إلى استخدام الأسلحة البيضاء من مسككين وخناجر وبلطات ومخوف،
بالإضافة إلى القهزوات، ومن النادر جداً أن ترى مسدساً أو بندقية كارلوسناف قديمة.

أمي لم تتوقف عن حملات التنقيش لدى محمود وحسن وإبراهيم، عن أي ممنوعات يهملون في إيفائها، أو تسقط منهم، في إحدى حملاتها على غرفة نوم إبراهيم، وأثناء التنقيش سحبت درج الخزنة وفحصته، لم تجد فيه شيئاً، وأثناء إعلانها له خطرت لها أن تسحبه كاملاً فسحبته حتى أخرجته من الفراغ (التجويف) وإذا بعلمة كرتون صغيرة مثبتة عليه من الداخل، فتحت العلبة فوجدت فيها مسدساً، كادت أن يمسى عليها، ولكنها تداركت الأمور، ولملمت عزمها، وأخفت المسدس كيلا تراه مريم.

إبراهيم لم يكن في البيت، فبدأت تحقّقاً مبدئياً مع زوجته، أين يخفي زوجها أغراضه؟ وأين وكيف؟ ومريم لا تعرف شيئاً وتبدي استغرابها من طريقة أمي في التعامل معها.

حين عاد إبراهيم للدار لم تتحدث معه عن ذلك وتعاملت بصورة طبيعية، وفي المساء سمعنا صوت صراخ على مريم، دون أن نميز ما يحدث، ولكنها حين سمعت ذلك خرجت تجري صاعدة السلالم للطابق الثاني، حين دخلت عليهما وهما يتصارخان، التفت إليهما مريم صارخة، أنا لا أعرف ما يحدث هنا، أول النهار تحقق معي أمي على شيء لا أعرفه وآخر النهار يحقق معي زوجي على شيء لا أعرفه، وأنا مثل الأطرش في القرية، هل يمكن أن أفهم ما يحدث في غرفتي؟ انفجرت باكياً.

بكلّوها كان طلقة الفرح التي فتحت على إبراهيم، فقد أخذ ذلك جزءاً كبيراً من اعتماد أمي لإرضائها ومصالحتها، وقد أدرك إبراهيم أنها هي (أمي) التي ضيّعت مخابئ، فظل صامتاً في انتظار ما تبدأ به هي، التفت إليه قائلة: ألم أقل لك أنك يجب أن تصافر من البلاد للخارج؟ قلبي كان يحدثني طيلة الوقت أنك ستلقي بنفسك وبزوجتك وبيتك في الجحيم!!

ابتسم إبراهيم قائلاً: يا عمتي يبدو أنه على أن أقول الآن ما حاولت طيلة سنوات ألا أقوله، اسمعي أنت كذلك يا مريم وكنت قد وصلت وكان الباب مفتوحاً لخاداني، فقال واسمع أنت كذلك يا أحمد، أنا اخترت طريقي وليس من اليوم بل من سنوات، اخترت طريقي من اليوم الذي سمعت فيه أن أخي "حسن" تزوج يهودية ويسكن معها في تل أبيب، اخترت طريقي إلى طريق الجهاد والمقاومة، وسرت فيه وسأواصل السير فيه، وإن بمنعني من ذلك شيء، لذلك اخترت أن أدرس في الجامعة الإسلامية، وليس في أي جامعة أخرى، وغضب مني محمود يومها واختارت العمل في البناء في غزة على أن أذهب للوظيفة في السعودية أو الكويت، وتضايقت مني عمتي.

اخترت طريقي ولن أتغلى عنه، والله يشهد اني احبكم، واحبكم أكثر شيء في هذه الدنيا، ولكن إن أردتم مني عن مواصلة طريقي فسأتغلى عن حبي لكم جميعاً وحتى عن مريم وعن إسراء وأرحل عنكم لأواصل طريقي وأقوم بواجبي.

كانت الدموع تترقرق في عينيه وصوت إسراء يعلو بالبكاء من سريرها الصغير وتتفق الدمع من عيون مريم وعيون أمي، ولم أملك نفسي، فاندردت دموعات ساخنة على وجنتي، قالت أمي وهي تغالب دموعها: أنت هر يا إبراهيم، وإن يملك أحد من فعل ما تريد (الله يحميك الله يحميك) ثم أخذت بيده ونزلت معه السلام وأعطته مسدسه ملفوفاً بقطعة قماش.

في أحد بيوت مدينة الخليل تجتمع لجنة الطوارئ لحماي بتراسها جمال، ويجلس على يمينه عبد الرحمن حيث يخططون ويرتبون تصعيد الانتفاضة والمواجهات في المدينة وفي البلدات والقرى المحيطة بها، ويتفنون على العمل من اتجاهين: الأول تفجير جناح للعمليات والأحداث للانتفاضة والثاني البدء لتأسيس مجموعات وخلايا مسلحة وجمع السلاح لها.

ينطلق أحد المتواجدين ليلتقي بثلاثة من الشبان ليعلم لهم تشكيل نواة العمل المسلح ولأنه عليهم البدء بالبحث عن السلاح وإعداد المخالي والملاجئ وترشيح أسماء المستعدين للعمل في هذا الميدان، في نفس الوقت يتحرك عشرات النشطاء في شتى الاتجاهات، لتحريك الأفراد والأنصار لتوزيع المنشورات وكتابة الشعارات على الجدران ووضع المتاريس على الطرقات لعرقل حركة جنود الاحتلال والمستوطنين، واستدراجهم إلى أماكن مناسبة لترشقهم بالحجارة بحيث يسهل على الشبان الاستتار والانسحاب والمنورة...

عبد الرحيم الذي كان في مطلع شبابه يلتقي اثنين من أصدقائه في مسجد بلدة صوريث يجلسون ويرتبون لفعاليات الغد في البلدة، قبيل بزوغ نور الصبح يخرجون ليوزعوا المنشورات بين بيوت البلدة، ومخاطبها التجارية، ويكتبون الشعارات على الجدران، ثم يبدأون بوضع المتاريس ويشعلون الإطارات حيث أنه اليوم هو يوم إضراب حسب ما أعلن بيان المقموعة، وهم يقومون بذلك وهم ملتزمون.

جاء يجري وراءهم أحد زملائهم ليأتوا ويروا ما يحدث، تساءلوا: ولماذا يحدث؟ قال تعالى لتروا!! فوجدوا أن ما كتبت من شعارات قد شطبت وأن اسم حملن مشطوب ومكتوب تحته احذروا العملاء حملن عميلة للاحتلال، تساءلوا من يفعل ذلك؟ قال: تعالوا، جروا وراءه قراءوا ثلاثة من الشبان اليساريين يقومون بذلك، تعاركوا بالأيدي وخشية أن ينفضح أمرهم وتتكشف الأفعه أخذوا معهم العصي والبلاطات وخرجوا نحو هدفهم، وجدوهم هناك صفوا كل واحد منهم عدة صفعات، فهرب الثلاثة فطاردوهم إلى حاراتهم، وحاصروا الحارة في صورة مثيرة يترقبون خروج أحدهم، فخرج كبير العائلة وصالحوا الشبان شريطة أن لا يفعل أيأوهم ذلك ثانية.

من بلدة صوريك كنت تخرج يومياً حافظان مليفتان بالعمال الذين يعملون في بلدية القدس في النظافة، في المكتبة، في الترميمات وغير ذلك من الأعمال. الحافظتان إسرائيليتان قرر الشبان اعتبارهم هدفاً، في الصباح كمنوا لهم، ومع وصولهم أمطروهما بالحجارة فكسروا زجاجهما واضطرتا للعودة بدون العمال.

لما تكرر الأمر عدة أيام ولم يكن لبلدية القدس غنى عن العمال، جاء مع الحافظتين سيارتا جيب عسكريتان لحرستهما واحدة من الأمام، والأخرى من الخلف، وقد أصبحت الفرصة مواتية أكثر بذلك للشبان لمهاجمة الجنود.

وهكذا يومياً تبدأ المواجهات من الساعة السادسة وتستد أحياناً لساعات، أخيراً يبدو أن الشركة الإسرائيلية التي تشغل الحافلات، رفضت مواصلة العمل بعد حرق حافظتين لها، تم استئجار حافظتين من شركة عربية واستمر رشق الحجارة، فاضطروا لإحضار الحراسة العسكرية، لأن البلدية في حاجة للعمل، واستمرت المواجهات.

أحياناً حين لا يكتفي عهد الرحيم وأخوانه بذلك، يتوجهون للطريق العام الوصل إلى بلدة بيت شيمش، حيث يبدلون برشق السيارات الإسرائيلية بالحجارة، فيكسرون زجاجها، ويعطلون حركة السير، على الطريق تأتي قوات جيش الاحتلال فيهاجمونها بالحجارة ثم يفرون إلى الجبال التي يعرفونها كما يعرف للواحد منهم بيته، ويقضون باقي يومهم في اللعب والجري هناك.

لمواجهات تتزايد والفعاليات تتصاعد، والشهداء يتساقطون ويزداد عددهم والجرحى يفوقون كل خيال، والاحتلال لا يردع، والعالم لا يتحرك.

في إحدى المظاهرات التي حدثت في المسجد الأقصى، تهاجم قوات الاحتلال المتظاهرين مستخدمة الرشاشات الثقيلة، ومستعينة بالمروحيات فيسقط عشرات الشهداء ومئات الجرحى ويفرض حظر التجول على المناطق خشية ردة الفعل العارمة.

لثناء فترة منع التجول يتخذ العزم في قلب شاب فتى لم يبلغ العشرين من عمره على الانتقام، بعد شفرة سكينه، وينتظر، وفي أول يوم يرفع فيه حظر التجول يأخذ سكينه بين طعامه ويستقل الحافلة كعادته حين يفرج للعمل في القدس، ينزل بعيداً عن مكان العمل ليبحث عن هدف مناسب تقوده قدماء إلى أمد الكنس، وفيه عدد من المصلين اليهود، فيخطر بباله للوهلة الأولى أن الرد هنا هو أنسب رد، على مذبة الأقصى، ضد المسلمين، ولكنه يتراجع عن ذلك، فليس هو من يقتحم مكان العبادة، ليقتل من المتعبدين.

يسير للأمام فيجد رجلاً يسحب سكينه ويطعنه عدة طعنات، فيرتدى قتلاً، يتقدم فيجد مجنونة تلثم زبها العسكري بطعنها عدة طعنات، فتخر صريعة، ويتقدم وقد انتبه عليه الناس ويدلوا يحتشدون ويصرخون مستجدين. جندي بلبس زي لقوات الخاصة يحمل سلاحه، يشهر مسدسه في وجهه، ويصرخ عليه طالباً منه التوقف، وإلقاء السكين ولكنه يظل متقدماً نحوه ترتجف يده التي تحمل المسدس، فيمسك بكلتا يديه وترتجفان ويطلق الرصاص فبصبيه في رجليه، وقد صوب إلى صدره ويستمر في التقدم نحوه. وتصبح قدماء ثقيلتان فقد أصيبت كل واحدة بثلاث طلقات، ونزف منهما دم غزير، ولكنه استمر في التقدم، أما الجندي بسلاحه وبرزته فلم تعد قدما فالرئين على حمله، فيهرى.

بقيت خطوتان أو ثلاث حتى يصله عامر، يدفع رجليه وكأنها مغروسة في الأرض ويخطو بها، ويحاول أن يخطو الثانية كي يصله فلا يستطيع، وذلك يرتجف ويرتعد، وحين تأكد عامر أنه لن يتمكن من التقدم شيئاً، ألقي بكل ثقله للأمام وطعن الجندي طعنة وطعنة وثالثة، فبخر ذلك قتلاً رغم سلاحه الذي يثقله، ويستقل عامر رافع الرأس.

شابان في مطلع العشرينات من عمرهما يأتیان لمسجد المخيم بحثاً عن إبراهيم يجلسان معه في إحدى زوايا المسجد يتحدثان بشكل هادئ يضع الوقت ثم يفارقانه في الصباح قبل أن ينتظرهما بسيارته، لحملهما حتى موقف السيارات المتوجهة للعمل في الداخل، ويناول كل واحد منهما كيماً فيه طعامه وينزل ليودعهما، وهو يوصيهما بأن يأخذا حذرهما، ركب الشابان سيارة أخرى من السيارات التي نقل العمال لداخل الأراضي المحتلة عام (٤٨) حتى إذا المحتلة يصلون إلى بوابة الورشة التي يعمل فيها أحدهما ويجلسان في انتظار صاحب الورشة والعمالين الآخرين معه، حضر أحدهما فتح البوابة

ودخل، دخلاً وراعاً، وسحباً سكينهما وبدأ بطعنه قنمت العاملة الثانية فقتلوهما، قدم صاحب الورشة فقتلوه، وقرروا الانسحاب من المكان، ليس قيل أن يكتب أحدهما على الجدار من الداخل مستخدماً رشاش الدهان (السبريه) بمناسبة ذكرى انطلاقه حماس وإهداء إلى أرواح شهداء شعبنا البطل، وانصرفا من المكان.

شاب يتفق مع أحد أبناء عمومته ممن يسرقون السيارات من اليهود، حيث يتم تقطيعها وبيعها قطع غيار، أن يحضر له سيارة كبيرة وثقيلة، يستلمها منه بعد صلاة الفجر، وينطلق بها إلى الداخل، منطقة تل أبيب، أمام مستشفى تل هشومير، يقف عند كبير من الجنود في إحدى محطات الركاب الحاضنة بالجنود، ويزيد سرعة المشاحنة، لأقصى ما يمكن، ثم ينطفئ بها إلى المحطة، فيقتل ثلاثة جنود ويجرح العشرات وتكرر هذه الحالات.

شاب يهاجم بسكينه عدداً من الجالسون في إحدى محطات الحافلات فيقتل أربعة وآخر يهاجم طلاباً يخرجون من مدرستهم، بساطور فيقتل واحداً ويصيب العديدين، وثالث ورابع... عشرات الحالات، حتى بدأ الساسة والعسكريون الأمنيون الإسرائيليون يتحدثون عن حرب السكاكين وأصبح الشارع عندهم في حالة هلع ورعب، واستطاع أفراد قلائل من هؤلاء نقل المعركة إلى داخل تجمعات العدو السكنية، وإيقاع قتلى من بين أفراد، وليس الاكتفاء بأن يدفعوا هم الشهداء في انتظار صحوة ضمير العالم الذي نراكم عليه الأرواح. السعي للحصول على السلاح لم يتوقف، وأصبح الشغل الشاغل للكثيرين.

أحد الشبان لوصل معلومة لإبراهيم أن أحد العملاء الذين لم يرحلوا ويعيش في أطراف إحدى البلدات لديه سلاح، ويخرج ويعود به يومياً في مواعد ثابتة، ويقترح أن يتم مهاجمته بالأسلحة البيضاء وقتله، والاستيلاء على سلاحه، ويوضح أنه يمكن أن يوضع له كمين وهو يمكنه فعل ذلك ولأن الشباب مستعدون لفعل ذلك.

إبراهيم يطلب منه الانتظار حتى يوفر له مسدساً حيث إن مجموعة أخرى أخذت المسدس لتنفيذ إحدى العمليات. يخرج سبعة من الشباب بالأسلحة البيضاء ملتمين ويكتمون لذلك العميل عند مروره بسيارته من الموقع المحدد، تعرض طريقه سيارة، توقفه وفي نفس اللحظة ينقض عليه عدد منهم بسكاكينهم، فيصيبونه بجراح، ولكنه يتحرك بسرعة، يسحب بنقطة العوزي التي معه بإحدى يديه، ويبدأ بإطلاق النار على الشباب، ويفقد سيارته باليد الأخرى بشكل جنوني، مستكبراً بها منطلقاً بعيداً عن الكمين والمهاجمين. أحد الشبان يسقط شهيداً. ويعود "عساد" -الذي كان إبراهيم قد تعرف

عليه في معتقل النقب - إلى إبراهيم ليخبره بما كان، تسقط من عينه الدمعة، ويضم
أن لا ينام الليلة، إلا وقد أحضر لهم سلاحاً.

يركب سيارته ويطير إلى رفح، حيث يلتقي أحد الثبان، يسأله عن آخر، ويأخذه هذا
الثالث، يطلب منه الانتظار، ويمود بعد ساعة ومعه شيء ملفوف بكيس من الخيش، يدخل
به السيارة وحين يفك عنه الغلاف يجد بندقية كلاشنكوف، يقبله من بين عينيه، وينطلق
عائداً حيث يجد عماداً في انتظاره، يسلمه كيس الخيش قائلاً: الآن تستطيعون العمل
بأمان، يأخذها عماد ويطير لا تكاد قدماه تلامسان الأرض إلى أصحابه، يأخذون
الكلاشنكوف إلى منطقة نائية وخالية لتجربته، ومعرفة كيفية استخدامه، فهذه المرة الأولى
التي يسكون بها بندقية، يحاولون ويحاولون دون جدوى، يرجع عماد إلى إبراهيم
ويشكي أن البندقية غير صالحة، أخذها إبراهيم واستقل سيارته، مسافراً إلى أحد الشباب
الذين يعرفون السلاح، ولديهم خبرة به، تفحص الشاب البندقية مرة ومرتين، وفكها ثم
قال لإبراهيم: صحيح إن البندقية معطوبة حيث أن إبرتها منحوتة، وهي تحتاج لإبرة
جديدة، تعامل إبراهيم: ومن أين نحضر لها إبرة؟ أجاب الشاب: تحتاجون لورشة خراطة
وبردة، لصنع واحدة جديدة، شكره إبراهيم وانطلق! لأن الحل سهل حيث إن "حسن" له
ورشة يمكن أن تقوم بالأمر.

أخذ حسن إلى الورشة بعد أن أخذوا البندقية وأخذ منها الجزء المطلوب إصلاحه،
وبعد جهد وتعب، أعدت الإبرة للبدنة، أخذت للتجربة، وثبت لها لم تزل غير مناسبة
تماماً الوقت كان متأخراً، والذهاب للورشة مرة أخرى قد يثير الشك، ويخلق المشاكل
فلننتظر للغد.

وفي اليوم التالي محاولة أخرى وتجربة، والحاجة إلى تعديل، وهكذا من الورشة إلى
مكان التجريب، عشرات المرات، حتى أصبحت مناسبة، مشكلة جديدة تطل، الرصاصات
الموجودة أقل من أن تصلح للتجريب أو الخروج بها في عملية، وهي البندقية الوحيدة،
ثباتها عشرات الأيدي من خلال عدة مجموعات في مناطق مختلفة في جنوب القطاع،
ووسطه وشماله.

بالمسمن الوحيد الذي بحوزة إبراهيم، يفرج شايان أحدهما يقود سيارة بيجو (٤٠٤)
من النوع المنتشر في القطاع، والآخر يجلس إلى جواره على الطريق العام في وسط
قطاع غزة، بالغرب من مدخل بلدة دير البلح، حيث مستوطنة كفار داروم. أحد كبار
المستوطنين يستقل سيارته ليتفحص الأرض الزراعية التابعة للمستوطنة، يتوقف عند
إحدى إشارات المرور، فيطير نحوه ويتوقف إلى جواره، وعن بعد ثلاثين متراً، يطلق
عليه صاحبه النار، طلقة واحدة في الرأس، فيلقى حتفه، وتطلق السيارة.

وعلى الجهة المقابلة تأتي عشرات سيارات الجيب العسكرية لمحاصرة المكان، دون أن تنقبه إلى أن الفاعلين مروا عن بينهم قبل لحظات... 11

إبراهيم وغيره يبحثون عن أي طرف خبر بقول إن فلاناً لديه، لو هناك احتمال أنه كان لديه قطعة سلاح، مهما كانت قديمة، يصلهم خبر أن رجلاً عجوزاً كان لديه بندقية كارلوسات وأخفاها من يوم الاحتلال الإسرائيلي للقطاع، ذهبوا إليه يرجونه بكل الرجاء، وإبراهيم يقبل رأسه ويديه، ويعرض عليه أي مبلغ يريد، والرجل ينكر أن لديه أي شيء من ذلك.

يقومون بالانصراف فينادي عليهم الرجل للعودة، ويقوم معهم إلى إحدى البيارات القريبة، يحفر الأرض تحت إحدى الأشجار، ويخرج ماسورة إسمنتية مملوءة بالتربة، يفرغ التراب، ويخرج منه شيئاً مغطاً بالنائلون، يمزق النائلون، تحته كيس خيش، يرفع الخيش، تحته قمائن، يرفع القمائن، تحته نقالة عصبت البندقية بشريط قمائن طويل، وقد غلفت بمادة الشحمة لمنع وصول الصدا أو الرطوبة إليها، ورغم ذلك حين يرفع كل ذلك كان الصدا قد بدأ ينخرها بعدما يزيد على عشرين ونصف في الأرض، ولكنها جيدة... بل ممتازة، ماذا تريد مقابلها؟ أي ثمن تطلب يا حاج؟ ينظر إليهما الرجل قاتلاً: ثمنها مرتفع جداً!! يقول إبراهيم وقد ضاق ذرعاً: كم تطلب؟ تتفرق نعمة العجوز وهو يقول: أن تستعمل بحق الله في مقاومة الاحتلال فقد دفعت ثمن الحفاظ عليها وعدم تسليمها للمخابرات أشهراً طويلة في التحقيق للعين وسنوات في السجن، انكب إبراهيم على رأسه يقبله ويعدده أنهم بإن الله سيفعلون ذلك، ويطلب منه الدعاء لهم، وينطلقون، والرجل يرفع نظره للسماء: اللهم انصرهم وسدد رميهم.

وتبدأ جولة جديدة للبحث عن الذخيرة من شخص لشخص، يوصل لثالث ثم رابع إلى خامس، ليجدوا عند السادس عدة طلقات، لا تتجاوز العشرة، ومن شخص لآخر لثالث لرابع ليجدوا خمس طلقات، وهكذا جمعت ذخيرة تكفي لتعبئة مخزن ونصف.

ثم بدأت جولة للبحث والتعرف على من يعرف كيفية استخدام السلاح بصورة جيدة وتنتهي الجولة بأحد الشباب الذي كان قد عاد قبل وقت قصير من الدراسة في الخارج، وأثناء ذلك تلقى دورة تدريب عسكري. أبدى استعداداً للتدريب والمشاركة، اتفق مع إبراهيم على ملاقاته في اليوم التالي في شارع صر المختار، عند نصب للجندي المجهول، أخذ إبراهيم من هناك، ونقله إلى إحدى البيارات، حيث كان أربعة شبان في الانتظار للتدريب، وقف بشرح لهم وضعيات إطلاق النار وما شابه.

عماد كان يمسك للكارلوس تاف يلقبه بين يديه ولا تكاد الدنيا تصعه، تقدم الشاب لوضع لهم إشارة على جذع إحدى أشجار الليمون، ليتم التصويب عليها، وعماد يمسك البندقية، ويصوبها فأطلقت منه عدة رصاصات مرت بجوار رأس المدرب للشباب وكانت تقتله حدث لرباك وتوترت الأجواء، وبعد وقت عاد الهدوء، ورجع المدرب لتدريبهم مع أخذ الاحتياطات، طلقة واحدة يطلقها كل واحد فقط، فالمطلقات محدودة، وقد خسرنا عدة رصاصات منها حين أطلقت، ولكن لا بأس فالتدريب العملي سيكون في الميدان، والخروج الآن ضمن مجموعة تحمل المساكين وأحدهما يحمل بندقية رشاشة لاستخدامها وقت الطوارئ، مما يجعل الأمور قد قفزت قفزة نوعية.

عدد من الشباب من نفس المجموعات يعكفون على قص رؤوس أعواد النشاب، بمقصات الأطفال ويكرونها في علة، آخر يحضر علة حديدية جديدة، ولكنه يخطئها بالمنشار الحديدي طولا وعرضا، يحاول للتفعل بالمنشار فيها، كي يضعف تماسكها، ويعولها إلى قطع وشظايا سهلة التناثر حين يحدث الانفجار، يملأونها برؤوس أعواد النشاب، ويضعون بداخلها سلك الاشتعال (الفتكستين) من لمبة كهربائية، كسروا زجاجها يحترق، ويطلقونها بعد أن أخرجوا منه طرفي السلك الكهربائي المشبوك بسلك الاشتعال، ويخرجون لزراعته في إحدى الطرق الترابية في الانتظار، ويبدأ أحدهم طرفا السلك وبطارية كهربائية.

الآخرون يشعلون عدداً من الإطارات، ويبدؤون بوضع المتاريس، أمام موقع العبوة بعشرات الأمطار. تحضر سيارة الدورية، ويبدؤون بمصاحمتها ورشقها بالحجارة وتطلق عليهم الرصاص، يبدؤون بالانسحاب وتتقدم الدورية حتى تصل إلى موقع العبوة، فيضع عماد السلكين على قطبي البطارية، صوت انفجار هائل ودخان كثيف وصراخ الجنود يتعالى، والشبان ينسحبون من المنطقة حيث تلتى تعزيزات كبيرة معها سيارات إسعاف لنقل المصابين الذين تعالى عويلهم ونواحهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث والعشرون

بعد اللحظات الأولى لرؤية إسماء ابنة إبراهيم ومريم نور الحياة، لاحظت أن إسماء تفصها بحب خاص وعناية خاصة أكثر بكثير مما كانت تفص به أولاد محمود وحسن، لم أدر ما هو السبب وراء ذلك الحب الخاص، ولعله نابع من عاطفتها الخاصة تجاه إبراهيم، منذ أن ألقي في حجرها لتتولى هي تربيته، مثل أي واحد منا، وزاد ذلك الحب أنها كذلك حفيبتها من ابنتها، فكانها حازت حبيباً مما حاز أي من الأحفاد الآخرين، لذلك حاز الولد حباً كونه ابن لبنتها، أو ابن ابنتها. ولكن إسماء كانت لبنة ابنتها ولبنة ابنها كذلك، ولتحق قولاً حبي الخاص واحترسي الفائق لإبراهيم، وقاعتي أنه يستحق ذلك الحب لحسنه على ما توليه له إسماء من حب وحرص، رغم أنه ليس ابنها مثلي.

كانت كثيراً ما تأخذها بين ذراعيها، وتبدأ تهزها وتلاعبها، وهي ترتجل الغناء الذي اعتادت للنسوة على ترديده، وهن يهزرن سرور الأطفال، ليناموا أو ليكفوا عن البكاء، وكثيراً ما كانت تردد الأزمة، (هاتي منديلي يا واقفة على الباب... هاتي منديلي، لارجع عابلا دي يا واقفة على الباب... لارجع عابلا دي... واشوف حبابي بلواقف على الباب... واشوف حبابي) وتستمر في الارتجال على هذا الوزن والغناء.

ولكن بعد ذلك للموقف الذي كان مع إبراهيم، استبدلت كلمة منديلي في غناها بكلمة البارودي فصارت تغني دوماً بلازمة (هاتي البارودي يا واقفة على الباب... هاتي البارودي، أحرر بلادي يا واقفة على الباب... أحرر بلادي، يا عز احبابي يا واقفة على الباب... يا عز احبابي).

كنت أحب تلك الأغاني التي تغنيها إسماء، وكنت أشعر أنها تنفث من خلال أمالها وأحلامها وآمالنا وأحلامنا جميعاً، فكنت كثيراً ما أسعد لأطابق النظم بعد أن أجد المبرر وأحضر لها إسماء، لتبدأ بنشيدنا وأنا أسمع لها، وأدع الكلمات تداعب روحي، وخاطري متظاهراً بالانشغال بشيء أفعله أو كتاب أقرأه.

إبراهيم يجلس مع عدد من الشبان بينهم عماد، يخططون لمهاجمة أحد مصانع نجنة الخضروات وتغليف الفواكه شرق للشجاعة، هناك يعمل الحشرات من العمال العرب تحت إمرة صاحبي المكان اليهوديين الذين يسمون بالأمان والطمأنينة.

ركب لشباب سيارة البيجو (٥٠٤) البيضاء، أحدهم يحمل بندقية الكارلوستاف، وفي مخزنها يضع رصاصات معدودات، ليس هناك سواها، واثنان يحملان سكاكين الكوماندو، والرابع يقود السيارة التي تنطلق بهم نحو الشجاعة، ويتجاوزها حتى تصل إلى باب المصنع، حيث بالدخل ساحة كبيرة، تملئ بالعمال والبضائع، اقتحمت السيارة المكان، وتوقفت فجأة حيث قفز منها الثلاثة، أحدهم يشهر البندقية ويطلب العمال العرب بالوقوف جانباً، وعدم التدخل ويصرخ عليهم ليفعلوا ما يأمرهم به فيصاعون له والاثنان الآخران ينكلن على اليهوديين بالسكاكين طعناً، وقد علا عويلهما، واستجداؤهما للرحمة، أنجزت المهمة خلال دقيقتين أو ثلاث، استقلوا سيارتهم وانطلقت بهم سريعاً بعد وقت قصير جاءت قوات كبيرة لتسيط المنطقة (المكان) ولتحقيق مع المتواجدين، وبعد ساعات نزل البيان، يعلن أن العملية هدبة لرئيس هيئة الأركان الإسرائيلي الجديد "يهود باراك" احتفالاً بتوليته المنصب.

بعد أيام وصلت معلومات جديدة لإبراهيم أن هناك يهودياً يأتي لجميع الخضراوات، من المنطقة الزراعية شمال مدينة غزة، يتم للتأكد من الأمر، ثم تخرج تلك المجموعة لاقتناصه مسلحة بكل السلاح الناري المتوفر، بندقية الكارلوستاف والمسدس، ينتظرون حتى قدومه في الموعد، يتوقف على الطريق، ينتظروا لقدوم المزارعين، ليشتري منهم منتوجاتهم، بأبخس الأثمان، تقدم منه أحد الشباب وناداه باسمه "كوهين" لثقت قليلاً بعريية ضعيفة: نعم، فاخترقت رأسه ثلاث رصاصات قضت عليه. استقل الشاب السيارة التي انطلقت تغادر المكان، وبعد أن قطعت مسافة طويلة مبتعدة، قابلتها على الاتجاه الآخر من الطريق عشرات السيارات العسكرية تنهب الأرض في طريقها لمكان الحادث وحادثه شبيهة وحادثه رابعة، وأخبار تنطير في أنحاء الوطن الذبيح، فتخرج الحشود هاتفه نحية للكتاب كتاب عز الدين... كتاب كتاب... كتاب كتاب.

ويجتمع قادة العدو وقد جن جنونهم، فقد بدلوا يدفعون أنماناً باعطة في الأرواح، وهذا شيء يفقد عقولهم، كل واحد منهم يدق على الطاولة صارخاً على من هو دونه، أنه يجب ضبط هؤلاء أو قتلهم، ووقف ما يجري، وبطبيعة المنطقة وطبيعة الصراع فإن المسؤولية كلها في ذلك تقع على جهاز المخابرات الذي عليه أن يبحث عن هؤلاء الشباب، وسط هذا الشعب المتلاحم، كما يبحث عن إبرة في كومة قش، ويبدلون بتحريك وتوجيه عمالهم لجميع أي معلومة، تشكل طرف خيط يمكن من خلاله، الوصول إليهم أو إلى بعضهم.

عشرات المركبات العسكرية للمكتظة بجنود الاحتلال، تتهب الأرض نهياً إلى حي الصبرة في مدينة غزة تحاصر أحد المنازل، وتخلي المنطقة من السكان، وتبدأ بالنداء عبر مكبرات الصوت على المتواجدين في البيت المخادرة فوراً، والطائرة المروحية تحلق فوق المكان، في البيت يختفي ثلاثة من الشباب المطلوبين لقوات الاحتلال في إحدى الغرف، وفي باقي البيت تعيش أسرة فلسطينية حياتها العادية.

جاء رب البيت جرياً إليهم ما العمل؟ فبارأ أحدهم: اخرجوا من البيت أنتم، ونحن سنكبر الأمور نصرخ الرجل: وكيف نخرج وأنتم هنا؟ لينضم الشباب الثلاثة، وقال أحدهم: لا تخف علينا وقد أمسك كل واحد منهم بعروة يدوية من تلك التي صنعوها من الموليسير وحشوها برؤوس أعواد النقاب، ويبدأ أحدهم كذلك مسدساً، اخرجوا أنتم كذلك يصطب الأطفال والنساء اخرجوا ونحن سنكبر الأمر، وبدلوا بدفعه من الغرفة، فخرج وأخرج أطفاله وأهل بيته وحججته تردد اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم يقرأ ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لا يهتدون﴾^١، خرجوا من البيت فلتقتفهم أيدي جنود الاحتلال وينادقهم مشيرة في وجوههم، أخذوا الكبار للتحقيق بالجور، واحتجزوا الأطفال في مكان آخر.

دخل البيت توزع الشباب الثلاثة أحدهم بمسك مسدسه، والآخران بمسك كل واحد منهما عروة للنقاب بيد والولاعة بيده الأخرى، في انتظار الاقتحام، وفي الخارج يستعد عشرات من الجنود المدججين بالسلاح لاقتحام البيت، يفتحون الباب عنوة، ويدخل الأوائل منهم، فيشعل أحد الشباب عبوته، ويلقيها على مدخل البيت، فتتفجر مصدرة صوتاً قوياً، ويعلو صراخ الجنود، ويتراجع من ظل منهم دون إصابات، ويستمر عويل من أصيب، ثم يقتحمون مرة أخرى، تحت نيران كثيفة، يسحبون الجريح، ويقتحمون ثمت غزارة الرصاص، ثم يتوقفون عن إطلاق النار، ويصدر صوت طلقة واحدة مميزة، فهي طلقة مسدس، تقتل أحد الجنود، حيث تفتتح عشرات البنادق على مطلق النار، تلقى صوة ثانية، تتفجر، يتعالى الصراخ ثم يتعالى صوت الرصاص، وبعد وقت يخرج الجنود وهم يحملون مصابين آخرين، ثم جثث الشهداء، وأخذوا معهم رب البيت للاعتقال.

^١ سورة يس آية (١)

بعد وقت انطلقت سيارة للبيجو (٥٠٤) البيضاء بسرعة من أمام مدخل مقر الشرطة الإسرائيلية في مدينة غزة، حيث ألقيت منها عبوة ناسفة على مدخل المقر، وأطلقت رزمة رصاص من بنادق الكارلوسلاف، وعدة طلقات من المسدس، وتعالى صراخ الحرس، ثم انطلق الرصاص غزيراً وراء السيارة التي كانت تغادر المكان.

كثفت مخابرات الاحتلال وقواته نشاطها في مطاردة المجاهدين، ونجحت في حملة أخرى من الاغتيالات والتصفيات التي لم يكن هناك شك بأنها اعتمدت بالأساس على نشاط استخباري مكثف، وقع غالبية على عاتق الجواسيس، كما تمت عمليات واسعة من الاعتقالات لكل من يشتبه بأدنى علاقة له بالعمل ومنفذه، أو من يشتبه بتقديم المساعدات لهم، فلا تجد إلا لقوات الكبيرة من الجنود المحتلين تحاصر إحدى الحارات لتداهم أحد البيوت، حيث يخفي بعض أولئك المجاهدين، أو تجد قوة خاصة تكمن بين الأزقة أو في البساتين، لتقتال أحد أولئك المجاهدين، وقد بات من الواضح أن من المستحيل أن يستمر الوضع على ما هو عليه من نقص السلاح من جانب، ومن مضايقة ومطاردة قوات الاحتلال لهم من جانب آخر.

في إحدى اللقاءات التي ضمت إبراهيم مع بعض أولئك المجاهدين اقترح أحدهم أن يخرج من يستطيع منهم عبر الحدود إلى مصر تهريباً، حيث أن البقاء في البلد يشبه الانتحار اعترض إبراهيم وغالبية الموجودين على فكرة الخروج من الأرض المحتلة.

وأمام الضغط للبحث عن خيار آخر اقترح إبراهيم أن يخرج أكبر عدد منهم إلى الضفة الغربية، هناك يمكن أن ينشطوا للعمل، ويمكن أن يأخذوا راحة، يعودون بعدها للقطاع من جديد، ويمكن البحث هناك عن السلاح، فقد يكون متوفراً أكثر منه في غزة، وأمام إصرار البعض على فكرة الخروج إلى مصر، اتفق أن من لديه الرغبة في الخروج فليخرج إن تيسرت السبل.

تم تزييف عدة بطاقات شخصية لبعض المجاهدين الذين بدلوا يستخدمونها للخروج من قطاع غزة إلى الضفة الغربية، حيث خرج ثمانية من الشخصيات المعروفة، والمطلوبة لقوات الاحتلال إلى منطقة رام الله، هناك ساعدهم طلبة الجامعات والمعاهد لاستجار شقق على أنهم طلاب في تلك الجامعات، كي يسهل تولدهم في هذه الشقق، دون أن يثير ذلك الريبة والفضول.

آخرون اجتهدوا للخروج إلى مصر عبر الحدود، حيث يتم تهريبهم إلى داخل الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وهناك يأخذهم أحد البدو كنزير ليوصل بهم شرقاً في صحراء النقب، حيث تقل التشديدات الأمنية على الحدود مع مصر، وهناك يهربهم إلى مصر، وقد نجح البعض في الإفلات إلى مصر، حيث ضبطوا على أيدي قوات الأمن المصرية، ونقلوا إلى أحد السجون، وبعد وقت تم إطلاق سراحهم شريطة أن يغادروا مصر، وقد غادروا إلى السودان.

الذين خرجوا إلى الضفة الغربية بدأوا بمساعدة الطلاب هناك في محاولة الاتصال بالمجاهدين في أنحاء الضفة الغربية، من واحد لآخر لثالث ورابع. التقى عماد وبشار ومحمد بعدد من طلبة جامعة الخليل ذات الوجوه المشهورة، التي كانت تجلس في حلق للدرس، التي كان يلقيها جمال أبو عبد الرحمن، يوسف ويعقوب وعابد وسيف، حيث كان هؤلاء يتجهزون وينتظمون لهذه العمل المسلح في جنوب الضفة الغربية، سأل عماد فوراً ومن بداية اللقاء الأول: هل يوجد هنا سلاح؟ لبشم الشباب وقالوا: ليس من الصعب تدبير أمر السلاح، صرخ عماد: إذا فحقن ثريده فوراً، ضحك أحداهم وقال: رويدك رويدك، أصبح أن تمك يا أهل غزة ساخن.

كان الشباب من مخيمات القطاع يتجولون في شوارع رام الله أو شوارع الخليل ولا يكادون يصدقون ما يرون بيوتاً حجرية فاخرة، مثل القصور ويقول أحدهم الله أكبر، إن هذه الصخور التي تزين هذا القصر تطعم مخيمات ستة شهور، فيضحك يعقوب قائلا: الناس هنا بخير، والأوضاع الاقتصادية ممتازة، وتتم سيارة مرسيدس سوداء اللون موديل (١٩٩٢) ينظر إليها عماد ولا يكاد يرى سائقها فتى صغير، يختفي وراء عجلة القيادة، ويتساءل: كيف يسمح له أبوه بقيادة سيارته دون أن يكون معه...؟؟ فيبشم يعقوب قائلا: هذه ليست سيارة والده، بل سيارته هو فيصرخ عماد الله أكبر بضمن هذه للسيارة يمكن أن تشتري عشر بنادق كلاشينكوف وتقلب بها الدنيا، فيقول يعقوب: أتدرون أنه يوجد هنا العشرات من أصحاب الملايين، ومنهم من لا يدري كم لديه منها!! قال عماد: أه لو أنه يجوز أن نزل على واحد منهم لنأخذ منه بعض ما عنده لشراء السلاح، فيضحك يعقوب: أنت لا تفكر إلا في شراء السلاح!!، فيجيب عماد: أنت لا تعرف ماذا حدث مع (خواتنا) حيث هاجمتهم قوات الاحتلال مرات عديدة، وليس بأيديهم السلاح ليدافعوا به عن أنفسهم، والله لو كان بيد الواحد منهم بندقية رشاشة، لقتل العشرات قبل أن يموت.

بعد أيام عند أبواب الحرم الإبراهيمي الشريف يقف جنديان من المحتلين بحرمين المكان والمستوطنين، الذين يأتون للصلاة، يُطال عماد ويحطوب ويبد كل واحد منهما بتدقيّة رشاشة لوتوماتيكية، يطلقان زخات الرصاص على الجنديين فيرديانهما، ويتسحبان بهدوء وسلام، ويختفيان تأتي التعزيزات العسكرية ويفرض نظام منع التحول على المدينة عدة أيام.

بعد فترة يستقل عدد من الشبان سيارتهم بينهم عماد ومعهم عدد من البنات في تم شلوها من بعض سماسة السلاح، الذين يشعرون من تجار وجنود يهود طمعا في المال وينطلقون خارجين في إحدى الطرق المؤدية إلى خارج الخليل، بحثاً عن سيارة مستوطنين أو جنود لإطلاق النار على من فيها، وإذا بسيارة جيب عسكرية تسير في الاتجاه المعاكس، تستدار للسائق خلفها، دخلت المدينة ودخلوا خلفها، ثم انطلقوا خلفها مسرعين، وأثناء عملية التحول انفتحت على من فيها نيران ثلاث بنادق لوتوماتيكية، فأردت من فيها، ومرة ثالثة يجدون إحدى سيارات الضباط العسكريين، يطلقون عليها النار أثناء التجاوز، فتقلب على جانب الطريق، بعد قتل أو إصابة من فيها.

اشتعلت مدينة الخليل وأصبحت شوكة في حلق المحتلين، بعد سفوات من الغرق في النوم العميق وبدأ حملات الاعتقالات العشوائية بصورة جنونية، ويدفع الشبان إلى السجون والمعتقلات. عماد وبعض إخوانه غير المكشوفين للاحتلال، ينتقل عائداً إلى غزة ولكن بيده بتدقيّة لوتوماتيكية (أم ١٦) وعدة خزانات من الرصاص، ثم يعود لحد الشبان للخليل، ويعود بتدقيّة أخرى. الآن يمكن أن يتحول العمل في غزة إلى مقاومة بحق.

إبراهيم يرصد للشباب لرصد أي أهداف إسرائيلية مناسبة فتأتيه الأخبار عن سيارة جيب عسكرية تقوم بالدورية على الطريق العام شرقي حي الشجاعة والذي يسافر عليه مئات بل ألوف العمال للعمل في الداخل، النورية تتحرك على هذا الطريق ذهاباً وإياباً لتحرص الطريق بعيد أذن الفجر. تتحرك سيارة الجيب على الطريق وفيها ثلاثة جنود، أحدهم للسائق، الثاني يجلس وراء رشاش من العيار الثقيل، والثالث يجلس وراء كشك كهربائي قوي يسلطه على عيون العمال والسائقين على الطريق وعلى جانب الطريق لاستكشافها، ومن ورقته تنضم سيارة بيجو (٤٠٤) بيضاء اللون، فيها ثلاثة من الشبان، السائق وعماد وجميل، ويبد الآخرين بتدقيّة (أم ١٦) وحين أصبحت سيارة البيجو بمحاذاة سيارة الجيب، انفتحت نيران التندقيتين على الجنود الثلاثة فأردتهم على الفور، ولترنطت سيارتهم بجانب الطريق. انسحب المهادون بسهولة ويسر، فقد كانوا قد رسموا خط الانسحاب.

قدمت التعزيزات حاصرت اعتقلت حققت، ونزلت صحافة العدو في اليوم التالي
تحدث عن الجراءة التي لم يسبق لها مثيل، وعن الجنود الذين يجلسون في غرة مثل
شاخصات للتدريب.

وبعد أيام خرج المجاهدون لهدف جديد، حافلة إسرائيلية تعود بالعاملين من عبور
جدارك رفح على الحدود المصرية، مروا بجوارها وأطلقوا عليها زخات رصاصهم،
وبعد أيام على سيارة جيب عسكرية أخرى، بفرض حظر التجول، تجري الاعتقالات
والتحقيقات دون جدوى، ومع أول فرصة بعد رفع حظر التجول، يترقب المجاهدون أحد
الأهداف ويطلقون عليه النار. وبدأ المحققون الإسرائيليون يؤكدون أن غرة تحولت إلى
ثقب أسود في رأس إسرائيل، وتجراً بعض الساسة، فطالبوا بالانسحاب غير المشروط من
غرة، وتفكيك ما فيها من مستوطنات، وإنشاء جدار فاصل حولها وتركها وشأنها.

للمجاهدون يستقلون سيارتهم في شارع عمر المختار بغرة، ويبدو أن سيارتين من
حرم الحدود تطاردتهم، طلب عماد من السائق الانعطاف من الشارع والتحول إلى
شارع الوحدة، انقضت سيارتا حرم الحدود، ولحظة ظلت وراءها، والأخرى ذهبت
للالتهافت، واضحاً أنها مطاردة مقصودة، لترك السائق ولتطمعت عجلات السيارة
بإلرصف، توقفت سيارة جيب حرم الحدود على بعد أمتار، ونزل منها جنديان يشهران
بنادقهما ويناديان على من في السيارة للخروج منها رافعي الأيدي، عماد يجلس في
الكرسي الأمامي بسرعة حافلة، بسحب بندقية، ومن خلال الزجاج الخلفي للسيارة يفتح
النار على الجنديين وعلى السيارة، ومن فيها من فوق رؤوس صاحبيه، الذين يبدآن كذلك
بإطلاق النار، يتوقف إطلاق النار بعد أن انطلق السائق بالسيارة من جديد، وأُلفت
المجاهدون من موت محقق.

ثلاثة من المجاهدين في ظلمة الليل يزحفون ويأيد بهم بنادقهم على الرمال الصفراء
الناعمة والباردة، في تلك الساعة المبكرة التي تحيط بمستوطنة (عني طال) شمال مدينة
خان بونس يصلون ويبدؤون الحفر في الرمال تحت الأسلاك الشائكة قبيل الفجر باتجاه
الأسلاك الشائكة يزحفون من تحت الأسلاك، حيث يخفون بين الشبكات الزراعية في
انتظار الهدف بعد دقائق تطل سيارة جيب عسكرية ترافق محيط المستوطنة، وعليها
كشاف كهربائي، ما إن وصلت حتى فتحت عليها النيران، ظلت السيارة منعطفة للأمام،
بضعة أمتار أخرى، ثم توقفت وسار الشبان للتأكد من الإجهاز على الجنود وسحب
سلاحهم، والانسحاب من المكان إلى السيارة التي تنتظرهم.

في القدس المحتلة يلتقي أربعة من نشطاء من البلديات المحيطة، يخططون لعملية مميزة، ينطلقون بسياراتهم ومعهم بعض الأسلحة للبيضاء، والحبيل إلى مدينة اللد المحتلة، قبل الفجر أحد جنود حرس الحدود في طريقه من البيت إلى قاعدته، يسير على جانب الطريق بسرعة السائق بالسيارة وينعطف قليلاً ليعتصم الجندي بطرف السيارة، يمسك على الأرض، يتوقف فينزل الآخرون يحملونه للسيارة حيث يخفونه بها، يخلقونها وينطلقون لإكمال مهمتهم، حيث يلقون في مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر رسالة فيها بيان إعلامي، موجه للحكومة الإسرائيلية، يحملها أربعاً وعشرين ساعة لإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين وسجناء آخرين مقابل إطلاق سراح الجندي "تيمم طوليدانو" بضمانة دبلوماسيين أوروبيين.

هن جنون "اسحق رابين" رئيس الحكومة الإسرائيلية، وقادة جيشه ومخابراته، وانطلق آلاف الجنود يفتشون ويمشطون ويضعون الحواجز ويفحصون كل رائج وغاد، وبصورة هستيرية، عند مرور الأربع والعشرين ساعة دون تنفيذ حكومة رابين ما طلب منها، اعدم الشاب الجندي وألقوا جثته في أحد الأودية القريبة، كي يفهم رابين أنهم إذا هددوا نفذوا. اجتمعت الحكومة الإسرائيلية بحضور كبار القادة العسكريين والأمنيين لتناقش التطورات الأمنية الخطيرة التي طرأت على الواقع، حيث العمليات الفدائية تزداد وتتصاعد والخسائر البشرية لديهم تتضاعف يوماً بعد يوم، تناقشوا وتحاوروا وقدموا الاقتراحات.

تحت جنح الليل وفي كل أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة، في كل مدينة وبلدة وقية، آلاف الضباط ورجال المخابرات، وعشرات آلاف الجنود معهم مئات المركبات والسيارات والحافلات، في حملة اعتقالات ضخمة لجميع نشطاء التيار الإسلامي من حركة المقاومة الإسلامية حماس والجهاد الإسلامي، حيث يتم جمع أربع مئة وخمسة عشر شخصاً من القياديين والنشطين، يحملون في حافلات معصوبي الأعين مقيدي الأيدي، وتطلق بهم الحافلات شمالاً ساعات من السفر المتواصل حتى الحدود اللبنانية.

هناك يتم إزالتهم حيث يعملون في شاحنات لبنانية تابعة لجيش جنوب لبنان، ويتم الإطلاق بهم من جديد إلى أصاقي الجنوب اللبناني، حتى الشريط الأمني، يتم إزالتهم على الحدود ويؤمرون بالسير للأمام وإلا أطلقت عليهم النيران، يتوقف الجميع على الطرف الآخر ويقررون من هنا لن نترجح إلا عودة إلى ديارنا، فقد فهموا أنها عملية لحداد وطرد جماعي جلسوا هناك في البرد، وتحت المطر والجوع لا يترحلون، ويدلوا معركتهم الإعلامية والسياسية، لخلق حملة من الضغط على إسرائيل لإرجاعهم، وقد تقاطر مع مرور الوقت الخبرات من أهالي لبنان، منظمات وجمعيات وأحزاباً وأفراداً لدعمهم، وتوفير احتياجاتهم حتى العودة.

أخي حسن كان من بينهم، وقد كانوا يريدون إبعاد إبراهيم، لكنه لم يكن في البيت فلجأ من الإبعاد والاعتقال، وخلال أيام قليلة كان خبر المبعدين إلى مرج الزهور في لبنان حديث كل بيت فلسطيني، وحديث كل مجلس، وعلى الفور بدأت خلايا جديدة من المجاهدين تجهز لعمليات فدائية غورية، كي تثبت للحكومة الإسرائيلية وللقيادة العسكرية قتل خطتهم، وأن المجاهدين لازلوا يملكون دروب الوطن.

عماد وإخوانه يخرجون بسياراتهم إلى الطريق الشرقي، شرق حي الشجاعة، حيث تتحرك الكثير من المركبات العسكرية الإسرائيلية، حيث أطلقوا نيران بنادقهم على ضابط إسرائيلي بمنقل سيارته، وتركوها تتكهرج إلى جانب الطريق، ثم حافلة إسرائيلية توقفت بعد عشرات الأمتار، وألقوا خزنة بندقية فارغة، وضعوا فيها بياناً لرابين، يهدد ويتوعد بالمزيد من العمليات الفدائية، ويؤكد له أن أساليبه لن تزيد المقاومة إلا اشتعلاً.

عدد من الشبان الذين حاولت قوات الاحتلال اعتقالهم في شمال الضفة الغربية، هربوا منها واختفوا في الجبال، تجمعوا معاً وبدلوا يبحثون عن السلاح، وجدوا بعضه بعد مشقة وعناء وأعدوا كميناً على أحد الطرق الجبلية للوعرة، حيث تضطر السيارات إلى تخفيف سرعتها عند قرية برقين، جاءت سيارة الدورية العسكرية، فتحوا عليها نيران بنادقهم، فارتطمت بالسلسلة الجبلية، وقد قتل من فيها من الجنود وانسحب المجاهدون بهسلام.

في نابلس إحدى دوريات الحراسة والمراقبة التي تحتل سقف إحدى البنايات العالية تمت مراقبتها طويلاً، وتم معرفة وقت تغيير جنودها، حيث يأتي ثلاثة جنود، فينزل الثلاثة الذين في نقطة المراقبة فوق البناية، ويصعد الثلاثة الجدد. اختفى ثلاثة من الشبان بالمساكن والأسلحة البيضاء في البناية، وانتظروا للتغيير، جاءت الدورية الجديدة فزل الجنود من الموقع، واستقلوا السيارة مغادرين، وبدأ الثلاثة الجدد بصعود السلم داخل البناية للسقف، فانقض عليهم المجاهدون طمناً ومنبرياً، أردوهم واستولوا على أسلحتهم.

القوة الخاصة التي سبق وانطلقت الجندي "طوليدانو"، انطلقت بسيارتها من القدس معها بندقية عوزي ومسدس إلى داخل الأرض المحتلة بالقرب من مدينة الخضيرة، بعد منتصف الليل سيارة شرطة إسرائيلية تقف للحراسة، والدورية على جانب الطريق تحت أعمدة الإنارة تتقدم سيارة المجاهدين منها، وتتوقف بجوارها، ويطلق المجاهدون النار على الشرطيين فيردونهما، ويأخذون مسدسهما، ويغادرون المكان بهدوء عائدين إلى بيوتهم.

أصبح بأيدي المجاهدين عدة قطع سلاح، ولكنها ظلت محدودة، ولأن الكثير من المطلوب، وكان المجاهدون مستعدين للسفر لأخر لتكون لجلب السلاح، ولنفع كل شيء مقابل شرائه. عماد يسمع أن لدى أحد الرجال بندقية كلاشينكوف، يبحث عن يعرفه، ليرسله وسيطاً لشرائها منه، ويذهب الشاب للوساطة، حيث يعرف الرجل أن الوسيط من طريق عماد الذي أصبح رمزاً للجهاد والمقاومة، وعدا اسمه علماً في فلسطين، واستعد على الفور لبيع البندقية عاد الوسيط ليخبر عماداً باستعداد الرجل لبيع الكلاشينكوف، بسعر شرائه، دون أن يأخذ مئباً واحداً زيادة خمسة آلاف دينار أردني، الآن يجب تدبير المبلغ فوراً، إبراهيم يتوجه لمريم زوجته ليقرض منها حليها، ويجمع كل ما لديه من مخزات، وكذلك آخرون يجمعون المبلغ، ويسلمونه للوسيط الذي يذهب به ويمود بالكلاشينكوف، فيحتضنه المجاهدون واحداً تلو الآخر، وكأنه معشوقه كل واحد منهم، ومعشوقتهم جميعاً.

بعد أيام وبمحض الصدفة يلتقي عماد بأحد الرجال أثناء عودته من إحدى عملياته القتالية ومطاردة قوات الاحتلال له وإخوته المجاهدين، يأخذهم الرجل بأروهم حتى يزول الخطر أثناء جلوسهم عنده يتعرف على عماد من خلال تعرفه على البندقية (الكلاشينكوف) التي بيده فيعرف عماد أنه من باعهم البندقية، ومن خلال الحديث يدرك عماد أن هناك مشكلة، فلما أن الوسيط الذي توسط لشراء البندقية من هذا الرجل قد سلب ألف وخمسمائة دينار من المجاهدين، لو أن هذا الرجل الذي باع البندقية لهم كاذب، وعلى الفور أرسل أحد معاونيه لجلب ذلك الوسيط، أدخله إحدى الغرف ودخل عليه الغرفة، ويده الخيزرانة يهزها في الهواء سائلاً: كم دفعت للرجل ثمن الكلاشينكوف؟ فيتعلم ولا يدري ما يجب، يصرخ عماد: كم دفعت للرجل؟ فلا يجب فيهوي عليه بالخيزرانة، فيقول بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، فيسأل: وماذا عن باقي المبلغ؟ فيقول: كنت مضطراً إليه وأخذته، وتتضح الحقيقة، فالرجل الذي باع البندقية كان قد اشتراها بأربعة آلاف دينار، وحين علم أنها للمجاهدين ولعماد خاصة، باعها بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، بخسارة خمسمائة دينار، حباً وكرامة للجهاد والمجاهدين، ثم يأتي هذا الانتهازي لمجرد عمل ساعة في الوساطة يقتصر ألفاً وخمسمائة دينار من ثمن حليب رضاعة إبراهيم ومثيلاتها، الذي اقتطعه أبائهم عن أقوامهم ليدعوا الجهاد ومقاومة الاحتلال. طبعاً نال الرجل عدة ضربات بالخيزرانة، وحماماً ساخناً من التوبيخ والتعفير، وأعطى مهلة لسبعين لإرجاع المبلغ، وإلا فسيلخ جلده.

من خلال تكثيف حملات المطاردة والتفتيش عن المجاهدين والتحقيقات وراهم كانوا يضطرون لتغيير أماكن اختفائهم بين الحين والآخر، لذا فقد كان بعض المساعدين يحضرون مهمتهم في البحث عن بيوت مستعدة لهؤلاء المطاردين لإيوائهم ليلية أو أسبوع أو أكثر، عثر أحد المساعدين على أحد الإخوة ممن أبدى استعداداً لإيوائهم، فانتقلوا إلى بيته الذي يقع إلى جوار بيوت إخوانه الثلاثة، مشدداً ذلك الرجل على أهل بيته ألا يخلطوا أحداً يشعر بوجود المجاهدين؛ لأن ذلك قد يعرضهم للخطر، ومن خلال هذا البيت يخرج المجاهدون لإحدى عملياتهم، حيث يكمنون على جانب الطريق لدورية، يطلقون عليها النار ثم ينسحبون بهدوء وبشيء من التعمية يدخلون إلى البيت الذي وأوهم.

بعد دخولهم بساعة يأتي أبو العائلة للكبير لبيت ابنه، ويحس بوجود غريباء في البيت، ويدرك ابنه ذلك فيتدارك الأمر، ويخبره أن لديه ضيوفاً لوقت قصير جداً، يجلس الرجل وبعد دقائق ترتسم على شفاهه بسملة عريضة، ويمد لمصاحبة ليبرم ضاربه ويقول فجأة: خذوا راحتكم أيها الشباب، فحقيقتكم لا تخفى على مثلي!! لربك الشباب ونظر بعضهم إلى بعض دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، فواصل الشيخ مختصراً عليهم الحرج رائحة البارود على ثيابكم فقد كنتم تطلقون النار قبل ساعة إلى ساعتين، صعدت شباب وعلم كل واحد في نفسه لا يدري ما يقول، فواصل الشيخ: لا تشعروا بالحرج، فوالله إنكم أحب إليّ من كل شيء في هذا الكون، ثم نظر إلى عماد وقال: لا بد أنك عماد البطل الذي يتحدثون عنه أن له سبعة أرواح، وأنه دَخَّ قُمَحَاتين، غرق عماد في عرق خبطه وغشم: أنا عماد يا حج ولكن... قاطعه الشيخ لا لكن ولا غيره، لقد سمع الجميع عن بطولاتك، كنت وإخوانك، سلم الله أيديكم، خذوا راحتكم يا أبطال... خذوا راحتكم، شعر الشباب أن الأمور مكشوفة بحق، وطعناهم كلام الشيخ، فبادر عماد بالسؤال: ولكن كيف عرفت يا حاج كل ذلك عنا؟ قال الشيخ بعد أن تبسم: إن من ينوق طعم الجهاد، ويتشوق طعم البارود في ساحات الرجولة، لا ينساها يا أبتائي وقد شرفني الله بذلك قبل ضياع بلادنا، وقد سمعت رائحة البارود على ثيابكم، وكان الجدير بكم أن تخبروها فور وصولكم وتلقوها لزوجاتكم كي تغسلها على الفور، فاعلموا ذلك في المرات القادمة، تصامم عماد وهو يبشش: ولكن كيف عرفت أنني عماد؟ أجاب الرجل: سمعت ما يقال عن عملياتكم من الأولاد وفي الأخبار، فتصورت بخيالي عيون ذلك المجاهد، حيث رأيتمكم وشممت رائحة البارود عرفتكم من عيونك، فالعيون لا تكذب يا عماد، فالعيون لا تكذب يا بني.

في هذه اللحظة دخل محمد قائلاً: هناك إشارة لن قوات الاحتلال تقترب من الحي نهض المجاهدون بسرعة قائلين: هات سلاحنا ولنغادر للمكان، قفز الشيخ صارخاً: إلى أين؟ إلى أين؟ فقال عماد: لنخفي بعيداً لئلا يلحقوا الضرر بالأولاد والمباني، عيس لشيخ وانقبض وجهه وصرخ: وهل الأولاد والمباني أعلى منكم؟ لا والله لن تغادروا المكان، وإذا ثبت أنهم في طريقهم إلى هنا، فليصعد كل واحد منكم إلى إحدى بنايات لبناني الأربعة متمسوا بها ونحن فيها ولا تستسلموا، وأطلقوا عليهم كل ما معهم من رصاص، ولن يكون إلا ما قدر الله وقضى فاطمة عماد: يا حج لكن.. صرخ الشيخ: كفى يا عماد كفى، والله لن تخرجوا من هذا البيت ما دمت حياً في لحظة خطر، ثم إتنا لم نزل لا نعرف هل جاعوا علينا ويقصدوننا أم أنها دورية روتينية لجلسوا اجلسوا حتى نرى، وخرج من البيت ليتفحص الأمور بنفسه، وبينما يستعد المجاهدون للمواجهة، عاد للحاج قائلاً: لقد انصرفوا هي دورية عادية، ولا علاقة لها بكم، اجلسوا اجلسوا وحدثوني عن عملياتكم، تعالى يا عماد إلى جوارى هنا.

أخي محمد لاحظ أن طالبيه في مادة الكيمياء ينقب في كتبه عن شيء محدد يشغله وتوجه إليه سائلاً عما يبحث، ظهر الارتباك على ذلك الشاب، ورد متعلماً: لا شيء لا شيء، ابتسم محمد وقال: يا رجل لا تقل لا شيء، وقل لا تريد مساعدتي، فإني تبحث عن شيء يفتقك وبأخذ بالك، ينظر إليه الشاب مرة أخرى، وقال: للحقيقة أنك صادق، ولنتي أبحث عن شيء محدد، ولكن لا عليك، فإني سأذكر أمري، ابتسم محمد وقال: دعني أُنقل عليك، أنت تبحث عن معادلة معينة وهي موجودة في صفحة رقم (١٣١) من الكتاب، بهت الشاب ونظر إليه باستغراب، وهو يقلب صفحات الكتاب: وما أراك عما أبحث؟ أجاب محمد وهو يبتسم: افتح على الصفحة وانظر هل عرفت عم تبحث بحق أم لا؟ قلب الشاب للصفحات، وفتح على الصفحة المذكورة، ونظر فيها فإزدادت دهشته ولم يتمكن من إختلافها، وتساءل: كيف عرفت بالله عليك؟ أجاب محمد: شاب مثلك يبحث باجتهاد عن مسألة معينة، ويرتباك حين أسأله، ويخفي أنه يبحث عن شيء، لو كنت تبحث عن شيء عادي لأجبت دون ارتباك، ثم إن العيون لا تكذب يا يحيى، العيون لا تكذب عيونك تخبر بما بين ضلوعك، رغم ما يبني عليك من هدوء وسكون، قد يظن البعض أن اللقطة تأكل طعمك لشدة هدوئك، ولكن بداخله غضب عاصف، ابتسم يحيى وهو يغمغم: صدقتني أنني لست كما... ضحك محمد وقال: صدقتك صدقتك.



الفصل الرابع والعشرون

تخرجت من الجامعة وقد حزت على شهادة البكالوريوس في الجيولوجيا من كلية العلوم، تقدمت للوكالة بطلب وظيفة، وانتظرت الرد على الطلب، بينما كنت أزاول أعمال البناء شريكاً كاملاً لإبراهيم، الذي كان يبذل وقتاً في العمل أقل مما لبذل، لكن في الوقت القليل الذي يبذله ينتج الكثير مما يعادل ما لبذل من جهد، وقد كنت راضياً بشراكته من أصلاق نفسي، وليس فقط لأنه ابن عمي وصديق طفولتي وزوج أختي، وليس فقط لأتني أعظم أنه ينجب عن العمل لقيامه بدور وطني ممتاز في الترتيب والتخطيط والدعم للمقومين، وإنما فوق ذلك كله لأنه كان مخلصاً في عمله إلى أبعد الحدود. فحين يأتي للعمل ينتج في الساعة الواحدة ما أعجز عن إنتاجه في ساعات، خاصة وأنه يقوم بالعمل القوي والصعب الذي يجعل الأمور بعده سهلة علي وعلى العمال الذين يعملون معنا.

الوظيفة لم تكن تهمني كثيراً، فلن العمل في مجال البناء كان جيداً، وما أحصله من دخل من ورائه ممتاز، ولكن مشكلته الوحيدة أنه يحتاج إلى جهد بدني أكبر، وصورته أنه عمل من لا يحصلون على شهادات جامعية، ولكن كوني حاصلًا على شهادة البكالوريوس في الجيولوجيا بتقدير جيد جداً، كان يسهل علي هذا الأمر.

عاد أخي حسن من إبعاد مرج الزهور بعد أن قضى فيه حوالي عام، حيث تم الاتفاق على تقسيم المبعدين إلى فئتين: الأولى تعود بعد حوالي عام، والثانية بعد عامين، وقد كان حسن من المجموعة الأولى وقد استقيلناه في البيت وجاءنا المهندسون والمباركون أهلواً للواجب. وكان الكثيرون منهم من أصدقائه من شباب المسجد الذين كانوا مسلمون عليه بالأبدي سلاماً حاراً ثم يبدأوا باحتضانه، حيث يضم كل واحد منهم الآخر إلى صدره بحرارة بلغة عدة مرات ولطفاله يلعبون حوله طيلة الوقت، وهم في فرحة كبيرة بعودة إليهم بصورهم ووجودهم في لذياله، وترداد سعادته حين يبدأ أحد أصدقائه بملاعبة أحد أولاده.

بعد أيام من عودة حسن حدث اشتباك بين مجموعة من المجاهدين وقوات الاحتلال، في شارع النصر بمدينة غزة، الأمر المهم في ذلك هو استشهاد أحد المجاهدين في ذلك الاشتباك، والأهم أن ذلك المجاهد هو صديق إبراهيم ياسر الذي بدأ معه عمل البناء.

لا أنري كيف أصف مشاعري ومشاعر إبراهيم، ومشاعرنا جميعاً في المخيم، كان خليطاً من الفرح والحزن والرضا والغضب والسعادة، والغم.

كنا في فرح على فوز رجل اختار طريقه وقام بواجبه، ففاز بأعلى وأثنى ما يثناه
لرجال ممن في مثل حال شعبنا، وكنا في حزن على فراق رجل نشعر أن فراقه قد ترك
فراغاً ليس من السهل أن تملأه أو يملؤه غيره.

فوز سماعنا الخير سقطت دمة حادة على وجنة إبراهيم، مسحها سريعاً وهو يحاول
إخفاء ذلك ثم قال: الحمد لله الذي أكرمه بالشهادة، والله إن يامراً يستحقها، نسأل الله أن
ينقله في الصالحين والشهداء، ثم خرجنا مسرعين لنقوم بواجبه، فنقف مع أهله، أقمنا
عريشاً كبيراً مغطى (بالشالدر) وأحضرننا الكرسي وجلسنا مع عدد من أهله وجيرانه
للاستقبال وفود المعزين. رأيت أمه وزوجته في حالة غريبة كذلك، بغالبهما لبكاء ولهي
إلى جوارها ومما تحاولان أن تواسيها بدلاً من أن تقبل هي ذلك، وتقول إحداهما: الحمد
له لقد نال أسمى ما تمنى... الحمد لله، وقد كان يشدد علينا ألا نبكي عليه قاتلاً: الشهداء لا
يبكي عليهم ولا يتم العزاء فيهم، وإنما يودعون بالزغاريد، ويبارك لأهلهم باستشهادهم،
فتطلق زغاريد النساء، فلا أمتك القفرة على حبس دموعي، ولنا أعجب لهذه الحالة التي
هي بهاء فقد اعتاد شعبنا أن يبكي الشهداء، أما الآن فيلرز غاريد يودعون، والأعجب أنهم
كنوا يوزعون لبقلاوة على الذين جاءوا للعزاء، فيرتبك المعزون هل يرددون كلمات
العزاء أم كلمات التهنة والمباركة.

وبينما نحن في خيمة العزاء جاءت قافلة كبيرة من سيارات ومركبات الاحتلال،
دامت المكان، واقتحمت بعض المركبات الخيمة، فهدمتها وكسرت بعض الكرسي،
فانفجحت مواجهات عنيفة بين الحشد وبين قوات الاحتلال، بعد انصرافهم أعادنا نصب
الخيمة، وعاد تدفق وفود المعزين كما كان دون توقف.

يومها وزعت صور ملونة كبيرة للشهد وقد تناقص الناس على أن يتلهم إحداها،
والصق الكثير منها على جدران الأزقة في السخيم، فلا تسير في زقاق إلا وصورته
أمامك، وصنع الكثيرون لها إطارات وطقوها على واجهة غرفة الضيوف عندهم. أما
إبراهيم فلم يعلق الصورة، وحين سألته لم لا يعلق صورة صديقه الحميم، قال هي معلقة
في أعماق روحي يا أحمد، وقد كانت زوجته حاملاً فقال: لكن رزقت ولداً سأسميه يامراً
إن شاء الله.

بحسب بترك بيرزيت في عطلة نهاية الأسبوع، عائداً إلى قريته، وبعد رؤية أهله
خرج لصلاة العصر في المسجد هناك، التقى بأحد أصدقائه وخرج معه للالتقاء ببعض
المطاردين من المجاهدين الذين بقيمون في القرية.

جلسوا في تلك الغرفة في (تسوية) أحد البيوت، وبدأ يحيى يشرح لهم أنه بعد البحث فقد عثر على طريقة يمكنه أن يحضر من خلالها نوعاً من المتفجرات... فصرخوا إعجاباً ودعشة وتقديراً وحتى أن بعضهم لم يكن مصدقاً، وأصل يحيى بأن المواد الأساسية التي يتم لتحضير منها، مواد متوفرة ويسهل الحصول عليها وهي نوع من السماد الكيماوي ومادة الأسيتون، وعلى الفور انطلق البعض لإحضار ما يلزم. عكف يحيى واثنان من إخوانه على تحضير المادة، يخلطون المواد برفق، فتتصاعد منها أبخرة ذات تأثير قوي، فيضغط أحدهم للخروج للهواء لطلق، ويحيى عاكف لا يفارق.

بعد تجهيز المواد يتم تعبئتها في أسطوانة حديدية، وحملها ثلاثة إلى منطقة خلوية بين الجبال، حيث كسر زجاج لمبة كهربائية، وأدخلوا داخل المادة الحشوة في الأسطوانة ومددوا فيها سلكاً كهربائياً، حيث ابتعدوا عنها عشرات الأمتار، وخفضوا رؤوسهم، وضعوا أصابعهم في آذانهم، ووضع يحيى طرفي السلكين على قطبي البطارية، ولكن شيئاً لم يحدث، لا انفجار كبير ولا صغير.

نظر مرافقاه كل للأخر وإليه كليهما بقولان: ماذا حدث ولم لم يحدث الانفجار الذي أوجعت رؤوسنا بالحديث عنه، وقام أحدهما بجري نحو الحوة ليركلها بقدمه، فصرخ عليه يحيى لفهمه مدى جدية الأمر بالعودة وعدم التهور، فصل الأسلاك عن البطارية، وأحضر عصاً طويلاً جرده من الأوراق، واقترب زاهقاً وعرقه يتصبب على جبينه وهو يدفعها بالمصا عدة مرات وهو لا يزال منبطحاً على بطنه لا يرفع رأسه، دفعها عدة مرات حتى تأكد من عدم جاهزيتها للانفجار. فاستندت جالساً.

حينها جاء زميلاه وجلسا إلى جواره لتفحص الأمر، فوجدوا أن سلك الاشتعال (التجستين) قد كان مقطوعاً، ابتسم يحيى قاتلاً: ألم أقل لكما... إذا فالخلل مجرد خلل فني، وطار أحد زميليه إلى البلدة ليجهز هذه المرة لمبتين كبيرتين، كسروا زجاجهما ووضعوا السلكين بحيث إذا حدث خلل في أحدهما قام الآخر بالدور المطلوب. شبكوا السلك وابتعدوا وتبطحوا وهم يختفون وراء كتلة صخرية، ابتسم يحيى وهو يقول: الآن أطلقا أذناكما، وما أن أغلقا أذنهما وضع طرفي السلك على قطبي البطارية، فجاء صوت الانفجار مزلزلاً، وقد لحقته شظايا صخرية تطايرت من مكان الانفجار، فقام الثلاثة يهرعون لمغادرة المكان، قبل أن تأتي قوات الاحتلال ومخابراته على صوت الانفجار، وزميلاه بقلانته ويحتضانانه، وزهدي يقول الآن سنحضر عبات كثيرة وتضعها في طريق الدوريات لنربهم للويل.

نقسم بحبي قائلًا: لا لن نصنعها في طريق للدوريات!! فنظر إليه زهدي مندهشًا إذًا
 فإين سنضعها؟ ولماذا أجهدنا أنفسنا كل هذا الجهد، إذا كنا لن نستخدمها في عملياتنا ضد
 الاحتلال، لنقسم بحبي ثانية وقال: إن هذا المحتل الذي يقتل فينا على مدار سنوات منذ
 بداية الانتفاضة دون أي رحمة لو اعتبر ندم الشهداء رجالاً أو نساءً، كباراً أو صغاراً،
 وحتى لم يرحم الأطفال أو الرضع، يجب أن يدفع أبهظ ثمن يمكن تحصييله، يجب أن يفهم
 الآن أننا قادرون على ضرب عمقه، يجب أن توجه له الضربات تحت العزام البطن
 والوجه وليس فقط على الأطراف المحصنة والمدرعة، سأل زهدي: هل تقصد أن نقوم
 بعمليات في الداخل، أجاب بحبي مبتسماً: نعم، عمليات نوعية انتقائية، قوية جداً تؤثر
 عمليات القتل التي ارتكبتها المحتلون، طيلة السنوات، حين كنا لا نملك إلا الحجر
 والمصا.

لتكبح بحبي على تحضير المولد، وانطلق زهدي يبحث عن الهدف، فوجد بعض
 شباب ممن يعرفون أحد الملاحى، حيث يجتمع فيه العنات من الإسرائيليين مساء الجمعة،
 وقد عاد الكثيرون منهم من وحداتهم العسكرية التي تخدم في المناطق، أعدت العبوات
 وحملت على إحدى السيارات وانطلق بها اثنان من الشباب، لنقلها إلى موقع الهدف، حين
 اقتربا من الهدف كان في المكان حادث طرق وحركة غير عادية للشرطة، ارتبك المسائق
 ظاناً أنه المقصود بتلك الحركة، وظهر بعد ذلك رجال للشرطة، وبدأت عملية مطاردة
 في الشوارع، وصرخ عبد الرؤوف حينها آه لو كانت العبوات جاهزة للتججير ونحن هنا،
 فصرخ صاحبه المهم أن ننجو الآن، لو بنجو أحدنا، ثم صرخ عن الانتفاضة الأولى سأخفف
 السرعة، افتح الباب وألق بنفسك خارج السيارة، وتظاهر أنك كنت تسير على جانب
 الطريق، وصرخ عبد الرؤوف: وأنت! المهم لنج أنت، وأنا أحاول، أقلها بنجو أحدنا.

غصت السجون والمعتلات بالأسرى والمعتقلين، واضطرت سلطات الاحتلال لفتح
 المزيد منها. أحد هذه المعتلات كان معتقل الظاهرية، تحيط به الأسلاك الشائكة
 والأبراج، والبنادق والرشاشات الثقيلة، وخيامه تضج بمن فيها من المعتقلين، الذين
 ينهقون للحرية والانطلاق بهم من جديد للانتفاضة والمقاومة خارج المعتقل.

وعلى بعد ليس كبيراً منه ينزوي أحد الشبان وراء أحد السواتر ويخرج من جيبه
 قطعة أسلاك ويربطها بحبل رفيع، لكنه مثن بطول حوالي متر، يمسك بطرف الحبل
 وقد تكلفت القطاعة من الطرف الآخر ويبدأ يلقيها بقوة على طريقة لف المقلاع (التيبيطة)
 وحين تزداد سرعتها وهي في اتجاه اندفاع نحو المعتقل، يفلت الطرف الذي بيده فتطير
 لتقع داخل الساحة المقابلة...

من داخل إحدى الخيام عياناً ترهبان الاتجاه بكل حذر وإرادة في انتظار الإشارة من الخارج بإنجاز المهمة. وفي الظلام الدامس يلمع ضوء خفيف جداً مرتين، فتصعد يد صاحب الحنين إلى قمة تغطيه، وهو يردد بصوت حالم: الحمد لله الحمد لله.

مع بزوغ الفجر كان جهاد جالساً في فراشه، فلم يذم طيلة الليل، وإن تظاهر بال نوم ولكن عينيه لم تغرق تلك المساحة، مع انتهاء الحد وانطلاق الشبان للمساحة لتضام الحاجة وغسل وجوههم، كان الأول ممن وصلوا المساحة، وجلت عيناه تمسحطان للمساحة، ثم انحنى يلتقط القطاعة عن الأرض، ويخفيها في ثيابه، وينخرط لدخل للجمع في تلك المساحة، مع خلول ظلام المساء ودخول الليل، زحف نحو الأسلاك من إحدى النقاط المنزوية، والتي لا تتكشف جيداً للبرح القريب.

مد يده وأخرج القطاعة من حزامه وقطع السلك الشائك عدة قطعات محدثاً فجوة فيه واصل منها للخارج، وبهوء وخفة تسل وراه أربعة آخرون من المعتقلين، ثوبن محدودة وصلت بينهم وبين الحرية، استمروا بالزحف حتى فبتعدوا عن جدار المعتقل، وعند أول سائر يقفز الواحد منهم وفقاً على قدميه معانقاً لأصحابه، منطلقاً إلى الحرية الواسعة.

قبل طلوع الفجر كان ثلاثة من هؤلاء الشبان قد وصلوا أطراف مدينة الخليل وعثروا على أحد معارفهم الذي سيرسلهم إلى مكان الاختفاء، ويؤمن بعض الطعام والشراب والغطاء وتركهم منطلقاً لبحث لهم عن زملائهم الذين اختفوا بعد محاولات قوات الاحتلال اعتقالهم، ومع المساء كان أولئك الأخوة قد حضروا إلى المكان، مخبأ أصحابهم وبأيديهم بنادقهم... عانق أحدهما الآخر بحرارة وعانقوا البناتق بحرارة لشد، وجلسوا يستمعون للفد.

تواصلت ظاهرة قتل العملاء، أو المشبوهين بالعمالة مع مخابرات الاحتلال، ففي كل فترة يتم قتل أحدهم وإلقاء جثته أو صلبها، وأحياناً يتم جلد أحدهم، حيث يصلب في أحد الميادين و بجلد أو يعدم.

بدأت ترتفع أصوات من المعتقلين تدعو إلى إعادة النظر في هذه القضية وتقييمها ووقفها، ورغم أن العاملين في ميدان المقاومة من المجاهدين والمقاومين كانوا على قناعة بصحة استمرارية ذلك، وضرورتها لاعتبارات مبررة، حيث أن من يتعاون مع الاحتلال يجب قتله أو لاعتبارات مصلحة حيث أن استمرارية المقاومة ونجاحها يعتمد بدرجة كبيرة على تنظيف المجتمع من العملاء، أو بمصطلح لثق فإن نجاح المقاومة واستمراريتها يعتمد بدرجة كبيرة على اقتلاع عيون المحتل التي يرانا بها من الداخل.

جدل كبير ثار في كافة المحافل حول هذه القضية... للطرف المؤيد يطرح الاعترافين للسيفيين أما المعارض فيرى أن هناك مبالغة كبيرة في ذلك، وأنها عملية تآكل دخلنا ويجب أن نتوقف. ولما كانت هناك أصوات تتعالى بضرورة وقف الانتفاضة، فلم يكن من السهل التمييز بين هذين الصوتين، وبدوا كأنهما نفس الصوت، ويبدو أن البعض كان يتبنى وجهة النظر في نفس الوقت بوقف الانتفاضة، ووقف ظاهرة القتل بدعوى المعاملة مع الاحتلال.

كثيراً ما كان مثل هذا الجدل يثور في لقاءات ألقى محمود مع أصدقائه التي تجري في غرفة الضيوف في دارنا، وللحق فقد كان هناك لفرط ووضوح في هذه الظاهرة، والأخطر في الأمر أنه لم يكن هناك مرجعية وطنية، وحتى لم يكن في الغالب مرجعيات تنظيمية لإصدار القرار في ذلك، وظلت القرارات بأيدي مجموعات من الشبان المتحمسين في الغالب، دون أي رقابة من جهات عليا مسؤولة، كما أن أي رقابة ذات طابع قضائي أو قانوني أو حقوقي كانت غائبة تماماً عن الأمر... وقد كان بعض المعارضين والمطلعين على الأمور أمثال محمود يطرحون مثل هذه الأفكار، ولكن كان من الواضح أن تطبيق ذلك أقرب إلى المستحيل، لاعتبارات ذاتية في المقاومة، فصائلها وخطاياها واختلافاتها واعتبارات موضوعية في الظروف التي يفرضها الاحتلال، وما يولكب ذلك من اعتقالات واعتكالات، وتضييق لأصحاب للرأي في السجون أو بالإبعاد، ولكن مما لا شك فيه فقد كان من الواضح أن الاستمرار في الظاهرة دون ضبط هو خطأ كبير، ومما لا شك فيه أن الجهد لم يبذل من المسؤولين والمتقنين والقانونيين، في محاولة إيجاد الحل الأمثل لذلك بالاستمرار المضبوط لعلاج الظاهرة مع أقل درجة ممكنة من عمليات القتل، واجتباب الصورة البشعة والمنفرة منه.

اسم عماد أصبح على كل لسان، وصار رمزاً للبطولة والمقاومة، حتى أن وسائل الإعلام الإسرائيلية بدلت تهتم به بصورة خاصة، ورئيس الوزراء الإسرائيلي رابين أسماء (الشيخ) وأخذ يضغط على قائده العسكريين والأمنيين، بضرورة جلب رأسه.

بالمقابل فقد بدأت قوات الاحتلال تتخذ إجراءات أمنية جديدة للحفاظ على أمنها وسلامتها، تم الإعلان عن منع تجاوز أي سيارة يسوقها عربي لأي سيارة عسكرية إسرائيلية أو الاقتراب منها بحيث أنها يجب أن تبعد عنها ما لا يقل عن خمسين متراً... وإذا حاولت السيارات العربية الاقتراب، أو التجاوز شهر عليها للسلاح، وأطلق عليها النار، منعت أي سيارة إسرائيلية من التحرك في قطاع غزة بدون مراقبة عسكرية.

ثم منع تحركه، أي سيارة عسكرية بشكل منفرد، وأقل تحرك يجب أن يكون بسيارتين عسكريتين، إلى غير ذلك من التضييق على المواطنين والاعتقالات والمداهمات، وعمليات إطلاق النار بمجرد التنبهة وأقل من التنبهة.

وصلت المعلومات عن دورية عسكرية من سيارتي جيب، تتحركان في مخيم جباليا بجوار المقبرة إلى معسكر الجيش في المخيم، في وقت قريب من أول الليل، خطط عماد وإخوانه للعملية، وكنوا السيارات الجيب في أزقة المخيم، واحد منهم في زقاق متقدم باتجاه القافلة، واثنان في زقاق متأخر، والزقاقان يطلقان على الطريق الذي تتحرك عليه السيارتان في العادة تركوا السيارة الأولى تمر، وتجهلون مدخل الزقاقين، وقبل أن تصل السيارة الثانية مدخل الزقاق الثاني خرج الثلاثة، الأول المنفرد يطلق النار على ظهر الجيب الأول، والاثنان الآخران يطلقان النار على الجيب الثاني وجهاً لوجه، حيث نزلوا الطريق وبدأ بإطلاق النار، كان على بعد ثلاثة أمتار فقط من سيارة الجيب، لم يتمكن الجنود من الرد ولو بطلقة واحدة، قتل الجنود الثلاثة في السيارة الثانية التي خرجت عن الطريق، وأصيب جنود السيارة الأولى، انسحب الثلاثة عبر الأزقة الضيقة إلى سيارة تنتظرهم، على الجانب الآخر، انطلقت بهم لتغادر المخيم.

التعزيزات منع التجول، الاعتقالات، للتحقيقات كما هي العادة دون جدوى، وقد اضطر رابين لقطع زيارته لواشنطن، وعاد فور سماعه خبر العملية، انسحب المجاهدون إلى طريق شارع النصر في غزة، حيث كان إبراهيم بانتظارهم بسيارته، ركبوا سيارته بعد أن أخفوا السيارة التي نفثوا بها العملية، وانطلق بهم إلى بيت جديد سيأوون إليه في حي القضاة، شرق مدينة غزة، نزل إبراهيم وطرق الباب، فتح الباب لهم فتى في مقبل العمر، حين رأى إبراهيم سأل: هل جاءوا معك؟ فأجاب إبراهيم نعم، فدخل الفتى بجري للبيت ثم عاد بعد دقيقة قائلاً: تفضلوا... تفضلوا أهلاً وسهلاً، واحمرار وجهه لا يخف مع مرور الوقت... ثم خرج بجري وعاد بجري ويرحب من جديد، كان واضحاً أنه لا يدري ما يفعل من شدة الانفعال وإبراهيم ينظر إلى إخوانه ويبتسم فيبتسمون.

جلس الفتى إلى جوارهم على ذلك الفرش الذي فرش على الأرض، وقال: أنا نضال أهلاً وسهلاً بكم، شرفتمونا، رد إبراهيم: زاد الله شرفكم، تعرف أنا إبراهيم، وهذا أحمد وهذا خالد وهذا عماد، لنفعل للفتى من جديد وقال: أنت عماد أهلاً وسهلاً أهلاً وسهلاً، لسي الآن نحضر لكم العشاء، خذوا راحتكم، تمددوا خذوا راحتكم. ثم قام وخرج بجري ليتفحص ما حدث مع العشاء، عاد بجري لطل من الباب وقال: لسي ولهي يريدان

لأن تأنيبا ليتعرفا عليكم، نظر المجاهدون إلى إبراهيم، فهو من يعرف الناس وهو صاحب القرار، فبرز رأسه بالاجاب، ذهب نضال يجري ثم عاد وخلفه أبوه وأمه، الرجل طويل ضخيم، تبدو علامات الطيبة على وجهه قرأ السلام ودخل يسلم على الشباب ويصافحهم، والأم وقفت لدى الباب تلقى ثيابها البيضاء وتغطي رأسها، والوقار بجلالها، لم تصافح بيدها، وانطلقت منها كلمات الترحاب بدون حدود.

بدأ نضال يعرفها على الضيوف، وهو يكاد يطير فخراً بضيوفه المميزين، رحب الولدان بالضيوف كل الترحيب، خطت أم نضال للوراء لتخرج قائلة أنا سأذهب لأكمل تجهيز العشاء، خذوا راحتكم يا أولادي، اعتكروا أنفسكم في بيوتكم، وكل ما يخطر ببالكم من طعام أو شراب فقط لطلبوا... الله يحميكم ويرعاكم وخرجت. أبو نضال جلس يرحب بالشباب ويتعرف عليهم.

لم نضال عادت بعد بعض الوقت تحمل صينية طعام، وفوق الرز بعض (الزغليل) أفراخ الحمام الصغيرة، فقفز نضال يتناول منها الطعام ويضعه أمام الشباب، وهو يقول: تفضلوا تفضلوا، خرجت أم نضال وهي تقول صحنان وعافية وبدأ الموجودون يتناول الطعام، وكان الطعام ليس لذيذاً فقط، بل يقطر بالحب الذي يحرر قلوب هذه العائلة الفلسطينية متوسطة الحال كما هو شأن باقي العائلات تجاه المقاومة ورجالها، وكلما أظهر أحد الشباب نية التوقف عن الطعام ناوله أبو نضال لقمة جديدة ضاغطة عليه لتناول المزيد، ثم المزيد، شبعوا وقلماوا يقبلون أيديهم، ونضال يحمل للصينية خارجاً فيها ليضعها أمام إخوته وأمه الذين جلسوا في غرفة أخرى يتناولون عشاءهم كذلك.

زخازين التحقيق في مقر التحقيق في المسكوبية في القدس يضح بالمعتقلين والمجانين بسحبون هذا لغرفة التحقيق ويرجعون ثانياً من غرفة ثانية، والمحققون يسألون ويضربون ويضربون ويهتدون للوصول إلى كل معلومة عن أحد للمقومين، لو نشاط الانتفاضة أو أي قطعة سلاح.

في إحدى الغرف ضابط التحقيق يساوم أحد الشبان بأنه إذا وافق على التعامل معهم فإنه سيتم إطلاق سراحه من السجن فوراً، ويسمقطن عنه السجن الذي ستعرضه عليه المحكمة إذا ذهب إليها، وبعد اعتراف إخوته عليه، قد يحكم عشر سنوات، وسيبدأ بالضبط عليه مرة بالترهيب وأخرى بالترهيب، ووجه الشاب يحمر ويزداد احمراراً. شاب في مقتبل عمره بتجربة محدودة في الحياة يمكن الطمع في تجنيده كممثل للمخابرات الإسرائيلية، والشاب يرفض وضابط للمخابرات يضغط عليه، في النهاية أعلن الشاب موافقته. فقام رجل للمخابرات يصافحه، ويؤكد له أنهما الآن صديقان.

ويخرج ليحضر أطباق الفاكهة والخطوى، فيضعها أمام الشاب ويدعوه لتناول الطعام مع صديقه الحميم، بينما صديق ثالث بصور الشاب وهو يتناول الفاكهة إلى جوار الضابط الذي يمازحه ويصاحبه، ثم قال له أنه بعد عدة أيام سيخرج للمحكمة، ومن هناك سيرور القاضي الإفراج عنه، كي تبدو الأمور منطقية، ولا يثير ذلك الشبهات حوله.

يسلمه رقم التلفون للاتصال به عند الضرورة والضرورة، ويعرفه بعنوان شقة في القدس، ليأتي إليها في مطلع الشهر القادم الساعة العاشرة صباحاً، فقط بطرق باب الشقة ومسجده هناك في تنتظره ليتفاهم معه على ما يريد من معلومات، وعلى طريقة الاتصال وما شابه يطلق سراح "ماهر"، فيعود إلى بيته في مخيم عابدة قرب بيت لحم، يأتي الأهل والأقارب والجيران والأصحاب، يسلمون عليه ويهنئونه على سلامته.

ما أن تنتهي تلك الملاحظات والتهنئات حتى يذهب إلى شيخه ومربيه في المسجد فيخبره بالأمر مؤكداً أنه ما فعل ذلك إلا ليلقن ذلك الغبي درساً لا ينساه، هو وجهازه وقيادته وأنه سيقنله، بهز الشيخ رأسه موافقاً، فيخرج ماهر إلى ابن عمه ناصر ومحمود ليخبرهما بالأمر، ويطلب مساعدتهما في تنفيذ المهمة، يسألانه عن المكان والزمان، والتفاصيل اللازمة ويعتد الثلاثة العزم على فعل ذلك. في الموعد المحدد يخرج الثلاثة، بيد ماهر مطرقة (شاكوش) عانية، ويأبدي الآخرين سكاكين مطبخ، يخفونها داخل ملابسهم، وينطلقون للقدس، يصلون إلى البناية ويدخلون حتى باب الشقة، يقف ماهر مقابل الباب، وناصر عن اليمين ومحمود عن اليسار، يضغط ماهر على الجرس، فيفتح رجل المخابرات الباب مبسماً، ويقول ادخل ادخل، ويتلفت داخلياً وهو يقول: أغلق الباب ورائك، يخرج ماهر المطرقة من ملابسه وراه ظهره، ويضربه في مؤخر رأسه فيخر على الأرض، وينقض عليه الثلاثة ضرباً وطعنات.

ثم يتأدرون المكان بهدوء وكان شيئاً لم يكن. ماهر طائر بعيداً عن البيت لأنه يدرك أنهم سيأتون لاعتقاله، مع الممياء حوصر المخيم وبدأت حملة اعتقالات وأعلن عن موت رجل المخابرات.

قوات كبيرة من جيش الاحتلال على رأسها عدد من ضباط المخابرات، تدهام قرية رطات وتحاصر بيت "أبو يحيى"، وتقتحمه وهم يصرخون: أين يحيى... أين يحيى؟ يحيى لم يكن بالبيت بعد سماعه بالخبر ما حدث مع السيارة التي كانت تحمل المبعوث التي جهزها، لم يحد بيت في الدار، ولا يزورها إلا نادراً ودون أن يراه أحد، يغادرها سريماً وقد كان يختفي عند بعض أصدقائه، فحش الجنود الدار وقلبوا رأساً على عقب، صادروا كل كتبه وأوراقه وأقواله وخرجوا بها، واعتقلوا والده للتحقيق معه.

بعد أيام من التحقيق أطلقوا سراحه، أما يحيى فقد انتقل إلى نابلس، واختفى فيها عند بعض إخوانه، حتى تهدأ العاصفة، ثم بدأ بالاتصال بالعديد من الشبان حيث يضمهم إلى خلايا فدائية، ليبدأ العمل في مدن وبلدات شمال الضفة الغربية مجموعة في نابلس، وأخرى في عنتاب وثالثة في طوباس ورابعة في جنين.

ولأنه مطلوب لقوات الاحتلال، يتفق مع مسئولى المجموعات كلاً على حدة أن يتصلوا به عن طريق نقاط معينة، حيث يتفق مع كل واحد منهم على مكان محدد ليتم من خلاله تبادل الرسائل المكتوبة، حيث ينقلها له شاب غير معروف وغير مطلوب لقوات الاحتلال.

جنوب الضفة الغربية مخيم للعروب على الطريق العام الواصل بين بيت لحم إلى الخليل، شباب للمخيم يتون لبيت أحد شباب المخيم... "محمد"، أوباركوا له الإخراج عنه بعد فترة من الاعتقال في معتقل النقب، يهشون ويباركون، ما إن ينصرف المهشون وتخلو الدار، وتختف حركة الناس في المخيم، محمد يلبس سترته الشتوية ويغطي رأسه بكوفية حمراء وينسلل خارجاً من الدار فور خروجه من الدار يريد إخفاء وجهه كيلا يعرفه أحد إن لاقاه في الطريق، يصل إلى أحد البيوت، يطرق الباب طرفاً خفيفاً بصورة منتظمة، يفتح الباب ويخرج "خالد" شاب في مطلع العشرينات من عمره، تغطي وجهه لحية خفيفة، تضيء عليه شئمة فوق الأنف، يسأل خالد هل أخرج السيارة، فيجيب محمد: نعم، بسرعة، ليس لدينا وقت كثير، يخرج خالد سيارته يجلس محمد إلى جواره، وتطلق السيارة بهما متجهة جنوباً نحو الخليل، وتمر من مركز الخليل وتواصل السير نحو الغرب، خارجة من الخليل إلى بلدة بيت عرا.

يتوقف خالد عند أحد البيوت وينزل مترجلاً إلى باب بيته يطرقه، فيفتح الباب شاب يتحدث معه خالد بضع كلمات، ويرد على الشاب، يخرج من البيت رجل يسلم على خالد، يتحدث خالد معه، ثم يعود بالسيارة برفقة الرجل يصعدان السيارة، وينطلق خالد والرجل وبوجهه إلى الطريق التي عليه أن يسلكها، ثم يشير لبيت قريب قليلاً، هنا توقف، وترجل من السيارة قليلاً: أنتظر هنا قليلاً حتى أرى وينزل إلى البيت، وهو يحاول تفحص المكان من حوله، يطرق الباب، يفتح ويطل منه شخص يتحدث معه ثم يعود للسيارة، طالباً من خالد ومحمد النزول ومرافقته للبيت، يدخلون البيت إلى إحدى الغرف، حيث يجلس خمسة من الشباب، اثنان منهما ممن هربوا قبل وقت من سجن معتقل مجدو، حين يرون محمداً يقفزون على أرجلهم ترحيباً ومعانقة، ويجلس الجميع، يسأل أحدهم: متى أخرج عنك، فيجيب خالد: اليوم، فيضحكون جميعاً ويقول أحدهم محمد كاللنار، لم يستطع الانتظار حتى الغد فابتسم محمد قائلاً: كيف نستطيع الصبر، والله لولا حبي للناس،

وتتدبري لهم ولمجيبهم للسلام علي، لتركتهم في البيت وجئت فور للسلام على والدي وإخواني... فوضعك الشباب ويقول أحدهم رويدك رويدك يا أبا رشدي، فيقول محمد: المهم أنتي الحمد لله عثرت عليكم فوراً، ما هي الأخبار؟ ماذا لديكم؟ كم من المجاهدين عندنا؟ ما هي أخبار الذخيرة؟ الملاحى؟ ما هو استعداد الناس لإيوائكم، هل هناك أهداف مرصودة لاستهدافها؟ ماذا هل كيف متى؟ والشباب ينصتون في انتظار توقفه عن الأسئلة.

يقول لحد الشباب والبسة لا تفارق شفتيه، وضعنا جيد أيها القائد، وضعنا جيد كنا في انتظار انضمامك فقط، ويبدأ بشرح آخر ما لديهم من أخبار.

جاءني القبول للوظيفة في المدرسة الإعدادية للجنين، حيث بدأت الدول فيها، وبدأت أسي على الفور تحدثني عن الزواج، على الفور عبرت إلى ذكرتي صورة تلك الفتاة التي كنت قد بدأت أحبها، وألقيها على طريق الجامعة، وانقطعت عن ذلك منذ كلام إبراهيم معي عن الحب الواحد والوحيد، وتساءلت في نفسي: هل أنها لا تزال موجودة لم تتزوج، ولم يخطبها أحد إن علي أن ألتصص ذلك فإن كنت لا تزال على ما كانت عليه فقد تحقق ما أريد، ودعوت الله في نفسي أن يجعلها من نصيبي.

كنا قد بدأنا نقضي بداية ليلنا في غرفة والدني، كل من كان متفرعاً منا ومتولداً بالبيت في ساعات المساء، يأتي إلى غرفة الولدة، يأتي هو وزوجته، وقد عجلت رأسها طبعاً ما عدا مريم فهي ببيت زوجها وإخوتها، ويأتي معهم أولادهم وبناتهم، نجتمع أحياناً جميعاً، وأحياناً يأتي بعضنا فقط، نجلس نتحدث ونرى الأخبار على التلفاز، نتحدث حولها، نتسلى على بذور البطيخ، أحياناً يحضر أحدهم بعض الفواكه أو الحلويات، تقوم إحداهن لتعد لنا قشاي أو السحلب، نجلس نعضي مبهرتاً معاً، نقاش نتشاجر أحياناً، نخلف أحياناً أخرى، وقليلاً ما نتفق على نفس الموقف من نفس القضية في ظل التناقضات الفكرية في البيت، وبعد مرور شيء من الوقت ينصرف كل منا إلى شفته، وفي العادة وهم يحلون أطفالهم الذين يكون النوم قد غلبهم على أيدي آباءهم أو في حجور وأحضن أمهاتهم.

قوات كبيرة من الجيش وعلى رأسها ضباط مخابرات الخليل، تأتي لإغلاق بيوت الخلية التي سبق اعتقالها في الخليل على خلفية العمليات العسكرية ضد جنود الاحتلال، ويأتون إلى بيت أم جميل بقتحمونه ويبدؤون بطرد أهلها وإلقاء بعض الأغراض للخارج، بينما بعض الجنود يلحمون النوافذ والأبواب، ضابط المخابرات يدفع أم جميل التي تحاول التثبت ببيتها والخضة الخروج فيدفعها بقوة، فتقع على الأرض، فترفع يدها للسماء وتقول بصوت يسمعه الله يجعلها لجام حياتك الأخيرة، وإن شاء الله شباب الكتائب يقتلونك.

بعد أيام ينطلق ضابط المغايرت بسيارته الحديثة تنهب الأرض نهباً، ومن ورائه سيارة مسرعة، تحاول تجاوزه وفيها عدد من المجاهدين ويثاقفهم جاهزة لتصب الجحيم على رأسه ومع تقدم السيارة الثانية، تفتحت منها ثيران ثلاث بذائق رشاشة، جعلت السيارة ومن فيها كمصف مأكول.

بعد أيام أخرى يكمن المجاهدون لسيارة حاخام المستوطنات الواقعة في الخليل وحولها، ومع قدومها يرشونها بالنار، فتقلب في الوادي هوكتل هو ويمسك مرافقه، وينطلق المجاهدون للاختفاء.

تواصل عمليات المجاهدين في منطقة الخليل والقرى المحيطة بها، فلا تصل إليهم معلومات عن وجود هدف للجيش المحتل أو للمستوطنين إلا انطلقوا يكمنون له وراء الصخور المتراصة على جوانب الطرق، أو بالإسراع بسيارة متجاوزة، تمر على بعد عشرات السنتيمترات منه، فتحوطه إلى كتلة من لهب وموت وعذاب. هاجموا العديد من سيارات الجيب العسكرية، والعديد من سيارات المستوطنين العادية، والعديد من الحافلات التي تنقل المستوطنين أو الجنود بين مستوطنات المنطقة، ومنها إلى القدس.

في كل يوم عمليات لإطلاق نار وقتل، ولا تمر عدة أيام دون أن يتلقى الاحتلال ضربة هنا أو ضربة هناك، يضرب في الجنوب فيمتدق قواته للجنوب، ويخلق ويحاصر ويحتل، ويفرض حظر التجول، فتأتيه الضربة في الشمال، فهيب للشمال، فتأتيه في الشرق أو في الغرب، عشرات عشرات العمليات وعشرات من القتلى وقد تقسم المجاهدون إلى فرقتين: إحداهما في الخليل والقرى الجنوبية، والثانية في الخليل والقرى الشمالية، وتأتي للضربات متتالية ومتلاحقة وكل فريق يكمل في عمله، عمل إخوانه في الفريق الآخر.

هناك في مخيم مرج الزهور في الجنوب اللبناني يستلقي جمال على فراشه، ويضع إحدى رجليه فوق رجليه الأخرى، وقد نصبها ورجله تهتز طرباً وهو يستمع للأخبار، ويضحك ضحكة خفيفة ونقمة، ويقول مخاطباً صديقه عبد الرحمن: ثم أكل لك؟ ثم أكل لك؟ فيمأله عبد الرحمن ماذا قلت يا شيخ جمال؟ فيقول: أنكر تلك القصة التي حدثتكم بها على سفح الجبل في صوريف يوم جئنا لزيارتك، وجاء أخوك الأكبر، وأحضر لنا الطعام وجلس يتحدث معنا؟ أجاب عبد الرحمن: أنكر الموقف بشكل علم، ولكني لا أنكر قصته، لو ما ذكرته أنت حينها، ما هي القصة وماذا قلت؟ قال جمال مبتسماً، القصة التي أخبرتك يومها أنني حين كنت طفلاً، وأحتل لليهود الخليل عام ١٩٦٧ وبدلوا يتحركون في المدينة بسهولة، ودون أي معترض، لو دون أي مواجهة، أخذت حجراً على الأرض وألقيته على أحد لليهود وهربت وراء أشجار التفاح.

وبعد وقت سمعت واحداً من أبناء الجيران، ينادي عليّ طالباً مني الخروج، وبأن لليهودي قد ذهب من المكان، وحين خرجت وجدت... قاطعه عبد الرحمن أه... تذكرت، وحين خرجت وجدت اليهودي يشهر معصمه، وقد هددك وخوفك، فأجاب جمال بالضبط. فسأل عبد الرحمن وما الذي ذكرك بهذا؟ فأجاب ذكرني بهذا ما تشهده الخليل هذه الأيام من عمليات قذافية متتالية لا تكاد تتوقف رغم الشهداء والحصار، وحظر التجول والعقوبات الجماعية.

خليل اليوم ليست خليل قبل خمس وعشرين سنة، تلك خليل أرادت العيش بهدوء وكسب الرزق، وبهاء الثروات، وحرصت على ألا تتصادم مع الاحتلال، ولا مع المستوطنين رغم أنهم لم يتركوا واحداً منا وشأنه، أما خليل اليوم فهي خليل الجهاد والمقاومة والاستشهاد... فبهتت قائلاً: أرأيت يا جمال كيف أن العمل الهادي، وطول النفس وقنار الخفية تتضح الأمور وتحدث التغيير، فيبتسم عبد الرحمن قائلاً: صدقت، والحمد لله أن جهننا لم يذهب هدراً. بل أنشاهد للجول المغائل والمستعد للتفاني، الحمد لله، فيبتسم جمال قائلاً: وماذا بعد يا عبد الرحمن؟ وماذا رأيت بعد؟ فإن هذه البداية ومبائي بلنن الله أعظم بكثير والله إني لأرى الأيام القادمة، وقد اشتعلت أرضنا كلها نارا تحت أقدام المحتلين، وإني لأراهم يلعنون اليوم الذي نزلوا فيه أرضنا، ولعنوا فيه مقدساتنا.



الفصل الخامس والعشرون

في إحدى الأمسيات، بينما كنا نشلمر في غرفة أمي، قال إبراهيم: أفكر في الذهاب لنا ومريم والأولاد لأسبوع إلى رام الله، لزيارة محمد ولتغيير الأجواء!! أجبني زوجنا محمود وحسن معاً بأن الفكرة ممتازة، وظل محمود وحسن صامتين، أما أمي فكانت تنظر من طرف خفي لملامح وجه إبراهيم، محلولة أن تقرأ من وجهه ما لم تصرح به كلماته، ولكنه أدرك هواجسها فقال موجهاً لها الحديث: ما عليك يا عمتي؟ وما عليك أن تأتي معنا، نزورهم لعدة أيام تنفس في رام الله والضفة الغربية ثم نعود. وكأنها لم تأت حين دعاها للذهاب فقالت: أنا كبيرة ولم أعد قادرة على السفر، فاذهبوا أنتم إن شئتم، فقالت مريم: اذهبي يا أمي فليس هناك تعب فالسيارة ستأخذك من باب البيت هنا إلى باب البيت هناك، ولتفتت إلى إبراهيم متسائلة: سنذهب بسيارتنا يا إبراهيم ليس كذلك؟ فأجاب إبراهيم: متى شئت غداً إن شئت لو في أي وقت تشائين بعد يومين بعد أسبوع، فرددت دعني أفكر حتى الصباح، وغداً سأرد عليك.

في اليوم التالي اعتذرت أمي عن الذهاب، ودعت لهما بالتوفيق في سفرهما، حيث انطلق إبراهيم وزوجته وابنته إلى رام الله، أثناء الطريق كان يُعرف مريم وإسراء على المناطق التي يمرون بها، وقد توقف في الطريق، حيث نزلوا من السيارة وهو يصل بامر، ويخاطبه وهو أمه وأخته لأن هذه أرض بلدنا التي هجر منها جدي ولبي وعمي، أرض بلدنا القالوجة، مكثوا بعض الوقت ثم انطلقوا بسيارتهم من جديد، حتى وصلوا رام الله واستقبلهم محمد وزوجته أحسن استقبال وقضوا أول ليلهم في السمر، ثم ذهبوا لللوم، في الصباح ذهب إبراهيم ليوصل محمداً إلى الجامعة، ورغم محاولات محمد ثنيه عن ذلك فقد أصر إلا أن يوصله للجامعة، مجرراً ذلك أنه سيجد في ذلك فرصة للتعرف على الجامعة ورؤيتها.

نزل محمد من السيارة ليذهب إلى عمله ولتوقف إبراهيم السيارة وأغلقها ونزل يتمشى بين الطلاب ليفحص الوجوه، حين وجد أحد الشباب، حيث توسم فيه أنه سيحله إلى من يريد توجه إليه سقلاً لياه عن مبتغاه، فأرشده الطالب لجهة معينة، انطلق إليها، دخل أحد المقاصف وتوجه نحو طولة يجلس عليها بعض الشبان، بعضهم ملتحن، رد عليهم السلام، وسألهم عن مبتغاه فقام أحدهم لينله، سار إبراهيم وراءه، حتى أوصله إلى أحد الشبان، وأصبح أن إبراهيم كان يعرفه من قبل، حيث إنه منذ أن رآه شكر الشاب وتقدم وحده لذلك الشاب "صلاح" الذي استقبله بحرارة بالغة، تحدثا سوياً بعض الوقت، وانفترقا على أمل أن يأتيه الشاب بعد قليل إلى سيارته وعاد إبراهيم إلى سيارته، حيث جلس فيها منتظراً.

بعد قليل عاد صلاح وبرفقته شاب آخر، دخلا السيارة، صلاح إلى جواره والآخر في الخلف، انطلقت السيارة بسرعة خفيفة، حيث إن الحديث داخلها كان المقصود، وليس السفر لمكان محدد. بعدما يقارب نصف ساعة من الحديث، ناول إبراهيم الشاب الجديد "مؤمن" رزمة من النقود، أخذها مؤمن وأخفاها في جيبه ثم استدلو إبراهيم بسيارته، عائداً صوب الجامعة، حيث أنزل الشابين، ثم انطلق عائداً إلى رام الله، تجول بها حتى ساعة صودة محمد من الجامعة ثم عاد إلى البيت.

مؤمن أنهى يومه الدراسي واستقل السيارة عائداً إلى بيته في بلدة بيت حنينا القريبة من القدس وفي المساء توجه للمسجد ليصلي المغرب، حيث التقى بأحد أصدقائه، تحدث معه على انفراد حديثاً يبدو جدياً للغاية، ثم تركه وتوجه إلى بيت صديق آخر، طرقت باب البيت، فخرج إليه ذلك الصديق، وساروا معاً في الشارع للهدى، يحدثه مؤمن بحنية واهتمام، وصاحبه يسمع له باهتمام كبير، ويهز رأسه موافقاً.

في اليوم التالي يتوجه مؤمن للجامعة، حيث التقى بصلاح ويخبره أنه جاهز، حيث إن الخلية الآن مستعدة للعمل، فقد تأكد من استعدادية صاحبيه للعمل، صلاح يتوجه إلى رام الله حيث يلتقي إبراهيم ويخبره بالأمر، فخرج إبراهيم معه في السيارة إلى بيرزيت، حيث يلتقيان مؤمناً، ويسلم إبراهيم مؤمناً علبة صغيرة، ويؤد على يديه داعياً له بالتوفيق والنجاح.

في المساء يخرج مؤمن وأخويه بسيارة أحدهما التي تتبع للشركة التي يعمل فيها بالقدس وهي شركة إسرائيلية، وعليها كتابات بالعبرية، ويخرجون في جولة استطلاع، على الطرق العامة حول مدينة القدس. اليوم الأول يخرجون تجاه الشمال، واليوم التالي تجاه الجنوب وهم يتفحصون مستوى الاحتياطات الأمنية لقوات الاحتلال والشرطة، ومستوى حركة السيارات والمارة، ووجود الجنود المنفردين على جانب الطريق، وفي محطات للركاب، وكلما انتبه أحدهم لشيء على جانبي الطريق ينبه صاحبه إليه.

بعد أيام انطلقت السيارة بالثلاثة، مؤمن يجلس في الكرسي الخلفي، وأحد صاحبيه خلف عجلة القيادة، والآخر إلى جواره من المقعد الأمامي، تتطرق بهم السيارة من بيت حنينا نحو الجنوب بعد أن تبتعد عن المنطقة العربية، يخرج كل واحد منهم من جيبه بطاقة صغيرة، يضعها اليهود والمسيحيون على رؤوسهم، يضعونها على رؤوسهم، وينطلقون بحثاً عن هدف مناسب على جانب الطريق يقف أحد الجنود ببذلة العسكرية

وسمه بندقية، يشير للسيارات المارة لتأخذه إحداهما في طريقها، يضع مؤمن رأسه مستنداً على الكرسي، وكلته نائم من التعب.

تتوقف السيارة فيقدم للجندي مطلاً من النافذة الأمامية سائلاً السائق بالعبرية إلى المسمية (التسويت سمية) فيجيبه حسن بالعبرية اسعد (تعلية) يفتح الباب الخلفي ويصعد السيارة، بعد انطلاق السيارة بعدة دقائق، وبينما المذيع في السيارة، يبيت الأغاني العبرية، شهر مؤمن مسدسه في وجه الجندي، وقد وضع يده على سلاحه، ليمنعه من استقدامه، وبلغت عبد الكريم نحوه يشهر في وجهه سكينه، يطالبانه بعدم التحرك حرصاً على أمانه وسلامته، ولكنه يحاول للتفقت، ويحاول سحب البندقية، يطلق عليه مؤمن عدة طلقات، ويطلقه عبد الكريم عدة طلقات، يأخذون بندقيته الأوتوماتيكية (أم ١٦) ويضعون على وسطه ورقة كبيرة تعلن مسؤوليته الكائنات عن خطفه وقتله ويلقونه على جانب الطريق، فيتخرج في أحد الأودية.

تعرف عبد الرحيم على محمد أبو رشدي، قائد الكائنات في جنوب الضفة الغربية (منطقة الخليل، بيت لحم وفواها) ذهب عبد الرحيم إلى بلدته صوري، وهو يشعر أن الدنيا لم تعد تنفع له، وهو بعد الساعات والدقائق لمرور هذا الأسبوع، حتى يصبح هناك معنى عملي لاتضمامه لصفوف المجاهدين.

في اليوم التالي حدثت صدامات ومواجهات في البلدة مع قوات الاحتلال التي جاءت لاعتقال أحد الشبان، فتصدى لها أهل البلدة بالحجارة، وأسبوا العديد من الجنود بجاراتهم بجراح، عندما خيم ظلام تلك الليلة وأسدل ستارته على البلدة، قدمت قوات كبيرة من جيش الاحتلال، ومخابراته وبدأت بحملة اعتقالات واسعة بين شبان البلدة، داهمت قوة كبيرة من لجيش بيت خالتي واعتقلت عبد الرحيم، بعد أن أجرت تفتيشاً دقيقاً في البيت، ولم تثر على شيء سوى بعض الأوراق والبيانات التي بمهل تبرير وجودها، وأنه عثر عليها في الشارع، مثله مثل الكثير من الناس.

جن جنون خالتي فتحية على اعتقال فلذة كبدها وفرة عينها، وكل تشبثها أثناء إخراجهم له من الدار لم يجد نفعاً ولكن ما كان يواسيها بعض الشيء أن عبد الرحيم قد عدا رجلاً ولن تخاف عليه، فقد كان حين اعتقاله رطب الجاش، رجلاً بكل معنى الكلمة، وظلت كلماته التي قالها لها وهو عند عتبة الباب خارج معهم، يا أماء لا تخافني عليّ فقد أصبحت رجلاً ظلت كلماته هذه تتردد في سمعها فتواسيها وهي تدعو الله له بالصلاة والسلام والعودة القريبة.

أخذ عبد الرحيم إلى معتقل النقب، حيث حكم عليه بالسجن الإداري لمدة ستة شهور
تعرف خلالها على الكثيرين من الشباب والمشيخ والدعاة، واستفاد من وجوده هناك
استفادة كبيرة، حيث للمجالات الثقافية والترجوية، وحيث القراءة

أبو رشدي وإخوته شددوا هجماتهم على دوريات قوات الاحتلال ومستوطنيه في
المنطقة، فلم يكذب يوم إلا وهاجموا إحدى تلك الدوريات أو المستوطنين. مرات
بهاجمون باستخدام أسلوب السيارة المتجاوزة، وأحياناً أخرى يكمنون لأهدافهم على جانب
الطريق، وراء تلك الصخور التي تنزل على سفح الجبال وبطون الأودية، فلا يجد
المحتلون إلا ونيران المجاهدين تنهمر عليهم غزيرة تحصد أرواحهم، قتل هنا قتل هناك،
وإصابات هنا وفتلى وإصابات هناك.

بعد اعتقال بعض المجاهدين بعد نشاط مكثف لمخابرات العدو وجيشه في المنطقة
أصبح اسم (أبو رشدي) وبعض إخوانه الأساسيين معروفاً لقوات الاحتلال، وقد قامت تلك
القوات، وعلى رأسها ضباط المخابرات بعدة هجمات لبيت أهله لاعتقاله دون جدوى،
حيث أنه فور اعتقال أولئك الأخوة قد ودع أهله، وأخبرهم أنه لن يعود للبيت إلا نادراً،
وقد تطول فترة غيابه، وبدأ يتحرك في الجبال القريبة، أو في القرى متخفياً، حيث يبيت
عند بعض الأسقاء أو الأطباء ممن يصارعون إلى تلقف رجال المقاومة لإبوابهم،
وتقديم العون والمساعدة لهم، ونيل الفضل والأجر بذلك.

كنا نجلس في غرفة أسي في إحدى الأمسيات، نرنشف الشاي ونشلى على بذور
الطحين، ونتحدث في أمور شتى، جاء وقت الأخبار، فأدار محمد التلفاز على نشرة
الأخبار، فإذا بنشرة الأخبار نتحدث عن أن أخباراً سرية تفيد أن مفاوضات سرية تجري
منذ وقت طويل بين الفلسطينيين ممثلين بمنوبيين عن منظمة التحرير الفلسطينية
وإسرائيل، في إحدى العواصم الأوروبية، وهناك اقتراب من صيغة اتفاق بين الطرفين.
ذات فائز "حسن" وبدأ بالتهكم على المفاوضات وهو يستكر حدوث مثل هذا الأمر
حيث إنه يرى أنه لا يجوز التفاوض مع اليهود ولا بأي حال من الأحوال، فالتفاوض
معهم يعني الاعتراف بإسرائيل، وحققها في الوجود على أرض فلسطين، وأنه لا يجوز
لفلسطيني أن كان أن يفعل ذلك.

محمود كان يبدي استهجانه لهذا الموقف من حسن، ويستغرب من حشر الدين في مثل هذا الأمر فهذا أمر سياسي، وليس للدين علاقة به، والسياسيون يقدرون الأمور ويتخذون ما يلزم، ويتساعل عن هدف حسن واقتدار الإسلامي من هذه الانتفاضة، وما يولكبها من فعاليات ومن شهداء، وتضحيات، هل هذا الجهد جهد عبثي؟ لا هدف له ولا غاية، فقط للموت لأجل الموت!! ألم من أجل هدف محدد؟ ويخلص إلى أن الانتفاضة يجب أن تكون لها أهداف سياسية واضحة ومحددة ومعقولة، وأن الينذقة خير الميسمة هي عملية فتحة وجهد عبثي. فيساعل إبراهيم: وما هي الأهداف الواضحة والمعقولة حسب رأيك؟ فيجيبه محمود: تطبيق قرارات الشرعية الدولية والتي تنص على قيام دولة فلسطين في الأراضي التي احتلت عام (١٩٦٩)، فيصرخ حسن: يعني أن نترفع بحق إسرائيل فيما يزيد عن (٧٥%) من أراضي فلسطين التاريخية مقابل امتحانها من الضفة الغربية، وقطاع غزة وقيام دولة فلسطينية فيها؟ فيجيبه محمود: نعم، وهل تريد أكثر من ذلك؟ فيصرخ حسن: نعم أريد أكثر من ذلك فإسرائيل دولة مفتتحة قامت على أرضنا، ويجب أن تؤول، فينقسم محمود قائلاً: ومن قال أن إسرائيل يجب ألا تؤول، نحن يا أخي لا نتحدث الآن عن شعارات رنانة، نحن نتحدث عن الواقع ومعطيات المرحلة السياسية التي نمر بها... الواقع يقول أن للعالم غير جدي في حل قضيتنا حلاً عادلاً، يحقق لنا أهدافنا، والعرب غير قادرين على فعل شيء حاسم، ونحن كفلسطينيين ليس لدينا القدرة على... لقاطعه حسن بغضب وعصبية: ومن قال أنه ليس لدينا القدرة، ألا ترى أننا خلال سنتين قد قلنا منهم المنات، قاطعه محمود ضاحكاً: وماذا يعني قتل المنات؟ فهم كذلك قتلوا منا أضعاف ذلك، صرخ حسن: اللهم اللهم أصبحوا مستعدين لتغيير موقفهم، لم نسمع تصريحات السياسيين عندهم خلال الفترة الأخيرة عن استعدادهم لتترك غزة؟ أجاب محمود: قد سمعت وهذا ما سيحدث برحمتك من غزة والضفة، ونقيم فيها الدولة الفلسطينية، تدخل إبراهيم قائلاً: المشكلة يا محمود ليست في قيام الدولة الفلسطينية، فليس هناك فلسطيني واحد لا يريد قيام الدولة الفلسطينية، ولكن المشكلة في الثمن الذي سندفعه كشعب فلسطيني مقابل قيام الدولة الفلسطينية، بنسب محمود بصورة تهكمية قائلاً: يعني يا فيلسوف المرحلة، هل تعتقد أنه يمكن إقامة دولة بدون الاعتراف بإسرائيل؟ ينقسم إبراهيم قائلاً: نعم، فيصرخ محمود: وكيف؟ ومن الذي... قاطعه إبراهيم قائلاً: واضع أن استمرار المقاومة والفعاليات العسكرية التي تلحق بالاحتلال الخسائر البشرية بالإضافة إلى الانتفاضة الشعبية التي تلحق به الضرر السياسي والإعلامي ستجبره على الانسحاب من قطاع غزة والضفة الغربية، وعندها يمكننا إقامة الدولة على أي شبر أرض ينسحب منه العدو، فلينقسم محمود مرة أخرى متهمكاً قائلاً: وما الفرق يا فيلسوف؟ صرخت مريم: ولماذا نتحدث معه بهذا الشكل؟ قيل أن يرد محمود أشار لها إبراهيم بالهدوء قائلاً: لا تضغطي يا مريم من محمود ودعيه يتصرف بالشكل الذي يحبه، فهو مثل (أبونا) جميعاً.

وأبعد محمود نظرة حجل وقال: المهم ما هو الفرق يا إبراهيم؟ فأجاب إبراهيم:
الفرق بين خروج إسرائيل من الضفة وغزة أو أي جزء منها باتفاق أو بدون اتفاق... إذا
خرجت باتفاق فذلك يعني أننا سنلتزم كفلسطينيين من طرفنا بالتزامات أهلها الاعتراف
بحقهم على أرضنا الباقية، أما إذا خرجوا بدون اتفاق نحت ضغط المقاومة فذلك يعني
فنا لم نلتزم بشيء وأن الباب لا زال مفتوحاً أمامنا للمواصلة حالاً وفوراً، أو بعد
وقت... حين نجد أن الوقت مناسب لذلك، وهنا هو قاطعه محمود قائلاً: هكذا تعتقدون أن
الأمر تسير، هذا قصور نظر سياسي، فأنتم لا تفهمون شيئاً في السياسة ولا في الواقع
الذي يحيط بنا وبقضيتنا، وبالواقع العربي الكامل ولا تعرفون شيئاً عن ظروفنا الذاتية،
أو الموضوعية.

تدخل حسن مستنداً: هكذا أنت يا محمود دائماً، تتهم وتعم وتبدأ باستخدام
المصطلحات الكبيرة في غير محلها، ظروفنا الذاتية والموضوعية والدراماتيكية
والبطيخية ضحك محمود قائلاً: هذا ما قلت وما أقوله دائماً لأنكم جاهلون سياسياً،
وتعسبون الأمور على بساطتها، صرخ حسن: لا تقل جاهلين ولا تتهم وناقش باحترام
دون تهجمات، حينها تدخلت أمي قائلة: يكفيكم هذه الليلة قوموا إلى دوركم، فلنا لريد أن
ننام، وقد فتحتم لنا رؤوسنا بأحاديثكم في السياسة.

يحيى يختفي عند أحد الأصدقاء في بلدة (قرلوة بني حسان) شمال الضفة الغربية
وأثناء اختفائه بجهاز بعض الحركات حيث ينقلها بعض مساعديه إلى تلك المجموعات التي
نظمها واتفق معها على العمل، حيث تقوم تلك المجموعات بنصبها على طريق للدوريات
أو للمستوطنين الأمر الذي حقق بعض النجاحات المحدودة، ولكنه أدخل دون شك مركباً
جديداً في أدوات المعركة، وفي نفس الوقت ظلت قوات الاحتلال بين الحين والآخر
تداهم بيت العائلة باحثة عن يحيى، دون جدوى فتقوم بقلب كل ما في الدار من أثاث،
تخرب وتكسر وتحطم، وتحقق مع الأم والأب الذين ليس لديهم ما يقولان عن ابنهما.

وفي الأوقات العادية بعيداً على زاوية الشارع المطل على البيت، يقف أحد الفتيان
وقفة مشبوهة، حيث يراقب الدار معظم الوقت، متظاهراً بالتشاغل عما جوله، وبصورة
مفضوحة... وقد يأتي يحيى متسللاً من الجهة الخلفية، داخل الدار من النافذة، فيقبل يدي
والديه ورأسيهما ويقبل طفله الرضيع، يعلم على زوجته، ويتحمم ويغير ملابسه، ثم
ينطلق عائداً إلى مخبئه وعمله.

في عزة يلتقي إبراهيم مع عماد واثنين آخرين من المجاهدين في بيت أبو نضال،
يجلسون وحدهم في العرفة، حيث أحضر لهم نضال للشاي، وغادر الغرفة ليتمكنوا من
الحديث في أمورهم الخاصة.

إبراهيم ينقل تقريراً عن دورية مزودة من قوات الاحتلال تتكون من سيارتي
جيب تتحرك بين الساعة السادسة صباحاً والسابعة صباحاً يومياً على شارع النصر
بالقرب من مخيم الشاطئ، ويضع ورقة على الحصيرة أمامهم فيها مخطط تقريبي
للشارع والتفرعات عنه، وأخذ يشير بالقلم: هذا الفرع مسدود ببرميل الباطون التي
وضعتها قوات الاحتلال، وهذا فرع يمكن أن تتسحب منه السيارة، وهذا فرع ترابي، لا
يناسب للسيارات الدوريات في العادة تأتي من الشمال، وتتجه نحو الشمال، وتتجه نحو
الجنوب ولكنها أحياناً تسير باتجاه معاكس، أخذ عماد القلم من يد إبراهيم وقال: يجب أن
يكون هناك شخص يعطي إشارة وصول الدورية، واتجاهها نحن نقسم قسمين: القسم
الأول يكون هنا مشيراً بالقلم إلى إحدى التفرعات عن الشارع نحو الغرب، والقسم الثاني
يكون هنا، مشيراً إلى فرع آخر جنوب الأول، شخص الإشارة يتحرك على الطريق
العام بين التفرعين، منبهاً لقوم الدورية واتجاهها لينقل ذلك فوراً للمجموعة خاصة
الثانية، الأبعد عن نقطة قنوم الدورية، وينضم إليها فوراً المجموعة الأولى التي تمر
الدورية من أمامها، تتركها تمر، تترك للسيارة الأولى منها تمر وبعد تجاوز الثانية تفتح
عليها النار، حينها ستكون السيارة الأولى قد وصلت للمجموعة الأولى فتقوم بمهاجمتها،
وبذلك نوقع الميكرتين في الكمين، ولا نمكن إحداها من مساندة الأخرى، حيث ستفارق
كل واحدة منها في النيران التي سنفتحها عليها.

اليوم نخرج لاستطلاع المكان ورؤية طرق الانسحاب، وغداً صباحاً نخرج لذلك إن
شاء الله، فيردون إن شاء الله. إبراهيم يواصل: عماد غداً يجب أن نشارك معكم فلم بعد
عندي صبر على العمل الاستخباري فقط، ولا بد أن نشارككم في بعض العمليات، يجيب
أحد الموجودين لكن... يقاطعه عماد: لا بأس يا إبراهيم لا بأس، مَر علينا الساعة
الخامسة والنصف صباح غداً.

في الصباح وفي الموعد المحدد يكمن اثنان في الفرع الأول، واثنان في الثاني،
وشاب يتمشى على الطريق العام، متظاهراً بانتظاره سيارة نقله إلى عمله، وفي نهاية كل
من التفرعين سيارة يجلس سائقها على مقعده خلف عجلة القيادة ومحركها شغال في
انتظار الانطلاق، أعلن شاب الإشارة أن الدورية جاءت وأنها تأتي من الشمال،

وانضم للمجموعة المتأخرة، وأصبحت خمس بنادق رشاشة جاهزة، مرت سيارة الجيب الأولى، أمام التفرع الأول، وحين وصلت الثانية اندفع المجاهدان جرياً لرأس التفرع وفتحوا نيران بنادقيهما وهما يجربان خلف السيارة.

في نفس الوقت تقدم الثلاثة من التفرع الآخر إلى الشارع الرئيسي حيث قابلوا الدورية الأولى وفتحوا عليها نيران بنادقهم الثلاثة، بذل كل واحد من الخمسة مخزن بنادقيته، وأطلق المخزن الثاني طلقات معدودة صدرت من الدوريتين وبصورة غير مركزة، وارتطمت السيارات بالجدار، وبينما يغرق جنود الاحتلال بدماتهم، انطلق المجاهدون عاكبين إلى سياراتهم التي انطلقت تتبخر من المكان.

تعزيزات وقوات كبيرة معاً حضرت للمكان حيث وقف الجنود والضباط ورجال المخابرات والمسجونون في الشارع لمحصن الأمور، ونحت شجيرة صغيرة في بستان مجاور للشارع، مد أحد الشبان يده ملقياً قبلتين يدويتين انفجرتا وأوقعتا عدداً من الجرحى كذلك.

حين جنون القادة السياسيون والعسكريون والأمنيون الإسرائيليون، ونق أحدهم على الطاولة لمن هو دونه في الرتبة، أنه يريد رأس عماد ويسرع وقت، فلا يصح الانتظار، ولا بد من تركيز الجهد، ولا بد من مضاعفة ساعات العمل، ومضاعفة للطواقم العاملة، مطلوب تشغيل أكبر عدد من العملاء لقطع رأس عماد عقل.

إبراهيم يذهب إلى ورشة عمله في البناء، في أحد البيوت مع العمال الذين يعملون معه، وبصورة عادية وكأنه لم يكن قبل قليل في تلك المعركة، وينتهي عمله عند العصر ويعود إلى البيت، فيغتسل ويبدل ملابسه ويتناول طعامه، ويجلس يلعب ابنه وابنته، يخرج من البيت لصلاة المغرب في المسجد، ثم يركب سيارته مبتعداً ويعود للبيت بعد العشاء ببعض الوقت، يلحق هنا في غرفة المؤتمرات الوطنية عند أمني، حيث كان الحديث يدور عن العملية الفدائية التي حدثت صباح اليوم، وأن الحديث يدور أن عماداً كان على رأس متفخيها، والجرأة والشجاعة التي يتمتع بها المنفذون. إبراهيم لم يتدخل وكان الأمر لا يعنيه مطلقاً، حين أدار محمود الالتفات على نشرة الأخبار، أخذ الحديث عن العملية حيناً ممتازاً، وجاءت تصريحات بعض القادة الإسرائيليين بعضهم يهدد ويتوعد، وآخرون يدعون للخروج من غزة وتركها وما فيها من مصائب.

ثم جاء الخبر التالي وهو أن الأخبار عن المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية أصبحت مؤكدة حيث صرحت مصادر مطلعة، رفضت الكشف عن اسمها، أن اتفاقاً بين الطرفين شبه جازم للتوقيع، وأن المفاوضات جرت في العاصمة الأوروبية لوسلو تحت غطاء من السرية وأن هناك اتفاقاً مرحلياً سيتم التوقيع عليه قريباً، فقال إبراهيم: ألا ترى أنك مستعجل ومتعائل كثيراً دعنا نرى الاتفاق أولاً حتى نستطيع أن نقيمه، ونقول رأينا فيه.

رد محمود: إن موقفكم معروف من البداية فإنكم ترفضون كل شيء لاعتبارات الصواب أو الخطأ، فإن هذا موقفكم من البداية منذ نشأتكم، تعرضون على كل شيء وترفضون كل شيء، ولنا متوقع رفضكم لأي شيء ولأي اتفاق، فأنتم لا تجيدون سوى المعارضة.

حين تحدثت الأخبار عن اتفاقية لوسلو التي سيتم توقيعها قريباً، ولقيت عرفت باسم غزة أريحا أولاً، انقسم الشارع الفلسطيني بين مؤيد ومعارض وخرجت في المخيم مظاهرات على رأس المظاهرة المؤيدة أضي محمود وأصدقائه، وعلى رأس المعارضة أضي حسن وأصدقائه، والمظاهرتان كانتا حاشدتين والمؤيدون كانوا يهتفون: غزة أريحا البداية... وفي القدس النهائية، ولما المعارضون فكانوا يهتفون: غزة أريحا فضيحة، طلعت منها الدريحة.

المظاهرتان سارنا في اتجاهين متعارضين، حيث مرت الأولى بدوريات جيش الاحتلال التي وقفت ترقب ما يجري في المخيم، قام المتظاهرون بإلقاء أغصان الزيتون على دوريات الجيب بينما جنود الاحتلال يشهرون ببنائهم نحو المتظاهرين خشية أن يكون أحد للمعارضين قد تنفس في هذه المظاهرة، وقد يلقي عليهم قنبلة أو عبوة، أو يطلق عليهم النار وحين مرت المظاهرة الثانية رشق المتظاهرون الدوريات بالحجارة، وقد تساعد هتافهم حينها: بالروح بالدم نفديك يا فلسطين... القدس لنا لا للظلمة... الولي لهم في الملحمة.

لقد الجنود بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع والطلقات المطاطية والبلاتستيكية، حين التقت المظاهرتان، كان محمود محمولا على الأكتاف في هذه، وحسن محمولا على الأكتاف في الأخرى، وكل يردد شعاراته، هذا يؤيد وهذا يعارض، وللحظة التفت عيونهما فاحتد الهتاف وعلا الصوت وحدثت بعض الاحتكاكات والصدامات الخفيفة، بين بعض المتظاهرين من هنا وهناك. صور لقادة كانت تبث على شاشات التلفاز وهم يوقعون الاتفاقية في لوسلو.

وعلى سقف مسجد مصعب بن عمير في حي الزيتون بغزة، كان يكمن حتى لم يبلغ العشرين من عمره يرقب الطريق، وفي بيت مهجور بالقرب من المسجد كان عماد وإبراهيم يكمنان في انتظار صغير الفتى، في يد عماد بندقية (لم ١٦) قصيرة، وفي يد إبراهيم بندقية كلاشينكوف، وعلى جنب كل واحد منهما خزانة إضافية من الرصاص، ومن بعد أطلقت سيارة جيب لنورية من جيش الاحتلال فيها ثلاثة جنود، صغر الفتى صفرته الأولى، فاستد عماد وإبراهيم، ثم صغر صفرته الثانية، كانت سيارة الجيب قد أصبحت أمام البيت المهجور تركاها تتقدم متراً إضافياً ثم انطلقا يطلقان عليها نيراناً لوتوماتيكية.

اتكأ الجنود الثلاثة على وجوههم، وظلت السيارة مندفعة إلى الأمام حتى ارتطمت بأحد الأبواب لمخازن مقابلة، وعماد وإبراهيم يجريان وراءها وهما يغيران خزانات بنادقهما للمرة الثانية، ويواصلان إطلاق النار، حين ارتطمت السيارة وتوقفت، كان عماد وإبراهيم قد وصلاهما، عماد يسحب الجندي من السيارة إلى الأرض، يضع قدمه على رقبته، ويطلق طلقة أخيرة على رأسه، إبراهيم يصور المشهد، ثلاثة مشاهد مع ثلاث صور، حمل عماد وإبراهيم ثلاث بنادق جديدة، كانت سيارة الانسحاب قد وصلت، ركباهما وانطلقت بهما.

في نفس الوقت على الطريق العام بين الخليل وبيت لحم كان أربعة من المجاهدين على رأسهم أبو رشدي يكمنون خلف الصخور على جانب الطريق، وفي يد كل واحد منهم بندقية رشاشة لوتوماتيكية... في انتظار مرور أي مركبة إسرائيلية، مرت حافلة نقل عدداً كبيراً من الجنود حين أصبحت قبلتهم انفتحت عليها نيران البنادق الأربعة حمم من الحميم، انفجعت الحافلة للأمام عشرات الأمتار، ثم توقفت تدريجياً على جانب الطريق، في نفس الوقت وصلت سيارة الانسحاب مستقلة للمجاهدون، وطارت بهم في إحدى الطرق الفرعية القريبة بين الجبال، سارت السيارة مسافة طويلة مبتعدة عن مكان العملية، وعند إحدى الالتفاتات في الطريق المنعرج، وعلى بعد عشرات معنودة من الأمتار كان هناك حاجز للجيش، أربعة جنود من جيش الاحتلال يقفون على جانب الطريق يشهرون أسلحتهم ويشيرون للسيارة بالتوقف سأل خالد السائق ماذا أفعل؟ أجاب أبو رشدي بصوت صارم: تظاهر بأنك تريد التوقف، وحين تصل تطلق بسرعة وكل واحد منا يطلق النار على الجنود الذين يقفون على فتاحه، نرفع البنادق ونبدأ في نفس اللحظة على بعد خمسة أمتار منهم... جاهزون؟ فرعدوا: جاهزون بعون الله.

خلفت السيارة سيرها كان يرقف عليها علم فلسطين، وبجواره غصن من الزيتون للأيام، ابتسم خالد وهو ينظر للجنود، فابتسموا فصرخ أبو رشدي الآن، فارتفعت أربع بنادق وفتحت منها النيران كالجحيم على الجنود الذين خروا على الأرض، دون أن يجيبوا (يردوا) برصاصة واحدة، وانطلق خالد بالسيارة مسرعاً، كانت إحدى البنادق قد ارتفعت وانطلق منها الرصاص من فوق رأسه، بعد أن تقمعت السيارة مئات الأمطار، صرخ أبو رشدي: التف وارجع لتأكد من موتهم، وتأخذ السلاح، فهناك أربع بنادق، خطف خالد مقود السيارة بسرعة وكانت تنطلق بسرعة كبيرة، فالتفت ولحقت ثوزنها ثم انقلب على جانبها وتدمرجت في الوادي، انطبق الحديد على رجل أبو رشدي، وأصيب الآخرون برضوض وجروح في رؤوسهم وأرجلهم وأجسامهم.

صوت العشود والتعزيزات من قوات الاحتلال بدأ يعلو وصوت طائرة مروحية بدأ يدوي في الجو، ويزداد ارتفاعاً، فلاق المجاهدون من الحادث وبدلوا يحاولون تخليص أنفسهم من السيارة ثم بدلوا بصعوبة قصوى يحاولون إخراج قائدهم وأخيهم، بصعوبة أخرجه، وبدأ يتكئ على اثنين منهما في التقدم للأمام، صوت العشود المروحية يرتفع، وواضح أن عملية تمهيط كبرى ستجري في المنطقة، توقف أبو رشدي عن التقدم مع زميله قائلاً: أعطوني ما لديكم من ذخيرة وانطلقوا في الاتجاه الآخر (مشيراً إلى سفح الجبل المجاور) واصل: أنا سأختبئ وراء صخور هذا الجبل، وسأشتبك معهم أطول فترة بقدري الله عليها، أنتم انطلقوا في الاتجاه الآخر، هيا، ولكنهم لا يتحركون، ويجيبون بصوت واحد، وكيف نتركك يا أبا رشدي؟ هذا لن يكون، فلما أن نجو جميعاً أو نستشهد جميعاً، بضحك أبو رشدي قائلاً: وبحكم أن أمامكم عملاً كثيراً، هيا انطلقوا، هاتوا الذخيرة وانطلقوا، هلت هلت هذا أمر لا يجوز لكم المخالفة انطلقوا هيا هيا... يعطونه الذخيرة ويودعونهم وهم ييكون مر البكاء، وينطلقون.

يهتف خالد ليذهب كل واحد منا باتجاه مختلف، فلو ضبط أحداً نجا الآخرون. قوت كبيرة من جنود الاحتلال وصلت وبدأت تحاصر المكان، وبدأ أبو رشدي يطلق عليها النار، من وراء الصخور، ويحاول التنقل من وراء صخرة إلى أخرى محاولاً تغيير اتجاهات إطلاق النار. كي يعتقدوا أن من يطلق النار عدد كبير وليس شخصاً واحداً، وهكذا انشغلت به قوات الاحتلال ما يزيد عن ساعة ونصف، وهو يفاوضها حتى شخصت المروحية مكانه ونصفه بعدة صواريخ، فارتفعت روحه الزكية إلى بارئها إلى جنة عرضها السموات والأرض.

خالد وصل إلى طرف قرية قريبة فالتقى أحد سكانها، وأخفاه في بيته، وسارع لتضميد جراحه، وتقديم الطعام والشراب، محفواً بالحب والشفاء، عبد الرحمن وصل إلى إحدى المستوطنات في المنطقة حيث هناك قوات بقاء، فتمدد على الأرض وطلب عليه الحوض الذي يخلطون به الإسمنت، بعد أن اسند طرفه بقطعة من الحجر كي يتمكن من التنفس ومراقبة ما يحدث، ومحمد تملق شجرة زيتون معمرة وتمدد فوق أحد أغصانها الخليظة، واستمر اشتباك قوات الاحتلال مع أبي رشدي.

وبعد قصف موقع تحصنه تم تمشيط الجبل فلم يعثروا على أحد سواء قتلوا يمشطون من جديد، بصورة أدق في الاتجاهات الأخرى، وقف الجنود تحت الشجرة التي تمند محمد فوق غصنها دون أن يروء، وقد أعصى الله أمصارهم، ولم يقتربوا من طرق المستوطنة، فلا أحد يمكنه الافتراض أن أحد المجاهدين يمكنه الهروب لهذا المكان، والاختفاء به.

ساد التوتر أجواء دارنا خلال الأيام التالية كلها، فقد تجنب كل من محمود وحسن الالتقاء في الدار، ولم يأتيا للجلوس والسمير في غرفة أبي لعدة أيام، وكلنا إذا التقيا أنشاح كل منهما وجهه عن الآخر، وإذا اضطر أحدهما أن يلقي التحية على الآخر، تمت بكلمات غير مفهومة، فرد الآخر بكلمات مبهمه غامضة.

لنا وإبراهيم وصلنا للجلوس عند الولادة، وتابعنا الأخبار والأحداث، وقد أهديت دهشتي وانفعالي بالمسلمات الفدائية التي نغنت، حين جاء ذكرها بالأخبار، أما إبراهيم فقد حافظ على وجهه جامدا كالصخر، ولم يتقوه بكلمة تعليق على ذلك، ولكنه انتقد الموقنين على اتفاق أوسلو دون التهجيم والشتائم.

أحد أصدقاء أخي محمود ممن جاؤوا من الخارج لدخول قوات السلطة لقطاع غزة، جاء لزيارتنا وهو يحمل خبرين: الخبر - أن لنا أخوين من أبناء ماجد وأخالد، سبيلتيان مع القوات التي سحلت من الخارج للقطاع، صرخ محمود حين سمع ذلك، صوت آخر هنا نحري لسماعه لي أخوان لا أعرفهما ماجد وأخالد، وسبيلتيان مع القوات، يعني أنهما كبيران، نعم إنهم في مطلع العشرينات من أعمارهم، فصرخ محمود وأبي؟ ما هي أخبار أبي؟ فرد الضيف: هذا هو الخبر السيئ فبيدو أنه قد توفي في الأردن بعد ولادة أخويك، من الصدمات التي حدثت هناك. أبي حين سمعت ذلك سقطت على الأرض مغشياً عليها، ونحن قد بدأنا نحاول إفاقتها بتقريب زجاجة الكالونيا من كفها، كنا كمن ضرب على قفا رأسه بمطرقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل السادس والعشرون

الأخبار الجديدة عن وفاة أبي في الأردن وعن أخوتي الشلبين اللذين لم نسمع بهما من قبل أخذت وقتاً كبيراً منا ومن أحاديثنا، ومن اهتمامنا في البيت. أصبح واضحاً أن أبي حين احتلت الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧ خرج منها حياً إلى مصر، ومن مصر استقر في الأردن، حيث تزوج امرأة فلسطينية في مخيم البقعة وأنجبت له تولين ماجداً وخالداً، وبعد ذلك بأيام استشهد أبي في الصدامات التي حدثت هناك وكبر خالد وماجد مع أمهما في الأردن، وقد توفيت أمهما قبل سنوات، وسوف يأتيان مع القوات الفلسطينية التي سيسمح لها بالدخول إلى غزة وأربحا ضمن الاحتلال.

لم تكن قبل هذه الأيام قد سمعنا شيئاً عن أينا منذ الاحتلال، واعتقدنا أنه قد استشهد ومرة واحدة نجد أن لنا أخوين شلبين ولهما سيكيان إلى غزة، وذلك يعني أنهما سينضممان إلى العائلة بصورة أو أخرى، أسي ظلت في حالة ما يشبه الهستيريا إلى عدة أيام، وبدت وكأنها تعيش صدمة نفسية وعصبية، يصعب تجاوزها، وقد انصب كل جهدنا أن نواسيها، وأن نحول التخفيف عنها، فرغم غياب أبي طيلة تلك السنوات قرابة ثلاثة عقود، إلا أنها ظلت على أمل أن تجده في أحد الأيام حياً يدخل علينا الدار، أما أن يأتي لها خير زواجه بأخرى وعدم اتصاله بنا لفترة حوالي أربع سنوات منذ مفارقتها وحتى وفاته، وأن يصبح له أولاد من زوجة أخرى، وأن يأتي خير وفاته، وبهذه الصورة، فقد كان من الصعب عليها احتمالها.

حاولنا أن نقنعها أن تلك السنوات الأولى بعد الحرب كانت صعبة ولم يكن بالتاكيد قادراً على الاتصال بنا، على كل حال يرحمه الله، فقد أقضى إلى ما قدم، وحجته معه عند ربه ونحن الحمد لله كما نرى أصبحت رجلاً، وما نحن نملأ سمعها وبصرها، ولا نقصها شيء ونأتي لها بالقصص ومأسي الآخرين، ونقارن لها حالنا بحال الآخرين وأتينا بألف خير، حتى بدأت حالتها بالتحسن والاستقامة بعض الشيء، ولكن كان من الواضح أنها قد ضربت بالضربة القاسية حيث أنها لم تعد بالنشاط والحيوية والقوة التي كانت عليها.

أحد الموضوعات الذي أخذ جزءاً من اهتمامنا في الدار واهتمام الشارع الفلسطيني في هذه الأيام هو كون الجنود الثلاثة الذين قتلوا في عملية حيي الزيتون الأخيرة بغزة من الدروز، حيث إن عدداً كبيراً من الشباب الدروز قد التحقوا بحرس الحدود أو الشرطة أو مديرية السجون الإسرائيلية، وهم في عملهم يقومون بواجباتهم على خير ما يقوم به اليهود.

وكثيراً ما قام الجنود من الدروز بممارسات عنيفة ومسيئة ضد المتظاهرين أو ضد المجاهدين، أو حتى أن بعضهم قد تجاوز حدود الأدب والخلق، فاعترضوا النساء والصبيان وحاولوا الاعتداء على الأعراس، الأمر الذي خلق أجواء من النفمة، ومشاعر من الغضب تجاههم.

لكن ذلك لم يصل بأي حال ولا في يوم من الأيام إلى أن يضع المجاهدون المفلومون على قائمة أهدافهم أي استهداف هؤلاء الجنود الدروز بصورة خاصة، فالشعور بأنهم جزء من شعبنا العربي الفلسطيني ظل يرافق الجميع ولا زال، رغم كل ما حصل منهم، وقد جاءت عملية لزيوتون دون أن يكون معروفاً أنهم دروز، فالهدف الواضح والمحدد كان استهداف جنود الاحتلال، دورية من دوريات الاحتلال في سيارة جيب عسكرية رسمية، فيها جنود يلبسون زي جنود الاحتلال ويحملون سلاحهم ويتحدثون لغتهم، ويقومون بمهامهم، وبكل ما يقومون به بالالتزام والكمال دون نقص أو محاباة، وهذا ما تم استهدافه.

حين كانت تذكر حقيقة أنهم دروز، كنت أرى معاني الحسرة والألم في عيني إبراهيم، ولا شك بأنه كان يقول في أعماق نفسه: أه لو أنهم كانوا يهود!! وحين شاهدنا صور النساء من زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم يبكين موتهم على شاشات التلفاز، لم يستطع إبراهيم كتم زفرة حارقة خرجت من صدره على شكل تلوذ حارق ومؤلم، وفي نفس الوقت فقد تعللت لصوات الكثيرين من المثقفين الدروز الوطنيين التي تطالب بضرورة إقناع القليل الدروزي بالابتعاد عن الخدمة في جيش الاحتلال والعمل ضد الأهل في الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتكثيف بعض التجمعات التي تدعو لذلك.

الحوار في هذه القضية ذكر بجانب آخر منها وهو قضية خدمة الكثير من الشباب البدو والشركس في الجيش الإسرائيلي، حيث يعمل البدو كقصاصي لثر في الجيش الإسرائيلي ويقومون بخدمات كبيرة، ويقومون بمهام خطيرة ضد المقاومة في فلسطين، وفي جنوب لبنان ولا شك بأن قضية البدو أكثر حساسية من قضية الدروز، وأنها تخلق لزمات كبيرة لدى رجال المقاومة حين يجدون أن عملياتهم قد حصدت عدداً منهم بدلاً من حصدها لأرواح الجنود اليهود المحتلين الفلسطينيين.

كثيراً ما كانت تدور الحوارات التي تعمل وجهات نظر متناقضة بيننا ونحن نتناول هذه القضايا في النقاش إثر ورود خبر بحمل شيئاً من ذلك، لكن الجميع في النهاية كان

يخلص إلى الحقيقة بأن كل من بلبس زي الجيش الإسرائيلي، ويحمل سلاحه، ويقوم بمهامه، فإنه لا حرج من استهدافه بعمليات المقاومة.

ومما كان يزيد المحضلة تعقيداً أن التناقض كان كبيراً في مجتمع البدو في الأراضي المحتلة عام (٤٨)، فقد كان أئمة المساجد يرفضون الصلاة على هؤلاء القتلى وتشييع جنازتهم أو الدعاء لهم، والكثير من العائلات كانت ترفض لف توليت لها بالعلم الإسرائيلي أو أن تجري لها جنازات عسكرية رسمية. وإزاء كل ذلك كان إبراهيم يردد جملته المعتادة: انظروا إلى أي حد نجح اليهود في تجنيد جزء من أبناء شعبنا لحراسة أمنه.

مرة أخرى يطير عقل القادة الإسرائيليين من الجرأة والقوة التي يعمل بها عماد ومن الحرج الشديد الذي يمس به لهم، والذي سيظهرهم بمظهر الهاربين من غزة هروباً من المقاومة وليس خروجاً وفقاً لاتفاق سياسي مع جهة رسمية، فلكل المنطقة الجنوبية بجمع ضباطه من الجيش ومن المخابرات ويدق لهم على الطاولة قتلًا: أريد رأس عماد، كل العمل يجب أن يتركز على ذلك فيمثل الجميع ليقوموا بدورهم في ذلك.

آلاف الصور لعماد، بلحية وبدون لحية، بكوفية وبدون كوفية، بشعر طويل وبشعر قصير، بنظارات وبدون نظارات، يتم توزيعها على الجنود الذين ينشرون مثلث العواجز في كل أنحاء القطاع، يفتشون وينقبون ويذاهمون البيوت، وعلى رأسهم رجال المخابرات، رجال المخابرات من جانب آخر يتصلون بعملائهم، منهم من يستدعونهم إلى مكائهم، ومنهم من يقبلونهم بطريقة لتقائهم على جوانب الطرق النائية، يرون صور عماد المختلفة ويطلبون منهم مراقبة النشاط ممن يعتقد أن يكون له علاقة معهم، أو تردد عليهم والتبليغ الفوري عن كل حركة أو مطومة.

للكثير من النشاط أصبحوا تحت المراقبة شبه الدائمة وقد لاحظنا أن اثنين كانا يتبادلان مراقبة بلب الدار، والكثير من الدور والبيوت التي يعتقد أو يفترض أن عماد قد يتردد عليه وضعت تحت المراقبة.

أحد العملاء كان يراقب بيت "أبو نضال" في الشجاعة، فيبدو أنهم اشتبهوا بالبيت أو ألفت كلمة من أحد الأولاد الصغار في الدار لصديق له، يتباهى بقنوم عماد لبيتهم، وفي مساء أحد الأيام انسل عماد بهدوء إلى دار "أبو نضال"، فاستقبلته العائلة بالحسب والوفاء كما هي العادة، وسارعت لم نضال تجهز له الطعام، فقد كان يومها صائماً، ارتفع صوت أذان المغرب ورفع عماد إبريق الماء للفخاري إلى فمه، ليرتشف منه بعض

فطرات وهو يقول: اللهم لك صمت، وعلى رزقك... ففاجأ صوت نضال الذي دخل جاريًا: الحارة حوصرت، قوات كبيرة من الجيش تحاصر المنطقة. رد عماد الإبريق دون أن يذوق طعم الماء قاتلاً: لا رلاً لأمر الله قد يكون ذلك لمرأ روتينياً، ولكن دعونا ننتظر ونرى دون أن نرتبك، وصعد ليرقب المكان من عال.

القوات الخاصة لجيش الاحتلال بدأت تحاصر البيت بصورة خاصة، ومئات قوات البنادق تشهر وتوجه نحوهم، ومن ورائهم مثلت ومئات أخرى من الجنود ولترفع صوت مكبر الصوت منادياً على عماد أن يسلم نفسه فقد كشف أمره، ولا داعي للمقاومة، ليتسم عماد مردداً:

أي يومي من الموت لير
يوم لا يقدر لا أرحيه
يوم لا يقدر أم يوم قدر
ومن المقذور لا ينجو الخنبر

وسحب مسدسه عن جنبه وجهازه لإطلاق النار، وظل كامناً على السطح يرقب تقدمهم حين أبصر أحد الجنود يقترب من البيت بصورة جعلته في مدى إطلاق النار، وجه مسدسه إليه وأطلق عليه رصاصة، أصابته بين عينيه، فالتفتحت على المكان الذي أطلقت منه النار مئات البنادق الرشاشة ثم ساد هدوء مطبق، ظن الجميع أن عماداً قد انتقل إلى الرفيق الأعلى.

تقدموا مرة أخرى فقفز عن سطح البيت، وهو يطلق النار ويصرخ مكبراً: الله أكبر الله أكبر، ومرة أخرى التفتحت عليه النيران منهم، فتخرج جسده الطاهر بالنماء للزكية وفتفتحت أبواب السماء لاستقبال أحد أبرز رموز المقاومة الفلسطينية في التسعينات من القرن العشرين وظل الجنود يرقبونه عن بعد لا يجرؤون على التقدم ولو بخطوة واحدة، وجاء الصوت من مكبر الصوت منادياً على 'أبو نضال' أن يخرج من البيت فخرج، أمره أن يرفع يديه لأعلى فلم يفعل، أمره أن يتقدم نحو عماد الممدد على الأرض ليتفحصه، فالتفتحت عليه والدموع تنهمر من عينيه والبنادق موجهة نحوه والأوتار لكاشفة تجعل المكان مثل نور النهار، قلب أبو نضال جثة عماد الطاهرة، والتي كان الرصاص قد جعلها كالعصف المأكول، ووجد دمه الطاهر الزكي ينهمر ويروي الأرض تحت شجرة الزيتون التي تلت أغصانها عليه بحنو وحب، تحاول حمايته من نسمات الليل وظلمته وهوائه وقسوة العدو المجرم الأثم.

سرى الخبر في الوطن سريان النار في الهشيم، وخرج الناس إلى الأزقة والشوارع والساحات يتظاهرون ويهتفون، بالروح بالدم نفديك يا فلسطين، بالروح بالدم نفديك يا شهيد، بالروح بالدم نفديك يا عماد، وفتحت كل ساحات الوطن في مواجهة علزمة مع قوات الاحتلال وداعاً لروح المجاهد البطل عماد حسين عقل.

وصلنا الخبر في البيت، كما وصل كل البيوت في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم والجميع منا تفرق للدمع في عينيه، إلا إبراهيم الذي تجملت عيناه وتغير وجهه وفتقن وانفأ، كانت أختي مريم تقف على باب الغرفة، وقد تفرق الدمع في عينها، وعلى يديها ياسر وإلى حولها تقف إسماء وهي تنظر إلى زوجها، الذي صرخ بها قائلًا: هات السلاح يا مريم كلماته كانت كالصاعقة لهذه المرة الأولى التي يظهر إبراهيم حقيقة أمره بهذا القوضوح، ناولتني مريم ابنها ياسر وصعدت السلالم سريعة وعانت وببدها بندقية كلاشينكوف، وبضعة مفازن مليئة بالوصلات وناولتها لإبراهيم، وهي تسمح سمعها بطرف مندبها وتبسم.

تقول إبراهيم البندقية، ونحنى يقبل رأس إسماء ثم قبل رأس ياسر، ومصح دمة أخرى عن وجنة مريم وانطلق خارجاً من الدار وقلوبنا تدعو له أن يحميه الله ويرعاه ويسد خطاه، تذكرت حينها أمي وهي تهز سرير إسماء وتردد: هاتي مندبلي يا واقفة على الباب... هاتي مندبلي، هاتي لي سلاحي يا واقفة على الباب... هاتي لي سلاحي، ثم تذكرت صورتها وأنا أهبو إلى حولها وهي تهز سرير أختي مريم، وتردد نفس الكلمات، وأدركت كم تعني تلك الكلمات التي كنا نرضعها مع طبيب أمهاتنا ونحن نسمع كلمات تنغرس في أعماق نفوسنا، وتشجل مع كريات دمناء، تذكرت ذلك وأنا أرى مريم تلك الريحانة التي كنا نخشى عليها أن تنقص من نسائم الصبا، تسمح دموعها وهي تفارق فارس أحلامها ورجلها وأبناؤها، تناولوا السلاح وهي تسمح للدموع دون أن ترتجف لها جفن، ودون أن تلفظ كلمة ترد أو خوف أو تحسب، وتأكدت حينها أننا شعب قوي عظيم لا يمكن أن ينكسر أو يتراجع، أو أن روحاً عربية لا أدري كنهها تسري في كبائنا، فثبت فينا ذلك الاستعداد القريب للتضحية والقداء بأعلى ما نملك، وبظل صوت أمي يتردد في سمعي (هاتي لي سلاحي يا واقفة على الباب... هاتي لي سلاحي، أبدأ ما أوتاحي يا مهجة الفؤاد... أبدأ ما أوتاحي، لأعمل سلاحي وأقتل سفاهي وأصنع نجاحي بدمي والنار... هاتي سلاحي، هاتي سلاحي يا واقفة على الباب... هاتي سلاحي).

كانت سيارات كبار الضباط ورجال المخابرات والإداريين لقوات الاحتلال في قطاع غزة قد غيرت طريق دخولها وخروجها إلى غزة، فبدلاً من أن تسلك الطريق الوسط من المدينة نحو الشرق، والذي يمر من وسط الكثافة السكانية واكتظاظ الحركة في قلب المدينة وشرقيها، بدلت تتحرك نحو الغرب مروراً بشارع النصر حتى مفرق السودانية، تتجه غرباً إلى طريق البحر، وقد وصلت لإبراهيم معلومات عن تحرك أحد قادة قوات الاحتلال على هذا الطريق في ساعة محددة من أول الليل بصورة دورية، فقرر استهدافه كرد لولي ومربح لنقلنا لاستشهاد عماد.

في آخر شارع النصر حيث يتفرع طريق يتجه شرقاً إلى جباليا، وغرباً إلى نقطة السودانية على شاطئ البحر، وضعت قوات الاحتلال عدداً من الكتل الإسمنتية التي تجبر السيارات المارة على التوقف لتعطي الأولوية لدوريات الاحتلال، وقد هموا جدران وسياجات البيارات التي تحيط بالمفرق، وكان نظام منع التجول يسري منذ أول ثلث الليل. سيارات قوات الاحتلال كانت إما أن تأتي من الجنوب وحين تصل المفرق تخفف سرعتها وتتجه إلى الغرب، أو تأتي من الغرب وحين تصل المفرق تخفف سرعتها كذلك، وتتجه نحو الجنوب - شارع النصر إلى قلب المدينة وراء الأشجار والبرتقال كانت تلمع ست عشرة عيناً من وراء جذع كل شجرة، تلمع عينا لأحد المجاهدين، صف واحد من العميون في تلك الظلمة من وراء ثماني هوهات البنادق الرشاشة من كلاشينكوفات (أم ١٦) وقد انبطحوا على بطونهم على الأرض، وأصابعهم على الزناد، في انتظار قدوم الهدف المنشود.

سائق سيارة جيب عسكرية للدورية يأتي من الغرب يخفف سرعته وينعطف نحو الجنوب يسلط أضواء كشافة على الأشجار التي يخفي المجاهدون وراءها، فتحيل المكان إلى نهار يرتفع دقات قلوب المجاهدين، حتى تسمع عن بعد، فهذا ليس هو الهدف ولو انتبه الجنود ليرى عيون أحد المجاهدين أو يرى فتحة أحد البنادق، فسيفتحون النار على الأشجار، والأهم أن المهمة والعملية ستفشل ولن يتم تنفيذها، ولكن الله سلم، لمعطت سيارة للدورية ثم طارت مبتعدة عن المكان، بعد دقائق سمعت أصوات سيارات تهب الأرض نهياً، وبدأ صوت الفرائل يكبح كندفاع سيارتي الجيب عند اقترابهما من المفرق.

السيارة جيب عسكري حديث ممن يركبها كبار القادة العسكريين، ومن ورائها جيب عادي للحراسة، خففت السيارتان سرعتيهما وجاء صوت إبراهيم قائلاً: الله أكبر بسم الله... الله أكبر، وإذا بالبندق النمانية تفتح مرة واحدة كثيران جهنم على السيارتين.

بدأ المجاهدون النمانية يغيرون خزانات بنادقهم وهم يقفون ويتقدمون جرياً نحو السيارتين ليغروها مرة أخرى، ارتطم الجيب الأول بالكتل الإسمنتية، وتوقف ثم ارتطم الجيب الثاني بالسيارة الأولى وتوقف، وكل ما كان منهم من رد أن أحد الجنود في الجيب الثاني، فتح الباب الخلفي وأطل برأسه وبنادقه دون أن يتمكن من إطلاق رصاصة واحدة، انقسم المجاهدون لمجموعتين: الأولى انطلقت شمالاً في طريق زراعي فرعي حيث استقل أفرادها سيارة كانت بانتظارهم وانطلقوا نحو جباليا البلد، عند أحد الانعطافات في الطريق وعلى بعد عشرات الأمتار للأمام توقفت سيارة جيب للدورية، وبدأ أفرادها يضعون الحاجز ويشيرون للسيارة المتقدمة للتوقف.

صرخ إبراهيم على السائق: تظاهر بأنك تريد التوقف، وحين تصل انطلق بأقصى سرعة لديك، وأنتم أطلقوا النار على الدورية، وما إن اقتربت السيارة من الدورية، حتى كانت فرمات البندين قد أطلقت من زجاج السيارة الذي تحطم تحت وابل الرصاص، ولذي نهال نحو جنود الدورية الذين نهالت صيحات الذعر والرعب منهم، وتساءلوا على الأرض قتلى وجرحى وانطلقت السيارة بأقصى سرعة.

أحد الجنود كان مختفياً خلف سيارة الجيب، حين تجاوزته السيارة فتح ثيران بندقيته عليها، حيث حطم الرصاص الزجاج الخلفي للسيارة، فخفض الجميع رؤوسهم. إحدى الرصاصات مست رأس إبراهيم وجرفت شعره، انحطفت السائق في إحدى الشوارع الفرعية فإذا بالشوارع مسدود بالبراميل الإسمنتية، لربكك السائق يريد التراجع، وصرخ إبراهيم: توقف وانزلوا لتجاوز الحاجز، وتنطلق على أقدامنا، نزلوا وتسلقوا البراميل، وقفزوا للجانب الآخر عند أحد الأبواب لأحد البيوت الفاخرة، توقفت سيارة حديثة، نزل منها رجل عجوز وامرأته تقدم للمجاهدون منهم، طالبين مفاتيح للسيارة وهم يحدون بإرجاعها، الرجل كان يرتجف أمام أربعة مسلحين، اختطف السائق المفاتيح من يده وانطلق داخلها، وانطلقت السيارة بهم، والمعجوز لم تعد قدماء تهملاه فانهلر على الأرض.

قال أحد المجاهدين بعد مسافة هذه حقيبة سمسونيت ثقيلة، وقد وضعها على ركبته فإذا هي بعد أن فتحها مليئة بالرزق من الدولارات، عشرات الرزم، مبلغ يقدر بمليون دولار ضحك إبراهيم قائلاً: لن نستطيع العودة الآن، فلا شك أن قوات الاحتلال متصل للمكان، وعلى الرجل الانتظار حتى النهار، ومع إشرافه أول خيوط لأشعة شمس، انطلق أحد الشبان، عائداً لبيت الرجل، دق جرس الباب، فخرج الرجل، حياه الشاب بالسلام ونالوه مفتاح السيارة قائلاً: يشكرك المجاهدون شكراً جزيلاً، ويحتفون عن سوء التصرف، فقد كانوا مضطرين لذلك، للحقيبة كما هي في السيارة، أخرج واسلمها وأحسن ما فيها.

الرجل لا يصدق ما يحدث ويغمغم الحمد للرب في السماء، من أنتم من أنتم؟ حماكم الله ووفكم، والله إنكم تستحقون بأن ينصركم الله، انتظر يا بني انتظر، والشاب ينطلق مفادراً لا يلوي على شيء.

مع ساعات النهار الأولى نزل البيان بعلق على ما حدث، من عملية الانتقام لروح الشهيد البطل، وأعلنت أخبار الرتلجو عن مقتل عدد من جنود الاحتلال، بينهم قائد القوات الخاصة في جيش الاحتلال في قطاع غزة العقيد "مؤيد فنتز" فانطلقت الحشود تهتف: توبة للكتاب... كتاب عز الدين.

ثلاثة من مجاهدي الجهاد الإسلامي، يزرعون عبوة ناسفة في الطريق، التي تمر عليها قوات الاحتلال ومستوطنوه، في الضفة الغربية قرب قرية عنزة ويختفون في الظلام بانتظار مرور هدفهم، تأتي سيارة (G.M.C) مارة بالمكان، فيضغط عصام على المسلك الكهربائي على قلب البطارية، فيدوي الانفجار عاليًا، ويشتعل خزان الوقود، يقتل ثلاثة من المحتلين وينسحب المجاهدون، وبعد أيام توصل التحقيقات إلى معرفة المنفذين، فيعتقل اثنان منهم، وبفلت عصام الذي كان يواصل عملياته وأنشطته.

بعد فترة تصل قوات الاحتلال معلومات عن مكان لاختفائه فتخرج قوات كبيرة لمحاصرة المكان، تدعوه للاستسلام، دون مجيب وتبدأ بالقتال المكثف، فيطلق النار على القوة المتحصنة، فيقتل ويجرح منهم، ينسحبون وهم يجرون قتلاهم وجرحاهم، ثم يبدأون بقصف المكان حتى يدمروه ويتقدمون من جديد للاقتحام ويفتح عليهم نيرانه من جديد، فينسحبون وتبدأ عملية تدمير كاملة للبيت وتمسد روح "عصام براهنة" الطاهرة لجنت النعيم.

ثلاثة من المجاهدين يستقلون إحدى الحافلات في القدس وهي مكتظة بالركاب الإسرائيليين يشهرون أسلحتهم وعبواتهم، ويظنون للركاب أن الحافلة مختطفة، كان الهدف هو التفاوض لتحرير الأسرى الفلسطينيين من سجون الاحتلال، انطلقت إحدى الرصاصات من مصدر غير معروف، فأصاب أحد المجاهدين وسقط على أرضية الحافلة، حدث ارتباك وفوضى واصطدمت الحافلة بأحد أعمدة الكهرباء، أطلق المجاهدان النيران، قتلا لبعض وأصابا آخرين، ثم نزلا من الحافلة وأوقفا سيارة مارة واستقلها مع سائقها، وطلبا منه الانطلاق نحو الجنوب عند الحاجز العسكري، المنسوب عند الخروج من القدس نحو بيت جالا وبيت لحم، قصف الجنود المحتلون السيارة بالصواريخ على كل من فيها.

إبراهيم يُنبر طريقة للسفر والوصول إلى رام الله، هناك التقى ببعض إخوته المجاهدين، وعلى الفور خرج برفقة اثنين منهم بسيارة إلى منطقة معسكر عوفر العسكري قرب رام الله، لاحظوا سيارة من المستوطنين، تجاوزوها بسرعة وهم يطلقون النار، فقتلوا راكبيها، وانسحبوا للاختفاء حيث هزعت قوات الاحتلال، تحاصر وتفتش دون جدوى.

بعد أيام انطلقوا على طريق القدس - رام الله بحثاً عن هدف جديد، كانت سيارة للمستوطنين قد توقفت إثر عطل أصاب أحد إطاراتها، ونزل راكبيها الثلاثة لتبديل الإطارات، مروا بهم سريعاً وهم يطلقون النار عليهم فقتلوا الثلاثة، وانسحبوا مسرعين لمغادرة المنطقة التي فرض عليها حظر التجول، وقد جن جنون مغامرات الاحتلال، فقامت بحملة اعتقالات واسعة في صفوف الناشطين في المنطقة، عليها تجد طرف خط يتود إلى الفاعلين.

لأحد المعتقلين كان "عبد المنعم" شاب في مطلع العشرينات من العمر، ناشط وفاعل في الانتفاضة، تعرف في الأيام الأخيرة على إبراهيم وإخوانه المجاهدين ودربوه على السلاح على أمل أن يبدأ العمل الجهادي خلال الأيام القادمة، بعض زملائه الثيبان ممن اعتقلوا، خدعوا عند مصائد الجواسيس في التحقيق واعترفوا على أنفسهم، وعطيه بفعاليات وأنشطة قد يحكمون عليها ما لا يقل عن عشر سنوات، اشتد التحقيق على عبد المنعم حول اعترافات أصحابه وهو ينكر ذلك، أخذوه للمصالحير فلم يفلحوا في خداعه، جمعه مع أصحابه ووضعوا لهم أجهزة التنصت والتسجيل دون جدوى، وقد كان حذراً من كل ذلك، وكان فور حديث أحد أصحابه معه حول شيء ما، كان يصرخ عليه زاجراً منكراً معرفته له.

اشتد التحقيق عليه دون جدوى، أحد المحققين دخل عليه وبدأ يسأله على حرية مرضعاً أنه يعرف أن عبد المنعم يرفض الاعتراف، لأنه لا يريد أن يبقى في السجن، ولكن لأصحابه اعترفوا عليه، وسبق في السجن خمس عشرة سنة، سواء اعترف أم لا يعترف، وبدأ يسأله، بحيث أنه إذا وافق على التعامل معهم فإنهم حينها سيطلقون سراحه، وتركه يفكر في الأمر ويتخذ قراره، جلس عبد المنعم في زفرائته وحيداً يفكر، الله أكبر قد حانت لحظة حمل السلاح والبدء بالجهاد المسلح، وأداء الواجب وإنشاء الفيل، وقبل أن أفعل شيئاً، تأتي هذه الحبسة على غير موعد في أسوأ توقيت، يا الله يا الله ماذا يحدث لي؟ هل أوافق على التعامل معهم كي أفلت من السجن؟ وبالطبع سأسرع إلى شق طريق الذي اخترت؟ فكر مرة ومرة ومرات واتخذ قراره.

حين جاء المحقق مرة أخرى ليسأله عن رأيه، أعلن موافقته، فأنفهم ذلك المحقق الذي بدأ يتودد إليه مظهراً للمصادقة أنه سيتم عرضه بعد أيام على المحكمة العسكرية التي ستقرر الإفراج عنه، كي لا يثور الشك حوله، وكي يستطيع أن يقدم بعمله، بعد أيام انفتح باب السجن ووقف عبد المنعم خارجه، تنسم الهواء الطلق ويقسم بالله يميناً أنه لن يخون ولن يهون ولن يساوم، انطلق إلى أحد البيوت ليخبر صاحبه أنه يريد رؤية أحد المجاهدين بأسرع وقت لأمر ضروري جداً.

وبعد ساعات جاء الرجل ليخبره أن عطيه الانتظار في شارع محدد في ساعة من المساء، تنتظر هناك، حيث جاءت سيارة فيها إبراهيم وعبد الرحمن وانطلقت، أخبرهما بما كان وأن هناك موعداً له مع ضابط المخابرات، حيث سيأتي يوم الأربعاء الساعة الخامسة مساءً في شارع محدد في بيتونيا ليأخذه من هناك،

سينتفاهم معه على العمل المطلوب منه لإنجازه، واقترح أن ينصبوا له كميناً هناك، حيث تطلق عليه النار وعلى مرافقيه.

في الموعد المحدد كان عبد المنعم يسير على الشارع، جيئةً وذهاباً وراء سور حديقة خير مرتفع ببيت مهجور، كمن إبراهيم وعبد الرحمن ويبد كل واحد منهما بندقية كلاشينكوف بانتظار اقتراب سيارة المخابرات، وعلى الشارع الخلفي المقابل، كانت سيارة تنتظر بسائقها للتسحاب الفوري من المكان، أطلقت سيارة مرسيدس تحمل لوحة ترخيص عربية من بداية الشارع، فحث عبد المنعم خطاه كي تتركه السيارة، مقابل الكمين الذي أعده وإخوانه، توقفت السيارة قبالته، وفتح بابها ليدخل إليها، وتقدم عبد المنعم إلى السيارة، للخطوة أنه حين تتوقف السيارة ويصل إلى جوارها فإن عليه الانحناء على الأرض، حيث ستفتح على السيارة نيران بندقيتي كلاشن، لكنه لم يرم ولمصل السير، حتى وصل السيارة، ومد يده إلى حزامه، وسحب مسدسه وأطلق النار مباشرة إلى رأس ضابط المخابرات فحطمه، وصوب نحو مرافقه، لكن السائق انطلق بالسيارة بأقصى سرعة، حينها فتح عليه إبراهيم وعبد الرحمن نيران رشاشيهما ثم انطلق الثلاثة يسارعون لمفارقة المكان بالسيارة، التي انطلقت بسرعة لفقدان المكان.

عبد المنعم اختفى في قرية قريبة، وإبراهيم وعبد الرحمن انطلقا للاعتقاد إلى الخليل وسحبطها جن جنون مخابرات الاحتلال نتيجة للصفعة التي تلقتها، والتي هزت مسورتها ومست كبرياءها وطار رجالها يحملون كل ما يمكن لضبط أو قتل عبد المنعم ومن شاركوه.

عبد المنعم كان اسماً معروفاً ومحددأ عندهم، وزعوا صورته على جنودهم وحولجزهم وعملياتهم وبدأت عملية البحث والتنقيب عنه، وقد نجح أحد العملاء في تشخيصه في بلدة قريبة، فاتصل بمشغليه من رجال المخابرات الذين طاروا ليصطادوا فريستهم، انطلقت سيارة شحن متوسطة الحجم تحمل الخضراوات يقودها رجل يلبس الملابس العربية المشهورة، ويغطي رأسه بالكوفية السوداء، وإلى حواره يجلس شخص آخر يلبس نفس الملابس وراء الحافلة التي استقلها عبد المنعم وصديقه زهير، توقفت الحافلة عند أحد المحطات في بلدة الرام، وترجل منها عبد المنعم ومرافقه، توقفت الشاحنة فجأة، ومن وراء صندوق الخضراوات قفز أربعة عشرة الجنود من أفراد القوات الخاصة الذين شهبوا أسلحتهم مطالبين عبد المنعم ومرافقه بالاستسلام، ورفع الأيدي، وبدلاً من ذلك أشهبوا سلاحهما وبدأ بإطلاق النار، فعاجلتها رصاصات قوات الاحتلال وسقطا شهيدين، وارتفعت روحهما إلى جنات الخلد في مقعد صدق عند مليك مقتدر، في هذا الوقت كان إبراهيم برفقه المجاهدين في الخليل، يحضرون لتنفيذ عملية

فدائية أخرى، عندما سمعوا الأخبار استقلوا سياراتهم وانطلقوا إلى طريق يؤدي للقدس، حيث تكثر حركة سيارات المستوطنين ودوريات الاحتلال تحديداً بالقرب من مفرق تلة خارصينا التي تؤدي إلى كريات أربع.

على الطريق أوقف أحد المستوطنين سيارته، ونزل هو وأولاده في انتظار إحدى السيارات المسافرة للقدس، لتأخذ أحد أولاده للمعهد الديني، الذي يدرس فيه في القدس، انطلقت سيارة المجاهدين لتمر عن المستوطنين، حيث فتح المجاهدون قنار عليهم من بنادقهم مضطوا يفرقون بدعائهم، قتل المستوطن واثنان آخران، وأصيب آخران، وانطلق المجاهدون ليغامروا المكان إلى إحدى القرى القريبة للاختباء بها حتى تهدأ حملة التفريشات.

هرعت قوات الاحتلال للمكان تحاصره وتقرض حظر التجول، الخليل لم تهدأ خلال هذه الفترة فكلما رفع نظام حظر التجول وتمكن المجاهدون من الحركة، رصدوا أهدافاً جديدة وخرجوا للانقضاض عليها فلا يمر أسبوع أو أسبوعان إلا قتلوا وجرحوا من جنود المحتلين ومستوطنيه.



الفصل السابع والعشرون

هل هلال شهر رمضان، وانتشرت مع حلوله روح الطهارة والعبادة، حيث يكثر عدد المترددين على المساجد بصورة خاصة، وتحديدًا في صلاة الفجر، حيث يخرج الناس للصلاة، بعد أن يكونوا تناولوا طعام سحورهم.

أعداد كبيرة من المصلين تتوافد إلى الحرم الإبراهيمي، يجتمعون في الحرم، يصطفون استعداداً للصلاة، ينهي المؤذن رفع الأذان، فيقف المصلون ليؤدوا صلاة ركعتي سنة الفجر، وينتظر المؤذن بعض الوقت، ثم يقوم الإمام، فيقوم المؤذن بقم الصلاة ويقف للناس يصححون صفوفهم ويترأسون بين يدي الله، يكبر الإمام تكبيرة الإحرام فيكبر المصلون، ويبدأ صوت الإمام يتلو الفاتحة: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)^١ فيأتي صوت الجمع هادراً آمين، فيسود صمت مطبق ثم يبدأ الإمام بقراءة آيات من مطلع سورة الإسراء: (وقضينا إلى بني إسرائيل لنكسفن في الأرض مرتين ولتعلمن علوماً كبرياً)^٢ ثم يكبر الإمام ويركع ويرفع من الركوع ويكبر ويسجد، وبينما جميع المصلين ساجداً بين يدي الله، يشال أحد المستوطنين طويل اللقمة بلحيته الشعاء ويقف على باب المسجد، يرفع يده ويبدأ بإطلاق النار على رؤوس وظهور المصلين وهم سجد بين يدي الله تعالى، ويبدل القذرة مرة ومرتين وثلاثاً، وصوت الرصاص يتعالى والعشرات من المصلين يلقون ربهم، وهم سحود، حيث ترتفع أرواحهم الطاهرة إلى الملأ الأعلى من حالة السجود بين يدي الله والعشرات يتخرجون جرحى بدمائهم.

يفيق بعض الشبان من هول الصدمة فيقفزون إلى أنبوبة الإطفاء الحديدية، حيث يحملها أحدهم، ويطير بها نحو القاتل الأثيم، ويهوي بها على رأسه ليحطم جمجمته ويهشم رأسه، وترتفع أصوات التكبير، وتبدأ عملية إخلاء الجرحى والشهداء.

يعلن الوطن كل الوطن الحداد على شهداء الحرم الإبراهيمي الشريف وتخرج الجماهير للتظاهر احتجاجاً على المجزرة البشعة، فلا تجد إلا رصاص قوات الاحتلال لها بالمرصاد في كل لزقة وشوارع الوطن.

^١ سورة الفاتحة آية (٧)

^٢ سورة الإسراء آية (١)

وكان جيش الاحتلال قد نسي أن حكومته وقعت اتفاقية مع الجانب الفلسطيني قبل تسليح معنوده، تقضي ببده التسليمها من غزة وأريحا كمقدمة لاتفاقات سلام، ويحصد رصاص جيش الاحتلال لأرواح العشرات، كما يتسبب بإصابة المئات ويخيم السواد على فلسطين التي أشغتها الجراح والآلام.

وفي نفس الوقت، في أحد بيوت قرية بعبد القسام وفي أحد بيوت بلدة قباطية، في كل واحد من البيتين يلتقي ثلاثة من الشبان، يضعون أيديهم على المصحف ويتعاهدون ويقسمون إلا يهدأ لهم بال ولا يستقر لهم حال حتى يقتسموا لدم الشهداء في حرم إبراهيم الخليل، وبعد أيام معدودة تقترب سيارة خاصة من إحدى الحافلات المليئة بالركاب في مدينة العفولة، تدخل للخط الأخضر تصطدم بها بقرة، وحينها تنفجر السيارة انفجاراً هائلاً يؤدي إلى تحطيم الحافلة، ومقتل خمسة من ركبها وإصابة العشرات منهم وفي العارة، وإحداث أضرار بالغة في المكان.

وبعد أيام أخرى يقترب شاحب يحمل على وسطه حزاماً ناسفاً من موقف للحافلات في مدينة الخضيرة، ويفجر نفسه بين الوقوف، حيث يقتل عدداً منهم، ويجرح العشرات ويحدث أضراراً بالغة، وتنزل للبيانات تؤكد أن هذا جزء من الرد على مجزرة الحرم الإبراهيمي، وقتل المسلمين الساجدين بين يدي الله تعالى، وأن البقية ستأتي.

في مدينة الخليل ينسحب عدد من المجاهدين بعد أن كمنوا لإحدى سيارات المستوطنين، وأطلقوا عليها ثلار، ينسحبون للاختفاء في إحدى الشقوق في بناية سكنية كبيرة بمدينة الخليل، وقد كانت قوات الاحتلال ومخابراته في حالة استنفار بعد الضربة الشديدة والمتلاحقة التي شنها عليها المجاهدون، وقد شاهد أحد العملاء المجاهدين وهم ينظرون للبناية خلال لحظات كان مئات الجنود من قوات الاحتلال وعلى رأسهم كبار القادة والعسكريين والأمنيين يحاصرون البناية وآلاف الجنود ينتشرون في المدينة وبدأت مكبرات الصوت تنادي طالبة من المجاهدين الخروج من البناية والاستسلام دون جدوى.

طالبت قوات الاحتلال السكان إخلاء البناية، ولقاء خروجهم نفقت هوية كل الخارجين واحتجزت البعض منهم ثم نادت مرة أخرى تطالب المجاهدين في البناية للخروج دون مجيب، تقدمت قوات راجلة لتقوم بتمشيط البناية، فتحت عليهم نيران رشاش كثيفة، فعلا صراخ الجنود، وقد أصيب بعضهم وجاء الرد بإطلاق النار المكثف من مئات فوهات البنادق المصوبة نحو البناية، ثم ساد الصمت.

انتظرت قوات الاحتلال بعض الوقت ثم تقدمت وحدة أخرى نحو المبنى، ففتحت عليها النار من جديد، وعلا الصراخ ورددوا على النار بنيران جهنمية ثم ساد الصمت، واستدعت قوات الاحتلال إحدى جرافاتها الضخمة، حيث تقدمت نحو البيت للبدء بهدمه، بعد عملية قصف مكثف، تقدمت الجرافة وبدأت تطحن الجدران، وفجأة وبمرعة البرق أطل أحد المجاهدين من بين الحظام وهو بصوب بندقيته نحو سائق الجرافة وأطلق النار على رأسه، فتوقفت الجرافة وقبل أن ينتبه الجنود وقادتهم لما حدث، كانت الأرض قد انشقت وابتلعت.

انفتحت النيران الرشاشة والقذائف الصاروخية على المبنى من جديد، استمر الحصار وعمليات الكر والفر ثلاثة أيام بلياليهن، وكلما اقتربت قوات الاحتلال من المبنى، انفتحت عليهم النار من جديد، وفي نهاية الأمر دمروا البناية تدميراً كاملاً، حيث لم يبق حجر قائم على حجر آخر، ثم جاءت الجرافات للبحث عن جثث المجاهدين للتأكد من وفاتهم. عاد إبراهيم إلى غزة في الأيام الأخيرة قبيل تسليم السلطة للرسمي للقطاع حيث نقلت وجود القوات الإسرائيلية، وباتت غزة شبه خالية من وجود المحتلين وقواتهم ومؤسساتهم، حيث إن الوضع الأمني أصبح أكثر استقراراً، والخشية في مطاردة قوتهم ورقابة عملاتهم قد انخفضت بصورة كبيرة، وقد استقبلناه في الدار بالأحضان والعمىون الدامعة من الفرحة بعونه سالماً.

عند عودة إبراهيم كانت مريم شخصاً آخر، غير مريم التي ودعته، وكأنها كانت قد اختزن رقتها وعواطفها ومشاعرها لحين عودته، فالفجرت بالبكاء، ولم تعد قدماها فادرة على حملها فحاولت الاستناد إلى الجدران، ثم انسابت عليه قاعدة على الأرض، لمي كسرت عزلتها وصمتها وخرجت جارية لاستقبال إبراهيم، تقبله وتحنس جسده وهو ينكب على يديها ليقبلها.

ومن هذه الليلة عاودنا الجلوس في غرفة أمي، والاجتماع لديها وبصورة طبيعية، فقد ناقشنا تلك الليلة عودة أخويننا ماجد وخالد، ولين وكيف ستمتقبلهما؟ وقد كنا في حرج من طرح ذلك أمام أمي، ولكنها كانت للمرة الأولى التي نجتمع فيها بهذه الصورة منذ جانا الخير كنا في حرج لذا فقد كان حديثنا في ذلك متقطعاً، وأحدنا لم يتمكن من قول فكرة مكتملة وواضحة لمستم أمي قائلة: كنكم تعتقدون أنني لا أريدهما في الدار عندنا، أنا لا مانع لدي من استقبالهما هنا، وأن يمكننا معاً على لرحب والسعة، فهما عندي مثل أي واحد منكم، وهذه الدار واسعة.

كلمات أمي هذه أزلحت عن صدورنا ثقلاً لا يعلم به إلا الله، فقد كنا نخشى أنها سترفض ذلك وأن جزءاً من عزلتها نائس من شعورها بأن أبناء حُرمتها الذين أطلوا فجأة سيجنسون لها في دارها وبين أبنائها، وافقنا على أن نفرغ لهما غرفتي مؤقتاً، ولما كنا مع أمي في غرفتها حتى نتكبر الأمور بشكل أفضل، كما ناقشنا موضوع السلطة وقومها وصلاحياتها وطبيعة التعامل معها من قبل القوى المعارضة.

وبالطبع فقد كان محمود يتبنى نظرة واضحة وحسنة، أن هذه السلطة هي إرث عن منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ومعنى ذلك أنه يجب أن تكون هناك سلطة واحدة يخضع لها الجميع، وقراراتها وسياساتها واتفاقياتها تلزم الجميع. وهنا كان حسن يحتك وهو يناقش بأن مشروع أوسلو مرفوض من قبل قطاعات وقوى كثيرة في الشعب الفلسطيني، وهو تفرط بالثوابت الوطنية الفلسطينية، وأنه لا يلزم أحداً غير من يريد الالتزام به، أما المقاومة فهي حل من أمورها، فأحد لم يشاور فصائل المعارضة في ذلك، ولم يتم انتخابات أو استفتاء شعبي عام للفلسطينيين في الداخل والخارج على مثل هذا الاتفاق، ولأن يمكن لمحمود أن يطالب قوى وقطاعات ترى في الاتفاق تفرطاً بالحقوق والثوابت أن تحترم هذا الاتفاق، وتلتزم به.

فيما طعمه محمود بأن اتفاق أوسلو هو اتفاق مرحلي وأن غزة وأريحا هي البداية وأن هذا الاتفاق عليه شهود دوليون، وليس من صالحنا كفلسطينيين ونحن نسعى لكسب الاحترام والتعاطف الدوليين، أن نظهر وكأننا لا نحترم الاتفاقيات ولا نلتزم بها.

فيهب حسن مقاطعاً بأن من وقع الاتفاق يمكنه احترامه والالتزام به، أما من لم يوقع، ولم يسأل عن رأيه، فليس هناك ما يمكن أن يجبره على الالتزام. فيبتسم محمود وهو يقول: بل إن الأوامر ستفرض عليكم الالتزام والاحترام للسلطة وللاتفاقيات التي وقعتها، فيصرح حسن أن أحداً لا يمكن أن يفرض علينا ذلك، فوضحك محمود قائلاً: إن لم يلتزم بعضا موسى، فسيلتزم بعضا فرعون غداً، حين يأتي عشرات آلاف المقاتلين من الخارج، ويتم تسليم عشرات آلاف آخرين في الداخل، ستري من يستطيع أن يخرج على القرارات، فيصرخ حسن : إذا مبادئ من مبادئ من الخارج لقمع المقاومة ووقف العمليات ضد إسرائيل.

بضمك محمود قللاً: تستطيع أن تسمي الأمور كيفما شئت أن تسميها نحن نسميها، إن هناك مصلحة وطنية عليا وفرصة تاريخية ليصبح لنا كـفلسطينيين كيان ميامي بعد عشرات من سنوات الاحتلال، هذه الفرصة وهذه المصلحة العليا يجب علينا أن نحميها، وأن نفرضها ولو كان البعض من المتحمسين الذين لا يرون أبعد من أطراف أنوفهم، سيتاجرون بهذه الفرصة، ويخاطرون بهذه المصلحة، فسنجد المبرر الأخلاقي والقدرة المادية على ضبطهم ومنعهم من ذلك، فيقول حسن: يا خسارة... يا خسارة ها هي إسرائيل تتجح في تقويت صفنا للفلسطيني من جديد، بعد سنوات من الوحدة في ظل الانتفاضة.

فصرخ محمود: أنتم من تريدون تقويت وحدة صفنا الفلسطيني، فلماذا لا تطون للقيادة فرصة في هذا المشروع... فقاطعه حسن: وأي فرصة وفرصة لماذا؟ فرصة لأن يفلت اليهود من ضغط المقاومة التي بدلت تجبره على دفع الثمن باهظة كل يوم من لأرواح جنوده ومستوطنيه، وإن تنقسم داخلياً... قاطع محمود: وإلى متى سستمر هذه المقاومة إلى متى؟ فيجيبه إبراهيم بهدوء وثقة: حتى يضطر الاحتلال للخروج والرحيل دون شروط، ودون التزامات من طرفنا يا محمود، دون أن نصبح شركاء للمحتلين في اتفاقيات تعترف بشرعية وحقيقة وجودهم على أرضنا، فصرخ محمود: هذا كله مؤقت ولا يلزمنا حين تتغير موازين القوى... فقاطعه إبراهيم بصوت هادئ: ولكن ما الحاجة إلى الاتفاقيات أنت تترك ولنا أدرك، وكل مرلقب ومتمتع يدرك أن إسرائيل إذا لم تجد طرفاً تتفق معه ليستلم المسؤولية في قطاع غزة والضفة الغربية ومع استمرار المقاومة والأثمان الباهظة التي يكلفها البقاء هنا، فسندرج مهرولة إذا، فلماذا الاتفاق معها؟ ولماذا إعطوا سلم النزول؟ والأهم لماذا هذه القيود التي توضع على السلطة التعاون، الأمن، التنسيق المشترك والدوريات المشتركة، والتنسيق والارتباط؟ لماذا كل هذا وبإمكاننا فرض قواعد أخرى للمعادلة؟ يخرجون هم هروبا تحت ضربات المقاومة، ونحن نظل محروين من كل الالتزامات ومن كل هذه التشكيلات والمسميات والتعقيدات.

يقول محمود حينها: ألا يكفي أن الاتفاقية ستسمح بعودة عشرات آلاف اللاجئين من قوات المقاومة وعائلاتهم، يرد إبراهيم: هذا شيء جيد، وأنت تعرف أن كل فلسطيني يسر بعودة كل لاجئ إلى أرض الوطن، ونحن منضغ كل واحد منهم في مأقي المعيون، ونقطع لقمة العيش من أفواهنا لنوفر لهم فرصة للحياة على أرض الوطن، ولكن هذا لا يمكن أن يكون المقابل لذلك الثمن الباهظ ويتوفر سلم النزول للاحتلال بخروج مشرق، وفق اتفاقية بدل للهروب الدليل تحت ضربات المقاومة وبالاتفاقيات الموقعة والتي عليها شهود دوليون التي تعترف بالكيان الصهيوني وحقه على الجزء الأكبر من ترابنا.

يقول محمود: ولكن هذا كله مجرد بداية، وخلال فترة ستتم المفاوضات على الحل الدائم، وأنت تعرف أن أي اتفاقيات توقع عليها اليوم من موطن الضعف لا يمكن أن نلزمنا في المستقبل حين تتغير معادلة موازين القوى.

نقوم حينها مريم وهي تقول العمدة أنه إن اجتمع شملنا من جديد عندك يا لمي، كي نسمع نقاشاتكم السياسية من جديد، دعوني أذهب لأعد لكم الشاي، حينها يقول حسن: يا أخي أنا غير قادر لأن لهم قضية واحدة وهي لماذا تصرّون على الحديث عن المفاوضات، حتى أنكم تتحدثون عن مفاوضات الحل الدائم، وهذا يعني أنكم ستفاوضون مع اليهود فقط، بل في أن التفاوض سيكون على تطبيق القرار (٢٤٢).

يعني أن اليهود قد ضمنوا حدود دولتهم لما قبل الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ وأنهم سيبدعون بمفاوضات على تطبيق القرار، يعني أنهم سيففاوضونا على القدس الشريف وعلى عودة اللاجئين، وعلى تفكيك للمستوطنات، وعلى خط الحدود يعني أنهم ضمنوا أكثر من ٧٥% من أراضي فلسطين التاريخية، وسيبدلون بمنازعتنا على أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة... قاطع محمود: لا هذا غير صحيح، فهذا كله منصوص عليه في القرار (٢٤٢) وهو مضمون وحتى هذا كله فهو مؤقت، حتى تتغير موازين القوى... قاطع إبراهيم: صحيح الله يفتح عليك، والانتفاضة والمقاومة كقيلة أن تجبر إسرائيل على الانسحاب دون التزامات منا لا بالاعتراف بها ولا بالتعاون الأمني والتسقيق والارتباط، ولا بتحويل المعركة من معركتنا كفلسطينيين معها إلى معركتنا الداخلية.

يقول محمود: هذا كله الآن لن يجدي نفعا والمطلوب الآن من الجميع أن يلتزم بوحدة المصلحة أن نحلي الفرصة لما حدث، كي نرى النتائج، ضحك إبراهيم وقال: وكان مصير الشعب ومستقبل القضية هي حقل تجارب، نحلي الفرصة ونتنظر لنرى النتائج، الأمور لا تسير بهذا الشكل، نحن بهذه الطريقة نقامر بنضحيات ودم الشهداء في مقاومة نتائجها معروفة ومضمومة، واليهود لا يمكن أن يعطونا شيئاً إلا وأحدثنا على رقابهم، وبنلق للمقاومة تحصدهم، صرخ محمود قائلاً: ماذا نقول يا رجل؟ إذا كانت الحسابات بهذه الصورة فلن إسرائيل فائزة على سحقنا في دقاتي، ضحك إبراهيم قائلاً: إذا فلماذا لم نسحقنا لن مركبات المعادلة ليست مركبات قوة عسكرية مادية بحتة يا محمود، فإسرائيل تدرك أن وراعنا أمة عربية وإسلامية، صحيح أنها مفككة، ولكنها لو استخدمت ضدنا القوة بصورة زائدة فلن موازين الكون ستقلب، إسرائيل غير قادرة على سحقنا لأنها تدرك أنها محكومة بمعادلات كثيرة، وكسر أي معادلة منها تعني أنها ستسحق هي الأخرى كذلك.

بدأت أفواج القادمين من الخارج من رجال المقاومة والثورة الفلسطينية تدخل قطاع غزة، خاصة عن طريق المجر الحدودي مع مصر، وقد أُنست فرحة الجميع بعودة القادمين خلافاتهم السياسية والفكرية، وانطلقت الزغاريد في الكثير من البيوت الفلسطينية بعودة الآباء والأبناء بعد سنوات طويلة في غربة الشنات والترحال بين الدول والأقطار، وشاركنا الجيران فرحتهم بعودة أبنائهم، وانتظرنا عودة أخويننا ماجد وخالد، فقد كنا من آخر من سيقدّمون.

هبطنا للدار لاستقبالهما، حيث نقلت أغراضني لغرفة أُمي، وجهزنا لهما سريرين وما يلزم من أدوات وملابس ضرورية، ثم خرجنا لاستقبالهما في الموعد المحدد على الجانب الفلسطيني في نقطة الحدود مع مصر، انتظرنا خروجهما ولم نكن نعرف من ننتظر بالضبط حيث لا صورة عننا لهما، ولكننا شخصناهما بسرعة من خلال نافذة الحافلة التي ألقتهما، فكونهما توأمين جعلنا نعتقد بالتشابه بينهما، بالإضافة إلى الملامح التي تميزنا جميعاً، وتجل بيننا قسماً مشتركاً من التشابه.

صرخت حين لمحتهما: خالد، ماجد، فالتفتنا، ورفعت يدي ملوحاً، صرخت على إخوتي وإبراهيم هاهما وانطلقت نحو الحافلة، وأنا ألتصق بهما، ومن خلفي محمود وحسن وإبراهيم، ونحن نمد أيدينا لنسلم عليهما، وهما يتفليان من اللوفاذ، وعيونهما تترققان بالدمع فأخيراً بعد سنوات من التشرد واليتم والقطيعة، هاهي عائلتهم تستقبلهما بكل حب ومودة. قلبي كان يخفق بقوة وتلاحق للحظات كنت أشعر أنني لكاد أَسْقُط مني علي وأنا أحتف لنا أحمد وكل واحد من الآخرين بحرف على نفسه، أنا محمود، أنا حسن، أنا محمد، أنا ابن عمك إبراهيم وقبل أن تتعلق بالحافلة بسرعة صرخ إبراهيم: سنبقيكما بالسيارة وأول وهولكما إلى السرايا ستكون عندكما إن شاء الله، لو حابأيديهما وسارعنا إلى السيارة لنلحق بالحافلة.

من يدخل إلى شقته يحمل منها فراشاً وأغطية وطعاماً وشراباً، ويخرج بهما طالباً من إبراهيم أن يوصله إلى مبنى السرايا ليوصل ذلك للمقاومين الجدد من قوات السلطة، يمكن سيمكتون في السرايا للدولام أو من ليس لهم أهل ليعودوا إلى بيوتهم، يدخل إبراهيم كذلك لشفقة ويخرج محملاً ويخرج محمود محملاً يحملون ذلك كله على سيارة إبراهيم التي تتطرق إلى السرايا. هناك عند السرايا لمئات بل الآلاف من المواطنين. يحملون لفراش والأغطية والأطعمة، ويدخلون ليسلموها للرجال الذين انبهرت عيونهم مما يرون من كرم شعبهم، ففعلت عيونهم بالدمع.

بدأت السلطة الفلسطينية تستلم زمام الأمور في قطاع غزة، وقررت شؤونها تدريجياً، وبدأت إسرائيل تطلق سراح عدد من السجناء الفلسطينيين المستجزين في سجونها منذ سنوات، ولكن الأعداد أقل بكثير من المتوقع، ثم إن السلطات الإسرائيلية بدأت تتحدث عن تصنيف الأسرى إلى مجموعات مختلفة، فهؤلاء من تنظيم مؤيد لعملية اتفاقية لوسلو، وهؤلاء من تنظيم معارض والمعارضون لن يطلق سراح واحد منهم، وهؤلاء على أيديهم دم، وأولئك ليس على أيديهم دم، ومن على يديه دماء، فلن يطلق سراحه.

هذه التصنيفات أصبحت على لسان كل مواطن فلسطيني فما من بيت فلسطيني إلا وله أسير أو سجين في سجون الاحتلال، وقد أبلل الجميع أن يتم إطلاق سراح ابنهم عند توقيع الاتفاقيات ولكن الأعداد التي أطلقت محدودة.

إبراهيم يتفق مع "صلاح" الذي لازال يدرس في جامعة بيرزيت على خطة عمل لمحاولة حل جزء من هذه المشكلة، صلاح يخرج للضفة الغربية إلى نابلس، حيث يلتقي بالمجاهدين المختفين هناك، وعلى رأسهم يحيى، والاثنان الذين نجوا من اشتباك مدينة القدس قبل أشهر، ويناقش معهم الخطة، أحدهما "حسن" يجد أن تطبيق الخطة ممكن، ويطلب استدعاء اثنين من معارفه من مدينة القدس، للاستعانة بخدماتهما فليكن بعد ساعات، أحدهما "زكي" يؤكد أن لديه (فيلة) بعيدة عن العيون ومناسبة لاحتجاز الجندي الذي سيخطف، ومن سيلزمونه أثناء احتجازه، ويؤكد إمكانية تردده على البيت دون إثارة أي شبهة لتزويدهم بالطعام والأخبار ومجاهد يؤكد سهولة إمكانية حصوله على سيارة للقيام بعملية الخطف، وأنه مستعد لقيادتها، أثناء المهمة، وسهولة حصوله على سيارة لنقلهم إلى منطقة القدس، حيث (الفيلة) التي سيصرفه عليها زكي، ويفادر زكي ومجاهد مساء السبت، لأخذهم إلى تلك (الفيلة).

وبالفعل فعند مساء السبت حضر مجاهد وهو بفرد شاحنة نقل، حيث أخذ للمجاهدين الثلاثة "صلاح حسن وعبد الكريم"، معهم أسلحتهم وبعض أمتعتهم وانطلق بهم نحو القدس في بلدة بيرزيت، الفيلدة الوداعة الساكنة في (فيلة) فائقة، أنزلهم بعد أن زودهم بما يحتاجون إليه وانفترق معهم على أمل العودة في الغد للقيام بالمهمة.

يوم الأحد العصر عاد إليهم بسيارته حيث اصطحبهم وأسلحتهم الخفيفة، وانطلق بهم إلى القدس القريبة، في الطريق يقف أحد الجنود يشير للسيارات المارة، طالباً نقله إلى حي مسكنه، توقفت السيارة، سأل هل هم متوجهون لمنطقة سكنا، فأجابوه باللغة العبرية

بالإجبار ودعوة للركوب فصعد إلى السيارة بعد عدة أمتار من الانطلاق، شمر في وجهه أكثر من مئتين، وطلب منه التزلم الصمت حرصاً على حياته، فليس الهدف قتله، ولكنهم يريدونه حياً لتهديله بالأسرى فلا يتصرف بغوغائية، فينسيب بقتل نفسه.

لنفت السيارة بعد أن تم شد وثاقه وتغطية رأسه إلى بيرنابالا، حيث دخلت إلى المرآب الخاص بالبيت. تم إزال الجندي إلى إحدى الغرف في الطابق الثاني، حيث غطيت النوافذ بالمستلتر السمكة، وقد تم تصويره بكاميرا فيديو، وأحد المجاهدين يقف وراءه وهو يطلب حكومته بالاستجابة لمطالب الخاطفين، محاهد أخذ الشريط، وأخذ بندقية الجندي، وبطاقة هويته إلى مدينة غزة، وفي مكان متوق عليه من قبل وضعها، حيث أخذها إبراهيم من هناك، وتم تصوير شريط فيديو لأحد المجاهدين الملتزمين بعرض فيه بندقية الجندي وبطاقة هويته الشخصية ويطلب فيه بإطلاق سراح خمسمائة من السجناء الفلسطينيين في سجون الاحتلال، على رأسهم الشيخ أحمد ياسين، وتم إرسال الشريط إلى أحد الصحفيين الذي وزعه على وكالات الأنباء.

وخلال ساعة كانت شبكات التلفزة والأخبار تبث ذلك. في اليوم التالي تم توزيع الشريط الثاني الذي يحمل صورة الجندي والذي يميل للحكومة الإسرائيلية حتى مساء الجمعة لتنفيذ المطلوب وإلا سيتم قتل الجندي، بدأت أجهزة الأمن وقوات الاحتلال في حملات محسومة من التفتيش والمداومات، بالإضافة إلى العمل الاستخباري المكثف، ولأن الشرطة المصورة صدرت في غزة فقد توجهت الحكومة الإسرائيلية إلى سلطة الفلسطينية، طالبت منها الوفاء بالتزاماتها والاتفاقيات التي وقعت عليها، والعمل على البحث عن الجندي وإعادته حياً ومعاقة خاطفيه، بعد قيام أجهزة أمن السلطة بالتحقيقات والتفتيشات المطلوبة توجهت للحكومة الإسرائيلية مؤكدة بشكل قاطع، بأن الجندي لا يحتمل في أماكن سيطرتها.

يوم الخميس بعد حلول الظلام، ودخول الليل، داهمت قوات كبيرة بيت محاهد، في بلدة (بيت حنونا) واعتقلته حيث تم نقله إلى معسكر للجيش قرب رام الله، وهناك أخضع لتحقيقات قاسية جداً يظهر مدى حسرتها أن رئيس جهاز الشاباك آنذاك توجه إلى الجهات القضائية المستولة لاستصدار إذن منها، يسمح باستخدام كافة أساليب التعذيب الجسدي والنفسي والعصبي ضد المعتقل، لإجباره على الاعتراف. وانفتح الجحيم على رأس محاهد، يريدون الجواب على سؤال واحد، أين وضعت الجندي، والأمر غير قابل للإنكار أو التجوار أين الجندي؟ بعد الفجر وبعد ساعات طويلة انتزعوا منه الاعتراف عن مكان إخفاء الجندي.

بعد غروب شمس يوم الجمعة، وبعد أن أدى صلاة المغرب في المسجد الأقصى فطلق "زكي" بسيارة حيث توقفت لشراء بعض الكفاة المقدسية، وأخذها معه وانطلق بسيارته إلى بيرنبالا، حين دخل البيت حاملاً معه عليه الكفاة، أكل منها المجاهدون وأطعموا الجندي المحتجز معهم سألهم زكي عن احتياجاتهم فأجابوا بالنفي فغادرهم مُسَلِّماً فطلق بسيارته ومن خلفه انطلقت سيارة تحمل عدداً من أفراد القوات الخاصة، عندما توقفت عند حاجز الرام للفحص انقضت عليه جنود القوى الخاصة، بشهرون السلاح وبنشلوته من سيارته، وبقيون كل شيء فيها، مفتشين عن أي شيء يخدمهم.

قبل الساعة الثامنة بدقائق معدودة، بدأ عدد كبير من أفراد القوات الخاصة بالزحف نحو البيت انقسموا قسمين: للفريق الأول بدأ بالتسلق إلى الشرفة التي تتصل بالمطبخ الطابق الثاني، ليقتحموا منها إلى الداخل، والفريق الثاني يحدث الانفجارات في نفس اللحظة، واستعد عشرات الجنود المنحجبين بالسلاح للاقتحام، في نفس الوقت من الاتجاهين حدثت الانفجارات واندفع الجنود جرياً للأمام.

من اقتحموا من باب المطبخ كانوا الأقرب للخرفة التي احتجز فيها الجندي وجلس فيها المجاهدون، مع دخولهم انفتحت عليهم نيران رشاشة كثيفة من بنائق المجاهدين، كما انفتحت النيران على الفريق الثاني الذي اقتحم الطابق الأرضي، قتل على الفور قتلة وحدة الاقتحام، وأصيب ثلاثة عشر من أفرادها، وقتل الجندي المخطوف، ومن كثافة النيران والقصف داخل المبنى استشهد المجاهدون الثلاثة.

بعد أيام معدودة "بحي" بجيز حزماً نفساً، بضعه صالح حول وسطه، وينطلق برفقة أحد أعوانه عاصم ليوصله إلى قلب تل أبيب، يستغلان الحافلة التي تنقلهما إلى تل أبيب من المحطة المركزية في تل أبيب يستغل الحافلة رقم (٥) التي تنطلق إلى وسط تل أبيب وعندما يصبح في وسط شارع ديزوكوف، يضغط صالح على الزر الكهربائي، المتصل بالحزام على وسطه فينوي الانفجار محولاً الحافلة إلى قطعة من الصاج الملتهب، حيث يقتل ما يزيد عن العشرين، ويصيب العشرات ويحدث دماراً كبيراً في المنطقة.

أجهزة التنفزة نقلت صوراً حية ومباشرة في ساحة العملية بعد حدوثها بوقت ليس طويلاً، الرعب الحقيقي في العيون ومنعت حالات الهلع وفهيارات عصبية، فلم يكن أحد من المحتلين يعلم أن يرى مثل هذا الموت والدمار في وسط مثل أبيب وكانوا يظنون أنهم قادرون على زراعة الرعب والموت ونشره في مدننا وقرانا ومخيماتنا، فإذا بالسحر ينقلب على السامر ومن يزرع شوكاً لا يحصد إلا شوكاً.

التحقيقات والاعتقالات التي جرت عقب عملية نيزينكوف، طرحت اسم يحيى من جديد، وأصبح اسمه رمزاً للرعب لدى المواطن الإسرائيلي، كما هو رمزٌ للقلق والخوف لدى القادة السياسيين والعسكريين والأمنيين، وبدأت المداهمات لبيت أمه تتزايد والمراقبة على قريته وعلى كل من يعتقد أنه على علاقة بمن له علاقة يحيى تتكثف، وأصبح واضحاً أن إمكانية استمرار وجوده في الضفة الغربية التي لا تزال تحت الاحتلال الإسرائيلي صعبة وشبه مستحيلة، لذا قرر يحيى الانتقال إلى غزة لفترة، حتى يختفي فيها عن العيون في مكان آمن، ثم يعود بعد حين، تعرفت عليه عند إبراهيم حين كان يأتي للشقة عنده، بعد أن رحل الظلام الذي يستره، فلا يتمكن أحد من تشخيصه.

في أحد الأيام سمعت إلى شقة إبراهيم لأراه في حاجة، فطرفت الباب ودخلت فوجدت عنده شاباً هادئاً صامتاً خجولاً، قليلاً ما يتكلم، وإذا تكلم التفتت في كلامه إلى أقل ما يمكن. لكن لم يكن من الصعب عليّ أن أشخص أنه من الضفة الغربية، وليس من غزة من لهجته، حيث أننا في قطاع غزة ننطق بحرف القاف بطريقتين، إما مثل حرف الجيم المصري وهذا نطق غالبية أهل قطاع غزة، وإما ننطقه كمادة المدنيين أهل المدن الأساسية كالمزة، أما غالبية أهل الضفة الغربية بنطقونه مثل حرف الكاف، وعلى الفور ومنذ نطقه لأول حرف قاف في الحديث، شغصته أنه من الضفة الغربية، ولم أنسا أن أخرج إبراهيم بالسؤال عن اسمه، ومكان سكته، ولكنني عرفت يومها أنه من الضفة الغربية، فيما بعد رأيت كثيراً ما يتردد على إبراهيم، وبيت عنده، وبعد فترة حضرت زوجته وابنه، حيث كانوا يستقرون عند إبراهيم لبعض الأيام، ثم يغادرون لفترة ثم يعودون. إبراهيم كان يفسر ذلك بأنه صديقه من الضفة الغربية يعمل هنا في غزة، ولتوفير السفر والجهد والمال، يضطر للمبيت أحياناً عنده حتى يتكبر أمور سكته الجديد.

استدعى أحد مسئولي جهاز الأمن الوقائي إبراهيم لمكتبه لمحاورة في بعض الأمور التي تتعلق بطبيعة التصرف والسلوك في ظل وجود السلطة الفلسطينية في غزة. عاد الرجل وكرر عشرات المرات أن الواقع الآن يختلف عنه إبان فترة الاحتلال، الآن يوجد سلطة فلسطينية وهي صاحبة الصلاحيات، وهي ملتزمة وموقعة على اتفاقيات عليها شهود دوليون ورقابة دولية ولا يجوز تجاوزها، ثم يؤكد أنهم يعرفون أن إبراهيم ناشط وأنه معارض لاتفاقية أوسلو، وأن له آراء حادة تجاهها وتجاه السلطة، وهم يعرفون كل ذلك عنه، وأنه تحت مراقبة الجهاز، وفي بؤرة اهتمامه وهم لا يريدون منه أي حركات أو أعمال تخرج السلطة وتجعلها تبدو كمن خرق الاتفاقيات.

أجابته إبراهيم بأنه لا يخفي حقيقة معارضته لاتفاقية أوسلو، وكل ما فتح عنها، وأنه يعتبر ذلك عجزاً في قدرة الاستعمار السياسي للأحداث وأنه على قناعة بأن خطراً استراتيجياً ارتكب بالتوقيع على اتفاقية أوسلو، والخطر في ذلك هو الاعتراف بإسرائيل مقابل ثمن كانت ستدفعه أصلاً بدون أن تبض منا أي شيء، فقط كان المطلوب منا الاستمرار في المقاومة، سيضطر الاحتلال للهروب من مناطقنا دون أي ثمن سوى الهروب من ضغط المقاومة.

قاطعه الرجل لسنا بصدد الحوار السياسي في صحة التوقيع على الاتفاقية أو عدم صحته فهذه ليست مهمتي، أنا مهتم الآن هي أن نفهم أنك يجب ألا تخرج على شرعية السلطة، وألا تتدخل السلطة في حرج حين تظهر بأنها غير ملتزمة بتحقيق الأمن وضبط الأمور في المناطق التي تسيطر عليها.

انقسم إبراهيم وقال: أرايت؟ مقابل شيء كانت إسرائيل ستدفعه بصورة تلقائية تحت وقع المقاومة، مطلوب منا أن ننقسم إلى فريقين: فريق يريد أن يواصل المقاومة، وفريق يريد أن يوقف المقاومة حرصاً على الوفاء بالالتزامات والاتفاقيات التي وقع عليها... قاطعه الرجل قائلاً بعصبية: الآن ليس هناك فريقان، هنا سلطة هي المسئولة وهي التشريعية، وهناك مواطنون يجب أن يلتزموا بما تقرر السلطة؛ لأن فيه المصلحة الوطنية العليا للشعب الفلسطيني، ويجب على الجميع... قاطعه إبراهيم قائلاً وهو يبتسم: هون عليك، لم العصبية نحن نتحدث ونشاور انقسم الرجل قائلاً: نعم نعم، ولكنك تعرف أننا الآن في بداية طريقنا نحو تحقيق أهدافنا الوطنية بإقامة دولتنا المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، ويجب علينا أن نحرص على تحقيق هذه الأهداف وألا نتصرف بشكل يؤثر علينا في طريقنا لتحقيق هذه الأهداف.

ابنسم إبراهيم قائلاً: أمل أن تتحقق أهدافنا التي ذكرت، وأهدافنا الأخرى كلها، وإن كنت على قناعة تامة بأنها لن تتحقق بالصورة التي طرحت، أي من خلال التفاوض فقط، يمكن تحقيق ذلك من خلال فوهة البندقية فأعدونا لا يفهمون غير لغة البارود والنفار، وستثبت لك الأيام خطأ السير في هذا الطريق، وإن تطول الأمور حتى حصول ذلك، نأتي عقب التفاوض على الحل النهائي... وحينها قاطعه الرجل قائلاً: حينها يخلق الله ما لا تعلمون، أما الآن فأرجو أن نكون قد فهمت هدف طلب حضورك، وأرجو منك الالتزام، وألا توقعنا لفت وأصدفائك في الحرج بين نيران خرق الاتفاقيات التي وقعت عليها السلطة، وبين الاضطرار لاعتقالكم وإداعكم في السجون، ابنسم إبراهيم وهو يقوم هالماً بالمخادرة... وهو يغمغم: الله يقدر الخير الله يقدر الخير.

شاب من الجهاد الإسلامي يلبس للزي العسكري لجيش الاحتلال يحمل حقيبة ناسفة على ظهره يتقدم بخطى ثابتة نحو المقصف الذي يتجمع عنده عشرات الجنود، عند مفترق بيت لبد، يفترق جمع الجنود حتى يصبح وسطهم، يضغط على الزر الكهربائي، فتفجر حقيبته انفجاراً هائلاً يوقع عدداً من القتلى، وأعداء من الجرحى، ويرفع للصراخ والمويل، بعد دقائق يتدفق الجنود والمسعفون، ورجال الأمن، والشرطة والمحققون، ويجمعون في المكان، حينها يسارع شاب آخر من الجهاد الإسلامي كذلك يلبس للزي العسكري لجيش الاحتلال كذلك ويحمل حقيبة ناسفة يسارع إلى الجمع، وكأنه أحد المسعفين أو الجنود الذين سارعوا للمكان، يصبح بين الجمع، ويفجر حقيبته هو الآخر، فيدوي الانفجار يصم الأذان فيقتل المزيد ويجرح الكثيرون ويلحق الدمار بدمار آخر ومن بعيد يقف المسعفون والجنود ورجال الأمن والشرطة يرتجفون وينظرون كل واحد منهم للآخر، بخوف وشك حيث قتل خمسة وعشرون جندياً وجرح الكثيرون.



الفصل الثامن والعشرون

مع خروج أمي من عزلتها وعودتها للسمر بغرفتها، علنت من جديد إلى إثارة قصة زواجي وقد كنت تشغلت عن الأمر، ومع إلحاحها وتكرار إثارتها وذكرها للأمر، وافقت أن تبحث لي عن الفتاة التي تمجبتها، وبالفعل فقد كانت كلما مرت عدة أيام تعرض عليّ ما رأيك بنت فلان وبينت علان وأنا لا أعرف تلك الفتيات ثم تجيب هي، لا بنت فلان قصيرة قليلاً، ولا بنت علان بشرتها تميل للسواد قليلاً، ثم تعاود البحث والخروج شبه اليومي، لمعاودة البحث والتتقيب، وأخيراً اهتكت إلى فتاة نالت إعجابها، وعرضت عليّ الأمر، وقمت معها بزيارة بيت أهلها، فأعجبتني وخلال فترة بسيطة أقمنا الخطبة وعقد قران والزواج.

بعد أن عرض إبراهيم عليّ أن ألتزم معه شقته في هذه الفترة تقلص تردد ذلك الشاب الضفائي "يحيى" علينا، وحين كنت أسأل إبراهيم عنه، كان يجيبني بأنه مستأجر بيتاً واستقر فيه، ولم يعد بحاجة للسكن عند إبراهيم، ولكن كان يتردد ضيقاً لبعض الساعات.

في هذه الفترة تردد شاب اسمه "عبد الواحد" من نابلس على الجامعة الإسلامية حيث التقى بإبراهيم ويحيى، وقد قام يحيى بتدريبه على طريقة تحضير المتفجرات المعروفة حينها باسمها للحركي (أم العبد) وكيفية تحضير الأحزمة والعبوات، فهم عبد الواحد منهم المطلوب جيداً وطار عائداً إلى نابلس حيث استأجر شقة، واشترى المواد والأدوات اللازمة، وبدأ بتحضير المواد مستعيناً بأحد إخوانه، ثم بدأ البحث عن شاب لديه الاستعدادية للشهادة، وعمن يستطيع أن يوصله إلى عمق إحدى التجمعات الصهيونية في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨.

ومع ظهر يوم (١٩٩٥/٧/٢١) سجد شاب فلسطيني في مقتل العمر، إلى إحدى العائلات الإسرائيلية في (رمات جان) وبعد انطلاقها بقليل من الوقت فجر نفسه فيها، قتل خمسة وأصاب ثلاثة وثلاثين، وفي نفس الوقت كان عبد الواحد قد عكف على تحضير الحزام الثاني والبحث عن استشهادي جديد، أعد كل شيء كاملاً للتنفيذ، والحزام جاهز والاستشهادي جاهز ومن سيوصله للهدف جاهز، وكل ذلك جاهز مع بعضه البعض للانطلاق.

بعد أيام وبينما عبد الواحد يقف ليقوم باتصال هاتفي من إحدى الهواتف العمومية هاجمته قوات خاصة من قوات الاحتلال، حيث اعتقلته واختطفته إلى أحد مقرات التحقيق.

هناك على الفور بدأ التحقيق معه حول كل شيء عن العملية التي حصلت، وعن أي تمهيدات أخرى. ساعات بعد ساعات والأيام تلاحقها الليالي، والعذاب ينصب على رأسه سبباً وهو ينكر أي علاقة له بالأمر حرصاً على مرور الوقت حتى يتمكن الاستشهادي الثاني من تنفيذ العملية.

قبول موعد العملية للتنفيذ، اعترف للمحققين عن العملية التي تمت، فخرجوا سعداء بما حققوا من نصر ونجاح لمسئولهم، ليخبروهم أنهم انتزعوا الاعتراف من مخطط العملية الاستشهادية.

غابوا قليلاً وإذا بالانفجار الثاني يأتي متوياً، حيث صعد شاب إحدى الحافلات في القدس (رمات أشكول) وفجر نفسه فيها لقتل خمسة وأصاب مئة وثلاثة، وبينما يتفاجئ المحققون بما حققوا من نجاح في انتزاع الاعتراف من عبد الولاد، فإذا بأجهزة الاتصال على أحزماتهم تنق، وإذا بالرسالة الإلكترونية تخبرهم عن عملية استشهادية جديدة بنفس مواصفات العملية السابقة، فخرجوا إلى عبد الولاد، وقد انهالوا عليه ضرباً وركلاً وهو يضحك في أعماق قلبه وهم يصرخون: خدعتنا ضحكت علينا، أنت من يقف وراء ذلك!! وهو يتشم ويهز رأسه إيجاباً.

مع هذه العمليات في عمق للكيان الصهيوني، وجد قائده أنفسهم في حرج كبير فهم بين نارين، نار هذه العمليات التي تضرب عمقهم وتزلزل أركانهم وتهز شعور كل واحد منهم بالأمن والاستقرار، وبين نار الضغط من اليمينيين المتطرفين لديهم والذين يرفضون تسليم مزيد من المناطق للسلطة، ولكنهم كانوا على قناعة تامة بأن الحل الوحيد لهذه العمليات هو الهروب من التجمعات السكنية الفلسطينية، وتسليمها للفلسطينيين الذين سيكونون الأقدر على وقفها فخرج قادة للكيان يطعنون صراحة أنهم سيواصلون العملية السلمية، كأن شيئاً لم يحدث، آثار نائرة المتطرفين وأحزاب ومنظمات اليمين، فخرجت المظاهرات العارمة في القدس ونال نهييب ضد الحكومة وضد تسليم المناطق للسلطة وضد للرضوخ لما أسماه بالإرهاب الفلسطيني وبرز للمدبون من الحاخامات اليهود ورجال الدين الذين حرموا تسليم الأراضي للفلسطينيين، والتفلي عنها للسلطة وبدأ الغليان يتأجج كل يوم والحكومة والأجهزة الأمنية تزداد قناعة أن خير شيء للتخلص من كرة الحجر هذه إلقاؤها في حجر سواهم ليتكبدوا أمرها.

كنا نجلس في غرفة لمي تشاهد التلفاز ونرى ما يحدث من تطورات، إبراهيم كان يتشم وهو يرقب الأخبار، مما أعاظ "محمود" فثار متسائلاً: ما الذي يدعوك للابتسام؟ هل يمكن أن أفهم سبب ذلك؟ ضحك إبراهيم قائلاً: أرى المازق الذي أدخلنا فيها أعداءنا؟ فتسأل محمود: أي مازق؟ نحن الآن في مازق!! فضحك إبراهيم قائلاً: نحن الآن في مازق؟ ما بالك يا رجل تُرى حالة الانقسام الرهيبة التي وصل إليها الشارع الإسرائيلي، وحالة الغليان والتوتر التي تصود بينهم، حتى يكاد أحدهم يقتل الآخر، وكيف أن قادتهم ورغم العمليات يخرجون بصرخون أنهم سيواصلون العملية السلمية؟ هل أنت تعتقد أنه لو لم تكن مثل هذه العمليات من المناطق التي لا تزال تحت سيطرة قواتهم، وهم غير قادرين على منعها، بينما المناطق التي خرجوا منها قد هدأت، ولم تعد تخرج منها عمليات كهذه، هل تعتقد أنهم كانوا سيتركونها؟

قال محمود: نعم، فهذا هو الاتفاق، ضحك حسن وقال: أنت وأهم يا أخي، وأنت لا تعرف هؤلاء الناس، منذ متى يعطوننا حقوقنا طواعية؟ منذ متى اعترفوا بهذه الحقوق أصلاً؟ ومنذ متى التزموا بالاتفاقيات والعهود، وكذلك لم تسمع الآية (لوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) صرخ محمود قائلاً: أنتم تريدون أن تتسبوا كل شيء لكم، فأنتم سبب كل نجاح، هكذا تريدون تصوير الأمور باسم إبراهيم قائلاً: نحن نصف واقعاً يا محمود، الانتفاضة هي التي أجبرتكم على الاعتراف بنا وبحقوقنا، قبل الانتفاضة بأيام كان اسمنا سكان المناطق، وبعد استمرار شهرين صار اسمنا فلسطيني المناطق، ثم صار اسمنا فلسطينيين، ثم اضطروا للجلوس مع منظمة التحرير التي كانوا يعتبرونها منظمة إرهابية وتغريبية، وها هم قد خرجوا من القطاع، ولرى حالهم تحت ضربات المقاومة يعلنون أنهم سيخرجون من الضفة الغربية...

قاطع محمود قائلاً: ولكن ألا تتركون أن هذا من الممكن أن يقلب الأمور رأساً على عقب ويخرب العملية السلمية كلها؟؟ ضحك حسن قائلاً: يا ليتها تغرب وتذهب إلى الجحيم صرخ محمود: هذا ما تريدون أنتم تقامرون بمستقبل القضية وبالمصالح العليا للشعب الفلسطيني، فالانسحاب الإسرائيلي من الضفة الغربية وشيك، وإعلان الدولة الفلسطينية قريب وأنتم تفتنون هذه العمليات بهدف التخريب على ذلك.

أي التزامات يلتزم إبراهيم قاتلاً: اسمع يا محمود نحن سبق وتناقشنا في هذا الأمر، فنحن نعتقد أن اتفاقية أوسلو هدف استراتيجي، وهي السلم لنزول الاحتلال عن الشجرة التي كان سيقلي بنفسه عنها، لو لم تصنعوا لهم هذا السلم، كان سيخرج هارباً من غزة والضفة دون اعترافات من... قاطعه محمود قاتلاً: لقد قلت أن هذا مجرد تكتيك، وهو يخدم مرحلة نحن فيها للضعفاء حتى تتغير قواعد وموازين القوى... قاطع إبراهيم قاتلاً: نحن نختلف معكم في هذا ونرى أنه خطأ، لكن نحن الآن ننطلق من نقطة أخرى غير تلك النقطة حول صوابية أو خطأ أوسلو، نحن الآن ننطلق من استمرار العمليات من المناطق التي لا تزال تحت الاحتلال تسيطر عليها، مع الهدوء النسبي في المناطق التي انسحبوا منها، وسلموها للسلطة هو غير وسيلة لتعديل اتساعهم من تلك المناطق، وعدم مبالفتهم في ذلك... قاطع محمود: يعني أنت تريد أن تكسب تحرير كل شبر من أرضنا لكم ولماؤمكم، وليس لحكمة وخبرة المفاوض الفلسطيني... قاطعه حسن قاتلاً: ما حاجة المفاوض وحكته، أصلاً كانوا سيهربون من غزة والضفة، ألم تسمع وتشاهد الأخبار، ألم أنك في عالم آخر! أثناء هذا الحديث كان خالد وماجد يجلسان معاً وعيونهما تحقن في المتحدثين وتجري من روية فم المتحدث لقم من يبدأ الحديث، وهما في غلبة الدهشة، الأمر الذي أثار انتباه مريم فقالت... ماذا دهلكم يا خالد وماجد؟ فردوا بصوت واحد: آه ماذا؟ فقالت: ما بالكما مدهشان؟ وعيونكما تحقن في كل من يتحدث، قال خالد: للصحيح أننا لأول مرة نسمع نقاشاً سياسياً بمثل هذا الهدوء، والله إنكم في الأراضي المحتلة على قدر ممتاز من الوعي السياسي والإطلاع على مجريات الأمور.

أحد المتطرفين اليهود يكمن لرئيس الوزراء الإسرائيلي "سحق رابين" ذي الماضي العسكري الحافل ومسنده مشهور بالرصاص، يريد قتل رابين عقاباً له على خيانتته بتسليم الأراضي للفلسطينيين. يخرج رابين من ساحة احتفال ضخم رقب لإظهار التأييد والدعم الشعبي له في العملية السلمية، يحيط به حراسه، فينطلق إليه من بينهم المتطرف (الرجال عمير) ويشهر مسنده ويطلق الرصاص عليه فيرديه قتلاً.

كنا نهم بالانصراف من غرفة أسي والانتقال إلى غرفتنا، حيث أصبحت الساعة متأخرة، وفجأة طلعت البرامج التلفزيونية ثم بث خبر إطلاق النار على رابين، وأنه نقل إلى المستشفى، قمنا بالجلوس لتتابع تطورات الخبر بترقب ولهفة، وبعد وقت أعلن عن موته، لم يكن بيننا واحد غير سعيد على مقتل رابين، أحد الجزائريين الأقطاط، الذين أجزموا بحق شعبنا على مدار السنين، فليس هناك من ينسى تاريخه القريب حيث أمر بممارسة سياسة كسر العظام، ضد المواطنين الفلسطينيين إبان الانتفاضة، وليس هناك من ينسى دوره في احتلال القدس عام ١٩٦٧، وغير ذلك من الجرائم بحق شعبنا وأمتنا،

ولكن "محمود" كان في حالة من القلق على مستقبل العملية السلمية، حيث أن راين بقوة شخصيته، وتاريخه الحافل في خدمة إسرائيل وصناعة استمراريته كان الأقدر على السير بها في طريق العملية السلمية.

صلبة اغتيال راين قلبت نتائج استطلاع للرأي في الشارع الإسرائيلي، فقبل الاغتيال كانت تلك الاستطلاعات تشير إلى تقدم اليمين على اليسار في الانتخابات القادمة التي اقترب موعدها وبصورة تؤكد احتمالية فوز اليمين بالحكم بعد الاغتيال؛ ولأن القتل كان محسوباً على اليمين المعارض لخط راين وسياسته، انقلب الشارع الإسرائيلي، وتحولت استطلاعات الرأي لصالح اليسار بحيث أصبحت هذه الاستطلاعات تشير إلى فرص فوز "شمعون بيرس" خليفة راين وحزبه في الانتخابات القادمة.

يحيى مختف في أحد البيوت، في مشروع بيت لاهيا السكني. المخابرات الإسرائيلية نجحت في تحديد هذا البيت، وأوصلت عن طريق أحد عملائها جهاز هتف نقال لصاحب البيت فأصبح الجهاز تحت تصرف يحيى الذي استخدمه للاتصال بعائلته في الضفة الغربية. حدث عطل في الجهاز، فأخذه صاحبه للتصليح، ثم أعاد ليحيى ليتصل بوالده.

يوم الجمعة (١٩٩٦/١/٥) ومع أول كلمات يقوله بها انفجر الجهاز وهو يضعه على أذنه، ففجر رأسه، وسجلت بذلك المخابرات الإسرائيلية نجاحاً باهراً في حربها ضد المقاومة، وبذلك سارع صاحب الدار ليتصل بالمجاهدين ليخبرهم بالمصيبة التي حدثت، فسارع عدد منهم من بينهم إبراهيم إلى البيت في بيت لاهيا ليعاونوا ما حدث، وتفرقت الفروع في العيون.

خلال ساعات كان الخبر قد وصل إلى كل بيت من بيوت الوطن، الذي يحق يحيى من أعمق قلبه، فقد حل يحيى المهتمس يحيى عياش في نفوس وقلوب المعذبين في فلسطين، والمحبين على امتداد العالمين العربي والإسلامي، وحرك مشاعر العزة والكرامة التي لم تتحرك منذ أمد بعيد، حين تمكن من ذلك معالي العنجهية في عقر دارها، زارعاً الرعب والهلوع في النفوس، مسجلاً أرقام معادلة جديدة في الصراع مع الاحتلال الغاشم. انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وخرجت الجماهير في كل الوطن إلى الشوارع تسأل وتحاول التأكيد لا تكاد تصدق ما تسمع، فقد عدا يحيى أسطورة وتصرخ وتهتف وتهلل.

في اليوم التالي خرج قطاع غزة عن بكرة أبيه ليودع يحيى إلى مثواه الأخير، تحولت غزة إلى بحر متلاطم الأمواج من الجماهير، تودع الشهيد تهتف للشهداء بالفداء وبالروح وبالم، وتصرخ الانتقام الانتقام.. يا كائنات القسام.

عبد الرحيم ابن خالتي فتحية كان قد اتفق مع بعض إخوانه من شباب المسجد على تشكيل خلية عسكرية للبدء بمقاومة الاحتلال، إكمالاً لمشواره مع الشهيد أبو رشدي، وقد تأثر عبد الرحيم تأثراً بالغاً جراء اغتيال الشهيد الذي أصبح عند غالبية شباب قنوة ومثالاً، فقرروا بدء العمل انتقاماً لدمه الطاهر.

خرجت سياراتهم إلى الطريق العام الواصل بين بيت لحم والخليل، حيث تكثر حركة السيارات العسكرية، وسيارات المستوطنين، ومقابل بلدة (بيت أمر) وجدوا أمامهم سيارة بيضاء تحمل لوحة ترخيص تشير إلى أنها سيارة عسكرية لأحد الضباط، انطلقت السيارة وراءها بسرعة، وبدأت بتجاوزها، بينما فتح عليها عبد الرحيم نيران بنديته الرشاشة من نوع كلاشنكوف، وأحد أصدقائه بدأ بإطلاق النار من مسدسه، وما إن تجاوزا السيارة حتى كانت قد انحرفت عن الطريق وارتطمت بجوانبه، حيث قتل فيها طبيب عسكري برتبة عقيد وجندي يرافقه، حينها شعر عبد الرحيم أنه قد أدى شيئاً من واجبه تجاه دم الشهيد.

في أحد البيوت القروية في بلدة (المطر الغربي)، قرب مدينة خان يونس، جلس أربعة من المجاهدين من بينهم إبراهيم يخططون للرد القاتل الموجه للاحتلال على جريمته، في ليل اليوم التالي زحف عدد من المجاهدين، يحملون حقائب على ظهورهم، ويجرون إلى جانبهم سلعاً خشبية طويلة حتى اقتربوا من الأسلاك الشائكة للجدار الفاصل بين قطاع غزة (شرقها) عام ١٩٤٨ كانوا في الظلمة لوقت طويل حتى تأكدوا من خلو المكان من الكمائن من قوات الاحتلال، ثم قام اثنان بجريان نحو الجدار يحملان السلمين، نصبا السلم الأول بصورة شبه عمودية وأسنداه أقدامهما، بينما الثاني قد بدأ بتسلقه وهو يمسك بيديه السلم الثاني الممسند على الأرض، وحين ارتفع على السلم السعودي، بدأ برفع السلم الثاني، وبينما هو يحاول إلقاء طرفه إلى الجانب الآخر للحاجز الحدودي لطلت من بعد أضواء سيارة جيب دورية، فسمعهم سريعاً، أخفيا السلمين بسرعة البرق، ومسحاً آثارهما بوساطة عصف شجرة، ثم لفتها وراء كتيب من الرمال في اللحظة الأخيرة قبل وصول ضوء الكشاف الذي تسلطه دورية المراقبة.

مرت الدورية وابتعدت فانطلق المجاهدون ينصبون السلم الأول وأحدهم يعلو عليه ويلقي بطرف السلم الثاني للجانب الآخر من الحاجز الحدودي، ثم يربط رأس السلمين ببعضهما حيث يجري ثلاثة من المجاهدين على ظهر كل واحد منهم حقيبة ثقيلة، صاعدين السلم الأول ليتركوا السلم الثاني للجانب الآخر من الحدود، وينطلقوا لتبليغهم الظلمة، ويسارع الثاقون بسحب السلام، وإخفاء آثار الانسحاب في المكان، كأن شيئاً لم يكن.

تقدم المجاهدون الثلاثة وحقاتهم على ظهورهم نحو الغرب، متوغلين في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ متبعين عن الشريط الحدودي، سيارة في انتظارهم، أظنهم إلى إحدى لبيارات الضخمة قرب مدينة أسدود، هناك حفروا ودفنوا الحقائق وعاد اثنان منهما إلى غزة وظل الثالث يلتف بقطعة كبيرة تجمعه من المطر بين الأشجار، لشجار البرتقال الكثيفة التي انجنت عليه، ظفه بأغصانها ولورقها، في حب وحضان لتجمعه من عيون الأعداء، وظل في انتظار وصول الاستشهاديين الذين كانوا سيأتون في الفوج الثاني.

مرّ الوقت ثقيلاً ولم يأت أحد، تجاوز الموعد المحدد بكثير، ومر يوم إضافي ويوم آخر، وبات واضحاً أن مشكلة طرأت، وقرر حسان التصرف لإكمال المهمة باجتهاده الشخصي غادر المكان إلى رام الله، حيث اتصل ببعض معارفه باحثاً عن شهاب لديهم الاستعداد للاستشهاد، وجد اثنين يتلفان لذلك ثم توجه إلى (أبو ديس) للبحث عن مساعدين لجلب الحقائق التي تعمل الأحزمة، ولتوصيل الاستشهاديين إلى الأهداف.

عثر على اثنين معهما سيارتان انطلق مع أحدهما حيث أحضر الحقائق الثلاثة من السيارة قرب أسدود ونفلاهما إلى رام الله ثم إلى أبو ديس، مع ساعات الصباح الباكر، قطعت من أبو ديس سيارتان، كل واحدة تحمل أحد الاستشهاديين، وقد وضع الحزام على وسطه وهو صائم واقسم ألا يذوق طعاماً أو شرباً من الأرض، وإن إبطاره بإذن الله سيكون في جنات النعيم عند سيده المصطفى ﷺ.

واحدة انطلقت إلى قلب مدينة القدس الغربية حيث ترهل منها بخطى ثابتة نحو الحافلة رقم (١٨) التي تمثلي بالركاب، صعد إليها وبعد أن انطلقت بمشرات الأمتار، ضغط على لزر للكهربائي للحزام، فدوى الانفجار عالياً، ونحوّت الحافلة إلى كتلة من لقطع الحديدية المشقطة وتناثرت الجثث والأشلاء، حيث قتل الحشرات، وسارعت سيارات الإسعاف وخبراء المتفجرات والشرطة ورجال الأمن إلى مكان الحادث.

وبينما كانوا في شغلهم جاءت الأخبار عن انفجار آخر في إحدى محطات انتظار الجنود عند مدخل مدينة عسقلان المحتلة، حيث قتل وأصيب العديدون ارتفع صوت الأذان لصلاة المغرب، فصارح حسان إلى الغرفة المجاورة ليوظف رائد ليتناول طعامه فقد كان صائماً استند رائد جالساً في فراش نومه ينظر إلى حسان الذي يائره القول لقد أذن المغرب، فقم حتى تفر، لتسم رائد قاتلاً؛ لنا أن لذوق طعامكم في هذه الأرض.

لقد رأيت في المنام أنني أصعد إلى حافلة مليئة بالمحتلين وأفجر نفسي، وأقتل كل من فيها، ثم رأيت نفسي أصعد في عمود من النور إلى السماء، يعود حسبان القول: الطعلم جاهز فيها لتناول طعامنا فانتهره رائد قاتلاً: قلت لك إنني لن أضع في شيء من هذه الأرض، ثم قام فتوضأ ثم صلياً للمغرب.

في ساعات الصباح الباكر انطلق رائد وقد وضع على وسطه الحزام الناسف، بسيارة كريم لقي أوصلت لأداء الأسبوع الفائت إلى قلب القدس، وصلت إلى نفس المكان، نزل من السيارة وبخطوات ثابتة تقدم نحو الحافلة رقم (١٨) استقلها، وبعد أن انطلقت بمشرات الأمتار فجر نفسه فيها فقتل جميع ركبها دون استثناء. ثلاثة وعشرون شخصاً، وأصيب العشرات ممن كانوا بالشارع، وارتفعت روح رائد إلى ربها، وقد تحقق له ما أراد.

وبعد أيام فجر مجاهد من حركة الجهاد الإسلامي نفسه في وسط شارع ديزينكوف في تل أبيب فقتل ثلاثة عشر شخصاً من المختصين. جن جنون حكام الكيان الصهيوني وساد الرعب في القلوب، وتقلص عدد المتواجدين في الشوارع والمؤسسات والمطاعم والمقاهي وغلت الحافلات من الركاب، وبق بيده على الطلولة مطالباً السلطة بأن تقوم بولجبتها وفتزاساتها لوقف ما أسماه (بالإرهاب) من مناطق سيطرتها، فبدأت قوات السلطة في حملة اعتقالات واسعة للناشطين الإسلاميين في مناطقها، حيث اعتقلت المئات وأودعتهم غياهب السجون، وأخضعت المشرف منهم إلى عمليات تحقيق عنيفة ومرعبة.

جاء أخي ماجد إلى الدار في غير وقت عودته من الدوام في العمل مع ساعات الظهور سائلاً عن إبراهيم الذي لم يكن في البيت، فهمس ماجد في أذني أن هناك قرأوا باعتقال إبراهيم، وضروري أن يختفي عن الأنظار، وخرج هو ليعود لعمله، وخرجت أبحث عن إبراهيم لأخبره بالأمر وجدته عند أحد الأصدقاء، فأخبرته بالأمر، وعلى الفور بدأت الترتيبات لاختفائه عند أحد الأصدقاء غير المعروفين، فأوصلته لبيت ذلك الصديق، وأخذت سيارته وعدت بها إلى البيت حيث أبلغت مريم وأمي بأنه مطلوب، وأنه اختفى لدى أحد الأصدقاء، خشية أن تعتقله أجهزة أمن السلطة، حتى تهدأ الأمور.

في المساء اجتمعنا في غرفة أمي، حيث دار الحديث كالمادة في آخر موضوعات الساعة، العمليات الأخيرة والاعتقالات الواسعة، وما يتردد عن أساليب التحقيق العنيفة ضد بعض المعتقلين.

حسن كان في لمطبات غضبه التي لم أره فيها من قبل، واضطرت لي أكثر من مرة أن تطلب منه أن يخفض صوته لئلا يسمع في الخارج فاعتقل هو الآخر، كان يصرخ باتجاه محمود كيف يعتقل هؤلاء الشرفاء؟ ويوضعون في المسجون وهم من حملوا على أكتافهم عبء مقاومة الاحتلال خلال السنوات الأخيرة وأجبروه على الرحيل.

فبضحك محمود قائلاً: هذا ما تتصوره أنت وجماعتك، هذا هو المهم، إنهم يريدون تخريب العملية السلمية، ويقامرون بالمصالح الوطنية العليا للشعب الفلسطيني ولا بد من وضع حد لذلك، فصرخ حسن: عن أي مصالح نتحدث يا رجل، مصالح الشعب الفلسطيني أن يعتقل الشرفاء ويذلوا في زنابير التحقيق، هل هذه المصالح للشعب الفلسطيني!! فقاطعه محمود قائلاً: المصالح الوطنية العليا هي قيام دولتنا الفلسطينية المستقلة خلال السنوات القادمة، بعد أن تجري مفاوضات الحل الدائم، فصرخ حسن قائلاً: ومن الذي بدأ بالاعتداء؟ هل نحن من قمنا بالعنفات أولاً أم أن إسرائيل شريككم في السلام هي التي اغتالت بحبي عواش؟ وماذا تريدون منا أن نفعل لئلا ذلك؟ هل سمكت لتجراً إسرائيل على اغتيال الآخرين، وماذا فعلتم حين اغتالوا بحبي رحمة الله عليه؟ ماذا فعلتم؟

فجيب محمود: لستم تعملون بعقل وحكمة، كان الواجب أن تعطوا الفرصة لعملية السلام، ولكنكم لم تعملوا كذلك، فقمتم عام ١٩٩٥... فصرخ حسن هذه العمليات حدثت في مناطق تحت سيطرة قوات الاحتلال ولم يتم تسليمها للسلطة فلمماذا تربط؟ قاطعه محمود قائلاً: هذه العمليات ضغطت على حكومة إسرائيل فقررت اغتيال عواش، فصرخ حسن: آه يعني إذا انضغطت حكومة إسرائيل من المتطرفين عندها فيجب أن تنكس عن نفسها الضغط باغتيال رموز كعاج شعبنا، ونحن يجب علينا أن نتفرج على ذلك، ونقول دعونا نعطيهم فرصة، ولا نخرب عملية السلام الفارغ، وإذا ما قام الشرفاء بالانتقام لثم المهتمس فيجب أن يعتقلوا ويضربوا في الزنازين ويتم... قاطعه محمود: لم يتم ضرب أحد في الزنازين ولم... قاطعه حسن بل ثم ويتم وتوجه بالسؤال إلى ماجد وخالد: أليس كذلك يا ماجد؟ أليس كذلك يا خالد؟ ألم يتم ضرب الناس وإذلالهم؟ فهز خالد وماجد رأسيهما إيجاباً، فقال محمود: هؤلاء لا يضربون لأنهم نفذوا عمليات ضد الاحتلال وإنما لأنهم يخططون لاغتيال قيادات السلطة، فصرخ حسن: هذا ليس صحيحاً هذا كذب ومحض افتراء، ويستحيل أن يكون أحد قد خطط لاغتيالات، وأنت رأيت بعينيك كيف استقبلنا رجال السلطة، وأفراد قوات الثورة التي جاءت من الخارج، أنت رأيت كيف احترامناهم وفتحنا لهم صدورنا وقلوبنا وكيف أننا..

قاطعه محمود ولكنكم الآن تتصرفون بصورة معاكسة؟ ألا ترى كيف أنكم فتحت
أبواب جهنم على إسرائيل، ثلاث عمليات ضخمة خلال ثمانية أيام، عشرات القتلى ومئات
الجرحى، بماذا تفكرون إذا؟! هذا عمل مجنون هذا... جنون.

تدخل مريم قائلة: كيف يمكن أن يقتل أعمام ويسجنه ويعتبه؟ انتفض خالد وماجد
وقالا: نحن لا علاقة لنا بالأمر، نحن مجرد جنود صغير نفذ ما نؤمر به، ولا نفهم في
السياسة ولا... قاطعه محمود قائلاً: عندما يريد الأخ أن يخرّب على أهله ما يخططون له
ويدمر مصالحهم، فيجب أن يحسم ويمنع من فعل ذلك، فصرخت مريم: يا رجل أليس
عندك قلب؟ كيف يمكن أن تعتقل إخواتك لأنهم يعملون ضد الاحتلال، وكيف يمكن أن
تعتقل زوج أختك وابن عمك؟ أهذه الدرجة وصفت بكم القسوة؟ الله أكبر!! فقال محمود:
يا مريم هذا ليس الوقت طويل بعد أيام أو أشهر قليلة يتم إطلاق سراحهم، هذا فقط
لامتناسل الضغط الذي يمارس علينا.

فصرخ حسن: إذا لماذا التحقيق والتعذيب والتهمة؟ فقال محمود: لقد قلت لك هذا لمن
يثبت تورطه في تعطيل الأعمال ضد السلطة، صرخ حسن: هذا مجرد ميرر وهذا كذب
واضح، ضحك محمود وقال: أنت لا تعرف شيئاً مما يجري يا حسن، جماعتك كانوا
يريدون تدمير الدنيا، أنتم مجانين لا تعملون بعقل، فصرخ حسن: نحن نعمل بغير عقل!!
سئري يا محمود سئري، وإن تطول الأمور حتى تتضح وتعرفوا أن اليهود خدعوكم
وأوقعكم في مكائدهم، هؤلاء قتلوا الأبرياء وحاربوا الله ورسوله، وليس لهم عهد ولا
ذمة، أنت تتصور أنهم فيما نسميه مفاوضات الحل النهائي، سيتنازلون عن القدس أو عن
المستوطنات أو يعودون إلى الخامس من حزيران، أو غير ذلك، هذا كله محاولة فقط لثقب
سفننا الفلسطينية وضرب بعضنا ببعض وتخريب المصلحة الوطنية العليا.

ضحك محمود قائلاً: ها أنت أصبحت فهمان في السياسة، وتوقع ما سيحدث في
المستقبل بعد سنوات، اجتمع حسن قائلاً: هذا ليس ما أتوقعه يا أخي، هذا ما أخبرنا الله به
عنهم حين عرفنا عليهم وعلى نفوسهم وعلى طريقة تعاملهم، مع أن هؤلاء لا يعترفون
بعهد ولا باتفاق ولا يمكن أن يتقدموا في الاتجاه الصحيح، إلا والجيل مرفوع فوق
رؤوسهم كأنه ظلة فقط يشعرون بالخوف والرعب يمكن أن يتقدموا، ضحك محمود قائلاً:
دائماً أنتم تخطلون فهمكم للدين بالسياسة ما علاقة ما ذكر في القرآن عن اليهود أيام
موسى، وما يحدث الآن يا حسن؟ اجتمع حسن وقال: سبحان الله، ألا تعرف أن التاريخ
يعيد نفسه، وأن اليهود هم لليهود، سئري يا محمود سئري، وسأذكرك إن بقينا من أهل
الدنيا.

بعد أيام تم اعتقال حسن وبعد وقت سمح لنا بزيارته وعلمنا أنه لم يخضع للتحقيق أو للتعذيب، ولكنه أكد لنا أن هناك أشخاصاً تعرضوا للتعذيب الجسدي، وأن البعض منهم قد حدث له أضرار جسدية من ذلك التعذيب، أمي لم تكن قادرة على احتمال اعتقال حسن لدى السلطة، فكانت أثناء دخولنا للزيارة وخروجنا منها لا توفر جهداً من كسب الشكائم عليهم وعلى الحراس والضباط الذين يشرفون على السجن، ويدخلوننا ويخرجوننا وهم لا يردون، بل يتظاهرون بعدم سماع ذلك أو بالانشغال بأمور يفعلون الانشغال بها، وأحياناً حين نكون الشكائم في الوجه يرد أحدهم بلطف: يا حجة ختم الله لك بالخير، نحن مأمورون وهذا باب رزقنا ورزق عيالنا، نتواصل الشكائم عليهم وعلى باب رزقهم.

في أحد الأيام همس ملجء في أنني أنهم طلبوا منه ومن خالد أن يبلغوا فوراً عن أية معلومات يحصلون عليها عن إبراهيم، وإني لم أكن أثبت عدم تليغهم أي معلومة، فسوف يعاقبون وأن من الضروري عدم إخراجهم مع مسؤوليهم، ويجب ألا يخفوا أي معلومات عنه، ولنا يجب أن نجد طريقة مناسبة حين نأخذ مريم وإسراء وياسر لإبراهيم بين الحين والآخر، ورجاني ألا أخذهم إليه حين يكون هو وخالد في الدار، وإني وقت وجودهم في العمل، وأن أوصي مريم وإسراء وياسر بعدم الحديث عن ذلك، وأن تتكبر سبباً آخر لخروجهم من البيت يوماً.

موعد الانتخابات الإسرائيلية اقترب واستطلاعات قرأني بدلت تبين لزيادة الواضحة لصالح مرشح حزب الليكود "بنيامين نتقياهو" لرئاسة الوزراء على حساب مرشح حزب العمل "شمعون بيرس" ويات واضحاً أن من يراهنون على خيارات السلام أو أوسلو وما سيقرب عليه قد بدعوا بشعرون بالخطر الحقيقي من الانتخابات.

ولقد اهتمنا في الدار بمراقبتها وانتظار نتائجها لأهميتها لنا جميعاً، محمود كان يريد فوز حزب العمل حيث أن هذا يضمن استمرار العملية السلمية، الأمر الذي سيمنح السلطة من تحقيق أهدافها، وكان في غاية الخوف من فوز "بنيامين نتقياهو" والليكود، حيث أن من الواضح أنهم سيعرفون الأمور، نحن في الدار لم تكن ندري ما نريد بالضبط، ففي كلام محمود وتحليله شيء من الصواب، وأقل ما في الأمر أننا يجب أن نعرف نهاية هذا النفق الذي دخلت فيه قضيتنا الفلسطينية، ونرى مدى صحة وجهة النظر والموقف الذي أدى إلى أوسلو، وما تفرزت من مصالح ومعاملات وسياسات، ولكن كان هناك رغبة في رؤية مجرى الأمور عند فوز اليمين والليكود، لذا رأينا لم يكن حاسماً وواضحاً، لكننا انتظرنا وتابعنا الأخبار طيلة الليل، غلبنا النوم قبل معرفة النتائج، وفي الصباح علمنا بفوز نتقياهو والليكود لليمين.

واندهشتنا ودهشة للجميع فلن نتباهو زعيم المعارضة كان غير نتباهو رئيس الحكومة، فيبدو أن المنصب والعلاقات الدولية والاتصالات الدبلوماسية لها تأثيرها الكبير على المواقف النظرية، ويبدو أن هذا الميدان من الاحتكاك بين المواقف الأيدلوجية، والضغوط السياسية والواقعية ينتج مواقف برلمانية.

لذا فقد تابعنا بعد وقت تطورات موقف الحكومة الإسرائيلية بخصوص تسليم مدينة الخليل للسلطة الفلسطينية، فمن ناحية لم يتمكن نتباهو من ضرب الاتفاقية السابقة مع السلطة بعرض الحائط، ولكنه وأمام الالتزامات السياسية والدبلوماسية، قد التزم به بصورة شكلية حيث تحول الاتفاق إلى اتفاقيات، واخترعت مصطلحات جديدة لتقسيم مدينة الخليل، أو السيطرة على مناطقها.

عبد الرحيم ابن خالتي فتحية، أنهى فترة سجنه المحدودة منذ وقت واشتغل في مجالات البناء، بعض الوقت ثم ذهب لدراسة التمريض.

أخي حسن ظل مسجوناً لدى السلطة في ظروف معقولة، وبعد فوز الليكود في الانتخابات بدلوا يسمحون له بالمبيت في البيت عند نهاية الأسبوع فيقضي يوم الجمعة صدياً في الدار، ولم يعد لنا حاجة بالذهاب لزيارته في سجنه. ومع صباح السبت يعود للسجن، وإذا حدث طارئ في البيت كانوا يسمحون له بالمجيء في غالب الحالات. إبراهيم ظل مختبئاً طيلة الوقت، ولكن حركته إلى البيت كانت أكثر سهولة ويسراً حيث أن اهتمام لمن السلطة له تقلص كثيراً، لكنه ظل محافظاً على قدر من السرية، والتخفي في حركته، وفي الأماكن التي يختفي فيها ويلجأ إليها.

لمي تقوم بالضبط علي والإلحاح الشديد على ضرورة مراجعة طبيب أخصائي، حيث أنه بات من الواضح أن هناك مشكلة لدي، أو لدى زوجتي في قضية الإنجاب، وحاولت تجاهل ذلك لبعض الوقت، ولكنها محقة، فبدأ هذا الأمر يأخذ جزءاً كبيراً من اهتمامنا.

بعد مرور وقت على صعود نتباهو إلى سدة الحكم في إسرائيل، بدأت الأمور تتوتر بينه وبين السلطة. الحدث الأبرز في هذا المجال لربط بالأخبار عن نفق نفقه للحكومة الإسرائيلية تحت المسجد الأقصى، وأنه يهدد الأقصى بالانهيار، مما أثار الشارع، الذي خرج غاضباً إلى الشوارع، وحدثت صدامات عنيفة بين رجال السلطة الفلسطينية وبين قوات الاحتلال الإسرائيلي في نقاط الاحتكاك. حيث تم العديد من عمليات تبادل إطلاق

النار، وقتل العديد من جنود الاحتلال والحديد من رجال الشرطة استشهدوا، أخي خالد شارك في الاشتباكات التي وقعت عند معبر ليرز الحدودي، حيث كان يدوم هناك، وأصيب كتفه برصاصة، ووضعت يده وكتفه في (الجبس)، ولقد إجازة مرضية، وما أدهشنا هو أنه استدعي خلال إجازته المرضية، فغلب لبضع ساعات، وحين عاد كان الغضب يتفجر من وجهه، حيث قدم للمحكمة العسكرية وحكم عليه بغرامة مقدارها (خمسمائة شيكل) لأنه أطلق النار عند حاجز ليرز دون إذن مسبق.

بدأت الأمور تزداد توتراً مع الحكومة الإسرائيلية، وبالمقابل بدأت العلاقات تتحسن مع السلطة تجاه المعارضة، حيث أطلق سراح العديد من السجناء ومن بينهم أخي حسن الذي عاد لداره وزوجته ولولاده بعد قرابة عام.

❦ ❦

الفصل التاسع والعشرون

حي الشجاعية بمدينة غزة. في دار فيه، تجلس العائلة أبو نضال وأم نضال ونضال ومحمد واكتنان من البنات، محمد الذي يبلغ حوالي الخامسة والعشرين من عمره، يكثر من أكل الزيتون بصورة تلفت نظر أم نضال فتسأله: ما بلاك يا محمد لا تأكل سوى الزيتون؟ ألا تحب الأصناف الأخرى يا ولدي؟ فجييب محمد: لا يا أمي أحبها كلها، ولكني أحب الزيتون أكثر أليس هذا الزيتون من زيتونتنا التي استشهد تحتها عماد، ففاضت دمعته من عين أم نضال وقالت: رحمه الله، نعم يا ولدي فقال محمد: لذلك أحبها، أشعر أن هذا الزيتون ينبض بروح عماد، فأحبه حباً جماً لأنني أحب عماد.

بات واضحاً أن العملية السلمية بعد اعتلاء ننتباهو عرش الحكم في إسرائيل، قد عرفت في الوطن ظم نعد تتقدم، ولوضع يسوء يوماً بعد يوم على المستوى السياسي، الأمر الذي جعل الكثير من المعارضين لعملية أوسلو يجدون في ذلك دليلاً واضحاً على صدق نظرتهم بأن هذه العملية محكوم عليها بالفشل، فما هي ماضية تنقض الانقلابات وتتصل منها.

هذه المادة من الحوار ذكرها أخي حسن أكثر من مرة أثناء لقاءاتنا في الدار في عرقة أمي، محمود كان يرد عليه أنهم هم من تسببوا في ذلك، فلو لا عملياتهم لما صعد ننتباهو للحكم، واستمرت العملية السلمية كما كان مخططاً لها، وكان الجميع متفقين أن العملية السلمية قد أصبحت مجمدة أو أنها قد انتهت.

عبد الرحيم يتنطق مع اثنين من المجاهدين بسيارتهم على الطريق العام، قرب بلدة بيت شيمش داخل الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨، والتي لا تبعد سوى كيلو مترات معنودة عن بلدة صوريف، ويديهما ينتقيتا كلاشينكوف مشحونتان بالرصاص، بانتظار مرور إحدى سيارات المستوطنين. يلاحظون إحدى السيارات حيث ترتطم السيارة بجانب الطريق وقد قتل الراكبان فيها، بعد أيام يجلس عبد الرحيم وإخوانه في مسجد البلدة بعد أن أنوا صلاة المغرب يتحدثون في شؤون حياتهم ليقول عبد الرحيم: يا أخوة لقد تم إطلاق سراح الآلاف من السجناء الفلسطينيين من سجون الاحتلال، ولكن حتى الآن لم يتم إطلاق سراح إخواننا من السجناء المعارضين لأوسلو.

قال جميل: نعم لقد صدقت وهناك المئات من الأسرى ممن تسميهم سلطات الاحتلال أن على أيديهم دماء إسرائيليون أن يتم إطلاق سراحهم، يقول عبد الرحيم: لا بد أن

نعمل شيئاً من أجل تحرير هؤلاء الأسرى وتخليصهم من سجون الاحتلال القذيمة،
فيجب الآخرون: نعم... نعم، يجب أن نعمل شيئاً جدياً.

تطلق السيارة بثلاثة من المجاهدين على الطريق القريب من معسكر صرقت لجيش
الاحتلال داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وقد تظاهروا بأنهم من المحتلين. أحد
الجنود يقف في إحدى محطات الانتظار في تلك الساعة من وقت الغروب، وقد غادر
قاعدته في طريقه للبيت ويشير بيده للسيارة للتوقف لتأخذه في طريقها، تتوقف سيارة
المجاهدين قريباً من الجندي من ذلك، فيسحب أحد المجاهدين مسدسه ويطلق عليه ثلاث
رصاصة فريديه فتبلى.

أنزل للمجاهدون جثته في أحد حقول الزيتون القريبة من البلدة، وعادوا إلى عبد
الرحيم الذي كان بانتظار عودتهم بأحد الجنود الأحياء لإخفائه ليبدأ التفاوض عليه لإطلاق
سراح عدد من الأسرى، فأخبروه بما كان فخرج معهم حيث دفنوا جثته كيلا يتم العثور
عليها، وقد تلزم في المستقبل كورقة ضغط إضافية للتفاوض على الأسرى، وبعد أيام
أخرى خرج عبد الرحيم مع عدد من إخوته المجاهدين إلى الطريق العام قرب بيت
شمش، أطلقوا النار على إحدى السيارات أثناء تجاوزها، فقتلوا ثلاثة من ركبها وعادوا
إلى البلدة سالمين في نفس الوقت.

واصل رئيس حكومة الوزراء نقيهاو ممارسة سياسة العنجهية والعريضة، فصارت
حكومته أرض (أبو غنيم) في القدس، وبدأت بالعمل عليه لإنشاء حي سكني يهودي بفصل
النجمعات والقرى العربية عن القدس، وثار إثر ذلك ضجة إعلامية وسياسية كبيرة، وقد
جلس عبد الرحيم وإخوته يفكرون فيما يمكن فعله من أجل ذلك، وفي هذا الوقت كان
الكثيرون من المجاهدين متأكدين من أن ساعة تجد لا بد آتية وأن وهم للسلام مع اليهود
مبذول قريباً وما هي البواذر قد كُتلت فبدلوا يعدون للعدة لذلك اليوم.

في أنحاء الضفة الغربية عكف أحد القبايين العسكريين على تركيب إجراءات في قمة
السرية في تنظيم خلايا جديدة وتدريبها، وجمع السلاح وتوزيعه عليها في مختلف المناطق
بما في ذلك القدس.

وفي القطاع بدأ حسن بتوجيه من إبراهيم وإرشاد من أحد الخبراء في موضوع
صناعة السلاح يستخدم أدواته وماكناته وورشته، في صناعة مكان القنابل اليدوية
وتخزينها ومحاولة صناعة بذائق محلية رغم مطوية حودتها إلا أنها يمكن أن تكون
خيراً من الحجارة والعبوات الكيريتية، كما حدث من قبل في مواجهة الاحتلال،

ومع التطورات التي حدثت حول قضية جبل (أبو غنيم) في القدس، اتصل القائد العسكري في الضفة في كتابت القسم بعبد الرحيم، حيث إن خليفته كانت للخلية الجاهزة ولقاعة حتى تلك اللحظة لتنفيذ عملية فدائية كبيرة في صق الكيان الصهيوني رداً على إجراءات الحكومة الإسرائيلية في جبل (أبو غنيم)، وقد زودهم بحقيبة جاهزة من المتفجرات حيث كانت الخطة أن يتم وضعها في أحد أماكن التجمعات للمحتلين، ومن ثم يتم تفجيرها بالتحكم عن بعد، وقد استلموا الحقيبة حيث حملها موسى ومجاهد آخر بسيارتهم وانطلقوا بها إلى تل أبيب، حيث اختار موسى أحد المقاهي التي تكتظ بالزوار.

بعد ظهر الجمعة كان الأصل أن يحمل المجاهد الآخر الحقيبة وينزل بها ليضعها تحت إحدى الطاولات بين الجمع، ويقوم وكأنه يريد إحضار شيء من داخل مطبخ المقهى ويخرج، حيث يتم تفجيرها عن بعد، ولكن السماء كانت على موعد لاستقبال موسى عبد القادر أبو دية* فحمل الحقيبة ونزل بها، ودخل ساحة للمقهى، وبدلاً من أن يضع الحقيبة ويخرج، حدث الانفجار فاستشهد هو وقتل ثلاثة وأصاب ما يزيد على الخمسين.

جن جنون حكومة الاحتلال وبدأت بالتهديد والوعيد، وقد تم تحديد هوية الشهيد موسى، وصارحت أجهزة أمن السلطة لاعتقال عبد الرحيم وجميل، حيث أخضعتهما للتحقيق في سجن الخليل، ثم أودعتهما في السجن.

خالتي فتحية كانت تجن علي سجن فلذة كبدها عبد الرحيم، وما أن بدخل والده أو عمه لذار حتى تملأ الدنيا صراخاً بأن عليهما أن يعمل شيئاً ليطلق سراحه فيودنها خيراً ويخرجان ليعادا الاتصال بمن يؤثر أو يتوسط دون جدوى، وتخرج لتزوره في سجنه بين الحين والآخر، وتأخذ معها إحدى بناتها، وقبها يكاد ينقطر ألماً على رؤيته في السجن، وهو يضاحكها وبمازحها ويحاول التخفيف عنها وكأنه ليس هو المسجون. بعد حوالي ثمانية أشهر جاء سجنائوه وليلغروه هو وجميل أنهما سينقلان إلى سجن أريحا لمحاكمتهما هناك، حذراهما بأن في ذلك خطأ كبير، حيث أن قوات الاحتلال قد تخطفهما من أيدي الشرطة الفلسطينية، فتجاهل المسجونون ذلك، وطلبوا رؤية أحد المسؤولين لتحذيره وتحمله لمستولية، فتمت مقابلة مسئول سجن الخليل الذي تجاهل الأمر، محاولاً طمأنتهما إلى أن شيئاً من ذلك لن يحدث.

فيذا ولغذا بالسيارة التي انطلقت بحراسة سيارة أخرى من الشرطة، وبعد ساعات من السفر وجدوا أنفسهم في كمين أعدته قوات الاحتلال التي أوقفت السيارة تحت تهديد السلاح وفتحت أبواب السيارة وهي تصوب السلاح نحوهما، وتناديهما باسميهما للنزول، حيث أخذوا إلى سيارة جيش الاحتلال التي طارت بهما إلى مركز التحقيق في القدس.

بعد أشهر سمح لخالتي بزيارة ولدها في سجون الاحتلال، وهي ترتجف خوفاً وإشفاقاً على قلعة كبدها، وما إن رآته حتى أذرفت دموعها، وهو يحاول مضاحكتها والتخفيف عنها، ويحدثها بما كان، فما كان منها إلا أن صرخت والله لقد سلموك أنت وصاحبك لليهود وبدأت بالدعاء عليهم من أعماق قلبها، انتهت الزيارة وأخرجت خالتي من السجون. وعادت للبيت تمشي أهل بيتها بما كان، وتقسّم لهم أنه قد تم تسليم عبد الرحيم لقوات الاحتلال تسليمًا وتسب وتقتنم، وهي لا تزال حتى اليوم ممنوعة من زيارته، ولا تزال مقتنعة من أعماق قلبها أنه قد تم تسليمه للأعداء تسليمًا بأيدي أبناء شعبه.

في البيت عندما كان من الطبيعي أن نتطرق في أحاديثنا لما حصل، لابن خالتي عبد الرحيم، وقد كان غضب أمي كبيراً على ما حدث لابن أختها. محمود حاول تبرير الأمور بأن ذلك كان من غير قصد، وأن قوات الاحتلال فعلت ذلك كعملية قرصنة، واختطفّت عبد الرحيم ورغيفه لخطافاً، وأن من المستحيل أن يكون قد سُمّ تسليمًا.

حسن وجد الفرصة مناسبة للهجوم على محمود، بدأ بشككه في ذلك متسائلاً: كيف يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً؟ ولماذا لم يتم محاسبة هؤلاء الأشخاص المهملين إذا كان هذا إمعالاً؟! وكيف عرف اليهود بأمر خروج المسجونين؟ وعرفوا أسماءهما!! ونادوهما بهما!! ولماذا يصف محمود ذلك مستحيلاً؟ ألم يتم اعتقالهما أصلاً لمدة تزيد عن ثمانية أشهر؟! ألم يتم اعتقال المئات من شباب المقاومة ووضعهم في السجون؟ ألم يعذب الناس في التحقيق وفي لغازين؟ ألم لم؟ ومحمود ظل صامتاً حتى سكّت حسن وجده، ثم قال: كنت تحاول الاضطهاد في الماء العكر وتحاول أن تتلاعب بعواطف أمي لأن ابن أختها هو المعتقل، ومن العيب عليك أن تقول ذلك، ضحك حسن وقال: من العيب عليّ أن أقول ذلك، ألم نسجن أنا شخصياً سبعة أشهر عند السلطة؟ ألم يأتوا لاعتقال إبراهيم وأجبروه على الاختفاء عدة أشهر، أنا أريد التلاعب بعواطف أمي.

حده للتوتر كانت تزداد بين السلطة وأجهزتها من جهة، وبين القوى والجماعات المعارضة. وقد وصل ذلك التوتر، إحدى درجاته القصوى بعد حادثة اعتقال المجاهد "محيي الدين الشريف" في رام الله، حيث اتهمت حماس أجهزة السلطة بالتواطؤ مع المخابرات الإسرائيلية لتصفيته واتهمت السلطة حماس بتصفيته على خلفية خلافات داخلية.

قمة التوتر كانت بعد خروج أحد الشبان من سجون الاحتلال بعد فترة اعتقال، وهو يحمل خطة للعمل على فرض إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين الذين لا زالوا محتجزين في سجون الاحتلال. الخطة كانت تتلخص في تنفيذ عدة عمليات استشهادية، وربطها بقضية المعتقلين ثم التجهيز لعمليات أخرى، والمطالبة بإطلاق سراح الأسرى ولتهديد بسلسلة عمليات كبيرة، فإن لم يتم إطلاق سراحهم نفذت العمليات.

فور تحرره اتصل بعدد من المجاهدين وبدلوا يجهزون لعدد من العمليات، أولها كانت عملية مزدوجة في سوق (معني يهودا) في القدس حيث فجر استشهاديان نفسيهما في السوق، فأحدثا قتلا ودمارا وإصابات كبيرة جداً، ونزل البيان يطلب بإطلاق سراح الأسرى وإلا نفذت المزيد من العمليات. ثم نفذت عملية أخرى أنت إلى قتل وإصابات ودمار.

جن جنون حكومة نتنياهو، وبدأت تهدد وتتوعد، وبدأ الضغط يزداد على السلطة خاصة من الأمريكان، مما زاد التوتر بين السلطة والمعارضة، وقد قامت السلطة بعملية اعتقالات جديدة في صفوف المعارضة خاصة حماس، ولودعت السجناء في سجونها، الشيخ جمال والشيخ عبد الرحمن سجنوا في سجن بيتونيا، الذي بني حديثاً، برفقة المشرط من الأسرى.

الحوارات زادت حداثتها عندما في الدار بين محمود من جانب وحسن وإبراهيم من جانب آخر وبدأت تتطور أحياناً إلى اتهامات، وكانت تصل إلى تدافع بالأيدي خاصة بين محمود وحسن وكانت تنفض الجلسة على خلاف وتوتر وشبه قطيعة. بعد أيام اعتقل حسن مرة أخرى، وتمكن إبراهيم من الاختفاء، بعد أن تمكن من الإفلات من الاعتقالات في اللحظة الأخيرة.

سقطت حكومة الليكود برئاسة بنيامين نتنياهو بتأثير المتطرفين فيها من الأحزاب الدينية المتطرفة على خلفية عدم موافقته على خطواته تجاه السلطة والسلام والانسحاب الشكلي من الخليل، وبدأت الاستعدادات للانتخابات الجديدة في إسرائيل والتي فاز فيها مرشح حزب العمل (يهود باراك).

فوز باراك شكل فتحة أمل لدى السلطة، ومؤيدي السلام في شعبنا، حيث أنه سيتقدم بالعملية السلمية دون شك، ومع بدء الانفراج في العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية، ازدادت حدة التوتر بين السلطة وقوى المعارضة، وزادت السلطة من إجراءاتها الضاغطة على قوى المعارضة، خشية أن تحرب فرصة التقدم في العملية السلمية.

وقد وصلت معلومات لأجهزة أمن السلطة عن مكان اختفاء إبراهيم فذهبت قوات كبيرة وحاصرت المكان، وهددت وتوعدت إذا لم يسلم نفسه، ففعل وأخذ إلى السجن، وحزن لأمي أصبح أحزاناً على ابن أختها، وعلى ابنها، وعلى زوج ابنتها، أضف إلى ذلك آثار حزن زوجة حسن، وحزن مريم، ولولاد حسن ومريم، وبلغتصار تحولت الدار مرة أخرى إلى مقبرة من الصمت والبكاء والأحزان.

بدأت الأخبار فتولّد بحسن نوايا رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد (يهود بلاك) والذهاب إلى مفاوضات الحل النهائي مع الفلسطينيين، الأمر الذي رحبت به السلطة، ودفع الأمريكيان لتحقيقه، وبدأت الأحاديث عن الآفاق الكبيرة لقرب الحل، ولقرب تحقيق الأحلام الفلسطينية بقيام الدولة وعاصمتها القدس الشريف، وانتهاء الاحتلال بالانسحاب الإسرائيلي إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧، وبالفعل فقد بدأت المفاوضات في (كامب ديفيد) بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي وبرعاية الرئيس الأمريكي نيل كلينتون.

تابعنا الأخبار عن المفاوضات بكل جدية واهتمام وعنا نجلس لدى أمي لنحضر الأخبار على التلفاز. رغم غياب حسن وإبراهيم لوجودهما في السجن، وبغياهما غاب الصوت المعارض، والرأي المعارض للتفاوض والسلام مع إسرائيل.

حزن لأمي وتأثرها على سجن حسن وإبراهيم لم يكن خافياً وقد حاول محمود مراراً أن يخفف عنها، وأن يواسيها وحتى أن يؤملها بأن تنتهاء المفاوضات الجيدة في كامب ديفيد، ولبدء تطبيق ما سيتم الاتفاق عليه، سيؤدي إلى إطلاق سراح حسن وإبراهيم، وحتى إن إسرائيل ستطلق سراح السجناء المعتقلين في سجونها، فهذه إحدى القضايا التي أثارها المفاوضون الفلسطينيون ولم يعد لإسرائيل أي مبرر لاحتجاز الأسرى بعد توقيع اتفاقية الحل الدائم والنهائي، وحينها سيتم إطلاق سراح عبد الرحيم كذلك.

بعد أيام تفجرت المفاوضات، حيث لم يتم التوصل إلى اتفاق، فإسرائيل لم تكن مستعدة للحوار أو تقديم أي حلول محققة في القضايا المعقدة للكبرى مثل قضية القدس واللجئين، وحدود الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، والتجمعات الاستيطانية.

وقد تسربت أخبار عن ضغوط رهيبية مورست على الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات حتى من الرئيس الأمريكي "نيل كلينتون" للتنازل في هذه القضايا أمام التصلب

الإسرائيلي فكان جوابه الرفض القاطع. دعا المفوضون إلى ديارهم، ودخلت المنطقة إلى طريق مسدود، وكان واضحاً أنها تنتظر عود النقب أو الشرارة التي تشعلها. جاءت الشرارة من خلال زيارة رئيس حزب الليكود الجديد "رئيل شارون" الذي أصبح زعيم المعارضة في دولة الاحتلال، حيث دخل باحة المسجد الأقصى بحرسه المئات من جنود وشرطة الاحتلال وبذلك أطلقت الشرارة التي أشعلت المنطقة، فهبت الجماهير الغاضبة الفاترة في وجهه وضد زيارته وتنظيمه للمسجد الأقصى المبارك، خرجت الجماهير بصورها العارية في غزة والضفة والقدس إلى حواجز جيش الاحتلال لتلتحم في مواجهات عنيفة بالحجارة والزجاجات الفارغة، وبدأت تتكرر صور الانتفاضة الأولى، وبدأ واضحاً أن ردة فعل جيش الاحتلال عنيفة وغير منطقية، خاصة في أجواء حكومة يصفها الكثيرون بأنها حكومة سلام ومفاوضات، ولكن براك السياسي لم يختلف مطلقاً عن براك العسكري، بل لزداد حدة وقوة في معركة السياسة وهو يعتقد أن الجانب الفلسطيني قد دفع بالجماهير إلى الشارع ليشكل عليه ضغطاً سياسياً وإعلامياً يجبره على التنازل عن مواقفه التي عرضها في مؤتمر كامب ديفيد فصدرت الأوامر لجيش الاحتلال للتعامل مع الجماهير المنتفضة بمنتهى القسوة، ودون أي رحمة أو أي رافة، وبدأ الفتيان المظاهرون يجتمعون عند الحواجز ونقاط الاحتلال، عشرات الشهداء ومئات الجرحى والجماهير تزداد حماسة وفتهاً وانفداعاً كعائتها كلما زادت تضحياتها، فزداد عدد الشهداء والجرحى.

بعض رجال الشرطة الفلسطينية أو أفراد الأجهزة الأمنية لم يتمكنوا من ضبط أعضائهم، وهم يرون أبناءهم وإخوانهم تحصدهم رشاشات جنود الاحتلال، أو يسلمى على جماهيرهم قناصو الاحتلال، فتأثرت حمية البعض، وبدلوا بريدون، فحدثت حالات قتل وإصابات في جيش الاحتلال، وبات واضحاً أن الأمور تتدفق إلى عنق الزجاجة إلى غير رجعة ولن ما يحدث ليس مجرد لعبة لمكاسرة الأيدي بين القيادتين الفلسطينية والإسرائيلية، إنها ليست محاولة من الجانب الفلسطيني لتحسين الموقع التفاوضي، كما صرح بعض المفوضين، الأمور أصبحت أكبر من أن تضبط، وأفلتت من أيدي من أرفوها مجرد ورقة لتحديل الوضع التفاوضي.

تجاوز عدد الشهداء الفلسطينيين عدة مئات، وجنود الاحتلال بناءً على توجيه قيادتهم لا يرقون في جماهير شعبنا إلا ولا ذمة، ويعملون فيها للقتل والذعر.

في إحدى غرف سجن غزة المركزية يلتق خمسة عشرة سجيناً حول التلفاز ويشاهدون نشرة الأخبار المسائية وهي تتحدث عن الأحداث والمواجهات وسقوط عشرات الشهداء ومئات الجرحى.

في هذا اليوم متعرض نقاط الاحتكاك، وما كان عليها من مواجهات وصدامات وشهداء وجرحى عند بوابة سلاح الدين في مدينة رفح، ومواجهات وصدامات وشهداء وجرحى عند حاجز التفاح غربي مدينة خان يونس، وكذلك الحال عند مستوطنة (كفار داروم) قرب بلدة دير البلح. والوضع أصعب بمشرات المرات عند مفرق الشهداء بالقرب من مستوطنة (نتساريم) شهداء وجرحى عند معبر ابو ز الحودي وشرقي الشجاعية، وصورة شبيهة في نقاط الاحتكاك في الضفة الغربية، كمدينة القدس وحولها في أطراف مدينة رام الله وعند قبر يوسف في نابلس وحول جنين ومخيمها.

صمت مطبق بسود الغرفة أثناء نشرة الأخبار، وما إن انتهت حتى بدأت التعبيرات عن الغضب تصدر عن أولئك الشبان في تلك الغرفة، وغيرها من غرف السجن، هذا بصرخ مكبرا: الله أكبر ماذا يحدث يا ناس؟ والثاني يضرب السرير بقدمه صارخاً: إلى متى يظل هذا الحال؟ والثالث يضع رأسه بين يديه بعصرها دون أن ينبس ببنت شفة، والرابع يضرب رأسه بكف يده، وهكذا من التعبيرات الغاضبة أو غير الرزينة.

إبراهيم يجلس على حافة السرير وقدماء تتدليان على الأرض، وقد أسند ذراعيه على ركبتيه وأسند رأسه على كفيه، والتزم الصمت، لعد الشبان توجه إليه بالقول: ما رأيك يا إبراهيم؟ نظر إليه إبراهيم قائلاً: هذا هو حالنا، أرواح ونساء أبناء شعبنا صارت حقلاً لتجارب أولمو، فإن تنجح بها ونعمت، وإن لم تنجح فما المانع أن نبدأ من الصفر، هذا هو الحل، كل تضحيات الانتفاضة الأولى ذهبت هدراً، والآن وصلت الأمور مع السياسيين والمفاوضين، إلى طرق مسدودة، فما المانع من أن تبدأ التجربة من جديد!!

منات بل آلاف الشهداء مسقطون، وعشرات آلاف الجرحى، وستجد من يأتي ليطرح مرة أخرى الذهاب إلى أولمو جديد، أو سمع ما شئت أن تسميه، وهكذا بعد كل جولة من جهاد وكفاح شعبنا يأتي السياسيون ليقتطعوا الثمرة؛ لأنهم يسارعون في قطاف الثمرة قبل لوانها فإنهم يعاقبون بمرمانها، فلا الثمرة تبقى على الشجرة حتى تنمر، ولا ينتفع بها حين قطافها فهي لم تنتج بعد. هكذا كان الحل مع انتفاضة شعبنا الأولى، ولأن علينا أن نبدأ من جديد لئلا يتوهم أن الثمرة قد نضجت وأن لوانها، فيدمر كل ما ضحى شعبنا من أجله.

سأمل الشاب هذا يعني أنك تعتقد أن الأمور تتواصل على هذا الحال لفترة طويلة، لنسم إبراهيم قائلاً: نعم، ستتواصل وستطول، ألا ترون أن المنطقة تدخل في حالة من التقيد والتخيم الذاتي، فكل شيء محشو بالمتفجرات، وكل شيء يرتبط بالشيء الآخر وكل انفجار يجر انفجارات متتالية، ليس لدى الاحتلال أي شخص مستعد أو قادر على التعامل مع الاحتلال للتنازل عن مطالب شعبنا وأمتنا، لا في موضوع القدس، ولا حدود ١٩٦٧، ولا اللاجئين ولا المستوطنات، ولا المياه، ولن تجد في الشعب الفلسطيني من يستطيع أن يتقدم خطوة للأمام ما دامت هذه الأمور لم تحل، ومن يتجرأ أو يفعل ذلك سوف يجد ألف ألف ممن يصرخون في وجهه، ويتهمون بالخيانة.

إذا فالأمور في حالة من التقيد وسيظل جرح الشاب نازقاً وسيظل هؤلاء الفتيان يقفون بأنفسهم للموت، أمام بنادق وجنابت الاحتلال، دون مقابل هذا حرام ولا يجوز ويجب أن يمتنعوا من ذلك، يجب أن يمتلك أحد الجرأة والشجاعة، ليقف ويهتف بهم كفي هذا يذهب هنرا، ضحك إبراهيم وقال: لا يا أخي فلن هذا لا يذهب هنرا، هؤلاء الفتيان يفوزون عند الله بالشهادة؛ لأن ثوابهم خالصة صادقة، وهذه ضريبة يجب أن يأخذ حصته من دماء، والأمور دونما شك ستتطور، ستجد عدداً من الجماهير ازدادت غضباً، والأمور سترفع بالرغم عنها من يحمل الراية وبشهر السيف في وجه الجلاء، وسيدفع العدو ثمن هذا الدم الذي سفحه من دمه ومن راحته ومن أمته، ومن استقراره ومن اقتصاده ومن ماء عيونه. سأمل الشاب: وإلى متى سيظلون يحتجزوننا في السجون، وقد سقط قلوبهم بالسلام مع الاحتلال البغيض؟ ضحك إبراهيم وقال: لن يطول أسابيع معدودة، أسابيع معدودة فقط.

استمرت فعاليات الانتفاضة وتصاعدت وزادت حدة، جمعت قوات الاحتلال إمكاناتها وبكافة أساليبها ويات ولصحاً أن وحدات من القناصين من قوات الاحتلال يعني أبراج المراقبة عند نقاط التفتيش أو الحواجز أو المستوطنات، وتتسلى على رؤوس المتظاهرين، وقد عرضت أجهزة التنفزة تقارير عن ذلك، حيث راقب أحد الجنود المتظاهرين بمنظار كبير، يحدد أحد المتظاهرين ويبدأ بوصفه للقناص المتمدد إلى حوله، وراء بندقية القناص، ذلك المتظاهر الذي يلبس للقنصين الأصفر، ذو الشمر الطويل، بيده حجارة، ما هو يلقي حجراً، هل تراه؟ فيجيب القناص: نعم نعم أنا لشخصه، فيقول الأول: أنزله عن الطريق، فيطلق ذلك الجندي رصاصة، ويتدافع للشبان من حوله ليعملوه تحت وأبل من الرصاص، وذلك الجندي يصفه لصاحبه فقد أصاب نقطة أخرى

مما يؤكد أنه قناص ماهر وعلى درجة عالية من الكفاءة والخبرة.
لأمام تلك الشجاعة والإجرام بدأ عدد أكبر من أعضاء قوات الأمن والشرطة الفلسطينية يردون بإطلاق النار التي توجه ضدهم وضد الناس ومن حولهم، فبدأت عمليات قنص واضحة تستهدف حاملي السلاح حتى من رجال الشرطة، ثم بدأت عمليات قصف البعض لنقاط تجمع الشرطة وبعض مواقعهم.

حكومة الاحتلال وأجهزتها وإعلامها بدأت تنتهم السلطة بأنها تفتح المجال للمسجونين في سجونها للخروج من السجون لتخطيط عمليات ضدها، وبات واضحاً أنها بذلك تصعد البدء بالعمل ضد السجناء لدى السلطة، أولى تلك المحاولات كانت باستهداف سجن (صنبر) في نابلس، حيث تم قصف أحد الأقسام بطائرات (F16) التي استهدفت بصواريخها ذات النصف طن من المتفجرات فحمرته كاملاً.

المستهدف "محمود أبو هنود" كان في طرف القسم وقدر الله له النجاة، ولكن عدداً كبيراً من رجال الشرطة حراس السجن قتلوا وأصيب الكثيرون بذلك، وجنت السلطة نفسها بين نارين، نار استمرار احتجاج هؤلاء السجناء، التزاماً بواقعيتها مع الجانب الإسرائيلي، أو إطلاق سراحهم، والظهور أمام الأمريكان الذين يسارعون للضغط والتهديد بإزاء كل شيء من ذلك.

في سجن بيتونيا بهنجر عشرات الأسرى، في غرف أحد الأقسام في إحدى الغرف مع المحتجزين الشيخ جمال والشيخ عبد الرحمن، صرخ أحد الشبان هذه المروحيات الأباتشي تحلق ها هي ألا ترونها، ويشير بيده من النافذة، يصرخ شاب آخر: يبدو أنها تريد قصفنا، ويسود جو من الفوضى والصخب في الغرفة، وفي الغرف الأخرى للشيخ جمال ينادي على الشبان لتوفير الهدوء، وضبط النفس، وينادي على الحارس الذي يأتي بعد وقت بمشي متكاسلاً متثاقلاً، كما هي عادة الحراس إلى مكان غير محدد، خفية أن يتم قصف غرفهم، فورد الشرطي أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فليس لديه إذن لفعل هذا الأمر. يطلب منه الشيخ جمال استدعاء المسئول عن الضابط المملوك، فيبدأ بالتعذر والتلويح، ويصرخ عليه الشيخ جمال من وراء قضبان الباب صرخة ليقتله من مكانه وتكاسله، قلت لك استدع لنا الضابط ألا تفهم ما أقوله، قد يتم قصف المكان، فيسارع الشرطي وهو يقول: حاضر حاضر، يذهب إلى التلغون في طرف السمر ويرغمه ويتصل بضابطه الذي يأتي مستقلاً: عما حدث؟ يصف له الشيخ جمال ما يحدث، يحاول الضابط طمأنته أن شيئاً لن يحدث، فما نحن إلى جولركم، بوضح له الشيخ أن طائرات الأباتشي تقصف الغرف،

لكل غرفة صاروخ محدد وموجه، فيحاول الضابط للتهدة والتطمين، يصرخ عليه الشيخ نحن لن نظل هنا في هذه الغرفة، ولا بأي حال من الأحوال. يجيب الضابط: ماذا يمكنني أن أفعل؟ يجيب الشيخ: أخرجنا من هنا لمكانكم وغرفكم، فيجيب الضابط: لا أستطيع فليس لدي الأوامر، يصرخ الشيخ: اتصل بقائدك، أنت تتحمل مسؤولية ما قد يحدث لنا.

يذهب للاتصال والشيخان يراهم المروحيات التي تحلق حول المبنى باستمرار يصرخ جمال مثلياً على الضابط طلباً معرفة ما حدث وما هو الرد، فيأتيه أن الرد على طلبكم الرفض، يصرخ الشيخ للرفض، ويشير للشيخان قائلاً: اخلعوا الأبواب، يتقدم عدد من الشبان يحملون السريز الحديدي، ويرطمونه بالباب مرة ومرة ومرة، حتى انفلت الباب من مكانه وهكذا كان في الغرفة الثانية، خرج الجميع إلى الممر أمام الغرفة، وإذا بالقوات المنجحة بالعصي والغاز والتي تحمل الدروع وتلبس كامل عدتها، تأتي من بعيد وعلى رأسها قائد الموقع، وبدأ الأسرى بالصراخ والتهليل والتكبير، وصرخ أحد الشبان: ألا تفعلون على أنفسكم، نحن بين صواريخ الاحتلال وبين بنادقكم وهراولتكم، اخلعوا على أنفسكم.

صرخ قائد الموقع على جنوده بالتوقف والتراجع وبدأ يفاوض الشيخ جمال الذي أوضح له الموقف، فسمح لهم بالتواجد في الممر والمساحات، وإن لزم بالتوجه والتواجد في غرف ومكاتب الشرطة.

تلاحقت الأحداث والتطورات بصورة سريعة حيث أنه أمام بشاعة الممارسات والقمع من آلة الحرب لجيش الاحتلال بدأ الكثيرون يفكرون في أعمال انتفاضة تلحق بالاحتلال ومواطنيه لخسائر، فحدثت عدة محاولات لمحاولات استشهادية، داخل حدود الكيان الصهيوني أي الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨، بعض هذه المحاولات حققت نجاحاً نسبياً بقتل البعض ولكنها في غالبيتها كانت ضعيفة، وتسببت بإصابات ولكنها بدأت تشبع أجواء من الخوف لدى المعتقلين وبشرت بالآليات من بعدها، في مرات عديدة تمكن بعض الشبان من التسلل إلى داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ بينادقهم الرشاشة حيث يبدأ بإطلاق النار على المتواجدين، في السوق في الشارع أو المحطة، فيقتل البعض ويصيب الكثيرين، ثم تتكاثر جولة قوات شرطة وأمن الحو وتقتله أو تعقله، وفي كل يوم تخرج الجماهير للحاشدة في تشييع جنائمين الشهداء وهي تزلز غضباً وتنادي بالنار والانتقام، وأن يدفع الحو ثمن جرقته.

قوات الاحتلال مستخدمة المروحيات والطائرات لكثرت من استهداف مواقع قوات الأمن والشرطة التابعة للسلطة، بحيث تخلق حولها في البداية، فيتم إخلالها فتقوم بتصفها وتسيرها وكأنها تريد أن توصل رسالة للسلطة بأنه سيتم تدميرها إذا استمرت الأمور على ما هي عليه.

شعرت السلطة بالخطر الذي سيلحق بها إن قصفت طائرات الاحتلال أحد السجون، التي يتواجد فيها معتقلون سياسيون من المعارضة فبدأت بالإفراج عن البعض، حيث أطلق سراح أخي حسن، وتم نقل الآخرين إلى مبان عامة مدنية غير معروفة حيث احتجزوا فيها مثلما حدث مع إبراهيم.

سقطت حكومة باراك وجرت انتخابات جديدة في إسرائيل، وصعد لسدة رئاسة الحكومة فيها "لرنيل شارون" الجزار المعروف، وبات واضعاً أن الأمور تتجه للتسعيد والتعقيد.

❦ ❦

الفصل الثلاثون

في الشهر الأول للانتفاضة الأقصى التي انفجرت إثر زبارة شارون للمسجد الأقصى في الثامن والعشرين من سبتمبر من العام ألفين أطلقت قوات الاحتلال على المتظاهرين الفلسطينيين في غزة والضفة قرابة مليون رصاصة، وفقاً للإحصائيات التي نشرها صحفيون إسرائيليون.

قادة حكومة الاحتلال سواء "يهود باراك" أو "رئيل شارون" الذي جاء بعده أعطوا الضوء الأخضر لقادتهم العسكريين لقصف الانتفاضة وكسرهما، وإخماد جذورها، وهؤلاء أعطوا الأمر لجنودهم لحصد المتظاهرين، وشعبنا لم يهزل ولم يتأخر ولم يتراجع، وتدافع الشباب لصدام قوات الاحتلال، وحمل أرواحهم على كفهم دون تفكير أو تردد.

لما أواج القمع والقتل والإرهاب المنظم لدولة الاحتلال وجيشها المجرم، ثارت حماسة الكثيرين من الأحرار من أبناء الشعب الفلسطيني على اختلاف معتقداتهم الأيدلوجية وأفكارهم السياسية وانتماءاتهم التنظيمية، فحملوا السلاح وقرروا اللوذ عن أرواح أبناء شعبهم في وجه إجرام دولة العصابات التي لطالما تشذقت بالشعارات من الديمقراطية وحقوق الإنسان. من فتح وحماس والجهاد والجبهات، جمع الجميع لهم الولد، وظلم المحتل المجرم، ليرفعوا البندقية ويبدلوا في تجريع للقاتل شيئاً من مرارة الكأس الذي أذاقه شعبنا في قطاع غزة وفي رام الله وفي نابلس، وكل مدن وقرى الوطن.

بدأت تتجمع خلايا فدائية من الشباب، وتعمل لاقتصاص جنود الاحتلال ومستوطنيه وإيقاع الخسائر لدى الاحتلال في الأرواح، قوى الرقض لعملية أو سلو كانت لا تزال تعاني من الصربات التي وجهتها لها السلطة، فيل تفجير الانتفاضة، فلم يكن بإمكانها العمل القوي من البدلية، فبدأت العمل بصورة ضعيفة، ولكنها قابلة للتطور.

أما حركة فتح التي انتشر أفرادها في أجهزة السلطة، فقد امتلكت الشباب والسلاح والقدرة، وكان ينقصها القرار، وأخذ الإصرار على علقهم، فانطلقوا في طريق الكفاح المسلح ضد الاحتلال لغاصب المجرم من جديد.

تمهيد أبو خلاوة قام بقتل حارسين لفرع البنك الوطني في شرقي القدس، يوم الثلاثين من أكتوبر. وأعلن مسئولية كتائب شهداء الأقصى عن العملية، وبذلك أعلن الاسم الذي تبنته مجموعات حركة فتح التي بدأت العمل المسلح، حيث عملت كلها تقريباً تحت اسم كتائب شهداء الأقصى حسين عبيات فرضته قدراته وإقدامه ليصبح قائد للكتائب في منطقة بيت لحم وبيت جالا، وبدأ هو والعشرات من المقاتلين والمقاومين معه يطهرون النور من عيون جنود الاحتلال ومستوطنيه في المنطقة، وفي مستوطنة (جبلو) على أطراف القدس، حيث تم اغتياله في التاسع من نوفمبر من العام ألفين، وفي غزة تشكلت المجموعات الأولى من كتائب شهداء الأقصى، وبدأت بتنفيذ عملياتها ضد قوات الاحتلال ومستوطنيه، للجماهير الحاشدة التي كانت تخرج للشوارع في العديد من المناطق خاصة في تشييع جنائمين للشهداء، بدأت تهتك بحدة ضد رموز المرحلة السابقة التي انتهت بالتعاون مع إسرائيل والأمريكان، وانهارت هذه الجماهير مراراً على المراكز التي يحتجز فيها المجرمون من قوات المعارضة مطالبة بإطلاق سراحهم وأحياناً هزت هذه الجماهير الجدران وأسقطتها وفتحت للسجون وحررت من فيها.

أطلق سراح إبراهيم وإخوانه، والمئات من المجاهدين في غزة والضفة، الذين بدأوا على الفور يستعدون لأخذ دورهم في حماية الشعب الذي يتعرض لحرب قرصنة، شنها عليه جيش الاحتلال.

أحد هؤلاء المجاهدين حين أبلغه حراسه أنه سيتم إطلاق سراحه، لم يفعل ولم يسارع في تجهيز نفسه للمفارقة بل ظل جالساً لا يحرك ساكناً، فاستغربوا ذلك منه وسألوه عن السبب فقال: إنه لا يريد المفارقة، ويمكنهم إبقاؤه فترة أخرى، حملوه ووضعوا القيود بيديه ورجليه ووضعوه في السيارة التي انطلقت حتى مكان سكناه، فكوا قيوده ونفخوه لخارج السيارة.

اختلفاً بعودة إبراهيم من سجنه وتعلقت إسرائ وياسر بعنقه وهو يقبلهما ويلاعبهما وهما سعيدان بعودته، واهتم عدد كبير من أصحابه والجيران في البيت لاستقباله ولتهنئته على سلامته، فالتهمز الفرصة وبدأ يتحدث أمام الجميع عن أكتوبة السلام، التي سوقت على شعبنا والتي هدرت جهده وجهاده وتضحياته على مدار سنوات الانتفاضة الأولى، وما هو شريك سلام الأسس ينبع ليل نهار، ولا يراعي فينا رحمة ولا رافة. وعاد وأكد أن فكرة السلام مع المحتلين هي أكتوبة يتم تسويقها على شعبنا، وسيتم تسويقها بين الحين والآخر لخداع شعبنا عن طريق حريته وكرامته طريق المقاومة في لبنان حين أجبرت الاحتلال على الهروب من الجنوب اللبناني تحت وطأة ضرباتها.

لقد كان الاحتلال جاهزاً للهروب من غزة، وجاهزاً للهروب من الضفة عام ١٩٩٣، يوم أصتت المقاومة بضرباتها النوعية، وصرخ حينها الكثيرون من قائته أنهم سيفعلون ذلك، فجننا نحن الفلسطينيين ووضعنا لعدونا السلم لننزل عن شجرة جرائمه، وليس فقط لنا خلاصنا من ورطته وإنما تورطنا نحن في اتفاقيات، اعترفنا فيها بحقه على ثلاثة أرباع أرضنا وتورطنا في اتفاقيات للتسقيق والتعاون الأمني، فضربت المقاومة، واعتقل الشرفاء، وزجوا في السجون ومورس ضدهم القهر والتعذيب، ببساطة تحولنا إلى حماة لأمن الاحتلال، وماذا قبضنا نحن ذلك كله؟ رفضه الاعتراف بحقوقنا.

وحين تمسكنا نحن بها فتح علينا وعلى شعبنا جحيم آلة حربية فيها هو يحصد يومياً العشرات من الشهداء، ويجرح ويصيب للمئات، وما هي مروحياته الأمريكية نصب صواريخها على شرفاء شعبنا من كافة الفصائل، ممن رفضت عليهم نفوسهم الحرة الأبية للرضى والتسليم والانحناء أمام عريضة المحتلين.

هذه الأرض ليها الأخوة أرض مقدسة طاهرة مباركة قال الله فيها (سبحان الذي أسرى بعهده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله نفريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)^١ فهذه الأرض أرض الإسراء والمعراج لأرض مباركة، وهي أرض رباط وجهاد إلى يوم الدين، ولن يستطيع أحد أن يوقف ذلك حتى نتحقق آمالنا بحرن الله.

لجماهير العربية والإسلامية تقاعلت مع الواقع في فلسطين، وخرجت إلى الشوارع في عواصم أقطارها من الرباط إلى صنعاء إلى جاكارتا، الملايين خرجت للشوارع تهتف تأييداً للانتفاضة في فلسطين، وضد جرائم الاحتلال ومجازره وصوتها بهدر: خير خير يا يهود... جيش محمد سوف يعود، وهي تصرخ: الانتقام الانتقام... يا كذاب القسام.

شاب في مقتبل العمر ينزل من السيارة على شاطئ تل أبيب، يتقدم بخطى ثابتة، وترسم على شفتيه بسملة وثقة نحو منطقة الملاهي على شاطئ، في مطلع يونيو، ليجد جمعاً كبيراً من الشبان والشابات يكتظون أمام أحد للملاهي، فينسل بينهم بقية وهنوء، ويضغط على الزر الكهربائي بيده، فيدوي انفجار يصم الأذن ويعلو الصراخ والمويل، وتسارع سيارات الإسعاف ورجال الأمن والشرطة وخبراء المتفجرات، يُقتل للعشرات ويصاب آخرون.

^١ سورة الإسراء لية (١)

كنا نجلس نحن في غرفة أمي ونهم بالخروج إلى غرفتنا حين قطعت البرامج العادية في التلفاز وبدأ يبتث بثاً حياً من المكان، وبدلت نأني التصريحات المنددة والمستكرة والمدينة والشاجبة لهذه العملية الإرهابية في كافة الجهات. نظرت إلى إبراهيم وكأني أقول له: ما رأيك أنت في هذا فهم قصدي وقال: ألا ترون هذا العالم الظالم، شعبنا يُنبح على مدار ثمانية أشهر متصلة، وجيش الاحتلال يصب على رؤوسنا جهنم أسلحته، ويستخدم ضدنا ترسانة أسلحته المتطورة، طائراته ودباباته وكل أسلحته، والعالم في حالة من القسم واليكم، وعند أي عملية من طرفنا الطرف المظلوم المظلوم المقهور، الذي يطالب بحقه في الحد الأدنى من الحياة الحرة الكريمة تتعالى الأصوات حتى من أبناء أمتنا، وحتى من بعض أبناء شعبنا، تكند وتستكر، لكن كل هذا لا قيمة له، فهذه الملايين من الرباط حتى جاكارتا كانت منذ أيام تهدد في الشوارع مطالبة بهذا ألم يسمعا العالم؟ وهي تهتف الانتقام الانتقام يا كتائب القسام، فأني انتقام خير هذا أرادت جماهير أمتنا، وإذا كانت جماهير أمتنا تريد هذا، وهو حقاً في أن ندافع عن أنفسنا فما الضير في ذلك؟

في شهر يوليو حاولت قوات الاحتلال بمروحياتها وطائراتها ودباباتها وصواريخها الموجهة وقواتها الخاصة، وأساليبها الخبيثة باستخدام عملائها، القيام بخمس وتسعين عملية اغتيال في الضفة الغربية وقطاع غزة، وقد نجحت في حوالي ثمانين منها، حيث حصدت أرواح العشرات من ناشطي وكوادر الفصائل الفلسطينية المعروفة، قذائف صاروخية تخترق نوافذ ومكاتب مركز الدراسات الإسلامية في نابلس، التي تقع في بنائية كلها شقق سكنية، فهتل جمال سليم، وجمال منصور، ولريحة آخرين من العاملين في المركز، وتخرج الجماهير في نابلس وفي كل مدن وقرى ومخيمات الوطن تهتف مطالبة بالرد الرادع للاحتلال عن جرائمه، مئات الآلاف تصرخ بأعلى صوته الانتقام الانتقام يا كتائب القسام، أصوات عابرة تطالب بوضع حد لحرقم الاحتلال الذي بدأ يمارس سياسة واضحة أسماها قائده مرأً بوسيلة استبعاد الناشطين، بحيث يسمح للقوات المحتلة من خلالها باقتصاص أي ناشط فلسطيني من أي الفصائل، يتدرج اسمه في لائحة طويلة من المستهدفين، ومن يرد اسمه في أي من التحقيقات التي تجريها مخابرات الاحتلال أو يرد اسمه في أي تقرير يرفعه أحد العملاء.

صحفية شابة فلسطينية تتطلق إلى مدينة القدس تبحث عن هدف مناسب لعملية فدائية كبيرة، تجد أحد المطاعم المكتظة، في اليوم التالي وهي تحمل عبوة ناسفة أخفيت في إحدى الأدوات الموسيقية، ومن خلفها يسير أحد الشبان خالي اليدين كيلا تشك فيه قوات الأمن المنتشرة في كل مكان تحسباً من عمليات فدائية.

حين تصل بالقرب من المطعم، تخفف سرعتها وهو يزيد سرعته، يتناول منها العبوة ويدخل المطعم (سبارو) بعد دقائق معدودة من دخوله يفجر العبوة للناسفة فيدوي الانفجار عالياً وتتكاثر جثث القتلى من أبواب المطعم، ويرتفع الصراخ والحويل تسارع سيارات الإسعاف ورجال الأمن وخبراء المتفجرات، حيث قتل ما يزيد على خمسة عشر وأصيب العشرات.

إبراهيم وحسن ومعهما شاب ثالث عدنان، يعملون في ورشة الخراطة والبرادة التي يمتلكها حسن في منطقة عسقلية بغزة بهنوء، وفقاً لتوجيهات الشاب في إعداد هيكل قذيفة هاون، وإعداد مدفعها القاذف بعدما يحشونها بالمواد المتفجرة، وبالمواد الدافعة، ويضعونها في صندوق السيارة وينطلقون نحو الجنوب، حتى أطراف المنطقة السكنية، وينصبون المدفع ويلقون القذيفة فيه وهم يرددون بسم الله، الله أكبر، وما رحبت إذ رحبت ولكن الله رمى، ويهتدون وهم يلقون بأنفسهم أرضاً، اهتز المدفع مع صوت الانفجار. وتنفست القذيفة للسماء، ثم سقطت في مستوطنة نتساريم القريبة. تعانق المجاهدون الثلاثة، وهم يهتفون أنفسهم على النجاح، ثم طاروا عائدين إلى الورشة، حيث عكفوا على إعداد العشرات من القذائف ومن المدافع البسيطة الصنع بعد أن أعدوا المدفع الأول وخمسة قذائف حملها إبراهيم بسيارته، وطار بها نحو الشمال، هناك في مخيم جبالياً طرق باب إحدى الدور، فخرج له أحد الشبان، استقل السيارة معه، حيث أخذاه إلى أطراف المناطق السكنية شمالاً، نصب المدفع وأطلقا للقذيفة الأولى على مستوطنة (نتسانيت) ثم استقلا السيارة عاكفين، حيث أنزل إبراهيم الشاب والمدفع والقذائف الأربعة الأخرى، وعاد مسرعاً إلى الورشة، حيث حمل المدفع الجديد الذي تم تجميعه وخمس قذائف ووضعها في السيارة وانطلق إلى الجنوب، طرق باب إحدى الدور في مخيم خان يونس، خرج معه أحد الشبان إلى أطراف المخيم، نصب المدفع، ضربا للقذيفة الأولى، ثم عادا حيث نزل الشاب، وقد أخذ المدفع والقذائف الأخرى.

علا تهديد ووعيد قيادة الاحتلال على إطلاق قذائف الهاون على مستوطناتهم وارتفعت فرائص البعض ممن تصدروا الحياة السياسية في الضفة وغزة، وعلت أصوات بعض المتعقلين، تطالب بالتوقف عن هذه الألعاب التي لا تؤدي نفعاً وقد تجلب الضرر. كان إبراهيم وحسن يعكفون على تجهيز المزيد منها، وهم يسمعون الأخبار وتلك النداءات وهم يبتسمون، ويقول إبراهيم: عجباً لهؤلاء القوم ماذا يريدون؟ يريدون أن تقتلنا قوت الاحتلال ولا تفعل شيئاً سوى الحويل، ورفع أرايات للبيضاء واستجداء الرحمة من الجزر الذي لا يعرف الرحمة.

اعملا ليها الحبيبان اعملا، فهذا جهاد جهاد... نصر أو استشهاد، يجب أن نصنع السلاح على بمباطئته، ويجب أن نسعى لتطويره، في كل يوم لافزاد قدرته التكميلية، ولفزاد مداه ونضرب به العدو الذي يمتلك كل تلك القدرات العسكرية، وعلى رغم بساطة سلاحنا، وقلة حيلنا فنخلق بعون الله معادلة جديدة في الصراع، سنخلق توازناً في علمية الرعب والردع يقصفوننا فنقصفهم، ورضي الله عن عمر بن الخطاب إذ قال: والله لو لم أجد إلا للذر لحاربهم به، ونحن والحمد لله لدينا الكثير مما هو أفضل من الذر، ويجب أن نحاربهم بكل ما نملك، ويجب أن نسعى لتطوير تلك القدرات دوماً، فنحن في بداية الطريق، لتلك المعركة التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي ورد في الصحيحين: ﴿لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقَاتِلُوا فِيهِمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَأَيْتُ تَعَالَيَ قَاتِلَهُ﴾ هذا يوم آت وهو قريب إن شاء الله.

لبر علي مصطفى العسكري العام للجهة الشعبية، ينزل من سيارته ويصعد درجات السلم إلى مكتبه في تلك البناية في مدينة رام الله، بعد دقائق من جلوسه على كرسي مكتبه، تقرب طائرة الأباتشي وتصبوب نيرانها نحو المبنى، وتصف المكتب، وترفع صحبات احتجاج خجول على استحياء كيف تستهدف قوات الاحتلال شخصية سياسية وقائداً فلسطيني والعالم المتحضر يغمض عينيه ويصم أذنيه.

بعد أسابيع شابان بقضبان أسبوعاً في فندق حياة في القدس، حيث يقوم أحياناً الوزير "رحبعام زئيفي" اليهودي المتطرف الذي يدعو لترحيل الفلسطينيين، والذي كان جنرالاً في جيش الاحتلال، وشغل منصب رئيس الحكومة لمكافحة ما أسماه الإرهاب الفلسطيني، في الموعد المحدد لخروجه من غرفته، بعيد الساعة السابعة بقليل يقاتله أحد الشبان يناديه باسمه فيلتفت إليه لتتقي العيون للحظة، ويتطلق من مسدس ذلك الشاب رصاصات تردي ذلك المجرم قتلاً وينطلق الشبان إلى سيارة في مرأب الفندق حيث يتطلقان بها ليفقدوا المكان، وخلال دقائق تغلب الدنيا في الفندق وحوله، رأساً على عقب، حكومة الاحتلال تتهدد وتتوعد، فتعلو الأصوات في الجانب الفلسطيني لوقف المقاومة، لوقف العمليات الاستشهادية، ووقف إطلاق قذائف الهاون. يبتسم إبراهيم وهو يسمع تلك الأصوات والنداءات قاتلاً: هذا لن يطول... هذا لن يطول فالاحتلال لن يسمح لنا بذلك، سيواصل هجره وليس أماناً إلا خبار الركوع والتنازل عن كامل حقوقنا حينها قد يتوقف العدوان.

فحاكمنا وجلدنا ذات الاحتلال، ولأننا لا يمكن أن نقبل الركوع، والقتال عن كامل حقوقنا، ولأن عدونا لا يمكن أن يقبلنا إلا إذا فعلنا ذلك، فإن هذا لن يطول فسيحاول عدونا الضغط علينا للقتال وبالطبع فإن ننتازل فسيحاول ممارسة القتل، والعدوان فلنا منه أننا سنتنازل لذا يجب أن نواصل، الإعداء والاستعداد لها با حسن لها.

ينطلق إبراهيم وحسن وشباب الثالث عدنان بالمسيارة إلى خان يونس هناك يلتقون بأحد للمجاهدين ويذهبون معه إلى ورشة للخراطة والبرادة في شارع جلال حيث يمكنهم على إعداد القذائف والمدافع، وهم يوضحون لصاحب الورشة والمجاهد الآخر طريقة العمل، ثم ينتقلون إلى ورشة أخرى يدربون صاحبها ثم إلى رابع وخامس.

شاب من كتائب شهداء الأقصى ينزل من إحدى السيارات، وسط تل أبيب ويبدء حقيبة، يقدم بغطى ثلثة، نحو إحدى صالات الأفراح حيث تمثلي بالمستلزم بفتح الحقيبة ويخرج منها بندقية كلاشينكوف وعدة خزانات من الرصاص، وعدة قنابل يدوية، يقترب أكثر ويبدأ بإطلاق النار وإلقاء القنابل، ثم إطلاق المزيد من النار، حتى تأتي قوت كبيرة من جيش الاحتلال، وتشبك معه وترتفع روحه إلى السماوات للملاء بعد أن قتل وجرح العشرات منهم.

طائرات جيش الاحتلال المتطورة تقصف للمجاهدين والفلسطينيين، والشبان الفلسطينيين على امتداد الوطن، وآلة حرب الاحتلال تعصد الأرواح دون اعتبار، وجنوده يعربدون من وراء التبابات الثقيلة والمروحيات والأسلحة الحديثة والجرافات الضخمة تلثم كل ما تجده في طريقها من بيوت وورشات ومزارع، ومجاهدين وفدائيين للشعب الفلسطيني يعكفون على تحضير المتفجرات من المواد الأولية من الأسمدة وبعض المواد يصنعون منها الأخرمة ويضعونها على أحزماتهم وخواصرهم، وينطلقون إلى عمق العدو الفاشم، لينيقوه الكأس الذي يشربون لشعبنا ليل نهار، تكاثفت العمليات وسط المدن الكبرى في القدس، في تل أبيب، في حيفا، في נתانيا، في أسدود، وسماء العرب والهلع على قلوب المحتلين، فشوارع خالية إلا من عجوز أو شاب بحث الخطي ليقضي غرضه سريعاً، المقاهي خالية تماماً، المطاعم لا يقترب منها أحد، المواصلات العتمة والحافلات فارغة، قليلاً ما يصعد إليها شخص واحد أو شخصان مع السائق.

في وسط تل أبيب والقسم الغربية بدأت تجد أكياس الرمل قد رصت أمام الأبواب والمحلات التجارية على ارتفاع يزيد عن المتر ونصف، مثل المواقع العسكرية والتكتلات. آلاف الجنود في كل مكان، والجنود ورجال الشرطة أكثر بعشرات الأضعاف من المدنيين وكل يوم أو عدة أيام توضع الحواجز والمتاريس، حيث يبدؤون بفحص السيارات ومن تحمل، فقد وصلهم خبر عن تحذيرات من عمليات في الطريق، فتصطف السيارات في طوابير لا نهاية لها، وتتعلل الحياة على أبواب المحلات، ومئات المحلات تجد باقطة معطلة تعلن أنه معروض للبيع أو أنه مغلق حتى إشعار آخر، فقد تهاوت الحياة الاقتصادية.

كذلك وطائرات الأباتشي تغتال شخصاً جديداً ثم تغتال شخصاً جديداً، وتخرج الجماهير عشرات الآلاف تجري نحو الهدف الذي تم قصفه، لتحاول إنقاذ المصابين إن بقي فيهم حياة، وهي تصرخ هاتفة مطالبة بالرد وبثأيب الاحتلال الغاشم. إبراهيم وحسن وعثمان يجلسون وأمامهم مخططات لصواريخ مداها أطول في قذائف الهاون يسأل إبراهيم عدنان هل بإمكانه من الناحية الفنية في ورشته تنفيذ المخططات بدقة مرة ثانية وثالثة ثم يهز رأسه بالموافقة، فيقفزون إلى العمل ثم يعملون ما أصدوا في السيارة، وينطلقون إلى بلدة بيت حانون، حيث ينصبون الصواريخ ويشتعلون للقتل أسفه وينتعدون قليلاً وهم يدعون الله للتوفيق، وبعد ثوانٍ فينطلق مزجراً ويحتار الحدود، يتعاقب المجاهدون الثلاثة ويعودون مسرعين لتحضير وصناعة المزيد ولتنظيم الآخرين في المناطق الأخرى.

وتبدأ صواريخ القسم وغيرها بالانطلاق بالمشركات رداً على هذه الجريمة أو تلك، تعلق بعض الأصوات مرتدة من ردة فعل الاحتلال الذي بدأ يهدد ويتوعد، يتسم إبراهيم قائلاً: وماذا يمكنهم أن يفعلوا أكثر مما فعلوا، الآن الاغتيالات والاجتياحات والقصف والقتل والدمار، عليهم الآن أن يبنوا من جديد، ليجنوا ما يهدمونه، مرة أخرى يقول عدنان: ألا ترى أنهم يراهنون على أن الناس تعبوا وأن الشعب يريد أن يرنح، فقد أزهقه للثمن الباهظ الذي دفعه، يتسم إبراهيم وهو يقول: من الذي تعب؟ ومن الذي أزهق؟ أنت أم أنا، أمهاتنا ونسائنا الذين يدفعون الثمن من أرواح أبنائهم ومن بيوتهم ومن أغلى ما يملكون، لم ينطق أحدهم بكلمة تدل على التعب ألم تر في كل مرة إن أم الشهيد تهتف أنها مستعدة للتضحية بإخوته الآخرين في سبيل القدس والأقصى.

وأما من يصيحون أن شعبنا تعب فهم حفنة من أصحاب المصالح السياسية أو الاقتصادية، حفنة قليلة، أما الشعب الصابر فهو مستعد للتضحية بكل غالٍ وثمين من أجل عزته وكرامته ومقدراته.

شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره يلبس زياً عسكرياً مرقطاً، ويضع على رأسه قبعة خضراء مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله، كقائب الشهيد عز الدين القسام يحمل بندقيته، ويملق على وسطه عدداً من القنابل اليدوية، فينزل من السيارة، ويدفع باب در "أبو نضال" في الشجاعة، داخلاً لوسط الدار، فتقفز أم نضال قاتلة: ولدي الحبيب محمد ما هذا يا ولدي؟ بيتسم الفتى قاتلاً: سأذهب في عملية استشهادية يا أماء، نصمت الأم للحظات، فيقول محمد هل تذكرين يا أماء هذه الزيتونة؟ ويشير إلى الزيتونة التي استشهد تحتها عمك قبل سنوات هل تذكرينها يا أماء؟ هل تذكرين عماداً؟ وهل تذكرين كم أحببنا نمرها لأنه لمتزوج يروح عماداً؟ هل تذكرين كيف ربيتونا على حب فلسطين والقدس والجهاد والتضحية؟ الآن جاء الموعد يا أماء، فلقد رأيت نفسي أفتح عليهم موقعهم، أنقلهم كالنعاج ثم استشهد، ورأيتني بين يدي رسول الله ﷺ في جنات النعيم، وهو يهتف بي مرحي بك يا محمد مرحي بك.

ترفرق الدمع في عيني الأم، ومدت يدها إلى طرف منديلها تلمح سمعها قبل أن يتحدر على وجنتيها، وهي تقول: وفقك الله يا ولدي، وفقك الله وسدد مراميك، ثم احتضنته وقبله وتقبل يديه ورأسه وبندقيته، وهي تواسيه إذا فلتعت فلا تتردد ولا تلتفت للوراء يا ولدي ولا يأخذك بهم رافة في دين الله يا حبيبي، وإلى اللقاء في جنة الخلد عند الحبيب المصطفى ﷺ إلى اللقاء يا فلذة كبدي ومهجة فؤادي إلى اللقاء، يقبل محمد رأسها ثم ينحني يقبل يدها، وينطلق وهو يقول ابقي الهاتف للنقال (البلفون) مفتوحاً إلى جوارك فسأودعك الوداع الأخير من هناك وينطلق وتجلس أم نضال على سجادة صلاتها، تدعو الله من أعماق قلبها لولدها بالتوفيق والقبول.

يجتاز محمد الأسلاك للشائكة حول مسنوطنة عتصيون، ويزحف متقدماً نحو المعبد الديني العسكري فيها يفتح جهاز اتصاله ويضغط على أحد أزراره، فتلتفت أم نضال للجهاز من جوارها، قاتلة إنها هنا يا مهجة الفؤاد، فيأتيها صوته هائلاً واثقاً، أنا هنا يا أماء، لقد وصلت هدفي يا غالية، وداعاً يا أماء وإلى اللقاء في جنات النعيم، وداعاً يا حبيبي، سأبقى الجهاز مفتوحاً لتسمعي صوت المعركة، يضع الجهاز على حزامه مفتوحاً، ويتقدم مقتحماً المبنى، وهو يصرخ الله أكبر خرجت خير، وبقلي بقنابله ولحده تلوا الأخرى، ثم يقتحم الباب للقاعة الرئيسية وهو يطلق الرصاص، ولم نضال تتسم وهي

تسمع الصوت: اللهم سدد رميه لرم هانت للرأسى وأن رموك لا يخيب يا رب العالمين، ويبدأ تبادل إطلاق النار مع القوات التي هزعت للمكان ويسقط محمد وهو يردد أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله فتصدع زغرودة أم محمد وهي تقول الحمد لله الذي شرفني باستشهاده، وأسأل الله أن يجمعني به في مستقر رحمته.

يجتمع الناس وتسللها إحدى جاراتها، ودعته وأنت تعرفين أنه ذاهب للموت، فتقول والله إنه لأحب إلي من الدنيا وما فيها، ولكنه يهون في سبيل الله وفي سبيل لقنص والأقصى والله أنني مستعدة أن أضحي بنضال وحسام ورواد في سبيل الله ومن أجل عزة شعبنا وكرامة أمتنا، وبني لأطمع أن يمن الله علينا برحمته، فجمعنا جميعاً في مقد صدق عنده في حضرة الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

نق جرس هاتفي النقال، فرفعته إلى أذني فإذا بصوت إبراهيم يأتي من الطرف الآخر: هلو أحمد للسلام عليكم، هتفت بلهفة إبراهيم وعظيكم للسلام ورحمة الله وبركاته، أين أنت يا رجل منذ وقت لم أرك، مشتاق إليك ولذلك اتصلت بك، كيف حالك وكيف حال الأهل عندك؟ أبلغ الجميع سلاماتي، ولا يغورك أن تقبل إسراء وباسر عني. سألت: أين تأتي لرويتهم؟ منذ وقت لم يروك، فرد لا أدري ساهول ولكنك تعرف كم أنا منشغل، سألت ما هي أخبارك يا إبراهيم؟ ضحك وقال: أعلم يا أحمد لقد رأيت الليلة رؤيا كقلق الفجر، رأيتني أقرأ أحاديث لرسول الله ﷺ منها عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتلته، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود ﷺ.

ومنها عن عبد الله بن حوالة قال رسول الله ﷺ ستجندون أجناداً، جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن، قال عبد الله فقلت وقلت مرني يا رسول الله، فقال عليك بالشام فمن أبي فليلحق بيمنه وليستق من غوره، فإن الله عز وجل قد تكفل لي بالشام وأهله ﷺ ومنها ﷺ لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، ليعوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، قالوا يا رسول الله وأين هم؟ قال ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس ﷺ.

وعن عبد الله بن حوالة أنه قال عليه السلام يا رسول الله اكتب لي بليداً أكون فيه، فلو علمت أنك تبقى لم اختر شيئاً على قريتك، قال عليك بالشام ثلاثاً، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم كراهيته للشام قال هل تدري ما يقول الله تعالى يقول يا شام يا شام يا شام، يدي عليك يا شام، أنت صفوتي من بلادِي، أدخل فيك خيرتي من عبادي أنت نعمتي، وموطني عذلي أنت الأندلس وإليك المحشر، ورأيت ليلة أسري بي عموماً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ فقلوا: نحمل عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام، وبينما أنا نائم رأيت كتاباً اختلص من تحت وسادتي، فظننت أن الله تخلى عن أهل الأرض، فاتبعت بصري فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام فعن أبي أن يلحق بالشام فليلحق بيمنه، وليستق من شوره فإن الله قد تكفل بالشام وأهله عليه السلام.

ثم رأيتني يا أحمد صائماً ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لي بطارك عذنا ليوم يا إبراهيم، فلما في انتظارك، صرخت هل معنى ذلك... فاطعني لا تصرخ يا أحمد لا تصرخ، أنا أخذ لكسي لعتباطتي، لكن هذه دعوة لا ترد، مع السلامة يا أحمد، وأغلق الجهاز.

تسمرت مكاني لوهلة وتفرقت الدمع في عيني، فقد تأكدت أنها كلمات الوداع ثم انطلقت أصعد السلام إلى الطابق الثاني، فإذا بمریم تنظر إلي وهي تبسم قلت هل تحدث معك، ابتسمت وقالت: نعم، ولكن في رؤيا في المنام لقد ودعني يا أحمد وداعاً لن أنساها ما حبيت، وأوصاني على إسراء وبأسر.

كنت تبسم والدمع يتفرق من عيني أنا واحطرت الدموع على وجنتي سلخنة وهي تبسم وتقول: تبكي أيها الأبله ماذا دهالك...؟! آجاء صوت الانفجار عالياً حين قصفت طائرة الأباتشي السيارة التي كان إبراهيم يستقلها، شعرت أن قلبي قد توقف عن النبض هضمت جارباً.

آلاف اندفعوا نحو السيارة التي قصفت وسمعت البعض يرددون أن هذا إبراهيم الصالح، جمعت أشلاء إبراهيم وحملتها على إحدى الحمالات واندفعت للجماهير كبحر هائج حول جثمان الشهيد نحو الدار، عند باب الدار، وقفت مریم وهي تلف منديلها حول رأسها لتغطي شعرها والبسمة لا تفادر شفيتها وزخرونتها تظفر على صوت الحشد الهائل، إلى يمينها يسار وإلى يسارها إسراء ورأس أبي بطل من ورائها وهي تمسح بمعيتها بطرف منديلها.

وصلت الباب في نفس اللحظة التي خرج فيها محمود من الدار، حملت ياسر على كتفي وحمل محمود إسرائي على كتفيه ومدت يدي لمريم ومد محمود يده فلذا بها تناول كل واحد منا بتدقبة كلاشينكوف، تناولنا البنزيتين، ورفعناهما فوق الرؤوس وانطلقنا والجماهير من ورائنا تهدد خير خير يا يهود... جيش محمد سوف يعود، بسم الله الله تكبر... بسم الله قد حلفت خير بالروح بالدم نفديك يا شهيد... بالروح بالدم نفديك يا فلسطين... عالقن راحيين... شهداء بالملايين، ومن شوارع جانبية خرج الآلاف من الملتزمين من كتائب الشهيد عز الدين القسام بلباسهم المعروف بصطفون في صفوف لا نهاية لها، يرفعون الرايات الخضراء، ومن كتائب شهداء الأقصى بلباسهم المعروف بصطفون في صفوف لا نهاية لها ويرفعون الرايات الصفراء ومن كتائب سرابا القنص يرفعون الرايات السوداء، وغيرهم يحملون أسلحتهم، يلوحون بها في الهواء، أسلحة من أنواع شتى في وداع الشهيد كنت أمز بتدقيتي وأمسك ياسر باليد الأخرى وهو على كتفي، وصور ومواقف كلمت إبراهيم لا تفارق ذهني خاصة تلك الكلمات الأخيرة التي حدثني بها.

**انتحر في ديسمبر ٢٠٠٤ سجن بكر السبع، ايشل فلسطين،
انتحرت هذه الرواية في زنازين سجن بكر السبع واكتملت
بفصلها الثلاثين ولكن لا زالت مأساة كاتبها ووفاته مستمرة
في أقبية سجون الاحتلال.**

❦ ❦

الموضوع	الصفحة
الكتاب والكاتب	١
المقدمة	٢
الفصل الأول	٣
الفصل الثاني	١١
الفصل الثالث	٢٠
الفصل الرابع	٢٨
الفصل الخامس	٣٦
الفصل السادس	٤٣
الفصل السابع	٥٠
الفصل الثامن	٦١
الفصل التاسع	٧١
الفصل العاشر	٧٩

الصفحة	الموضوع
٩٠	الفصل الحادي عشر
١٠٢	الفصل الثاني عشر
١١٤	الفصل الثالث عشر
١٢٣	الفصل الرابع عشر
١٣٥	الفصل الخامس عشر
١٤٧	الفصل السادس عشر
١٦٠	الفصل السابع عشر
١٧٢	الفصل الثامن عشر
١٨٣	الفصل التاسع عشر
١٩٥	الفصل العشرون

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادي والعشرين	٢٠٩
الفصل الثاني والعشرين	٢٢٤
الفصل الثالث والعشرين	٢٣٨
الفصل الرابع والعشرين	٢٥٠
الفصل الخامس والعشرين	٢٦٣
الفصل السادس والعشرين	٢٧٥
الفصل السابع والعشرين	٢٨٦
الفصل الثامن والعشرين	٢٩٩
الفصل التاسع والعشرين	٣١٢
الفصل الثلاثون	٣٢٤

